الرِّحلةُ إلى الذّاتِ

٣

عصرُنا والعيشُ في زمانه الصّعب

بقلم

أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم
دمشق

عصرنا

والعيش في زمانه الصعب

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الرّحلة إلى الذّات

(٣)

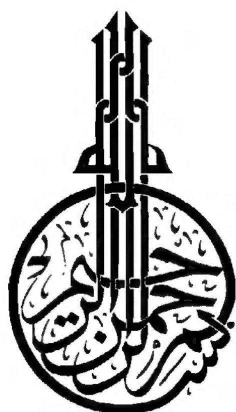
عصرنا والعيش في زمانه الصّعب

بقلم

أ. د. عبد الكريم بكّار

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت



مقـدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسـلام على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد كان هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ مكوناً من خمسة أجزاء، حيث تحدثت في الجزء الأول منها عن عصرنا: أوضاعه وملامحه. وتحدثت في الأجزاء الأربعة الباقية عن العيش فيه والصعوبات التي يواجهها المسلم الملتزم بالقيام بأمر الله ـ تعالى ـ في ظل ظروف وأوضاع كثيراً ما تكون غير مواتية. وقد تناولت في الأجزاء الأربعة ما يحتاجه العيش في زماننا الصعب من وعي عميق للواقع، وما يحتاجه هذا الواقع من تطوير وتحسين للأبعاد العقلية والنفسية والجسمية والاجتماعية، بالإضافة إلى تحسين إدارة شؤون العيش.

وقد اقترح علينا الكثير من الإخوة أن نجعل الأجزاء الخمسة في كتاب واحد، حيث إنه ليس من المألوف في (كتاب الجيب) أن يكون ذا أجزاء متعددة. وقد كانت هذه الملاحظة في محلها؛ ولذا فقد اتفق رأيـي مع رأي الناشر الأستاذ محمد علي دولة على أن تخرج الطبعة الثانية للكتاب على النحو الذي بين يدي القارئ.

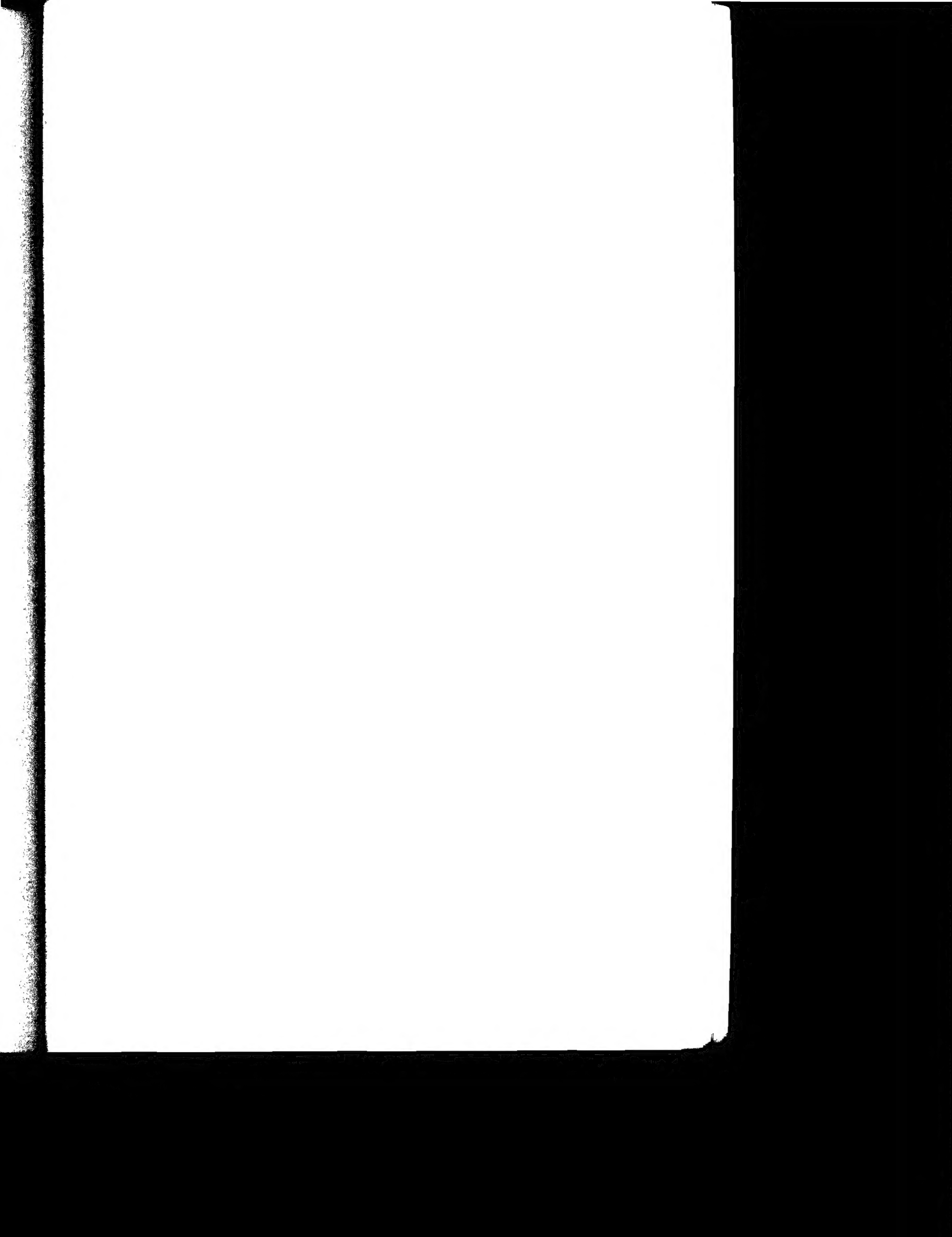
وإني أود أن أشكر كل أولئك الذين زكّوا هذا العمل وحثوا على قراءته. وأسأل الله تعالى أن يوفقنا لما هو خير وأبقى. وصلّى الله وسلّم على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

أ.د.عبد الكريم بكّار

السعودية ـ أبها، ص. ب ١١٨٣



الباب الأوّل

عصرنا

ملامحه وأوضاعه



الفصل الأول

هل يعيش العالم عصراً واحداً ؟

إن عنوان هذا الباب، يثير لدى كثير من الناس سؤالاً كبيراً، هو : **كيف يمكن القول: إن الناس في الأرض يعيشون عصراً واحداً مع تباين معتقداتهم ونظمهم السياسية والاجتماعية، ومع الاختلاف الكبير في مستوى ما وصلوا إليه من التقدم التقني والحضاري عامة؟** .

وهذا السؤال وجيه حقاً؛ فقد كان الناس في القرون الغابرة، يعيشون في عوالم وعصور مختلفة؛ فالعصور الوسطى ـ على سبيل المثال ـ تمثل حقبة زاهية بالنسبة إلى المسلمين؛ لكنها بالنسبة إلى أوروبا، فقد كانت عصور ظلام وتخلف هائل. وقد كان ذلك هو الشيء الطبيعي، فصعوبة المواصلات والاتصالات، وقلة البعثات العلمية الجوالة بين الأمم، وقلة السلع التي يتبادلها التجار، وتقارب مستويات العيش بين الشعوب المختلفة ـ كذلك التقارب الذي كان في الأسلحة وأدوات القتال ـ كل تلك العوامل، وعوامل أخرى لم توفِّر إمكانات جيدة، ولا مغريات قوية لجعل أمم الأرض تتزامن في أفكارها ونظمها وأساليب عيشها . . .

لكن النصف الأخير من هذا القرن، قد شهد انقلاباً خطيراً في كل شيء، وكان أشد تطوراته خطورة ما يسمى اليوم بثورة الاتصالات والمواصلات؛ حيث يشاهد الناس في أقصى المشرق الآن الحدثَ أثناء وقوعه في أقصى المغرب، بل إن من المألوف اليوم أن يتلقف أهل مدينة في قُطرٍ ما أخبار ما يحدث في بعض أحياء

مدينتهم عن وكالات أنباء، ومصادر معلوماتية، تبعد عنهم آلاف الأميال[1].

لا نعني بما نقوله أن البشر صاروا عجينة واحدة، مصبوبة في قالب واحد، فهذا غير ممكن لأنه مُنافٍ لسنّة الاختلاف التي بثها الله ـ تعالى ـ في هذا الكون: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

ولكن المقصود أن فكرة وجود عالم أول وثان وثالث التي هيمنت مدة طويلة من الزمن، لم تعد موجودة الآن، فعلى الأرض اليوم عالم واحد فقط؛ وإطلاق كلمات مثل (العالم الإسلامي) و(العالم الغربي) لا يُراد منه سوى التمييز بين بقع وأماكن جغرافية وسوى الدلالة على تباين عَقَدي ومصلحي.

ولا نعني ـ بالطبع ـ بواحدية العالم أننا نعيش عصراً واحداً في النظم السياسية ومستويات العيش؛ حيث إن هناك تفاوتاً كبيراً في واقع الأمر بين بلد مثل الصومال أو أوغندا وبين بلد مثل فرنسا أو اليابان... وإنما نعني أن هناك أفكاراً وقيماً وأساليب وآمالاً وطموحات تهيمن على معظم شعوب الأرض، ونفوذها آخذة في الاتساع يوماً بعد يوم.

شعوب الأرض تنقسم اليوم إلى قسمين: قسم ينتج ويحقق كثيراً من مبادئ هذا الزمان في حياته اليومية، وقسم يستهلك، ويتمنى أن يصبح عصرياً، ويخطط لذلك.

إذا تساءلنا: هل هناك شعب في الأرض لا يرى في المؤسسات التعليمية والتربوية والمهنية والتقنية وسيلة، لا بديل عنها للتقدم في مدارج التحضُّر؟.

هل هناك شعب لا يتطلع إلى أن تتوفر له إمدادات المياه والكهرباء، وخطوط الهاتف، والطرق المعبَّدة، وقنوات الصرف الصحي، والخدمات البلدية المختلفة؟.

---

(١) أثناء حرب الخليج الثانية كان سكان الكويت يسألون أبناءهم في (أمريكا) عما يحدث داخل بلادهم!.

هل هنـاك شعب لا يتطلع إلى أن يؤسـس في حيـاته علاقات قائمة على نيل الحقوق وأداء الواجبات، إلى جانب بنـاء حياة تسـودها الاستقامة الإداريـة وتكافؤ الفرص ومحاصرة الفساد والرشوة والتَّسيُّب؟ .

هل هناك شعب لا يتطلع إلى تحقيق ولايته على نفسه عبر مؤسسات شعبيّة ورسميّـة، تمثل حقوقه، وتنافح عن قضاياه، وتتحسس مشكلاته؟ .

هل هناك شعب لا يرنو إلى أن يساهم في الحضارة الحديثة بغزارة وكفاءة من خـلال العطاء الثقافي والمادي، ومن خـلال التفـوّق العلمي والتقني؟

أعتقد أن الجواب على كل هذه الأسئلة وما شابهها هو (لا) .

ولا يعني كل هذا بالطبع تسـاوي درجات التطلّع لدى أبنـاء الشـعوب ولا تساوي درجات الوعي بهذه المطالب، لكن لا خلاف ـ فيما أظن ـ أن كل ما ذكرناه يعد مطالب ملحّة لكل الأمم، ومعظم أفراد الناس، ومن نال حظاً من ذلك طالب بالمزيد المزيد؛ لأن الحصول على شيء من تلك المطالب هو نفسه الذي يحفز على العمل لنيل المزيد منها .

هذه المطالب الأمميـة، تسـتدعي درجـة ما من التوحّد في عدد، لا يكاد يحصى من البنى الفكريـة والنظم السياسية والإدارية والأساليب التنفيذية، مما يكسو الناس في هذا الزمان حلية (المعاصرة) في جوانب الحياة المختلفة . هنا نصير إلى السؤال الثاني : **عصر من يعيش العالم اليوم؟**

لا ينبغي أن نختلف أن الدول والشعوب التي تنتج القيم المعاصرة، ونظم تحقيقها ووسـائله هي الأمم التي تترك أقوى البصمات على العصر الذي نعيش فيه، من خلال ما تضعه من شروط ومواصفات للعيش والارتقاء الحضاري، ومن خلال الهيمنـة الأدبيـة والماديـة التي تمكنها من الحراك الدولي والاستفادة من ضعف الضعفاء وجهل الجهلاء واحتراب الخصوم والأعداء . . .

في الحديث الصحيح : «لتتبعُنّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً شبراً وذراعاً ذراعاً حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ تبعتموهم . قلنـا : يا رسـول الله اليهـود والنصارى؟

قال: فمن»؟. إن السير خلف الآخرين خطوة خطوة، حتى لو دخلوا مداخل ضيقة ومهلكة، وعملوا أعمالاً لا خير فيها، ولا معنى لها ـ لم يتحقق في عصر من العصور كتحققه في هذا العصر. إن الحديث يشير إلى أمم تقود، وشعوب تتبع، والذي ينظر اليوم في نهم الشعوب الضعيفة إلى استيراد كل شيء من الدول التي تقود الحضارة؛ ما هو نافع وما هو ضار ـ على حدٍّ سواء ـ يتأكد له دقة التشبيه بدخول جحر الضب!.

على مقدار ما تسهم الشعوب المقودة في إنتاج قيم ونظم وأدوات، تسهّل الحياة، وتحل المشكلات ـ تترك بصماتها على العصر الذي نعيش فيه، وتبلِّغ رسالتها ورؤيتها في الحياة.

إن من الثابت أن قدرة بني البشر على التمييز بين الجيد والرديء، ليست قوية، كما أن قدرتهم على مناقشة الأفكار وتمحيصها أيضاً محدودة؛ ولذا فإن أي فكر أو نظام يحظى بدعاية مناسبة، ويتمكن من الوصول إلى الآخرين، سيجد له أنصاراً ومؤيدين وأتباعاً.

ومشكلة الأمم الضعيفة لا تقتصر اليوم على ضعف إنتاجها الحضاري، وإنما تتجاوز ذلك إلى معاناتها من العجز عن عرض ما لديها من قيم وخبرات ونظم، وتسويقه في بلاد الأمم المتقدمة المغرورة والمصابة بعقدة الأقوى والأكبر والأصلح...

نحن والغرب:

إن الذي يتأمل في الخلفيات الثقافية، والعوامل غير المرئية التي تشكِّل البنية الأعمق لتصوراتنا وسلوكاتنا ـ سيجد أن هناك تشابكاً ضخماً بين عدد، لا يكاد يحصى من أنواع المعطيات المكانية والزمانية، وأشكال التلاقي الأممي على الصعد المختلفة. ولطالما رأت الأمم أنفسها وإنجازاتها في مرايا جيرانها وحلفائها، كما رأتها في مرايا خصومها ومنافسيها؛ بل إنه يمكن القول:

إن وعي الأمم بما لديها، يظل غير مكتمل، ما لم يتوفر لها كيانات مناوئة،

تختلف عنها اختلافاً بيّناً، فتتمكن بذلك من المقارنة والموازنة والمحاكمة والنقد والمراجعة والتصحيح . . .

عند محاولة النظر في المرتكزات والأسس التي تشكل ملامح إحساسنا الحضاري، وتصوُّرنا عن التخلف والتقدم والنهوض ـ نجد أنها دائماً تتبلور عن طريق تداخلها مع ما يثمره الاتصال بـ (الغرب) باعتباره (الآخر) بالنسبة إلينا؛ فالمسلمون لا يأبهون كثيراً لما يقع في الصين أو اليابان أو روسيا، ولا لما يتم إنجازه هناك، باعتبار أن تلك الأمم ـ مهما كانت مغايرة لنا ـ تمثّل بالنسبة إلينا كيانات مغايرة أكثر من أن تكون منافسة، على حين يرون في أوروبا الغربية وحفيداتها من نحو أمريكا وكندا وأستراليا جهات مضادة ومناقضة.

في القرن السابع الميلادي كان يطفو على السطح تشاحن وخلاف بين النصارى حول طبيعة المسيح، وحول صلة اليهودية بالنصرانية، وعلاقة العقل بالإيمان، والفرد بالكنيسة . . . آنذاك بزغ فجر الإسلام؛ ليقدم رؤية شاملة للكون والحياة، وليكشف زيف الأوهام والظنون لدى الملل والنحل المختلفة؛ لا سيما النصرانية واليهودية. وخلال قرن من الزمان تمددت رقعة الإسلام الفكرية والجغرافية في مناطق، كانت تعدُّ معاقل أساسية للنصرانية، وكان ذلك يمثّل نقطة الاحتكاك الأولى بين الإسلام والنصرانية، الأول يصعد ويتقدّم ويبني، والثانية تتراجع، وتخسر أرضاً، كانت تعدّها مكاسب ثابتة.

في القرنين السادس والسابع الهجريين ـ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ـ تعاظم الاحتكاك والالتقاء بين الإسلام والنصرانية عبر محورين أساسيين: الأول هو المحور الفكري، حيث تأثر الأوروبيون تأثراً بالغاً بالفكر الحضاري الإسلامي عبر تعلُّم العربية، وعبر الترجمات من العربية إلى اللاتينية على الشاطئ الشمالي للبحر الأبيض المتوسط خاصة في أسبانيا وجنوب إيطاليا وصقلية . . .

أما المحور الثاني، فقد كان يتمثل في الحروب الصليبية التي بدأت قبل نهاية القرن الخامس، ولم تنتهِ إلا قُبيل انتهاء القرن السابع الهجري عندما تمَّ

تصفية النفوذ الصليبي في الشام. وكان يصاحب النصر العسكري الإسلامي نوع من الانبهار الغربي بالحضارة الإسلامية وتفوقها في المجالات التنظيمية والمدنية والصناعية. . .

بعد القرن السابع الهجري - الرابع عشر الميلادي - أخذ نجم العالم الإسلامي في الأفول، وأخذ نجم أوروبا في السطوع، حيث ابتلي المسلمون بخبو نار الاجتهاد إلى جانب ضعف الالتزام، والتفكك السياسي، وانتشار الجهل والفقر واجترار الذات، والتباس سبل النجاة والارتقاء. . .

أما الغرب فقد بدأ يستفيد مما أخذه عن المسلمين، وأضاف إليه الكثير من الإبداع والاختراع والاكتشاف. . وظل كل من الفريقين مشغولاً بذاته وهمومه إلى أن جاء القرن التاسع عشر، وبدأت حركة الاستعمار الحديثة، وحصل الالتقاء الأخير الذي ما زال يتعمق ويتمدد في أبعاد جديدة إلى يومنا هذا.

ويلاحظ أن مسار المسلمين ومسار الغربيين يشكلان خطين متداخلين على التبادل؛ فحين يكون المسلمون في القمة، يكون الغربيون في القاع. وإذا كان الغربيون في القمة كان المسلمون في القاعدة. عندما يكون المسلمون في طور الأستاذية، يكون الغربيون في طور التلمذة. وعندما يكون الغربيون في طور الأستاذية، يكون المسلمون في طور التلمذة. . .

من المهم لفهم العصر الذي يعيشه المسلم اليوم أن نعرف الصور المتبادلة بيننا وبين الغرب: ما هي الصورة المنطبعة في ذهن الغربيين عن المسلمين، وما هي الصور المنطبعة في ذهن المسلمين عن الغربيين؛ لأن تلك الصور، هي التي تحدد المواقف، وتغذي التوجهات الفكرية والتجديدات السلوكية لدى الطرفين؛ ولا سيما الطرف المسلم.

أما صورة الإسلام في ذهن الغربيين فهي صورة غامضة، يكتنفها الكثير من الجهل والتشويش؛ فعلى الرغم من الحروب الدامية التي شنّها الغرب على المسلمين في المنطقة العربية من آسيا، وفي الهند والبلقان وأفريقية، وعلى

الرغم من كل العلوم والمعارف الإسلامية التي كان قد نقلها إليه من قبل إلا أنه لم يكن يحفل أبداً بمعرفة كنه الإسـلام وجوهره ـ للأوضاع الفردية طبعاً شأن خاص ـ وكان المأمول من وراء حركة الاستشراق الهائلـة أن يتوفر للغرب معرفـة أفضل بالإسلام.

إلا أن الواقع هو أن قلة قليلة من المستشرقين استطاعت النفاذ إلى أعماق الموضوعات التي عالجوها وإقامـة دراسات أصيلـة وافية حولها عبر منهجيـة منطقية، مدركة لخفايا تلك الموضوعات ومشكلاتها. وإن النظر في ترجمات القرآن الكريم إلى لغات أوروبا المختلفة، يوقفنا على مدى ضحالة استيعابهم للطرح الفكري والحضاري للإسلام في الجوانب والمجالات المختلفة.

أما العامة وأشباه العامة في الغرب، فإن اعتقادهم بهامشية الشعوب النامية ـ والإسلامية خاصة ـ وألاّ فائدة تُرتجى من وراء معرفـة أحوالها ـ أدى إلى جهل عريـض بجغرافية العالم الإسلامي وتاريخه ودينه ومجمل شؤونه، مما هيّأهم على نحو فريد للوقـوع فريسة سـهلة في شباك رغبات كتّاب وصنّاع الروايات والأفلام ووسائل الإعلام، والتي رسـمت صورة قاتمة للشـرق عامة؛ فالشـرقي ذو نزوات مفاجئة غير مألوفة، كما أنه أسير الغضب الأعمى، فظ غليظ قاسٍ، وهو قبل ذلك سادر في الملذات، أسـير الشهوات، معربد بين القيان الحسـان والألحان والكؤوس والندمان!!.

الشـرق موطن السـحر والخرافات والأوهام، وظلام المعابد، وتعاويـذ الكهّان. وهو موطن النسل الوفير والكوارث الطبيعية من الفيضانات والزلازل التي تحصد الألوف. وهو لا يعرف حرية الأفراد، بل الظلم والجَوْر وأكل الحقوق. والبلدان الشرقية التي أحرزت بعض التقدم التقني، أحرزته بأموال الغرب ومنهجية الغرب وتقنية الغرب...

ويحظى العالم الإسلامي بنوع من الخصوصية في الصور الذهنية المنطبعة عنـه لدى الغربيين؛ فهو إلى جانب كل ما ذكرنـاه عن الشـرقيين، عالم دمـوي متطرف إرهابي أصولي... وحين سقط المعسكر الشيوعي، صار الغرب ينظر

إلى العالم الإسلامي على أنه العدو القادم الذي ينبغي أن تُرصد تحركاته وأوضاعه. وكلما أحرز المسلمون نوعاً من التقدم في اتجاه التمسك بالإسلام، ازداد خوف الغرب من العالم الإسلامي. والمتأمل يرى أن (الإسلام الأصولي) صار يحتل القمة فيما يشغل الإعلام العالمي، وصار جنرالات حلف الناتو، يضعون في حسبانهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالاً، لن تكون بين الشرق والغرب، وإنما بين الشمال والجنوب الذي يشغل المسلمون منه حيزاً مهماً.

إن الذي يغذّي هذه الصور، ويعيد تلميعها، هو رواسب الحروب الصليبية، وتنافر المصالح الكونية بين أغنياء الشمال وفقراء الجنوب، والتشويه الإعلامي المتعمد الذي تقف وراءه وسائل الإعلام الصهيونية والعنصرية، بالإضافة إلى سوء أحوال المسلمين في كثير من المجالات، وشناعة الأعمال غير المسؤولة التي تقوم بها فئات وجماعات ودول وأحزاب من التعذيب والقتل والاحتراب الداخلي، والخروج على القانون، وانتهاك الحرمات، وأكل الحقوق...

أضف إلى كل ذلك أن الغرب لا يستطيع أن يهضم، ويتفهم وضعية، لا ينفصل فيها الدين عن الدولة، كما لا يستطيع أن يستوعب منطقية دين تغطي أحكامه كل حياة البشر، وفي جميع أطوارها؛ فهو دائماً يفهم الدين على أنه شأن شخصي، وعلاقة خاصة بين العبد وربه؛ وهو بذلك ينطلق في نظرته للدين والتدين من خلال معرفته بالنصرانية، وبالكنيسة التي أجْلَتها العلمانية عن كل مواقعها، وحوَّلتها إلى مؤسسة تعنى بالخدمات الاجتماعية!

ولو أن الأمر اقتصر على ذلك لهان الخطب، لكن الكنيسة قد أصبحت تضفي المشروعية على بعض الأعمال والتصرفات التي لا يمكن لأي دين سماوي أن يقبل بها. وعلى سبيل المثال فإن الكنيسة الإنكليزية، قد أجازت عقد القران بين الرجال، وكانت الكنيسة الأمريكية أدخلت من قبل إلى أروقتها الرقص والموسيقى والغناء... ولذا فإن مقاييس الغرب للتدين، تدفعه نحو اعتبار كل

مسلم ـ مهما كانت درجة التزامه ـ أصولياً!.

لست أعتقد أن بإمكاننا أن نغيِّر الصورة القاتمة التي يحملها المواطن الغربي عن الإسلام والمسلمين، ما لم يتغير واقعنا، ونردم جزءاً من الهوة التي تفصلنا عن المضامين الأخلاقية والحضارية التي نؤمن ونعتز بها.

أما صورة الغرب في ذهنيّة المسلم فهي ـ بالطبع ـ ليست صورة واحدة. ويمكن القول: إن بعض المسلمين يغلب على حسِّه احتقار كل ما ينتمي إلى الحضارة الغربية، إلى جانب الاعتقاد بأن العالم الغربي يتآمر على المسلمين، وهو أكبر مصدر لشقائهم وتخلفهم...

لكن الشريحة العظمى من المسلمين ترى في الغرب نموذج التقدم والنهضة والحداثة والتغير الاجتماعي، كما أنه مهد العلم والاكتشاف والتطور الصناعي والتقني، إلى جانب أنه يقدم نموذجاً على الصعيد الإنساني، تُراعى فيه الحقوق، وتُحفظ فيه كرامة الإنسان، كما أنه نجح في تأسيس قوانين وأعراف تؤمن سهولة التداول للسلطة سلمياً...

وهذه الانطباعات تتعمق في أذهان المسلمين كل يوم، ولا سيما في البلدان التي يشعر فيها الناس بسوء الأحوال وانسداد الآفاق. لا يعني هذا أن هذه الشريحة لا تنتقد الإباحية وتفكك الأسرة والنزعة المادية المبالغ فيها لدى الغرب؛ فهذه الأمور وغيرها موضع نقد بالغ، لكن يغض الطَّرْف عنها في كثير من الأحيان انشغالاً بالإيجابيات التي تتناقلها وسائل الإعلام عن وكالات الأنباء الغربية.

بعض المثقفين في بلاد المسلمين، يحاولون على نحو مستمر تكوين الصور السابقة وتجديدها عبر طروحات ومقولات ومحكَّات عديدة. وبداية الخطأ ـ على المستوى الفكري والمعرفي ـ تنبع من النظر إلى تأزم الواقع الإسلامي على أنه صدى لتأزم الفكر الإسلامي، والثقافة الإسلامية، مع غض الطرف عن العلاقة الجدلية بينهما، وعن أن الصحيح أن تأزم الفكر كثيراً ما يكون ناتجاً عن تدهور الواقع المعيش، وعجزه عن حفز الفكر، كي يجدد بنيته ومقولاته، وطرق عمله.

وحين أُغلق باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري، لم يتم إغلاقه بقرار من أي جهة، وإنما أغلق لأن المجتمع لم يعد بحاجة إليه؛ فما كان متوفراً لديه من فكر ومعرفة لم يكن كافياً لتسيير دفة الحياة، والإجابة على تساؤلاتها فحسب، بل كان فائضاً عن الحاجة!

وواضح اليوم أن المزيد من طرح الأفكار والمزيد من النقد للعقل العربي والثقافة التقليدية، لا يصحبه تقدم حقيقي، وإنما المزيد من الشكوى من تدهور الأوضاع والأحوال. وأكثر الذين يحملون رايات الاحتجاج، هم من الفئة الأكثر اعتزازاً بالحضارة الغربية، والأكثر إلحاحاً على ضرورة تقليدها.

هذا الخطأ الأولي جعل كثيراً من مثقفينا، يبحث عن مخلِّص من الأزمة الحضارية التي نعاني منها، ووجد أن النموذج الذي يصلح لأن يكون مرجعاً في شؤون الحضارة، ينبغي أن يكون (مطلقاً) حتى يصبح محوراً ومقياساً، وقد وجدوا أن (العقل الثقافي) الغربي هو ذلك المطلق المنشود، وكل ما فيه ثوابت مطلقات.

وهم بذلك يحوِّلون عدداً ضخماً من الأفكار والمفاهيم والنظم إلى مفردات (أيدلوجية)، وفي ذلك خيانة واضحة لدستور العقلانية، وميثاق العقل نفسه. وهم في سبيل النجاح في عملهم ذاك، يبرزون أموراً في شأن المنافس الغربي، ويغيّبون أموراً أخرى: فالحاضر منه في أطروحاتهم هو الوجه (العاقل)، والغائب منه هو الوجه (المنفعل)؛ الحاضر هو الوجه (الفيلسوف)، والغائب هو الوجه (المتأدلج)؛ الحاضر هو المعيارية الثابتة عبر التاريخ، والغائب هو الذرائعية المتبدّلة عبر اقتضاءات المصلحة؛ الحاضر والمقبول منه هو (الآخر الاستراتيجي)، والغائب المسكوت عنه هو (الآخر التكتيكي).

يتجاهل كثير من مثقفينا المنهمكين في جرّنا إلى التماهي مع النموذج الحضاري الغربي ـ أن بزوغ كثير من النظريات المعرفية والاجتماعية والسياسية في الغرب ـ كان مقترناً بدخول الغرب في طور التوسع الاقتصادي والجغرافي، وغزو القارات، والاستيلاء على كل مكان (خالٍ من حضارة) ولا يمكن لكل ذلك

أن يكون وليد المصادفة.

ولما كان غزو الدول الأخرى ونهب خيراتها، يتناقض مع قيم الحرية والديموقراطية، ومجمل القيم التي بُنيت عليها فكرة الرقي البشري ـ فإن الغرب كان بحاجةٍ إلى تسويغٍ لأعماله تلك، وانبثق عن تلك الحاجة نزعة عميقة، تقول بتفاضلية الثقافات والمجتمعات والحضارات والأديان، وآلت تلك المقولة إلى نظرية (العقليات) التي ظلّت وكأنها القول الفصل إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وأصبح من المسلَّم به أن البشرية في تطورها التاريخي ومسيرتها الكونية نحو الحضارة، أصناف وأقسام متباعدة، وأن الحضارة الغربية تمثل خلاصة التطور الكوني المطلق، بيد أن المجموعات الأخرى، ما تزال (بدائية) تعيش طور التوحش والهمجية وشتى أوجه الانحلال والجهل والفقر والبؤس والتخلف...

لا أريد هنا أن أصوِّر الغرب على أنه مجموعة من الشرور، وأن جميع قيمه بالية، لا حاجة لأحد من الناس في شيء منها؛ فهذا مخالف للواقع، ومخالف لخُلُق الإنصاف الذي أُمرنا به؛ ولكني أود أن نفهم الأمور على ما هي عليه مفرِّقين بين الوجه والقناع، والقول والفعل. كما أود ألا يؤدي الوعي بالآخر إلى احتقار الذات، والصيرورة إلى العدمية والتشاؤمية... وإنما إلى تقويم ما لدينا، واكتشاف إيجابياته وسلبياته، والاستفادة من التجربة الحضارية العالمية، دون تجاهل للخصوصيات، ودون خلط بين التجديد الحضاري والتبعية للآخرين...
إننا نؤمن بتلاقي الحضارات وتلاقح الثقافات، ووجود مساحات واسعة للتعاون العالمي، كما نؤمن بالتسامح مع المخالفين، ولكن بشرط ألا يقابل تسامحنا بإنكار المخالف بحق الاختلاف والنِّدِّية الاعتبارية، والإصرار على الابتزاز الثقافي؛ وإلا فإن الموقف اللائق بنا آنذاك هو رفض الاحتواء والتبعية، وليس الانفتاح والتسامح.

إن عالمية رسالة الإسلام، لا تستوي على سوقها إلا من خلال استهدافنا لهداية العالم كله: قريبه وبعيده، حليفه ومنافسه. وهذا الاستهداف يستدعي

كياسة في التعامل، وفهماً عميقاً للآخر. وإن منهجنا الإصلاحي الكوني، لايتأتى له النضج والمناهزة المستمرة للاكتمال من غير تلقّي ما لدى الآخرين بعقل مفتوح وإرادة صلبة وعزم أكيد على الاستفادة مما لديهم في تصحيح الأخطاء وسد الثغرات وتلافي أشكال القصور الذاتي . . .

ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن في الدول غير الإسلامية مئات المسلمين الذين يشكِّلون أقليات في تلك الدول، ولا بد من مراعاة مصالحهم عند كل حركة مد أو جزر، تتعرض لها علاقاتنا مع تلك الدول.

الغرب غرب، والشرق شرق، ولا يمكن لهما أن يصبحا شيئاً واحداً، ولكن سيكون بإمكان كل واحد منهما أن يستفيد من الآخر إذا ما راعى كل منهما حقوق الطرف الآخر، وخصوصيته الحضارية، وأخذها بعين الاعتبار في حالات التعاون وفي حالات التنافس والعداء؛ وسنظل نأمل بحصول شيء من ذلك، مهما كانت المعطيات السائدة باعثة على التشاؤم.

* * *

الفصل الثاني

قيم ومفاهيم وأوضاع سائدة

إنَّ فهم العصر الذي نعيش فيه، هو الخطوة الأولى التي يجب أن نخطوها نحو التمكن من العيش فيه على نحو مقبول وفعّال. ليس فهم زماننا وواقعنا بالأمر اليسير؛ فالواقع المعيش أشبه بما سماه الفلاسفة بـ(الهيولى) وهو أحياناً أشبه بـ(الزئبق) فهو يطاوعك إلى أقصى حد، لكنه يتأبى على التشكيل والقولبة، فتكون مطاوعته الشديدة خادعة.

وهكذا شأننا مع الأحداث الجارية في عصرنا، فعلى حين يدّعي معظم الناس أنهم فاهمون لكل ما يجري ومستوعبون، يأتي من يقول: إن الناس غير دارين بشيء؛ وما يقال ويعلن يعطي انطباعاً مغايراً تماماً لما يجري في حقيقة الأمر.

سبب الصعوبة البالغة في فهم الواقع العام، والعصر ـ على نحو أعقد ـ أن الناس أينما كانوا لا يستطيعون فهم الواقع إلا عبر (إشكالية) أو بنية معرفية فكرية مكونة من ثلاثة عناصر أساسية، هي: معتقداتهم وقيمهم، ومركّبهم العقلي، والمعلومات المتعلقة بالشيء أو الحدث الذي يحاولون فهمه. عقائد الناس وقيمهم، بينها درجة ما من التفاوت والتباين؛ حتى إن أبناء الملة الواحدة حين ينظرون إلى عمل ما من زاوية عَقَديّة، لا يرونه على درجة واحدة من الوضوح؛ كما أن سلّم القيم والأولويات ليس ذا ترتيب واحد بينهم، ومركّباتهم العقلية أو المبادئ الثقافية والمعرفية التي ينظرون من خلالها إلى الأشياء، ليست هي الأخرى موحّدة؛ فعلى حين ينظر بعضهم بعيون التفاؤل وحُسن النية، ينظر آخرون بعيون الريبة والتشاؤم. وعلى حين يتمتع بعضهم برحابة الأفق والفهم

العميق، يتناول بعضهم الآخر الأمور من زاويـة ضيقة، ويستخدم أدوات معرفية مبسَّطة في الفهم . . .

المعلومات بالقضية موضع الاستبصار متفاوتة تفاوتاً كبيراً بين أهل بلد وأهل بلد آخر، وبين شخص وشخص آخر؛ فالفارق ضخم بين معلومات المباشرين لأمر، ومعلومات الذين درسوا حوله، ومعلومات الذين سمعوا به . . .

هذا التفاوت بين عناصر البنية التي ندرك من خلالها الواقع، يؤدي في الحقيقة إلى تشابك ألوف الخيوط والمعطيات والاعتبارات التي تستدعي في النهاية ما لا يحصى من الفهوم والرؤى وزوايا النظر والمواقف وأشكال الاستجابة. وهذا كله يجعل فهمنا لعصرنا وواقعنا بالتالي نسبياً. وكثيراً ما نجد أنفسنا حيال فهم مسألة من مسائله كمن يدور داخل دوامة، فقدت محورها! .

إن كل أشكال القراءة للنصوص الشعرية والفلسفية، يمكن أن تُستخدَم في قراءة الواقع، وربما استطعنا أن نميّز منها ثلاثة أشكال أساسية، هي: القراءة المزيفة، والقراءة العادية، والقراءة الناقدة المتعمقة، وكل واحدة من هذه القراءات درجات عدة. وإن كل ما سنذكره في هذا الكتاب، لا يعدو أن يكون نوعاً من المقاربة، وتوضيح بعض الملامح والأوضاع، ليس أكثر.

حين نريد فهم قضية بالغة التعقيد؛ فإن مما يعيننا على ذلك، تفتيت تلك القضية إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء؛ وكلما نجحنا في تفتيتها أكثر، كان ذلك أعون لنا على فهم أعمق لها. إذا أردنا ـ على سبيل المثال ـ فهم ظاهرة (الفقر) وجب أن نعرِّف الفقر، ونحدد مرادنا من وراء إطلاق هذه الكلمة، وأن نحدد زمان هذه الظاهرة ومكانها، ونبحث بعد ذلك في جذور الفقر العميقة وأسبابه المباشرة وغير المباشرة، والجهات المسؤولة عن وجوده . . .

ورغم كل هذه التجزئة، فإن فهمنا لهذه الظاهرة، هو فهم مناهز، يروم ولا يصل، ويقترب، ولا يُمسك! .

لا ينبغي أن نهمل في هذا الشأن قضية مهمة، هي علاقات القضية التي

نحاول فهمها، ففي زمان شديد التعقيد كزماننـا، يصبح ما تستفيده أية قضية من علاقتها بالقضايا الأخرى بمثابة طبيعة ثانية لها. من العسير جداً أن نفهم ظاهرة كظاهرة الفقر دون فهم تاريخ البلد الذي توطنت فيه الظاهرة، وجغرافيته وموارده الاقتصادية، والعادات الاجتماعية السائدة فيه، وطبيعة النظام السياسي الذي يحكمه، وفعاليّة نظامه القيمي في توجيه السلوك، ومدى سيادة القانون والنظم فيه. . .

إني لا أطمح إلى الفهم النهائي، ولا الإفهام الكامل، لكن كل ما أرجوه هو ألا أعطي انطباعات خاطئة عن المسائل التي سأتطرق إليها؛ ومن الله الحَوْل والطَّوْل.

أولاً ـ من التفاؤل إلى العدمية:

حين ينسى الإنسان خالقه، وبداية وجوده، وضعفه الشديد أمام عوادي الزمان ـ فإنه يصبح من اليسير عليه أن يغرق في شبر من قوة، وأن يسير خلف أوهام المكتشفات العلمية، والمخترعات والصناعات، وأن يفسّر من خلالها كل مسائل الحياة، حتى مسألة الروح وبداية الخلق! وحين يغادر الإنسان كل الأطر الثابتة، فإنه سيكون عاجزاً عن الإمساك بالكليات الكبرى التي تحدد له مساره، وتؤسس له علاقته بما حوله؛ وذلك لأن المحك المرجعي آنذاك، سيكون عبارة عن بنية فكرية ـ كونية، ما فتئت تتغير، وتتشكل وفق هيكل الحقيقة الذي تطرأ عليه تغيرات مستمرة، من جراء البحوث والكشوف والدراسات الجديدة، وبهذا لا تكون ثمّة أصول يتحاكم إليها، وإنما بُنيات فكرية ومعرفية انتقائية وتاريخية متغيرة، وُلِدت في بيئات ذات خصوصيات ثقافية معينة.

ومن العجيب أن يأمل الملحدون وأشباههم في أن تستطيع تلك البنيات تقديم تفسير شامل للكون والحياة، وتقديم أطر ومرتكزات صالحة لتقنين العلاقات بين البشر، وتحديد المطالب الأساسية للحياة والأحياء!!. وذاك خطأ ـ لا ريب فيه ـ في المنطلق الأساسي الذي وضعه الغرب في هذا الشأن.

يقول (توماس كون): «القرن العشرون الذي يوشك أن يأفل، هو بمعنى من المعاني الوجه المقابل للقرن التاسع عشر، على نحو يؤذن بعالم جديد تماماً في فكر وفلسفة إنسان القرن الحادي والعشرين: كان القرن التاسع عشر قرن العقل واليقين، أما القرن العشرون، فهو قرن الشك والاحتمال. وكان القرن التاسع عشر قرن الإيمان بالنظريات والمذاهب، وواحدية النظرية أو المذهب. أما القرن العشرون فهو قرن التمرد والثورة والتعددية. وكان القرن التاسع عشر قرن الثقة في الاستقرار وانتصار الإنسان. أما القرن العشرون فهو قرن الأزمات والصدمات. كان القرن التاسع عشر قرن الذات ـ الجوهر الفاعلة المتعالية على السياق والتاريخ.. أما القرن العشرون، فهو قرن الذات ـ الموضوع رهن السياق ووليد التاريخ... أهلَّ القرن العشرون بأزمة عصفت بكل دعائم الثقة، وبكل أركان اليقين، وبكل مبررات استقلال الذات أو الموضوع، وثار العقل على نفسه في سياق من الأحداث الاجتماعية المأساوية، وبقوة دفع التطورات والإنجازات العلمية الطبيعية منها والإنسانية. وتغيرت مقومات الفكر، بل وأسس الثقافة ذاتها... أثبتت نظرية (النسبية) أن أساس العلوم المضبوطة الذي كان يعتبر أمراً بدهياً، يمكن أن يتغير، بعد أن أحاطت الشكوك بجوهر الفيزياء الكلاسيكية». /

ربطت نظريات القرن التاسع عشر الخاصة بالتقدم بين شرور البشر وبين حالة التخلف والتطور الاجتماعي؛ وحين وقعت الحرب العالمية الأولى والحرب الثانية، وألقيت القنابل الذرية على البشر في اليابان، وارتُكِبَت أبشع الفظائع تجاه الضعفاء والنساء والشيوخ ـ نشأ إحساس قوي بأن التطور الاقتصادي، وانتشار التعليم، واغتناء الثقافات، أمور غير كافية للحدِّ من الجرائم والتدهور الخلقي، وصار هناك من يتساءل: ما جدوى ما ندعيه من التقدم التاريخي إذن؟! ./

التفاؤل المبالغ فيه الذي كان يعم الغرب في القرن التاسع عشر، نشأ من أن الغرب، لم يكن يعرف محدودية (العلم) الذي علّق عليه كل آماله؛ وقد كان العلم آنذاك في أوله، ولم يكن بالإمكان معرفة تلك المحدودية إلا بعد أن يبلغ العلم مداه، أو يكاد. وحين وصل العلماء إلى طريق مسدود ببحث كثير من

المسائل، ساد في الأوساط العلمية شعور بأن التفاؤل المفرط، هو أول خطوة في طريق التشاؤم والعبث، وانقطاع الرجاء. . .

بعد التفاؤل المفرط بإمكانية سيطرة الإنسان على الطبيعة، حل الشعور بالتفاهة والانحسار؛ وقد عبّر (الوجوديون) عن الحالة التي صار إليها الوجود الإنساني بأنها: عدم وموت وحصر وهمّ وضيق، وضياع للفرد في الجماعة، وثرثرة وغثيان وفراغ وعبث. . . والإنسان على حد تعبير (كامو): تناقض وسخف، ولا معقول، بلا غاية أو هدف، ومصيره الانتحار!.

والوجود الإنساني عند (ميرلو بونتي) و(مارسل): جسم، والنفس أحد أبعاده. ومنذ (كير كجارد) الوجود الإنساني تناقض وفضيحة وعار؛ حتى انتهى كثير من الفلسفات الوجودية إلى العبث واللامعقول، على عكس ما كان عليه الوعي الأوروبي في البداية عندما كان يتسم بالعقل والهدف والغاية والحرية والتقدم والوضوح والاتساق.

إن عالمنا الإسلامي لم ولن يستطيع أن يفلت من روح التشاؤم التي ولدت في بلاد الغرب، وأخذت تنسل في كل شبر في الأرض؛ ونظرة واحدة في معظم الدواوين الشعرية الحديثة، وفي الكتابات الحضارية عامة، بل في أحاديث مجالس السمر لدى العامة والخاصة ـ كافية لتأكيد أن الناس يشعرون أن أفضل أيام البشرية، قد ولى، وأن صنوفاً من الآلام والإخفاقات الهائلة، تنتظر الأجيال القادمة.

إن إعراض البشرية عن هدي الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قد جعل التقدم العلمي يقترن بالمزيد من انتشار الفاحشة، والانحلال الخلقي وإدمان المخدرات وفشو الرشوة، والنهب المنظم، والتزوير والغش. . .

وإن الذين سيتفاءلون مع انتشار هذه الأوبئة لن يكونوا موضوعيين، وإنما سيكونون كمن اختار أن يغني بين القبور!.

النصوص التي تدل على حدوث انهيارات إيمانية وخلقية واجتماعية في آخر الزمان كثيرة، لكن هناك أيضاً نصوص تدلّ على أن هناك ضمن سياق

التراجع حركة مدّ وجزر، وكثيراً من ومضات الخير وإشراقات الصلاح؛ هذا بالإضافة إلى أن المسلم مكلَّف دائماً أن يفعل كل ما يستطيع، وأن يقدم أفضل ما لديه، مهما كان الوسط الذي يعيش فيه سيئاً وميؤوساً منه، والمسلمون الملتزمون يعرفون إلى هذه اللحظة طريق العودة، ويعرفون كيف يبعثون في الحياة الأمل والرجاء من جديد، لكن لا بد لذلك من شيء من التضحية، ودفع الثمن الذي يجب أن يدفعه كل من يسبح ضد التيار، ويحاول إنقاذ سفينة مشرفة على الغرق؛ وكل الأثمان الباهظة ستكون قليلة حين يكون العوض الطمأنينة في الدنيا، والنجاة في الآخرة!.

ثانياً ـ ضياع الهدف النهائي:

تجمع الديانات والرسالات السماوية على تحديد هدف نهائي واحد لهذه الحياة، هو: الفوز برضوان الله ـ عزَّ وجلّ ـ وما يترتب على ذلك من النعيم المقيم في جنات الخلد. وجود هذا الهدف لم يحفز الهمم على العمل فحسب، وإنما أسبغ نوعاً من التوحد والمنطقية على مناشط الحياة كلها، وجعلها معقولة ومفهومة.

ميزة هذا الهدف للحياة أن الأهداف الأخرى جميعها، تصبح وسائل بالنسبة إليه؛ مما يوجد ارتباطاً فريداً بين مجموعة الأهداف المختلفة. سيطرة هذا الهدف على حس الناس ومشاعرهم وتصرفاتهم وحساباتهم كان باستمرار يشكل مخرجاً حيث لا مخرج، وحلاً حيث لا حل؛ فهدف على هذا المستوى، يُضحَّى بالحياة كلها من أجله، وهذا ما يفعله في الحقيقة الشهيد والملتزم التزاماً صارماً: الشهيد والملتزم، هما أعظم الناس نفعاً للبشرية؛ لأنهما يعطيان للحياة، ولا يسحبان من رصيدها، وإنما يسحبان من رصيد آخر، هو رصيد الآخرة، مما يخفف من كثير من الأزمات في زمان تتجه الأشياء كلها نحو (الندرة) وفي زمان لم يصبح فيه شيء بدون ثمن.

وجود هدف يسمو على مطالب الحياة الدنيا، قد أعطى للإنسان طاقة هائلة

في مواجهة الصعاب، وتحمُّل لأواء الحياة، فحين تنسد السبل، وتنقطع حبال الرجاء، يجد المسلم في معونة الله ـ تعالى ـ والأمل في تفريجه، ونيل المثوبة منه، ما يفتح أمامه أبواباً جديدة، فيتجاوز كل أسباب الألم والضيق؛ إذ يتصل بمسبِّب الأسباب ـ جلَّ وعلا ـ وهذا هو السر في الظاهرة العالمية المشهورة؛ ظاهرة أن المسلم لا ينتحر! أما الآخرون فإنهم ينتحرون لأسباب تافهة[1]، مع أنهم اخترعوا في وسائل السلامة والمرفهات أشياء كثيرة، لا تخلو من المبالغة والاحتياط الشديد!.

ما حالُ البشرية اليوم، وما مدى إحساس الناس بهدف الأهداف، والغاية الكبرى من الوجود على هذه البسيطة؟.

يمكن أن نقسم الناس تجاه هذه المسألة إلى ثلاثة أقسام: قسم فقد الاتجاه نحو الغاية، وفقد من قبل الغاية نفسها.

قسم يعرف الغاية، ويقوم ببعض الأعمال التي قد توصل إليها، لكنها ليست حاضرة دائماً في شعوره وبرامج عمله، واعتباراته المختلفة.

قسم ثالث يتخذ من الانسجام مع الغاية الكبرى مؤشراً على صحة ما هو فيه، ويعد العمل على الوصول إليها ذا أولوية مطلقة في كل ما يأتي ويذر، وإلى القسمين الأخيرين ينتمي كل من هو داخل حظيرة الإسلام.

إن النَّفَس العام لواقعنا الحاضر، هو نَفَس مادي مصلحي نفعي، وإن الإحساس بالهدف من هذا الوجود، معدوم لدى السواد الأعظم من صنّاع الحضارة التي تظلل عصرنا. وإذا تساءلنا عن السبب في ذلك فإننا سنجد أسباباً عديدة، أهمها سببان:

---

(١) ذكرت وكالات الأنباء أن امرأة إنكليزية، انتحرت؛ لأن كلبها أصيب بمرض عضال، فلم تطق رؤيته يتألم!.
وفي أيامنا هذه شنق كوري نفسه لأنه خسر دراجته النارية في رهان على فوز أحد فرقاء كرة القدم في فرنسا!.

● الأول منهما أن انحرافات الكنيسة، ووقوفها ضد مصالح الطبقات الفقيرة إلى جانب وقوفها ضد حركة البحث العلمي في الغرب، بالإضافة إلى فساد رجالها الخلقي والسلوكي؛ قد ولّد عداءً مستحكماً بين قادة الفكر والتنوير والقوى الاجتماعية الجديدة وبين الكنيسة، وكل ما يتصل بها من إيمان بالله والبعث والجزاء والحساب. . .

حتى قال (فورباخ): «إن الدين هو إضاعة الإنسان لجوهره؛ فالدين يقذف بهذا الجوهر في (كائن إلهي) خارج عن ذاته، وهو محض من إنتاج ضميره»!!.

● السبب المهم الثاني هو الانتصارات التي حققها العلم في القرون الثلاثة الماضية في كافة مجالات الحياة، والتي أدخلت الوهم على الوعي الغربي، حيث ساد اعتقاد بأن العلم قادر على حلّ كل الإشكالات، ورسم كل خطوط السير في كل شؤون البشرية، ومن ثم فإن (الإيمان) قد فقد مجالاته ووظائفه، وقد آن أن يذهب إلى غير رجعة، وصارت المعادلة: إما أن تكون مؤمناً غير عالم، وإما أن تكون عالماً غير مؤمن!.

إن الحداثة الغربية، تتعرض اليوم لمراجعة من لدن مفكرين كبار بغية إعادة التوازن إليها، وإيجاد علاقة جديدة بين العلم والإيمان؛ حتى إن بعضهم يذهب إلى أن (العصر الوضعي) قد ولّى، وأصبح خَلْفَنا لا أمامنا، وأننا الآن على عتبة عصر جديد، هو عصر ما بعد الحداثة، وهو عصر أقرب إلى الإيمان منه إلى الإلحاد.

ويمكن القول: إن بعض علماء الغرب المشتغلين في مجالات العلوم الطبيعية خاصة ـ قد بدؤوا حقاً يدركون أن أخطاء الكنيسة الفادحة، قد قوبلت بردود فعل غير متزنة من قبل الفلاسفة والأدباء والعلماء الغربيين عامة؛ مما يقتضي من كلا الفريقين ـ الكنيسة وخصومها ـ أن يخطوا خطوات إلى الوراء.

بدأ بعض علماء الغرب يشعرون بالتفاوت بين العلم والإيمان، أو بين العلم والوحي على مستويين: مستوى الطبيعة والمنهج، ومستوى الهدف؛ فهما لا يتموضعان على مستوى واحد؛ ولذا فلا ينبغي إقامة صراع بينهما.

يقول (بيير كارلي): يستخدم العلم أداة محددة، هي العقل والمنهجية الرياضية من أجل وصف الظواهر والبرهنة عليها. ويهتم العقل بكل ما هو قابل للتحقق منه عملياً، أو البرهنة عليه تجريبياً. العلم يبتدئ بصياغة الفرضيات عن ظاهرة من الظواهر، ثم يجري التجارب لكي يتأكد من صحة هذه الفرضيات، أو من عدم صحتها. ويتميز العلم بالتصحيح المستمر لنتائجه، بمعنى أنه يقبل بوضعها على محك الشك، كلما دعت الحاجة إلى ذلك؛ فليس هناك حقيقة مطلقة في مجال العلم، وإنما هناك حقائق تقريبية مؤقتة، وعن هذا الطريق يتقدم العلم باستمرار.

ويقول (أندريه ليشنرويز) أستاذ الفيزياء الرياضية في (الكوليج): إن الخطاب العلمي، لا يستطيع أن يخرج من ذاته دون أن يفقد خصوصيته، وتكمن مهمته في تفسير تركيبة الأشياء والظواهر؛ فهو يحللها ويشرّحها تشريحاً، ويكشف عن قوانينها وبنيتها الداخلية، ولكن ليس عنده كل شيء لكي يقوله عن غائية الأشياء، أو معنى الوجود، أو الهدف من الحياة في نهاية المطاف، فهذه هي مهمة (الدين) أو الفلسفة بشكل أساسي. العلم يستطيع أن يفسِّر الأشياء، ولكنه لا يستطيع أن يقول: لماذا وجدت الأشياء، أو ما هي الغاية من الكون. الموت أو القطيعة الأبدية تحرق قلب الإنسان، وتشغل باله كثيراً إذا لم يكن مؤمناً راضياً بقضاء الله، واثقاً من عفوه ومغفرته في الآخرة.

إن الغربيين الذين يشعرون بمدى الضياع الذي أصابهم بسبب فَقْد الإيمان، وفَقْد الهدف النهائي للحياة - يتزايدون في الحقيقة، لكن المؤسف أن الغرب، قد رتَّب شؤونه كلها في المجالات كافة على أن الحياة هي الحياة الدنيا وحدها، وأن على المجتمع أن يتجاوز كل المبادئ والأخلاق والأفكار المتعالية التي تأتي من خارج المجتمع البشري لتنظمه. إنه يطمح لأن يرى في إنتاجه الحضاري الشخصي المبادئ والوسائل التي تمنحه الاستقرار، وتصلح شؤونه.

والأنكى من هذا أن الغرب فجَّر كل سبل العودة إلى الدين والوحي؛ ولذا فإن مشاعر الإحباط التي ولَّدها الإلحاد، وتفتحات بعض علمائه على ضرورة

تغيير المسار ـ لن تكون كافية لبعث أهداف جديدة للحياة، وللاتصال بالحياة الآخرة. ومثل هذا لو انطلق، فإنه سيكون بحاجة إلى أجيال عديدة حتى يصبح مَلْمَحاً واضحاً من ملامح المجتمعات هناك.

السواد الأعظم من المسلمين يمتلك ـ بحمد الله ـ على المستوى النظري المعرفة بالغاية الكبرى لوجوده، وكثير أولئك الذين يحاولون مَنْهَجة حياتهم على مقتضاها؛ وهذا ما يخفف من ضغوط الحياة عليهم، ويمنح مجتمعاتنا الإسلامية نوعاً من التماسك على الرغم من سوء كثير من الأحوال، لكن هذا لا ينبغي أن ينسينا أن روح الحياة الغربية، تسري أكثر فأكثر في حياة المسلمين، وقد أخذت الأهداف الدنيوية الآنية، ومطالب الحياة اليومية، تضغط أكثر فأكثر عليهم، وتشكل بالتالي حركتهم ومناشطهم اليومية على مقتضاها.

وليس بخافٍ أن كثيراً من الناس اليوم يقوم بأعمال ليس لها أي تفسير مقنع، وليس لها أي معنى: تجد كثيرين يملكون مئات الملايين، ومع ذلك فهم يكذبون ويغشون ويضيعون بعض الفرائض، ويقطعون أرحامهم، ويغامرون بصحتهم في سبيل الحصول على مزيد من المال الذي لا يعرفون متى سيتمتعون به، ولا مدى حاجتهم إليه، إنه التيه، والغرق في دوامة من الضياع، لا ترحم! مهمة الإيمان بالغاية العظمى للوجود، لا تقتصر على رسم الفضاء النظري للعقل والقلب فحسب، وإنما جعل الغاية حاضرة على مستوى الشعور، وعلى مستوى الخُلُق والسلوك والعلاقة وترتيب الأولويات والتخلي عن بعض الرغبات، أي: صياغة حياة المسلم وفق المنهج الربَّاني الرشيد.

وهنا تبرز مسؤولية القلة المؤمنة التي تنعم بالعيش في ظلال الالتزام الصحيح ـ في التفكير ملياً في نوعية الظروف الأكثر ملاءمة لدفع السواد الأعظم من المسلمين في اتجاه العيش على مقتضى الآمر الشرعي، والسعي الحثيث إلى توفير ما يمكن توفيره منها؛ وما تلك بالمهمة السهلة؛ ولكن ليس ثمة خيارات أخرى.

ثالثاً ـ التأزّم الخلقي:

هل كان أمام العالم من سبيل يحول دون الخواء الروحي والخراب الداخلي الذي يعاني منه الإنسان الحديث بعد أن تم شطب كل أو معظم ما يقع وراء إدراكات الحواس، واعتباره شأناً غامضاً، أو غير مهم؟.

المركز المحوري الذي احتلته (الروح) على مدار آلاف السنين غادرته منذ أكثر من مئة عام، وصار يُنْظَر إليها اليوم على أنها وهم أو خرافة من خرافات الماضي، وصار يعبَّر عن الحديث عنها بأنه رجعي، ولا علمي، وما ورائي؛ وصار الإنسان في القرن العشرين، يقبل دون جدل بأنه لا شيء في هذا الكون إلا الطاقة والمادة المعروفتان. صارت (الروح) تُصوَّر في كثير من الكتب على أنها الوعي أو الصورة الذهنية للمدركات، أو المعنى، أو المعنويات...

لا ريب أن العالم الإسلامي لم يصل إلى هذا الحد، لكن يصح القول أيضاً: إن الخطط التنموية في معظم البلدان الإسلامية، لا تعكس اهتماماً خاصاً بهذه المسألة عما ذكرناه لدى الآخرين، وما نراه من اختلاف يعود إلى جهود فردية وشعبية في أكثر الأمر.

ومن الواضح أننا بدأنا نسير شيئاً فشيئاً خلف الغرب في تقديم كل رهاناتنا للإنتاج والتقدم المادي، وتأمين حاجات الجسد... حتى السلوك الشعبي اختلف في العشرين سنة الأخيرة، وصار كثير من الناس ينظر إلى الأحاديث التي تدور حول تعزيز البعد الروحي بأنها وعظ جميل ـ وأحياناً ثقيل! ـ لكن الاستجابة السلوكية لتلك الأحاديث ضعيفة وبطيئة. وعلى المستوى النظري، فإن هناك انحيازاً واضحاً إلى الشكلي والمادي والحسّي على حساب المعنى والمضمون والفحوى والطلاقة والتدفّق الداخلي والمشاعر والأحاسيس واللمسات الشخصية... وهذا كله وافد على أمة الإسلام في جملة ما وفد من الشوائب والعوالق المصاحبة للتقدم المادي الأصم!.

هذه الوضعية للروح تمثل خلفية ثقافية للوضعية الخلقية التي نشعر أنها

هي الأخرى، أخذت تدرج في مسالك التأزم والانحطاط.

وأعتقد أن مصادر الأزمة الأخلاقية عديدة، ولعل أهمها ثلاثة، هي:

أ ـ المسألة الحاسمة في مجال الأخلاق، هي (إطارها المرجعي) بمعنى المصدر الذي نستمد منه الحكم على صفة أو قيمة بأنها حسنة أو قبيحة، والجهة التي ستتولى الإثابة أو العقوبة عليها. في العالم الغربي ذهب معظم الفلاسفة إلى أن واضع القيم هو الإنسان، ويذهب بعضهم إلى أن واضعها هو المجتمع، ومحصلة ذلك أن العقل البشري هو الأساس الذي يتشكل عليه الإطار المرجعي لجميع القيم؛ وهذا في الحقيقة يجعل الأخلاق والقيم أسيرة لأهواء البشر وملوَّنة بألوان البرمجات المحلية ومقولات البيئات الثقافية المختلفة، والمصالح الحيوية...

إن فقد مصدر الأخلاق لتعاليه ومطلقيته يجعلها تبدو هشَّة ومعلقة في الفراغ، ومفتقرة إلى المعيار الموضوعي، وهذا كله يحرم الأخلاق من وشاح القدسية والاحترام، ويجعل المثيب والمعاقب عليها مجهولاً في أكثر الأحيان؛ مما يسهِّل مسألة الخروج عليها وتجاوزها وتطويرها، وهذا ما يحدث في شتى أنحاء العالم!.

يقول (فوكوياما): «لقد غدا الأمريكيون مشغولين بصحة أبدانهم: ماذا يأكلون ويشربون، والرياضة التي يمارسون، وفي أي شكل يبدون أكثر من انشغالهم بالمسائل الأخلاقية التي كانت تقض مضاجع أجدادهم».

ويقول (ستيفن كوفي) الخبير بالإدارة والعلاقات التجارية: كان أساس النجاح في أمريكا مدة (١٥٠) عاماً قبل الحرب الأولى، يقوم على ما يمكن تسميته بـ(المزايا الأخلاقية)؛ مثل الاستقامة والتواضع، والإخلاص والاعتدال، والشجاعة والنزاهة، والصبر والمواظبة والبساطة، والقاعدة الذهبية: «عامل الناس كما تحب أن يعاملوك»... وتُعْلِمُنا المزايا الأخلاقية بأن هناك مبادئ أساسية للحياة الفاعلة، وأن الناس لا يستطيعون تحقيق نجاح حقيقي، أو أن ينعموا بالسعادة إلا إذا تعلموا هذه المبادئ، واستوعبوها باعتبارها أخلاقاً أساسية.

بعد الحرب العالميـة الأولى اختلفت النظرة الأساسـية إلى النجاح، من المزايا الأخلاقية إلى ما يمكن أن نطلق عليه (مزايا شخصية) فقد أصبح النجاح مرتبطاً بالشـخصية والتصور العام لها، وبالمواقـف والتصرفـات والمهارات والتقنيات التي تسهِّل التعامل بين الناس. . .

أما النواحي الأخرى التي تناولت الشخصية، فمن الواضح أنها متحايلة، أو حتى مخادعة، تشجع الناس على استخدام تقنيـات تحبب الآخرين بهم، مثل الاهتمـام بهوايـات الآخرين لاستخلاص ما نريد منهم أو (التظاهر بالقوة) أو تخويفهم من المستقبل. . .

وهكذا نجد أن إبعاد الأخلاق والسلوك والعلاقات العامة عن فلك الدين، وقطع صلتها بالرؤيـة العامة للحيـاة، حرمها من الإطار المرجعي الثابت، ومن المعايير الموضوعية المتفق عليها، وصار بالتالي كل شيء في النهاية ممكناً حتى الأسس الراسخة والثوابت الشامخة، يمكن عن طريق التغيرات البطيئة والناعمة أن تتحول إلى مسائل فرعية، أو خلفيات ثقافية، أو مظاهر كياسة!.

قد انتقل هذا الـداء إلى كثير من الدوائر الماليـة والتجاريـة وإلى بعض مجالات العلاقات العامة في بلداننا الإسلامية، وسيرى من يتأمل في الدورات التي تُقام لمندوبي المبيعات وموظفي الاستقبال والعلاقات العامة، والتعليمات التي يتلقاها هؤلاء من رؤسائهم ـ أن ما وقع فيه غيرنا قد وقعنا في كثير منه من أجل المزيد من الربح، والمزيد من المكاسب المادية. بل يمكن القول: إن الأسس التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية قد أصابها بعض التبدل، حيث أضحت تقوم ـ على نحـو متصاعد ـ على تبادل المنافع، وليـس على الحب والتقدير والوفاء والتناغم الخلقي والروحي؛ مما يجعل كثيـراً منها يبدو وكأنـه من فروع نظـام التجارة الغلاّب لكل النظم الأخرى!.

ب ـ تعاني المنظومات الخلقية في العالم الإسلامي من عدوان بعض أبنائه عليها، حيث إن بعض المثقفين الذين فُتنـوا بتفوق الغرب وتقدمـه، جعلوا من أولوياتهم تفكيك المنظومات الخلقية السائدة بين المسلمين، باعتبارها عائقاً

قويـاً أمام التقدم؛ فقد افترضت (الحداثـة العربية) أنه يجب بناء كل نشاط على العلم، واعتبرت كل ما لا يخضع للمعاييـر العلمية جزءاً من أوهـام الإنسـان القديم، وعاملاً من عوامل استلابه، وقد حاولت أن تصوِّر القيم الإسلامية بأنها تقليديـة وبالية ومنحطة وجامدة، وهي تحث على الكسـل والتعصب، وتـدعم العشائرية المدمرة للفرديـة، وتؤكد على العاطفة والروح، وتقتل العقلانيـة والموضوعية، وهي على نحو عام سبب فقدان العرب مقدرتهم على استيعاب الحضارة الحديثة، ومنشأ روح العبودية فيهم.

وهـذا التقليـص ـ كمـا يقـول د. غليـون ـ للتجربـة الإنسـانية والفـردية والاجتماعية، واختصارها إلى تجربة وممارسة علمية ومعرفية ومنطقية، والحكم على التجارب الدينيـة والأخلاقيـة والجماليـة بالزوال ـ هو من مخلَّفات الوضعية الفلسفية الأولى التي تحولت إلى (علموية) و(تقنوية) لا إنسانية.

إن الفكرة التي تقول: إن المرحلة العلميـة قد ألغت المطالب الروحيـة والنفسية والجمالية واللاعلمية ـ هي نتاج للتخبط الذي تعيش فيه المجتمعات النامية التي فقدت أسسها المعنوية والتقليدية، ولم تحرز التقدم المنشود!.

أصحاب الفائدة من الاندماج في الحضارة الغربيـة، والمالكون للقـوة الغاشـمة رحبوا بفكرة إنهـاء المنظومـة الخلقية الإسلامية؛ لأن ذلك يسهِّل السبل أمام ازدهار تجـارتهم ونفوذهم، ويـوجِد إمكانيـة كبيرة لاسـتخدام قـوتهم، والوصول إلى مصالحهم دون قيد؛ على حين أن الضعفـاء من المسـلمين، كانوا ـ وما زالـوا ـ يعتقدون أن التمسـك بالأخلاق والقيم الإسلامية والإنسانية، والاستنجاد بها ـ هو السلاح الذي يمكن أن يَحدَّ من تلك القوة، ويحول دون تدمير المدنية الإسلامية، وجعل أهلها هامشاً ضئيلاً على متن الغرب المنتصر.

ويمكن القول بعد هـذا وذاك: إن هنـاك صراعاً حقيقيـاً بين حماة القيم والأخلاق الإسـلامية العربيـة وبين دعـاة تدميرها؛ والعاقبة للتقوى.

جـ ـ المصدر الثـالث لتأزّم الأخلاق في عصرنـا هذا، هو سـوء الأحوال المعيشـية التي تكتنف حيـاة كثير من الناس في بلادنـا الإسلامية خاصة، وعدم

ملاءمة الأجواء العامة السائدة للتفتح الخلقي، وعدم مساعدتها على الالتزام بالفضيلة. إن الفضيلة ـ في معظم الأحوال ـ هي شيء يقع بين رذيلتين، فالشجاعة وضعية تقع بين الجبن والتهور. والكرم وضعية يحدها من أمامها السرف والتبذير، ومن خلفها الشح، والاحتياط الشديد في التدبير؛ وهذه الطبيعة تساعد الناس على امتلاك قدرة فائقة على تأويل القيم، وجعلها أشبه بالحالات الخاصة؛ إذ من السهل على الواحد أن يقول: إن ما أفعله ليس نفاقاً، وإنما هو مجاملة. وأن يقول آخر: إن ما أفعله ليس بخلاً، وإنما هو تدبير، وهكذا. . .

ومن الواضح أن كثيراً من المجتمعات الإسلامية، تئنُّ تحت مطارق الفقر والجهل والمرض والبطالة والاستبداد، كما أن شروط العيش الكريم فيها تزداد صعوبة يوماً بعد يوم، وكثير من الشباب الذين قذفت بهم الثانويات والجامعات إلى معترك الحياة، يشعرون بالإحباط وانسداد الآفاق. . .

وهذا كله لا يشكّل الوسط الصالح للاستقامة الخُلُقية، ولا لوضوح المُثُل العليا في أذهان الناس. حين يعيش المرء في مجتمع يقتات معظم موظفيه من وراء الرشوة، والاستيلاء على المال العام، والاحتيال على النظم ـ تصبح نزاهته وعِفَّته بمثابة عقوبة له ولأسرته، حيث إن عليه آنذاك أن يعمل غير عمل ـ إن وجد ـ حتى يؤمِّن ضروريات الحياة؛ وفي هذه الحال، فإن أقل من ٢٠٪ من الناس يحجزهم دينهم وخلقهم عن الولوغ في الحرام، أما الباقي فيسبحون مع التيار، بحجة الضرورة، وبحجة أن هذا ليس حراماً؛ لأنه موظف وله حق الكفاية، وحجة أن فلاناً (التقيَّ) يفعله؛ ولذا فإنه لم يعد حراماً، وهكذا. . .

ولا يخفى أن ألفاظ الثناء في الشارع الإسلامي، صارت تعكس معياراً قيمياً جديداً؛ فعلى حين كان الناس يقولون: فلان آدمي وابن حلال وطيب، صاروا يقولون: فلان (كدع) و(شاطر) ويعرف كيف يدبر نفسه. . وصارت كلمة (طيب) التي كانت كلمة مديح، ترمز إلى نوع من اللمز في نباهته وحُسن تدبيره. . .

والأخطر من كل هذا أن (العرف) يتحور شيئاً فشيئاً لينسجم في النهاية مع الواقع الرديء. كما أن المجتمع الذي ينتشر فيه الانحراف الخلقي والسلوكي،

يفقد تدريجياً قدرته على ممارسة الضغط الأدبي على المنحرفين من أبنائه؛ لأن الذين سيمارسون الضغط، يصبحون آنذاك قلة قليلة، وموقفها نفسها يصبح موضع تشكيك، ويتحولون من قوة نافذة إلى قوة غريبة (فطوبى للغرباء) بل إن (الفتوى) نفسها قد تتراجع حيث تكثر الضرورات، ويتضخم ما تعم به البلوى، ويتراجع المصلحون من موقع إلى موقع؛ ليؤكدوا في النهاية على جوهر الإيمان وأصول الأخلاق عوضاً عن الحديث عن السنن والمكروهات والواجبات والمحرمات!.

تجلِّيات التأزّم الخلقي المعاصر:

لا بد من القول: إن صور التأزّم الخلقي لا يمكن أن تكون متطابقة في سائر أنحاء العالم؛ فالمشكلات الخلقية في عالم يسوده الغنى والحرية والاكتشاف، وهو بدون أي عقيدة دينية ـ لا بد أن تكون مغايرة للمشكلات الخلقية في بلد فقير، تنتشر فيه البطالة والخرافة والعصبية القبلية والظلم.

فالأفكار والعقائد والأوضاع المعيشية والسياسية... تنعكس على نحو مباشر على الأوضاع الخلقية، وتتنوع هذه الأخيرة بتنوعها. ومع هذا فلا ينبغي أن يُفهم من هذا أنه ليست هناك أخلاق مشتركة بين الأمم؛ فنحن ـ كما ذكرنا من قبل ـ نعيش زماناً واحداً وفي مكان واحد ومن المستحيل ألاّ تنتشر في هذه الحالة قيم مشتركة.

ويصح القول أيضاً: إنه على الرغم من القواسم المشتركة الكثيرة بين شعوبنا الإسلامية إلا أن شدة المعاناة من التأزّم الخلقي، تختلف من بلد إلى آخر، فعلى حين يعاني بلد من سوء النظام الإداري وإفرازاته الخلقية، يعاني بلد آخر من الآثار الخلقية للفقر والبطالة، وهكذا...

ـ كثير من المسلمين اليوم يعيش دون شعور بالمُثُل الإسلامية العليا، ودون أهداف سامية، يسعى إلى تحقيقها؛ فتأمين الحاجات الضرورية هو شغلهم الشاغل، وامتلاك بيت يؤوي الواحد منهم فيه عياله، صار يعد اليوم عبارة عن

نصر كبير في معركة شرسة؛ وهذا جعل كثيراً منهم يقع تحت ضغوط المتطلبات الآنية والأشياء الصغيرة، ويقع فريسة لضروراتها.

وقد صار كثيرون منهم أشبه بالحيوان البري الذي يقضي حياته في حديقة حيوانات؛ فهو ليس معزولاً عن بيئته الطبيعية فحسب، بل هو معزول عن أعماق ذاته!.

- يعاني السواد الأعظم من المسلمين من ضعف الإحساس بـ(الواجب) وهو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية؛ ليعكس تسامي الإنسان، وقدرته على الالتزام تجاه غيره، والتضحية في سبيله.

- هناك فريق كبير من المسلمين، يعاني على الصعيد الحضاري من ذبول روح المدنية لديه، وهو ينزع باستمرار إلى نوع من الانطواء على الذات أو الأسرة أو القبيلة... وهو نزوع ذو أثر سلبي على الإحساس بالمصلحة الوطنية، والمصلحة العامة.

- هناك سلوكات خاطئة، تنم عن نوع من الخواء الروحي، حيث إنَّ كثيراً من الناس، أخذوا يعوِّضون عن النقص في كينونتهم الإيمانية والأخلاقية بالاتجاه نحو المزيد من الاستهلاك البذخي والترفي، بالإضافة إلى رغبة قوية في الاكتناز بشراء العقارات والقصور وشراء السيارات الفاخرة...

- على الرغم من سهولة الاتصال بين الناس، وكثرة المناسبات التي تجمعهم، إلا أن الحقيقة أن هناك عزلة شعورية كبيرة، تجتاح كثيرين منهم وهناك اندفاع متزايد نحو البحث عن الخلاص الشخصي بعيداً عن خلاص الجماعة - المجتمع - مع أن الأدبيات الإسلامية في هذا الشأن، تعلمنا أن من غير الممكن الحصول على تقدم فردي حقيقي في وسط منهار.

لا أريد أن أستطرد بذكر مفردات الأزمة الأخلاقية - وهي كثيرة - التي تعاني منها الأمة، وإنما أود أن أؤكد أن حاجتنا إلى التنمية الروحية والأخلاقية، لا تقل

بحال من الأحوال عن حاجتنا إلى التنمية المعرفية أو الاقتصادية[1]؛ حيث إن التقدم الحضاري من غير قاعدة روحية وخلقية، سيكون مشكوكاً فيه، وما يتحقق منه، لن يكون مصدر سعادة حقيقية.

وخميرة التنمية الروحية، موجودة، فبالإضافة إلى المنهج والتراث الأخلاقي الغنيّ، لدينا الملايين من الرجال والنساء الذين يُعدُّون نماذج راقية في الطيبة والاستقامة والسمو الخلقي!.

رابعاً ـ تقدُّم بلا حدود:

مما ترسخ في الوعي الأوروبي الحديث أن الإنسان حصاد ما يعرفه، وما يتقنه؛ وبالتالي ما يملكه. ومن هنا اندفع الغرب في الاكتشاف والتصنيع إلى أقصى حد ممكن، مما أنتج تعاظم الملكية ونشوء مجتمعات الوفرة والخدمات والجامعات والمصانع... وصار التقدم نحو الأفضل، والبحث في الكيفيات والوسائل التي تحقق ذلك، الهاجس اليومي لعالم الغرب كله، ولكل من تواصل معه من شعوب الأطراف.

الحداثة والتغير والتطور والتقدم، معانٍ محايدة عقائدياً وأخلاقياً، فهي قد تكون في اتجاه الأحسن، وقد تكون في اتجاه الأسوأ؛ فالبنية الجسدية في سن الكهولة، تستمر في تطورها نحو الشيخوخة ثم الموت؛ لكن العرف انعقد في العصر الحديث على أن (التقدم) يعني دائماً تغيراً نحو الأفضل. في ظل فقد المرجعية العليا، يكون من الصعب في ظروف كثيرة وضع فواصل بين ما هو من قبيل التقدم، وما هو من قبيل التطور، بل إن مجرد إعطاء التغير مدلولاً أخلاقياً أو إيجابياً، ساهم في إضعاف الانضباط الذي يمكن أن تصنعه المعايير الأساسية لنمو الحياة والتي يمكن أن يحاكم إليها.

إن قصور العقل البشري، لا يمكِّن من رؤية الحقائق الكبرى دفعة واحدة، مما يجعل الإنسان منهمكاً دائماً في تجارب (الصواب والخطأ) فرحٌ بإنجاز، ثم

---

(١) انظر ـ إن شئت ـ ما ذكرناه عن التنمية الخلقية في كتابنا: (مدخل إلى التنمية المتكاملة).

ندمٌ عليه، وخوفٌ منه. . وهذا مانشاهده اليوم في مسائل وقضايا كثيرة.

السعي نحو الأفضل فطرة، فطر الخالق ـ جل وعلا ـ الأحياء عليها، حيث يتمكن الكائن الحيّ من التخلّص من مشكلاته، وتحقيق أهدافه، وتحسين وضعيته العامة من خلال ما يمتلك من طموحات وآمال في الانتقال من طور إلى طور. وأمة الغرب حين مجَّدت (التقدّم) إلى حد العبادة، لم تندفع إليه من خلال إحساسها بالملاذ والمنافع، وصنوف الراحة، وأشكال القوة التي توفرت لها بسبب التقدم فحسب، وإنما لأن من طبيعة التقدم أنه حين يحدث في جانب من جوانب الحياة، يحصل لدى الناس تشوق وطموح إلى تعميمه على جوانب الحياة الأخرى.

كما أن طبيعة العلاقات الاعتمادية بين جوانب الوجود البشري، تستدعي إحداث تقدم شامل في جميع جوانب الحياة كي يتم ضمان التناصر بين عناصر البناء الحضاري المختلفة. ولا يخفى أن نظرية (داروين) في النشوء والارتقاء، قد أحدثت زلزالاً في بنية الفكر الغربي، وأوجدت تياراً عميقاً من حبّ التغيير والتجديد، بسبب ما أوحت به من مصاحبة التطوّر للكائنات الحية في جميع مراحل وجودها.

إن الذي يتأمل في الإعلانات التجارية يجد أنها تُركِّز ـ على نحو ممجوج ـ على أن المنتَج الفلاني جميل لأنه جديد، والمنتج الفلاني لذيذ لأنه جديد، والمنتج الفلاني قوي لأنه جديد؛ مما لا يدع مجالاً للشك في أن البشرية تسير دوماً نحو الأفضل، ما دام كل جديدها هكذا!.

كانت كلمة التقدّم ـ في مدلولها الحديث ـ تعني التقدم الشامل الروحي والمادي، الإنساني والطبيعي، ثم تم اختزال هذا المفهوم؛ ليدل على التقدم المادي، ثم اختزل مرة أخرى؛ ليدل على التقدم الاقتصادي وحده! وهذا الاختزال المخيف كاف لتحييد المكانة الحيوية لكل جوانب الحياة الأخرى؛ الروحية والأخلاقية والاجتماعية والمعنوية. . .

في سبيل التقدم الذي هو أولويّة مطلقة، تصبح الراحة من أجل العمل،

ويصبح إشباع الغرائز ـ بأي وسيلة كانت ـ أمراً مشروعاً، ما دام يؤدي إلى فراغ البال من أجل مزيد من الإنتاج. الربا يصبح عمود الاقتصاد العالمي، ما دام يسهل الاستثمار ـ هكذا يظن ـ، وإنشاء الشركات العملاقة.

لا مانع في سبيل التقدم أن تترك المرأة أسرتها وحصنها الحصين ـ بيتها ـ وتنخرط في الوظائف والمهن، وينبغي عليها أن تتحمل الضغوط الرهيبة التي لا تتحملها جملتها العصبية، كما أن عليها أن تتكيف مع كل ما تتعرض له من مضايقات الجنس الآخر، فكل ذلك يجب احتماله في سبيل مزيد من التقدم والرفاه. تفكك العلاقات الأسرية، وتفاعل المشكلات البيتية بسبب عمل المرأة، أو سفر الزوج سنوات عدة ـ قد تكون متصلة ـ كل ذلك مقبول، وعلى الإنسان أن يتحمل...

التقدم يستلزم السحب من الرصيد البيئي والحيوي، من أجل حركة التصنيع، وما تستلزمه من استهلاك الموارد، وعلى الناس أن يقبلوا بذلك، ولو أدى إلى اختناق العالم، وتصاعد أمراض الحساسية والسرطان، ففقه الأولويات، جعل التقدم في المرتبة الأولى، وأباح بالتالي التضحية بكل أشياء المراتب الأخرى!.

انطلاقاً من الرؤية الغربية في إهمال ما لا يمكن قياسه، تم إهمال الثمن الذي تدفعه البشرية لتأليه التقدم والسعي إليه مهما كانت النتيجة؛ لأن عائد التقدم محسوس ومباشر، ويمكن قياسه؛ أما ثمنه، فهو غير محسوس، ولا يمكن قياسه! لو تم تحويل السعادة والطمأنينة والشعور بالاستنارة الداخلية والرفاهية الروحية إلى مؤشرات على التقدم، ماذا سيكون حال المجتمعات المتقدمة؟!

سيقال لنا: إن السعادة شيء نسبي متغير، وكذا الاستنارة والطمأنينة؛ وهي تختلف من فرد إلى آخر، وقياسها صعب. فهل هذا يعني أن التقدم شيء والسعادة شيء آخر؟ وإذا كان الأمر كذلك فما الذي ينجزه التقدم للإنسان إذن: التمدد المادي أم التحقق الإنساني؟

في هذه اللحظة يكشف مفهوم التقدم عن وجهه المادي الحقيقي؛ فبدلاً من مؤشرات من عالم الإنسان، نسقط في مؤشرات من عالم السلع والمؤشرات

المأخوذة من عالم الأشياء (الإنتاجية والرفاهية) دون أي اكتراث بمدى تحقيقها السعادة أو البؤس لبني البشر.

ثمة إحصائية تذهب إلى أنه لو تم حساب التكاليف الحقيقية لأي مشروع صناعي (أي حساب الكسب المادي النهائي مخصوماً منه الخسارة الكونية والإنسانية) لظهر أنه مشروع خاسر!. والمشروع الصناعي الغربي قد حقق ما حقق من نجاح واستمرار؛ لأن الآخرين دفعوا الثمن. وقد تبين من خلال نجاح بعض الدول الآسيوية في اللحاق بالغرب فداحة الكارثة الكونية التي تتواتر أخبارها في الجرائد والقنوات الفضائية يومياً!.

مهما كثرت المواعظ، ومهما انكشف من أمر نحر البيئة وشقاء البشرية، فإن العالم الغربي لن يستطيع التراجع إلى الوراء مرة أخرى، فهو محا كل معالم العودة، وسوف يكون قادراً على تسويغ كل ما يصيبه من جرّاء ذلك، والتظاهر باحتماله، مما يذكرنا بالزنبور يتخبط بلا هدف على زجاج نافذة مغلقة!.

العالم الإسلامي ما زال محافظاً على كثير من أوضاعه وعلاقاته الإنسانية، لكن واضعي خطط التنمية فيه قلما يراعون الخصوصية الحضارية لشعوبهم؛ فقد وضعوا النموذج التنموي الغربي أمامهم، وهم غير قادرين على أخذ العبرة من الانتكاسات التي أحدثها التقدم الأعمى في الغرب. ومع هذا فإن التقدم المادي الغربي، هو ثمرة تطور بُنى عقدية وفكرية ومعرفية وبيئية خاصة بأوروبا، ومن هو على شاكلتها ومحاولة النقل دون تمييز، لن تؤدي إلى حدوث تقدم، وإنما ستؤدي إلى تفكيك البنيات الاجتماعية لدينا، وإحداث نوع جديد في الانقسام في الوعي، دون القدرة على توليد بنيات جديدة أو وعي جديد.

في زمان كزماننا لم يبق لدى المسلمين اليوم سوى السعي إلى تحقيق الانطلاقة الذاتية المتوازنة التي تنسجم مع أهدافنا وطاقاتنا ومبادئنا، انطلاقة تتم وفق أولوياتنا وحاجاتنا، تحافظ على البيئة، ولا تستهلك الإنسان في طلب مزيد من المتاع واللهو، ولا تستهدف العلو والفساد في الأرض.

إن تحررنا من الخضوع للمقولات الشائعة عن التحضر والرقي والتقدم،

سيكون أول خطوة على طريق التصحيح والبناء، وهذا ما علينا أن نفعله.

خامساً ـ تغير المفاهيم:

عند النظر في المفاهيم التي يزداد انتشارها بين الناس اليوم، نجد أن هناك تغيراً كبيراً قد شمل عدداً هائلاً من الأفكار والمفاهيم والأحاسيس في كل الحقول المعرفية، وجميع مجالات الحياة.

ولا يعني التغير أن تبدلاً تاماً قد حصل في كل شيء فيما سنعرضه، كما لا يعني ما سنذكره أن الشعوب والمجتمعات قد نالها أقدار متساوية من ذلك التغير؛ وإنما يعني أن التغيرات التي نتحدث عنها آخذة في التعمق والانتشار في الأرض كلها، وهي تغيرات بعضها إيجابي، وبعضها سلبي، لكنها جميعاً نشأت بسبب مجمل التغيرات العلمية والحضارية، وما استجد من الصور الذهنية عن البنية الكونية الهائلة، وما حدث من أنماط وأساليب معيشية في حياة المجتمعات المختلفة.

ومعرفة تغيّر هذه المفاهيم والأفكار مهمة جداً في موضوع فهم عصرنا وإدراك توجهاته الآنية والمستقبلية، حيث إن الفهم العميق هو مفتاح التعامل الراشد، وأساس اختيار الموقف الصحيح. ولعلنا نجمل الحديث عن تلك التغيرات في المفردات التالية:

أ ـ كان (الحاضر) وحده هو الذي يسيّر معظم حياة الناس؛ ذلك لأن معرفتهم بالماضي محدودة، وهي ترتكز على نحو أساسي على ذكريات تجاربهم الشخصية أو تجارب ذويهم وأصدقائهم. أما المستقبل فلا يعنيهم كثيراً. وكان (الوقت) بالنسبة إلى معظم الناس، لا يعني شيئاً، فهم يأكلون وينامون ويمرحون عندما يشعرون بالرغبة في ذلك. وكان معظمهم يقضون أوقاتهم في أعمال بسيطة، لا تحتاج إلى تفكير عقلي، ودون أن يبدو عليهم أي شعور بالملل.

اليوم كل ذلك قد تغير، فالتاريخ ـ الذي هو سجل حياة الماضين ـ صار علماً مهماً ـ وعند بعض المؤرخين هو علم العلوم ـ؛ إذ فيه جذور الحاضر،

ولا فهم للحاضر من غير فهمه. كما أن الأمم صارت اليوم تستخدم معطياته العامة على أنها أدوات في تربية أجيالها.

أما المستقبل؛ فبعد أن كان غائباً عن إحساس أكثر الناس، صار هو البعد الأساسي، وصار يُنظر إلى الحاضر من خلاله، حيث يسود شعور قوي بأنه لا يمكن ضبط الحاضر، والاستفادة منه على نحو جيد إلا من خلال الضغط عليه بآمال مستقبلية؛ بل إن هناك من المقولات ما يجعل التحقق الذاتي لكل واحد منا مرهوناً بحضور بُعد المستقبل في ذهنه ومشاعره، وذلك الحضور رهن بوجود ذات تتحرك نحوه؛ لكن تلك الذات ليست جوهراً ثابتاً قد تحقق مسبقاً، ولكنها حركة فاعلة، وتحقق مستمر من خلال صيرورة يحكمها تشوُّفٌ وانتظار للمستقبل.

ولا تستطيع الذات مهما كانت عظيمة أن تحافظ على تماسكها إلا من خلال إمساكها ببُعد المستقبل. وذلك الإمساك، هو الذي يمكِّنها من استمرار التجاوز إلى ما هو أحسن وأفضل. وهكذا فقد صار الحاضر الذي كان كل شيء لا شيء، فهو موزَّع على الماضي والمستقبل.

ب ـ كان الناس في الماضي حريصين على سمعتهم حرصاً شديداً، وكان يدفعهم إلى ذلك سهولة الإساءة إليها، من خلال الشائعات والمقولات المرسلة. وكان الناس سريعي التصديق لكل ما يقال. أما الذين يساء إليهم، فإنهم لا يستطيعون تكذيب ما يقال عنهم؛ فهم لا يملكون وسائل ذلك. أضف إلى هذا أن الحكم على مكانة المرء وعلمه وتوجهه، كان يتم وفق معايير جزئية جداً، فزلة واحدة من شخص كافية لتكوين محور لنقائص كثيرة، يتم توليدها وإلصاقها به. وكثير أولئك الذين غادروا قراهم فراراً من سوء الأحدوثة، وما تلوكه الألسنة... وكل ذلك كان بسبب سيادة التفكير النمطي والجزئي لدى الناس.

لم يكن هذا على صعيد العامة، فحسب، بل ابتلي به كثير من الدوائر العلمية؛ فقد كان من المألوف أن يدخل عالمان ـ يُعتقد أنهما ندّان ـ في مناظرة، ونتيجة لعدم معرفة أحدهما بجواب سؤال أو سؤالين، يحكم عليه شهود

المناظرة بالهزيمة، وضآلة المعرفة. وهكذا يدخل عالماً، ويخرج وهو نصف عالم، أو نصف جاهل. . . وله بعد ذلك أن يعيش مغموماً، وملفوفاً بمشاعر الإحباط، وقد تسوء الأمور ليلقى حتفه كمداً، كما مات سيبويه ـ كما زعموا ـ بسبب هزيمته في المسألة (الزنبورية)، لأنه لم يجب على سؤال الكسائي[1]!.

ضعف الاتصال، لم يمكّن الناس من إجراء الكثير من المقارنات؛ مما يجعلهم غير ماهرين في التفريق بين ما هو من قبيل الحقائق المستقرة، وما هو من قبيل الآراء الاجتهادية، وهذا ما كان يزيد في سهولة تشويه الأشخاص والآراء والأعمال.

هذا كله قد تغير اليوم، فمعايير الحكم صارت أكثر شمولاً، والناس صاروا أكثر جرأة، وأقل اهتماماً بنقد غيرهم، بل إن هذا تجاوز حدوده، حتى قلّ حياء كثير من الناس، وضعفت قدرة المجتمع على ضبط أفراده وردعهم، وعلى كل حال فالتغيرات في هذه المسألة تميل إلى الصحة والإيجابية.

جـ ـ اختلفت النظرة إلى كبار السن، فقد كانوا هم المرجع في حلّ المنازعات، كما كانوا يمثلون مستودعات الخبرة المتناقلة عن الأجيال السابقة؛ مما أعطاهم تميزاً ظاهراً على الشباب. بعد انتشار المعرفة، وتوفر الجامعات والمعاهد العليا، انعكس الأمر؛ فالجمهور من الناشئة اليوم أفضل تعلماً من جيل الكبار ـ على نحو عام ـ وقد صار احترام الكبار في السن وتقديرهم نابعاً من احترام السن، فحسب. أما المعارف والمعلومات وفهم العصر، والقدرة على التأثير فيه، وإدارة أوضاعه، فكل ذلك صار من مهارات الأجيال الحديثة.

---

(١) التقى سيبويه شيخ النحاة مع الكسائي مؤسس المدرسة الكوفية في النحو بحضرة البرمكي، وسأل الكسائيُّ سيبويه: ماذا تقول العرب: كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟ قال سيبويه: العرب تقول: فإذا هو هي. قال له الكسائي: أخطأت العرب تقول: فإذا هو هي، وتقول فإذا هو إياها. فخرج شيخ النحاة مكسور الخاطر، وخرج الكسائي منتصراً وإماماً في العربية! ويقولون: إن سيبويه مات كمداً بعد ذلك بمدة يسيرة من جراء هزيمته في تلك المناظرة.

وهذا أوجد نوعاً من الصراع بين الأجيال؛ فالكبار يتهمون الشباب بأنهم متهورون، ولا يعطون الاهتمام المطلوب للقيم المتوارثة، ولا يستفيدون من خبرات مَنْ سبقهم. . . أما الشباب فيتأففون من عدم استيعاب الكبار للتحديات الجديدة، وما تفرضه من قيم ومفاهيم جديدة. ولعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد أشار إلى هذه البلبلة حين قال: «فساد الدين إذا جاء العلم من قِبَلِ الصغير استعصى عليه الكبير. وصلاح الناس إذا جاء العلم من قِبَل الكبير تابعه عليه الصغير».

د ـ إذا عدنا بالنظر إلى الوراء، وتأملنا في النظرة القديمة للأشياء والماهيّات، وإلى طبيعة نظر المفكرين والفلاسفة إلى القضايا والمسائل المختلفة ـ وجدنا ـ على نحو واضح ـ اهتماماً بذات الشيء وماهيته. بعيداً عن علاقاته وظروفه؛ فالخطاب الدعوي والإصلاحي ـ مثلاً ـ خطاب فردي، يركز على ما ينبغي على الناس أن يفعلوه، ولا يتفكر أصحابه في شروط الاستجابة له، ولا يتحدثون عن تلك الشروط فضلاً عن العمل على توفيرها. واليوم يشيع مصطلح (الإصلاح)، وشيوعه تعبير عن أن اهتماماً جديداً، قد بدأ في التفكير في العلاقة بين الذات والموضوع، والإنسان والظروف التي يعيش فيها. . .

في الماضي كان التركيز ينصبُّ على كل نظام من النُّظم الحياتية على حدة، دون الانتباه إلى ارتباطاته بالنظم الأخرى؛ فالباحث في علم الاقتصاد، لا يحاول استشفاف العلاقة بين علم الاقتصاد أو النظام الاقتصادي وبين النظام السياسي أو الاجتماعي أو الأخلاقي. . .

اليوم هناك نظرة جديدة أيضاً؛ فمجموعة النظم الحياتية، تشكل في النهاية المناخ الحضاري الذي يغلِّف كل أنشطة الناس، وهي وإن تبدَّت منفصلة، إلا أنها على مستوى بُناها العميقة مترابطة ومتداخلة أكثر مما يُظنّ.

وهذه الرؤية الجديدة هي التي ساهمت في طرح مصطلح (المفكر) والذي من أهم خصائصه فَهْمُ طبائع الأشياء وجوهر العلاقات التي تربط بينها، والمؤثرات التي تتبادلها؛ مما يمكِّنه من تقديم رؤى كلية.

جرت في الماضي محاولات كثيرة من أجل الفصل بين الثوابت والمتحولات انطلاقاً من الاعتقاد أن كلاً منهما متمايز عن صاحبه إلى حد بعيد. واليوم يتجه كثيرون إلى الاشتغال بفهم العلاقة بين الثابت والمتغير، ويرون أن جوهر التطور، لا يقوم على التخلي عن الثابت، وإنما على توفير العلاقة الحية والخصبة التي تربط بينه وبين المتغير.

ويصل الأمر ببعض المفكرين إلى القول: إن (الماهيّات) ما هي إلا هبة العلاقات التي تربط بينها. واكتشاف الماهيات سيكون من خلال نقد العلاقات التي تربط بين الأشياء، ومحاولة اكتشاف علاقات جديدة إلى ما لا نهاية. وكأن هؤلاء يقتربون من أن يصبحوا (لا أدريين) حيال كثير مما يتطلب فهماً ناجزاً!.

من خلال التركيز على ما ذكرناه يشيع الآن في الأوساط الفكرية نوع من الرفض لكل النماذج الجاهزة والأفكار الكلية؛ إذ ليس أمام الناس شيء يسعون إلى تمثله أو التحقق به، وإنما عليهم أن يتجاوزوا كل ما هو موجود، لابتداع نماذج جديدة. وهذه النماذج يجب أن تكون طليقة، وغير محكومة بأي معايير سابقة أو معقولة! وهذا التوجه سيوجد من إبداعات العقل، ومخزون الخبرة الناقصة، ونزوات الهوى خلطة عجيبة، لا ندري بأي اسم نسميها؟!

هـ ـ في عصرنا الحاضر تمّ تغيير كثير من المفاهيم المتعلقة بالنفس البشرية والاجتماع الإنساني، والحياة والموت، والحقوق والواجبات؛ وتم البحث في جذور هذه المسائل، وجذور جذورها، كما تم نزع كثير من أردية التقديس والاحترام عنها؛ ليجد الإنسان ـ في الغرب خاصة ـ نفسه بعيداً عن أي شيء مقدس، قريباً من كل ما هو مادي وغريزي ومصلحي...

كانت النظرة إلى الإنسان عامة قائمة على الاحترام؛ فهو المخلوق في أحسن تقويم، وهو المخلوق الذي سخرت له جميع الأشياء التي حوله...

هذا الإنسان يجد نفسه فجأة ومرة واحدة مسلوباً كل ذلك، فنظرية (داروين) ركّزت في حسّ كثير من الناس انعدام الفواصل بين الإنسان والحيوان؛

فالكل أنواع في مغامرة الحياة الكبرى؛ وكان ذلك ـ كما عبّر أحدهم ـ عبارة عن محرِّض لعمليـة (إعادة حَيْوَنَـة)، فأخذ الناس يعوضون عن فقدهم (مركـزهم الروحي) بالعودة إلى حيوانيتهم في جو من الصخب والابتهاج؛ وارتفع شأن الجسد، وراجت سوق الصور العارية، وزاد استهلاك الأطعمة. . . صحيح أن المسلمين لم ينفعلوا بنظرية التطور على المستوى العقدي، لكن مسهم الكثير مما أحدثته في المجال الحضاري!.

كان الموت مظهراً من مظاهر استسلام الناس لربّ العالمين، وهو حلٌّ حيث لا حل، كما أنه البوّابة الوحيدة للحياة السرمديّة الباقية.

ومهما تفاوت النـاس، فإنهم أمام المـوت سـواء. ومهما طابـت الحيـاة أو قست، فإن الموت سيضع حداً لها، وكان هذا يشكل عامل توازن نفسي على المستوى المجتمعي، ومظهراً من مظاهر العدل الإلـٰهي المطلق. كان الموت هو الغائب الحاضر، وكان كثير من الناس يُعد كفنه ويهيء قبره ويكتب وصيته. . .

أما اليوم فإن النزعة الدنيوية التي تصبغ الوجدان والشعور والسلوك لدى معظم الناس، جعلت النظرة إلى الموت على أنه شيء لا معقول ولا يمكن هضمه أو استيعابه، وصار ينظر إليه على أنه مصدر تحدٍ غير محدود، ويجب على الناس أن يقاوموا أسبابه إلى آخر لحظة. . . لكن هناك يقين بأنها معركة خاسرة، وأن أشكال الاحتياطات الصحية، ومقاومة الأمراض لن تأتي بالخلود، لكنها كثيراً ما تطيل أمد المعاناة.

ارتبـاك عظيم يـواجهه الوعي، وتواجهـه الفلسفة والخطط الصحية، وقلق عظيم يقضّ مضاجع الكثيرين، وكل ذلك من جراء استدبار الوحي، والإعراض عن ذكـر الله. وحين تنظر في سـلوك بعض الناس، وانهماكهم في الملذّات والشـهوات وجمع المال ـ دون قيد ـ وأكل حقوق العباد. . . يتـأكد لديك أن هؤلاء لا يفكرون في الموت، ولا فيما بعد الموت، وإلا فإنك لن تعثر على أي تفسير مقبول لكل ما هم عليه.

كانت رابطـة القرابة والجوار والصداقـة، تعني دائماً نوعاً من العطاء غيـر

المشـروط، كما تعني وجود فائض اجتماعي، يزيِّت العلاقـات بين النـاس، ويضفي على الحياة بعض المعاني السامية. المقابل لذلك، هو لمسات الحب والحنان والتقدير، ومواقف التعاون والمروءة والنخوة. . .

أما اليوم فقد ضعف وجود كل هذا، وصارت العلاقات قائمة في الدرجة الأولى على نـوع من توازن المصالح، وحين يتم التأكد من انعدام المصلحة، فإن كل أسـس القرابة والمعرفـة والصداقة تصبح غير كافيـة لإقامة علاقات دائمـة ووثيقة، وصار من غير الطبيعي أن تضحي في سبيل الآخرين دون أن تلقى منهم تضحيات مماثلة.

أما على مستوى الشعوب والأمم، فإن كل الروابط التاريخية والجغرافية والثقافيـة قد تكون غير كافية عندما يقع غبن حقيقي أو استغلال مكشوف لمنع نشوب حرب أهلية، أو تفكك دولة أو قبيلة؛ وكلنا يذكر الحرب الأهلية التي وقعت بين بنغلادش والباكستان حيث انتهت بتمزق الدولة الواحدة إلى دولتين، بعد أن شعر البنغلاديشيون بنوع من الغبن الاقتصادي والإداري.

المفاهيم التي أصابها التغير والتطور، كثيرة جداً، وحصرها عسير، ويكفي أن نعلم أننا نعيش حياة لم تتبدل، ولكن كل شيء فيها قد تغير؛ ومن المهم أن نفكر في أبعاد ذلك التغير، وتأثيره في إبعادنا عن أصولنا الحضارية والأخلاقية. ومهمة هذا الكتاب استهداف إضاءة ذلك وتعظيم الوعي به.

سادساً ـ العنف وإرادة القوة:

يمكن القـول: إن الحضارة الحديثـة، نزعـت من الإنسان قلبه، فأصبح من غير مشـاعر، وأضعفت لديه سلطان الضمير، والخوف من عقوبة الآخرة، وأحلت محله الأعداد الهائلة من القوانين والعقوبات والجند، ومع ذلك فأعمال العنف والجرائم المختلفة في تزايد مستمر.

لم يحدث ذلك من غير أساس، ولا من فراغ، وإنما كان ثمرة طبيعيـة لبعض النظريـات العلميـة والفلسفيـة والأخلاقية التي ركَّزت في وعي الإنسان

الحديث حتمية الصراع في العالم والذي يحتم توفير الطاقة التي يحتاجها الانتصار في معارك، لانهاية لها. أوضح (داروين) في نظريته أن المجتمع الإنساني والطبيعة البيولوجية شيء واحد. وبناء عليه لا بد أن يحكم هذا المجتمع الإنساني القوانين نفسها: قوانين المنافسة والصراع والعدوان؛ وبالتالي لابد أن تتقاتل الأمم بعضها مع بعض من أجل البقاء، مثل الكائنات العضوية، وإلا فسوف تتعرض للفناء!.

وهذا (نيتشه) يرى في جملة ما يراه في مبادئ الأخلاق أن الخير كل ما يعلو في الإنسان بشعور القوة، وإرادة القوة، والقوة نفسها. أما الشر فهو كل ما يصدر عن الضعف. ويرى أن الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا: هذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية؛ أن يُساعَدوا أيضاً على هذا الفناء. وأن أشد الرذائل ضرراً الشفقة على الضعفاء العاجزين. أول صفات الإنسان الأعلى هي البطولة والنضال في سبيل مستوى أعلى باستمرار. ولهذا كان أبغض شيء إلى (نيتشه) السلام. والحرب عنده أقدس شيء.

لاشيء أخطر على المجتمع من الشفقة على المنحلين والضعفاء العاجزين؛ لأن الشفقة تقوم عقبة في سبيل قانون (الانتخاب الطبيعي) الذي يقضي بألا يبقى غير الصالح للبقاء!.

ولا تختلف فلسفة (سبنسر) في هذه المسألة عن مفهوم (نيتشه)، ومفهوم الصراع وإرادة القوة جديد على المجتمعات النامية ـ ولاسيما الإسلامية منها ـ فالقيم السائدة فيها هي الشفقة والرحمة والمحبة والعناية والتضامن بين أفراد المجتمع، لكن الوضعية الحضارية ـ العامة القائمة على تضخيم المكاسب والتمدد باستمرار ـ تشجع على التنافس والتصارع، وتجاوز الضعفاء والمساكين.

في خضم القرن العشرين ـ قرن التقدم والرقي وغزو الفضاء... ـ ينفجر العنف في كل مكان نتيجة انتشار النموذج الفكري والمعرفي الغربي الذي يمجد القوة وأسبابها. في هذا القرن قام أكثر من (١٣٠) حرباً، وقُتل فيها أكثر من (١٢٠) مليون إنسان!.

الإنجاز الإسلامي الضخم في زمان النبي ﷺ والذي تمثل في تحرير مساحات واسعة من الأرض وإدخال أعداد كبيرة من الناس في الإسلام، ذلك الإنجاز لم يخسر فيه المسلمون سوى (٢٥٩) شخصاً؛ وكانت خسائر المشركين نحواً من (٧٥٦) شخصاً فقط! وذلك لأن الإسلام يدعو إلى الرحمة ونشر الدين بالكلمة الطيبة والمثل الأعلى، ويرى أن استخدام القوة هو آخر الحلول، ولا يتم إلا في حدود الحاجة.

العالم الغربي المشبَع بروح التنافس والعنف، والجاهز للعدوان يعرف كيف يحقق مصالحه مع دعوته إلى سيادة الشرعية الدولية، ونصب موازين العدالة؛ من خلال ما يمكن أن نسميه بسياسات الفتح السلمي وسياسات الأمر الواقع.

سياسات الفتح السلمي، تقوم على أساس تحقيق المصالح عن طريق الاعتماد على النظام والقانون والمسالمة الدولية، في إطار فلسفة تقليل الخسائر البشرية إلى أدنى حد ممكن. فإذا كان بإمكان الغرب أن يصل إلى أهدافه دون إراقة دماء، تصبح الحروب شيئاً لا معنى له؛ فالصيد اليوم دائماً بشباك من حرير. والرصاص المستخدم هو رصاص الرحمة فقط. وكل شيء بقانون، القتل والنهب والسلب والدعارة... لكن دون أدنى قاعدة أخلاقية!.

لماذا استعمار البلدان المستضعفة، وقد أثبتت التجارب العديدة أن الدول المستَعمرة التي نالت استقلالها، صارت شعوبها أكثر تعلقاً بالمستعمِر وأكثر حاجة إليه من قبل؛ فالسياحة لأبنائها في بلاده، والآلات تستورد من عنده، والطلاب يبتعثون إلى جامعاته... إذا كان بإمكانك جعل الآخرين يأتون إليك، فلماذا تذهب إليهم؟.

أما سياسات الأمر الواقع، فهي من إفرازات الفلسفات (النفعية) و(البراجماتية) التي تشرَّبها الغرب. وتلك السياسات تقوم على العمل الدائب المتدرج والمتخفي، من أجل إيجاد واقع معين، ومحاولة تثبيته بكل وسيلة

ممكنة. ومعطيات (مرور الزمن) تخدم هذه السياسات، حيث يصبح المتضررون من واقع سيئ مشلولي الحركة بعد ترسخه وحاجته إلى جهود كبيرة كي يتغير؛ وهم لا يستطيعون بذل تلك الجهود؛ لأن الواقع الصعب نفسه، يحول دون التمكن من القيام بالأعمال الكبيرة...

في البوسنة ترك الغربُ الصرب يفترسون المسلمين هناك، حتى إذا أُنهكت الضحية، وشُرِّد مئات الألوف، ودمِّرت البيوت والمصانع، جاء الغرب ليأخذ الواقع بعين الاعتبار، ويُفَصِّل اتفاقية (دايتون) على قامة الواقع البوسني المأساوي! ويعيد الكرَّة اليوم في (كوسوفو) أيضاً. وهذا ما يفعله اليهود في فلسطين السليبة؛ فقد أَصَمُّوا آذانهم عن كل القرارات الدولية إلى أن أوجدوا واقعاً يصعب جداً معه تنفيذ تلك القرارات: فأين يذهب مئات الألوف من المهاجرين اليهود وذراريهم وما الذي يمكن عمله حيال ترسانة نووية هائلة، وكيف يستطيع مئات الألوف من الفلسطينيين الاستغناء عن العمل لدى اليهود، وهم لا يرون أي بديل يلوح في الأفق؟.

وهكذا فروح (العنف) تتغلغل في كل شرايين حياتنا المعاصرة، لكن الجسد الذي يحمل تلك الروح أكثر نعومة ورِقَّة، وأكثر مراعاة للقوانين والأعراف الدولية السائدة!.

إن تنبّه المسلمين المعاصرين لهذه الأمور، يوجب عليهم التسلح باليقظة الدائمة، والحذر من (التغيرات البطيئة) التي تتراكم آثارها على نحو خفي؛ حتى إذا صارت إزالتها مستحيلة، تَبَدَّت على حقيقتها وندم الناس حيث لا ينفع الندم!.

سابعاً ـ التحدي والاستجابة:

لا يخفى على أحد اليوم زيادة وعي الناس بمجمل التحديات التي تواجههم والضرورات التي تحط من نسق تحققهم بمبادئهم وقيمهم... وإذا تأملنا في معظم أنشطتنا اليومية وجدنا أنها في الحقيقة ردود أفعال، واستجابات لمطالب

وصعوبات وتحديات، ومن خلال تلك الاستجابات نحافظ على وجودنا، ونُرقِّي مواهبنـا، ونزيد في الإمكانات التي في حوزتنـا. ولعلنا نسلط الضوء على هذه المسألة من خلال الحروف الصغيرة التالية:

أ ـ المثيرات التي تتطلب منا استجابات كثيرة جداً، وما نسميه ردود أفعال نوع من الآلية التي اعتمدها الناس في حفظ العلاقة بينهم وبين الوسط المحيط ونوع من استثمار تلك العلاقة. ونوعية الاستجابة للتحديات والمثيرات، تعد تلخيصاً دقيقاً لفهم المستجيب ووضعيته وعمق تقديره لما يترتب على استجاباته من منافع وأضرار...

كلما كان الإنسـان أقرب إلى البسـاطة في الإدراك، والبدائية في الخبرة والمعرفة ـ كانت استجاباته ذات طابع عفوي، وغير واع، حيث تفرض طبيعة التحديـات، وطبيعة الظروف والأوضاع المحيطـة آنذاك نوعيـة الاسـتجابة، وحجمها وتوجهها.

الإنسـان ذو الخبرة والمعرفـة الجيدة يشعر بلذة الطعام، ويدرك في الوقت نفسه المخاطر التي تترتب على الإفراط في تناوله. هو يدرك جمال العمل اليدوي وإنسانيته، ويدرك أيضاً ما ينفقه من جهد ووقت زائدين على ما يتم إنفاقه في حالة استخدام آلة في إنجاز ما أنجزه. هذا الإدراك لم يصبح حقيقة ملموسة لدى كثير من الناس إلا بعد اتساع مساحات الرؤية للأشياء المختلفة، أي بعد أن حدث نوع من الوفرة في المعارف والخبرات والتجارب؛ مما جعل الإنسان يرى في آن واحد ميزات الأفعال والأشياء وعيوبها، ومردود الاستجابات وتكاليفها.

جهل الناس يوقعهم أسرى في فلك المثيرات، فيقتربون بذلك من الحيوان الذي يتصرف على هدي من البرمجة الغريزية التي أودعها فيه الخالق ـ تبارك وتعالى ـ. الإنسان يدرك ما يحدثه تناول المخدر من إدمان، ويعرف أن حالـة الضيق والعَـوَز التي تصيـب المدمن هي بسـبب الحرمـان منه. أما الحيـوان الراقي ـ القرد ـ فإنه يستطيع الربط بين المخدر والمتعـة، لكنه لا يسـتطيع الربط بين الضيق الشديد الذي يجده وبين الحرمان من مخدر أدمن تناوله؛ إن عقله

لا يستطيع الربط بين سلسلتين مختلفتين.

إن تعقد الحياة الراهنة جعلت خبرات الناس ـ في كثير من الأحيان ـ غير كافية لإدراك طبيعة التحديات، وإدراك ما تستحقه من استجابات، مما يعني أننا سنرى المزيد من ردود الأفعال غير الراشدة، وغير المتزنة.

الحضارة الحديثة رفعت من وعي الناس بأمور كثيرة، لكنها قد أحاطت الإنسان بكميات هائلة من الأشياء التي يشعر أنه بحاجة إلى اقتنائها أو استهلاكها، مما أضعف من إرادته، ونقل مركز التحكم من الإنسان إلى الأشياء؛ وبذلك تم إجهاض الكثير من فاعلية الوعي الذي وفرته الحضارة الحديثة. الناس يدركون اليوم مخاطر (الإيدز) لكن ضعف إرادتهم جعل قدرة إدراكهم لمخاطره ضئيلة القيمة في كفهم عن أسباب الإصابة به؛ إذ إن هذا المرض الفتاك، ينتشر بسرعة متزايدة. وتذكر آخر الإحصاءات أن نحواً من ستة عشر ألف شخص ينتسبون يومياً إلى (نادي الإيدز) ليدخلوا بعد مدة في مرحلة المعاناة من آلامه الرهيبة!. وهكذا تأخذ الحضارة الزائفة باليد اليمنى ما أعطته باليد اليسرى!.

ب ـ مما يتعاظم به الإحساس في عصرنا هذا اختلاف النظرة إلى (الأزمات) التي تعرض للناس في حياتهم؛ فقد كان وعي الناس في القديم، لا يكاد يدرك ما تمثله الأزمات والمشكلات العويصة من مثيرات ومحرضات على التغيير والارتقاء، وما تتيحه من فرص جديدة للنمو؛ وإنما كان يدرك الوجه المظلم من الأزمة ـ وجه الإعاقة والإحباط والخسارة. وهذا في حد ذاته كافٍ لإشاعة روح الاستسلام والخنوع لأحداث الحياة المعاكسة.

خبرة أبناء زماننا بالتاريخ، وبالكثير من خبايا الوضع الإنساني العام أرتهم الوجه الثاني للأزمات والمشكلات؛ مما جعل كثيراً من المفكرين يعدون فقد (التحدي) مشكلة عويصة، حيث نشأ اليوم مصطلح جديد هو (خيانة الرخاء) ويرون أن من الأسباب الكبرى لتخلف (أفريقية) عدم وجود تحديات، تدفع إلى الكدح والعمل؛ فالماء والغذاء متوفران ـ في الماضي ـ واعتدال المناخ، لا يحوج الناس إلى البحث عن أسباب التدفئة... وهذا كله جعل الإنسان

الأفريقي، يشعر ألا شيء يدعو إلى العجلة والكد وتنمية المهارات، ما دام الحد الأدنى من وسائل العيش متوفراً.

في الماضي كانت الطاعة العمياء لربِّ الأسرة أو مدير المصنع أو الكبير في السن دليلاً على التهذيب والوفاق والتضامن. . . فهي دائماً بشرى خير؛ لكن الأمر قد اختلف اليوم، حيث يرى كثير من المفكرين أن ما كان يراه الناس من محاسن للانقياد الأعمى، ما هو إلا فوائد زائفة، وإن من حسن حظ رب الأسرة، ومدير المصنع . . . أن يجد من يقول له (لا)، ومن يصحح له خطأه، ومن ينهاه ويحذره؛ لأن ذلك قد يكون الوسيلة الوحيدة لردعه عن كثير من الأخطاء والتجاوزات، كما أنه أفضل وسيلة للحيلولة دون توافق شكلي، لا يخفي تحته إلا القهر والاستبداد والتبرم والضغائن. . .

جـ - مما صار معترفاً به في سياق التحدي والاستجابة أن مجابهة التحديات بشجاعة هي أفضل طريقة للمحافظة على الوجود، بل تنميته والارتقاء به. الإنسان يتشوق دائماً إلى الطلاقة وتوسيع إمكاناته إلى أبعد مدى ممكن، لكن (الضرورات) وقيود الزمان والمكان والمصالح المعاكسة؛ تحد دائماً من عالم الممكن، وتخفِّض طموحاتنا وأحلامنا، أي تتحدانا، وتستنفر قوانا، كي نتجاوزها، ونظل في حالة من الانطلاق غير المحدود. . .

لكن المشكلة أن الإنسان لا يملك دائماً من الوعي وقوة الشكيمة ما يمكِّنه من الاستمرار في المواجهة، فهو لا يستنفر في العادة كل قواه إلا عند حدوث صدمة قوية، أو عند بلوغه حدود الخطر المحدق. . . إنه إنسان ميّال إلى العطالة والاقتصاد في الجهد إلى أبعد حد ممكن.

صار واضحاً لدى كثير من المفكرين أن أزمة الاستفادة من التحديات التي يواجهها بنو الإنسان كثيراً ما تتمثل في (التكيس) و(التكيف). أما التكيس فإنه يتمثل في أن يقلل الإنسان علاقاته، أو يوقفها مع بيئة غير مواتية انتظاراً لتحسن الظروف. تلك هي حال كل من يستسلم للإخفاق، فينفض يديه من كل المشكلات التي تهز العالم، وينكبُّ بعناء (الأرضة) وإصرارها على بناء عشه، وإحاطته بسياج

متين، ويرفض الالتزام بأي شيء، ويتملص من مسؤولياته بلباقة. إنه مثل بعض البذور حين تعجز عن الهرب في الفضاء، تبتدع استراتيجية، تتيح لها التحرر من مؤثرات البيئة بالتشرنق في وسط محمي، والإبقاء على المبادلات الخارجية عند أدنى حد ممكن.

كثير من مسلمي اليوم يُظْهِرون انعزالاً عجيباً تجاه المشكلات والأزمات المعاصرة، ولا تسمع منهم إلا مر الشكوى، دون أن يقوم الواحد منهم بأي عمل إيجابي؛ مع أن أمامهم الكثير مما يمكن أن يعملوه لو أرادوا. والنتيجة هي تراكم المشكلات، وتناسل التحديات؛ لتتعاظم التركة الثقيلة التي سَتُنْتَحِف بها الأجيال القادمة!.

أما التكيف فهو تحمل آلام المشكلات إلى مالانهاية، وإبداء طاقة احتمال غير محدودة تجاه التحديات، دون التفكير بأن شيئاً ما يمكن تغييره أو الخلاص من شره. والحجة الدائمة: ليس في أيدينا أن نفعل أي شيء، ونحن على كل حال أحسن من غيرنا، ولا بد أن تتبدل الأحوال يوماً ما!

على مدار التاريخ كان معظم الناس يتعاملون مع مشكلاتهم على أنها شيء طبيعي؛ فقد ظلت النسوة تكنس البيوت وهن يحنين ظهورهن عشرات القرون، إلى أن جاء من وضع عصا للمكنسة، حتى يكنس بها الناس وهم واقفون دون انحناء؛ وما ذلك إلا لأن الناس لم يفكروا في التطوير، ولأن فكرة: «ليس بالإمكان أبدع مما كان» كانت تحكم كل رؤاهم الحضارية.

هنا يأتي دور المفكرين الكبار والعلماء الربّانيين الذين ينقلون المشكلات إلى حسِّ الناس وأعصابهم، والذين ينشرون من صور المقارنة ويبدعون من مقولات التنظير ما يجعل الناس يرون الفارق بين الصواب والخطأ، والكائن وما ينبغي أن يكون، والطبيعي وغير الطبيعي...

إن جوهر الضرورات والقيود والتحديات، لا يقوم في طبائع الأشياء بمقدار ما يقوم في نوعية علاقتنا بها. والواجب أن نفقه تلك العلاقة كي تكون استجاباتنا للتحديات راشدة ومكافئة.

ثامناً ـ انتشار نظام التجارة :

نظام التجارة هو أحد النظم التي اخترعها البشر لتبادل المنافع وسد الثغرات المعيشية، وبالتالي تنظيم العنف، وضبط الحقوق. نظام التجارة قديم، بزغ فجره يوم شعر الإنسان أنه لا يستطيع أن يزرع، أو يصنع كل ما يحتاج إليه، ويوم شعر أنه لا يستطيع دائماً أن يستهلك كل ما ينتج. . .

أثبت نظام التجارة في عصرنا أنه أقوى النظم جميعاً؛ ومن النادر أن يجمع الإنسان بينه وبين أي نظام آخر في حياته دون أن تكون الغلبة لصالح النظام التجاري، فإذا كان الإنسان معلماً وتاجراً، أو طبيباً وتاجراً، أو صانعاً وتاجراً. . . فإن صفة (التاجر) ستغلب عليه بكل ما تقتضيه من فهم وحركة وأخلاق وأدبيات . . ويبدو أن الآفاق غير المحددة من النمو وجمع الثروة التي تعد بها التجارة، هي التي منحتها هذه الجاذبية. وفي النهاية فإن تأثيرها الشديد يأتي من صلتها بالمال الذي أصبح المحور الأساسي لفلسفة العيش في حياة معظم شعوب الأرض.

وتشهد خبرات عدة أن النظام التجاري قادر على تطوير معظم جوانب الحياة، وترك بصماته عليها، حتى الجوانب التي يظن أنها تطوِّر التجارة، ولاتتأثر بها، مثل المجال (الأكاديمي) فقد ظلت جامعتا (أكسفورد) و(كامبردج) تخنقهما القرارات الشديدة التحفظ والجامدة في منتصف القرن السابع عشر، وجاء التجديد لمناهجهما وخططهما الدراسية على أيدي التجار الجدد الناجحين. الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات والعابرة للحدود، تركت آثاراً هائلة في الثقافة والسياسة والاقتصاد، وهي في الحقيقة أشبه بحكومات الظل في سائر أنحاء العالم، وهناك منها اليوم نحو من (٤٠) ألف شركة، تملك أو تسيطر على نصف الإنتاج العالمي تحديداً!.

عاشت البشرية معظم أيام حياتها السابقة دون أن تعرف (النقد) وكان تبادل السلع، هو السائد بين الناس، وكان يُشعر بنوع من التكافؤ ـ الظاهري على الأقل ـ بين الناس؛ لكن الوضع اليوم قد تغير، فالسلطة التي يتمتع بها الشخص اليوم تُعتبر، وتقوَّم بكمية النقد التي يستطيع التصرف بها، وصار المحروم من النقد،

يشعر بالضآلة والتلاشي في زمان انتهت فيه المجانية المطلقة أو كادت . . .

طوفان المعلومات الذي أغرق البيوت، يُشعر الكثيرين بالحسرة والحرقة حيث يرون بأم أعينهم الثروات الهائلة المكدَّسة لدى قلة محظوظة من بني البشر، على حين أن معظم سكان الأرض، هم على درجة من درجات البؤس والفاقة.

اليوم تتزايد نسبة العلاقات الاجتماعية التي يحكمها مفهوم (البضاعة) ومن شكل إلى شكل يتسع ذلك الجزء من حياتنا الذي يقع تحت سلطان المال؛ فكثير من الناس، يتخذ مما ظاهره تواصل وتوادد سلَّماً للوصول إلى أغراض نفعية محضة. وصار من المألوف أن نسمع من يقول: النجاح نجاح علاقات. ولِمَ لا و(العلاقات العامة) تدرس في المعاهد والجامعات مما جعلها أشبه بالأعمال الهندسية منها بمبادرات عفوية عاطفية!.

منذ قديم الزمان اقترن مفهوم التجارة بالسفر والترحال والمغامرة، وفي عصرنا زاد كل ذلك إلى حدود مخيفة، فسهولة المواصلات، والخدمات الضخمة التي تُقدم لمن معه مال، أينما حطَّ رحاله، شجعت على التنقل، وخففت بالتالي من فكرة الارتباط بالوطن والأهل. وهناك من ينظر اليوم إلى الزواج على أنه قيد، لا معنى له(!) يعوق حركة الارتحال، وما تفرضه التجارة من ارتباطات وأسفار . . .

إن من آثار تضخُّم نظام التجارة الميل الشديد إلى (الشيئية) ومحاولة (تنميط) كل شيء من أجل تسهيل تبادله، وهناك حركة متنامية لبيع أعضاء الأموات، ومن هم مشرفون على الموت؛ وغداً سيتم إنتاج وتسويق (قطع غيار) بشرية بالجملة والمفرَّق، ولا يدري أحدكنه ما هو قادم في هذا السياق!.

نظام التجارة يُشيع اليوم خُلُق (الصفقة) الخلق الذي يميل إلى التركيز على المحاسن والميزات، وإخفاء العيوب، والشكوى الدائمة من سوء الأحوال، واتباع الحلول الوسط وهندسة وضعيات التلفيق والمساومة، وهذا ما نلاحظ نموه

في مجتمعاتنا، حيث صارت الحقائق والمعايير النقية المحايدة قليلة؛ لأنه تم توزيعها بين البائع والمشتري. . . إنه التبادل؛ ولذا فإن كثيراً من الأقوال والأفعال، يمكن وصفه بأنه خطأ باعتبار طرق، وصواب باعتبار طرق أخرى؛ وذلك نتيجة الميوعة في التصوير والانتماء. إنه قول محسوب، وفعل مدقّق، يبتغى منه في النهاية الربح لا الخسارة، والنمو لا الانكماش!.

كما يقتضي نظام التجارة المزيد من الترحال، يقتضي أيضاً المزيد من (اللياقة) في الجسم والهندام والكلام والإدراك؛ فكل ذلك سيكون عوناً على النجاح في التسويق والمنافسة التجارية. وذلك ضروري أيضاً للحيازة على (القَبول الاجتماعي) إذ إنه هو البوابة التي يلج منها كل من يريد أن يحيا في قلب النظام التجاري، وليس على هامشه.

على كل حال المجالس اليوم عامرة بأحاديث التجارة والمكاسب المادية، وقد صار الحديث عن (الأشياء) هو الحديث عن العالم بأسلوب جديد! لم نرد من وراء هذا ذم التجارة، ولكن التحذير من التطرف والمبالغة في الانسياق خلف نظامها النفعي، ومحاولة فرز الأعراض السيئة التي تصاحب كثيراً من الأنشطة والأعمال؛ وإلا فإن الضرب في الأرض، وكسب لقمة العيش وعقد الصفقات الكبرى ـ ليس شراً ولا عاراً، وذلك على كل حال أشرف وأكرم من الحاجة إلى الناس وجمع المال عن طريق الرشوة والنهب واللصوصية ـ وهذه الأخيرة أنواع ـ وكل الأعمال في النهاية منوطة بمقاصدها وصوابها، ومدى مساهمتها في التوازن العام، الفردي والاجتماعي.

إن مواجهة مخاطر سيطرة المال، ونظام التجارة عبارة عن أجوبة شخصية، وتعود إلى كل فرد في النهاية مسؤولية القرار بالعمل على أن يتقدم الإبداع على السلبية، والدائم على الزائل، وإضفاء اللمسات الإنسانية على كل ما يتصل به، إلى جانب تحقيق الغنى الروحي والخلقي، واستعادة التعاطف والتضامن الأخوي. . . مما هو ضروري لحياة جديدة ذات معنى.

تاسعاً ـ جنون الاستهلاك:

لم يحدث في التاريخ أن نجح مجتمع بشري في تأمين حاجاته وكمالياته كما نجحت مجتمعات عصرنا الحاضر؛ فالفتوحات العلمية والتقنية والاستغلالية لموارد البر والبحر ـ وغداً الجو ـ مكنت الإنسان من توفير سلع وخدمات، لو ذُكرت للناس قبل نصف قرن من الآن، لظنوها ضروباً من الوهم والخيال!.

ونتيجة للإفلاس الروحي الذي لم يسبق له مثيل أيضاً، قام الناس بإحلال الشهوات وأصناف المتع محل السعادة القلبية والإشراق الروحي، فحينما شعر الإنسان باليتم العقدي والانتمائي، تحوَّل إلى مستهلك، وصار رفع مستوى المعيشة هدف الحياة الأكبر، كما صار التقدم الاقتصادي كبير أصنام العصر. حين تم اختزال التقدم العام ـ وهو بالطبع روحي ومادي ـ إلى النمو الاقتصادي وحده، أخذت أنشطة الحياة تتمحور بالتدرج حول هدف أعظم نهائي هو: مزيد من العمل من أجل مزيد من الإنتاج من أجل مزيد من الاستهلاك من أجل مزيد من المتعة!.

لم يكن الاندفاع نحو الاستهلاك العظيم ناجماً عن التعويض عن انهيار المركز الروحي للإنسان الغربي فحسب، بل كان إلى جانب ذلك نتيجة ما تقضي به وتيرة النمو التي تخضع لها اقتصادات البلدان المتقدمة من ضرورة إيجاد احتياجات متجددة، وتنشيط الرغبة في تلبيتها، باستخدام الدعاية وفتح أسواق جديدة للتصدير، وخفض مدة صلاحية السلع. الدعاية في الأعمال التجارية، تؤدي دوراً مهماً اليوم في فتح شهية الاستهلاك والتبذير، وتبديد الموارد والثروات. وتذكر بعض الإحصاءات أن أمريكا أنفقت عام ١٩٩٦ نحواً من (٨٤) مليار دولار في الدعاية والإعلان عن السلع والخدمات. وهذا الرقم يكفي لإطعام عشرة من الشعوب التي تتضور جوعاً!. كما تذكر إحصاءات أخرى أن مجمل ما يتم إنفاقه على الدعاية الآن في العالم قد تجاوز (٣٥٠) مليار دولار سنوياً.

ويؤسفني القول: إن فن الدعاية لدينا، يسير باتجاه النمط الغربي، مع أنها تؤثر تأثيراً مباشراً في حجم الادخار الوطني في وقت نحن بأمس الحاجة فيه إلى

رؤوس أموال جديدة وجيدة من أجل توفير فرص عمل لملايين الشباب المسلمين العاطلين عن العمل.

قد كان الناس على مدار التاريخ ينتجون ما يحتاجون إلى استهلاكه، من أجل إبقاء مسيرة الحياة مستمرة، لكن الذي أحدثته الفلسفة الرأسمالية وأدبياتها، وطيوفها النفسية والفكرية، هو الرغبة في الاستهلاك من أجل الاستهلاك! وهذا أدى إلى تسارع نضوب موارد المعادن، والطاقة غير المتجددة، كما أدى إلى تلويث الهواء والماء، وتسخين حرارة الأرض؛ مما ينذر بأوخم العواقب. ولو قدر لسكان الهند والصين أن يسلكوا المسلك الاستهلاكي الذي يسلكه الغرب ـ ولا سيما أمريكا ـ لاختنق العالم في عشر سنوات!.

قد انتشرت بسبب التلوث الأمراض الخطيرة، وهناك بعض الأرقام المخيفة في هذا الشأن، فأمراض السرطان يعود ما بين (٨٠) إلى (٩٠٪) منها إلى تلوث البيئة، كما أن ارتفاعها يكاد يمضي على وتيرة ثابتة، هي في حدود (٣٪) سنوياً. سوف يطرح العالم قريباً في كل سنة ما يكفي لطمر عاصمة ـ مهما كانت كبيرة ـ بأكوام من الفضلات والمخلفات ـ وبعضها سام ـ سماكتها مئة متر!.

مما يؤسف له أن العالم الإسلامي يسير في الطريق عينه الذي تسير فيه الدول الصناعية من استهلاك وإسراف؛ بل إننا قد تجاوزنا نمط المعيشة الغربية في بعض الجوانب، مثل ما ينفق على الحفلات والمناسبات والولائم، ومثل ما يتم استهلاكه من قبل كثير من النساء على شراء الثياب، وعلى الحلي وأدوات الزينة...

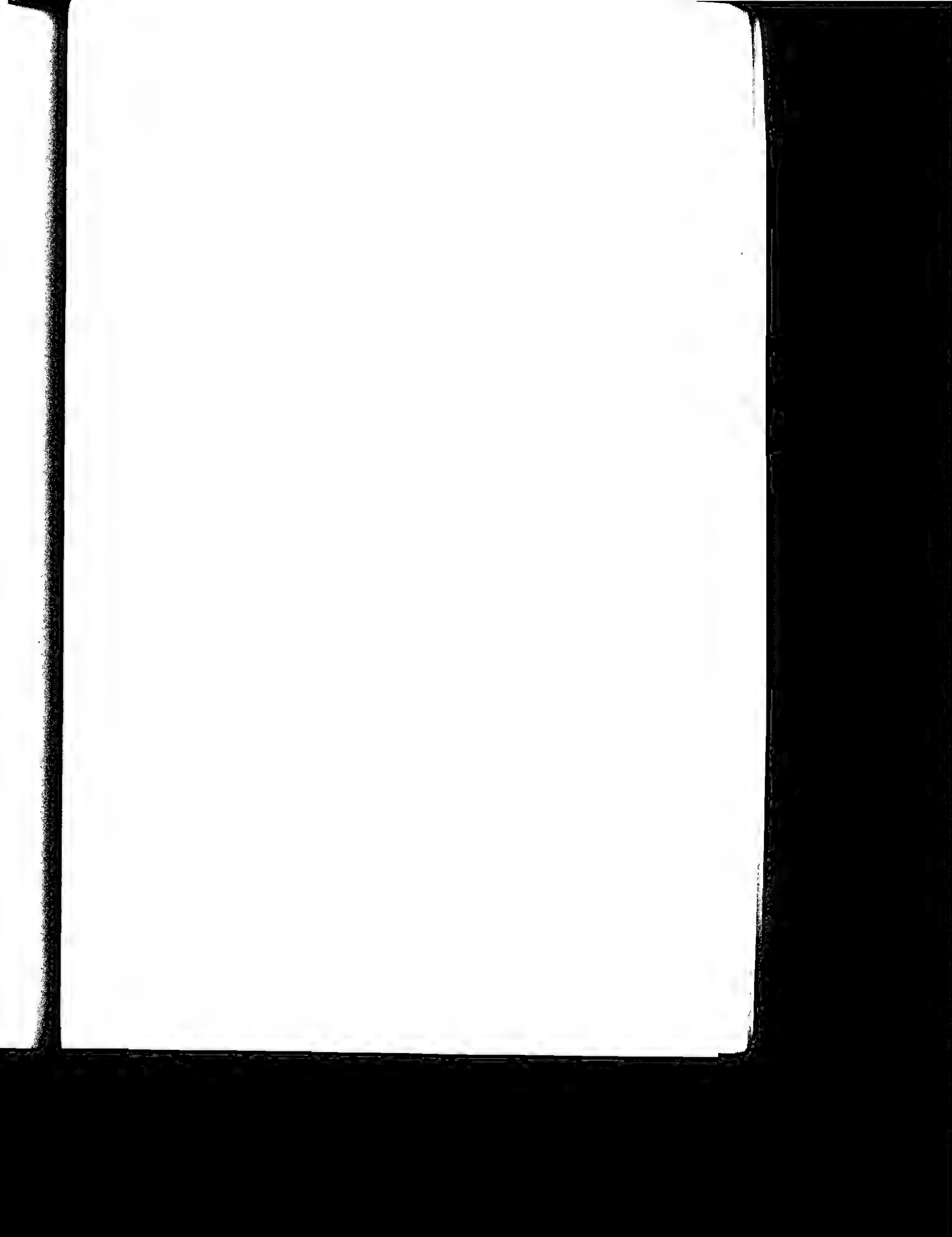
لدينا الكثير من النصوص التي تدعو إلى ترشيد الإنفاق، والتنفير من الإسراف والتبذير، على نحو ما نجده في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الإسراء: ٢٧] بدافع حب التنعم، وبسبب من عدم الشعور بالمسؤولية، صار القليل من المسلمين من يتعظ بقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨]. وصار كثير من الناس يحتج بـ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١].

ليس ثمة مسوغ مقبول لانجراف المسلم في التسابق على إرواء حاجات الجسد، ما دام يعتقد أن الآخرة، هي دار العيش الحقيقي، وما دام يعتقد أن الله ـ تعالى ـ سائله عما استخلفه فيه من مال، وما دام يعتقد أن حماية البيئة، والمحافظة على موارد الأرض مسؤولية من مسؤوليات المسلم. . . فهل نستطيع أن نخطو خطوة إلى الوراء على صعيد أنماط سلوكنا وعيشنا؛ كي نحفظ ما تبقى من طاقة الحياة، وكي نعطي العظة والقدوة لمن هم بحاجة إليها من الشعوب المترفة التي تبلَّد لديها الحسّ تجاه مسؤولياتها الكونية؟. ونسأل الله المعونة والتوفيق.



البَابُ الثَّانِي

العَيْشُ فِي الزَّمَانِ الصَّعْبِ



الفصل الأول

عصر العيش الصعب

هذا العنوان قد يكون عسير الفهم على بعض الناس؛ إذ كيف يستقيم أن نشكو من صعوبة العيش في زماننا ونحن نـرى أشـكال الخيـرات والمرفهـات، كمـا نـرى سـهولة الاتصال والانتقال، وانتشار المؤسسات التعليمية والتربوية، وتعدد الخيارات أمام الإنسان في كل شأن من شؤون الحياة. . . ؟.

لا ريب أن كل هذا صحيح، لكن لا بد من القول: إن كل هذه الأشياء، لاينبغي أن تُرى من خلال منظور محدود، أو من خلال رؤية بعض الناس، وإنما من خلال معايير قيمية توازنية شمولية/ وإذا استخدمنا معايير بهذه السمات، فإننا سنجد أن قسماً كبيراً من سكان الأرض، لا يتمتعون بكثير من خيرات العصر الحديث، ولكن تحترق قلوبهم بسبب الصور التي يرون فيها تنعم المترفين وتطلعات المُتْخمين؛ كما يرون بؤسهم الشديد من خلال مشاهدة الهوة التي تفصل بينهم، وبين سكان العالم الصناعي. في العالم ـ كما يفيد تقرير لمنظمة (الفاو) ـ أكثر من مليار نسمة، لايحصلون على كفايتهم من الغذاء، وفي تقرير آخر أن (٦٣٪) من سكان آسيا و(٦١٪) من سكان أفريقية، و(٣٦٪) من سكان أمريكا اللاتينية و(٣٣٪) من سكان الشرق الأوسط، يواجهون حالة الجوع.

المقارنـات، تأتي دائماً بمفارقـات، وفي الماضي كانت هناك فوارق بين الناس في مستوى العيش، لكنها كانت فوارق محدودة، أشبه بالفوارق التي كانت تُـرى بين المتحاربيـن في الأيـام الخاليـة: سـيف بسيـف، ورمـح برمـح وسـهم بسـهم. . . قد تكون سـيوف هذا الجيـش أفضل لكنها في النهاية سـيوف، لا طائرات ولا صواريخ. . .

أما اليوم فمأساة الفقراء والجياع والمحرومين أنهم في مواجهة الحياة المتفاقمة أشبه بمن استعد بقوس وسهم لمواجهة خصم مسلَّح بالدبّابات والصواريخ! .

إن السعادة تنبع من الداخل، أما الشعور بالرضا فيتولد من خلال المقارنة مع الآخرين، وهذا هو سر سخط كثير من الناس على زمانهم وأحوالهم، حيث لا تزيدهم المقارنات إلا بصيرة بسوء أوضاعهم، وانسداد الآفاق أمامهم! .

الناس حين يقارنون أنفسهم بغيرهم قد يكونون على خطأ، إذ من الواجب في أمور الدنيا أن ينظر الإنسان إلى من هو دونه حتى يستشعر نعمة الله ـ تعالى ـ عليه، ويحصل على الرضا، لكن المقارنات ليست دائماً خاطئة، في زمان أصبح الناس فيه أشبه بمواد داخل خلاطة كبيرة، أو داخل كرة مضغوطة ضغطاً شديداً، حيث لا يستطيع أي جزء داخلها أن يتمدد في الفراغ، حيث لا فراغ وإنما على حساب مزيد من الضغط على جزء آخر؛ فترف المترفين، وتوسع المنعمين، لا يمكن أن يتم ـ عند الرؤية المدققة ـ إلا على حساب مزيد من الضنك والعوز في حياة الضعفاء والمساكين.

في عصرنا لم يعد بالإمكان عزل السلوك اليومي للناس عن مستوى دخلهم ودرجة تعلمهم، وما حظي به الواحد منهم من عناية وتربية وتوجيه، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحاً؛ فالإنسان لا يستطيع أن يتقدم في حالات الفقر المدقع، بل إني أقول لا يستطيع أن يعيش وفق مبادئه، كما لا يستطيع أن يحيا في جميع أبعاده وهو يرضخ تحت ضغوط الحياة المعاصرة وتكاليفها الباهظة.

إن شح الموارد حمل كثيراً من الناس على الاختلاس، وقبول الرشوة، واقتراف الكذب والاحتيال، وإراقة ماء الوجه، وتحمل الجور والهوان؛ بل صار كثير من المسلمين يعيش حياة، هي أقرب إلى حياة (النبات)؛ فهو يأكل ويشرب ما يتيسر له، ويتنفس، ويتكاثر، ثم يموت! أما ارتقاؤهم الروُحي والعقلي والخلقي، فإنه قد أمسى من الماضي البعيد! .

سوف يخفف الكثير من آلام الناس إحساسهم بأن مشكلاتهم تتضاءل، وأن أحوالهم تتحسن، لكن المؤسف أن هذا الشعور ليس موجوداً؛ فالمسافات التي تفصل بين المسلمين في البلد الواحد، تتباعد، حيث يجري تبخير (الطبقة الوسطى) لصالح قلة من أصحاب الثروات، وكثرة من المُعْدَمين.

هذه الكثرة تشْعر يوماً بعد يوم أن الحد الأدنى المطلوب لحياة كريمة، أو شبه كريمة، صار مرهقاً، وفوق طاقتهم على الاحتمال. فقد تعقدت أساليب العيش، وزادت أسعار المواد الأساسية، وكثرت التجهيزات التي يعدُّها المجتمع ضرورية، وصار ما يتطلبه الإعداد التعليمي والمهني الذي يؤهل الشاب للحصول على عمل مناسب، عالي التكلفة.

في أكثر بلدان العالم الإسلامي، يحتاج الموظف المتوسط الدخل إلى أن يدخر كل مرتباته التي يتقاضاها خلال عشرين سنة؛ حتى يتمكن من امتلاك بيت، يؤويه مع أسرته! فكيف إذا علمنا أن مرتَّبه لا يكفيه للإنفاق على حياة شبه كريمة سوى نصف الشهر، ويدبِّر نفقات باقِيهِ عن طريق الاقتراض؟!.

في الماضي لم تكن ثمَّة وسائل طبية متقدمة للعلاج؛ فكان الموت يحل كل إشكالات الحالات الصعبة. وأما الأمراض والإصابات الصغرى فتُواجَه بالتحمل والصبر. أما اليوم، فماذا يكون موقف أسرة أصيب أحد أفرادها بعطالة بـ(الكُلى) أو بأحد الأمراض الخطيرة، هل تتركه يموت، أو تسلمه إلى مشفى حكومي كثيراً ما يكون نموذجاً للعوز والإهمال أو تدخله إلى مشفى خاص، تدفع فيه كل ما وفرته، وكل ما يمكن أن تستدينه؟!.

ماذا تكون حال أسرة مسلمة تقيم في مسكن من صفيح ليس فيه ماء ولا كهرباء ولا علاج، على هامش مدينة مترفة، يساوي البيت فيها الملايين؟!.

ستظل مشكلة المشاكل بالنسبة إلى كثير من الشباب المسلم هي (البطالة) الضاربة أطنابها في معظم الدول الإسلامية، والآخذة في التفاقم، حيث الركود العام وصعوبة الحصول على عمل ذي أجر مناسب، حتى قال أحد الباحثين: «إن هناك أجيالاً قد تولد، وتعيش، وتموت دون أن تجد عملاً ملائماً»!.

المشكلة في البطالة أن الأرقام التي تصور قوة العمل، وعدد العاطلين شحيحة جداً. في الدول الصناعية، تسهل معرفة حجم البطالة عن طريق المساعدات الحكومية التي تدفع للعاطلين عن العمل. قد أضحت البطالة صفة لصيقة بخصائص الهيكل الاقتصادي المعاصر؛ ففي أمريكا واليابان نحو من (٣٥) مليون عاطل عن العمل، وهذا الرقم يساوي (١٢٪) من قوة العمل فيهما. لكن قوة الاقتصاد، وكثرة الموارد والضرائب التي تُحصِّلها الدولة هناك، تمكنها من الإنفاق على العاطلين عن العمل وحمايتهم من التسول والانحراف. في العالم الإسلامي الأرقام عن البطالة ـ كما ذكرنا ـ شحيحة، لكن المتوفر منها مخيف. ويذكر بعضها أن نسبة البطالة في الباكستان تبلغ نحواً من (١٩٪)، وفي أندنوسيا (٥٠٪)، وفي أفغانستان (٧٠٪).

وليست مشكلة البطالة محصورة في فقد المرء لمصدر قوته، وإنما يتولد عنها آثار نفسية وسلوكية واجتماعية خطيرة؛ فحين يجلس المرء مدة طويلة من غير عمل، فإن ارتكاسات كريهة تصيب شخصيته باعتباره إنساناً، وباعتباره عاملاً. ويمكن أن يفسد احترامه لنفسه وثقته بذاته. وقد تؤدي البطالة إلى انهيار حياته الأسرية، وتسمم الجو الذي يعيش فيه أطفاله. وهذا كله في كفة، وانغماسه في اللهو مع قرناء السوء، وإمكان إدمانه للمخدرات في كفة أخرى؛ ليصبح في النهاية أقرب إلى المعوَّق والمشوَّه.

إذا تأملنا مرة أخرى في المسافات الفاصلة بين الشعوب الإسلامية والشعوب الصناعية، وجدنا أن تلك المسافات تزيد، والهوة تتسع. وتلك الهوة تتمثل في فاعلية الشخص ومعرفته، وقدرته على التكيف والمرونة الذهنية، وفي مستوى الدخل الوطني والاستقرار السياسي ونوعية الخدمات المقدمة لكل فرد وكميتها، والسيطرة على البيئة.

ولاتتوفر مؤشرات واضحة على كل ذلك، لكن الملموس منها، يبعث على الإحباط. فعلى حين ترتفع أسعار منتجاتهم بصورة مطردة، فإن أسعار صادراتنا، تتدهور، أو تتجمد؛ وهذا يعني أنه يجب أن نصدِّر أكثر حتى نستطيع

الحصول على عين القَدْر من الواردات. في عام ١٩٩١ كان دخل الفرد السويسري (٣٦٣٠٠) دولاراً على حين أن هناك ملياراً من البشر - كثير منهم مسلمون - يكافحون ليعيشوا بأقل من (٣٧٠) دولاراً في السنة!.

قد توقف النمو تقريباً في كثير من دول أفريقية خلال العقد المنصرم، وهبط دخل الفرد في معظم دول أفريقية. جاء في تقرير اقتصادي صادر في جنيف عام ١٩٨٨ أن متوسط الدخل الحقيقي للفرد في العالم النامي قد انخفض بمعدل (٦٪) في المدة التي بين عام ١٩٨١ وعام ١٩٨٧. في حين ارتفع متوسط الدخل الحقيقي للفرد في العالم المتقدم في المدة نفسها نحواً من (١٣٪). مضاعفات هذه الهوة، تظهر، وتتفاعل كلما أخذ الاتصال والانفتاح العالمي في التوسع، وهذا ما نشاهده الآن.

قد نشأت حضارة شديدة الإغراء، تتجاوز فيها - بالضرورة - الحاجاتُ المطلوبة الوسائلَ المتوفرة، وصار الناس بين خيارين، أحلاهما مر: إما العزلة، وبالتالي سيطرة مشاعر التهميش والإحباط، وإما الانخراط في الموجات المادية والدنيوية العاتية. وقد آثر أكثر الناس الخيار الثاني، واستقر في الأعماق من الشعور إحساس بالسطحية، وبالانغماس في استجداء الاستمرارية على أبواب الثقافة القاهرة.

صار الناس يشعرون يوماً بعد يوم أنه لا بد للمرجعية الإسلامية العليا حتى تستطيع الصمود أمام الفلسفة الليبرالية من أن تسهم في تطوير أساليب للتفكير المنتج الفعال، وبناء أخلاقية ناجعة للرقي الحضاري، ووضع (استراتيجية) أفضل، وأكثر ملاءمة للتقدم الاقتصادي والاجتماعي، وإلا فإنه سينشأ لدى كثير من الناس نوع من الازدواجية المقيتة، تمارس في ضوئها الشعائر الإسلامية وفق تعاليم ديننا الحنيف، ويتم تشييد التقدم الاقتصادي والتقني والتنظيمي وفق الأنماط الغربية؛ وهذا ما نلاحظ أنه يتغلغل في مفاصل الحركة اليومية لكثير من المسلمين الآن.

* * *

لماذا زماننا صعب؟

حاولت في الباب السابق تقديم بعض الملامح العامة لعصرنا الذي نعيش فيه، بغية تحسين وعينا بالظروف والنظم والتحديات التي تكتنف حركتنا اليومية. وسأحاول في الأبواب التالية أن أقدِّم بعض الرؤى والأفكار والنماذج والآليات التي تساعد (المسلم المعاصر) على أن يوجِّه إمكاناته، ويُرقِّي مهارته على طريق المواجهة للتحديات المتجددة، وعلى طريق التحول من ساحات الانفعال إلى ساحات الفعل، ومن مواقع الأخذ إلى مواقع العطاء.

إنَّ كل ما ذكرناه في كتبنا السابقة، وما سنذكر هنا في هذا الباب، سيظل محدود الفائدة ما لم يلقَ التجاوب من القارئ الكريم. إن كل ما يقدِّمه الكتاب لا يشكِّل أكثر من خطوة واحدة، والقارئ هو الذي سيخطو الخطوة التالية عندما يُغيِّر في أنماط حياته، وعندما يصبح مستعداً لبذل الجهد والصبر على العمل الشاق.

لماذا زماننا صعب؟

الدنيا دار ابتلاء، ولذا فإن الإنسان سيظل ـ كيفما تقلبت عليه الأحوال ـ في إطار اختبار، أي سيظل يواجه ما لا يشتهيه، وسيظل غير متأكد من الوضعية التي سيؤول إليها على وجه التحديد.

في إطار الابتلاء ليست الوضعية العامة للناس واحدة، فهناك من يشعر أنه مضغوط تحت إلحاح المزيد من مطالب العيش. وهناك من يشعر بدرجة من السعة والارتياح، لكن هناك في كل حال أشياء مشتركة غامضة في حياة الجميع، تسبب لهم نوعاً من المعاناة الشعورية. وتلك الأشياء الغامضة ربما كانت

نابعـة من الضجيج والزحام وزيادة التحديات، وتعقيد النظم وسرعة التغيرات، وانتشار روح التشاؤم، وكثرة الجرائم، وانخفاض الدعم الاجتماعي، وضعف التيار الروحي، والخوف من مفاجآت المستقبل، وضعف الإحساس بالهدف. وربمـا كانت نابعة من مصادر أخرى لا نعرفها. وسيظل لكل واحد منا مع هذه الأمور المشتركة منغصاته ومشكلاته الخاصة.

ولعلّي هنا أسـلّط الضوء على ما أظنـه في جملـة الأسباب المهمة لصعوبة العيش في زماننا هذا، على وجه الاختصار، تاركاً التفصيل لبعض موضوعات هذا الكتاب والرسائل القادمة، بإذن الله تعالى.

١ ـ متّع الله ـ جلّ وعلا ـ الإنسان بالإرادة الحرة في الوقت الذي يخضع فيه الحيوان لخطوط غريزية، لا يخرج عنها. وقد كان الإنسان في الماضي، يشعر فعلاً بحرية إرادتـه، وسيطرته على بيئته المحليـة. وكان لقلة الأشياء والأدوات والنظم المتوفرة وظيفة أساسية في ذلك؛ لكن الأمر انقلب اليوم رأساً على عقب؛ فما توفـر من أشـكال الأثـاث والمرفّهات، وما اسـتقر من النظم والأسـاليب المعيشـية المقنّنـة. . . نقل مركز السـيطرة في الحياة اليومية من الإنسـان إلى الأشياء. وهذا أضعف إرادة الناس، وجعلهم مطالبين بالمزيد من الحركة الدائبة من أجل توفير الأشياء وصيانتها وتبديلها.

إن الإرادة الحرة نعمـة من الله ـ تعالـى ـ لكن حين أضعفتها أساليب الحياة المعاصرة، صارت مصدر تهديد في بعض الأحيـان؛ فالحيـوان المبرمج بخطـوط غريزيـة صارمـة في تصرفاتـه محمي من ضغوط الأشـياء، فهو ـ غالباً ـ لا يصاب بحالات التخمة الناجمة عن النهم في تناول الطعام. أما الإنسـان فقد أصبحت (الوفـرة) فـي الأطعمة لدى بعض الشعوب، تشكل مصدر تهديد للحياة، حيث تتسبب في حدوث عدد من الأمراض القاتلة. قد صار الإنسان يشعر أنه أسير لأشياء كثيرة، وصار من الواجب عليه أن يبذل جهداً إضافياً في تقوية إرادته، وتقوية جهازه النقدي الداخلي حتى يسـترد حريته من جديد؛ وهذا في حد ذاتـه يشكّل مصدر إزعاج.

٢ ـ الاقتراب من المعايير الاجتماعية السائدة في بيئة الواحد منا مصدر للشعور بالرضا، والإحساس بالكفاءة الاجتماعية؛ مما يستلزم من الواحد منا نوعاً من الامتثال لما هو سائد. وهذا يستدعي أن نتصرف تصرفات كثيرة، ونقتني أشياء كثيرة، لسنا مقتنعين بها، ولا نشعر بحاجة حقيقية إليها.

مع تعقد الحضارة وهيمنة الثقافة الغربية الطاغية، تحول الكثير الكثير من الأشياء الكمالية إلى أشياء أساسية؛ فأكثر من (٩٥٪) من أثاث المنزل الآن، كان يُعد في الماضي في جملة الكماليات، وكثير منه لم يكن معروفاً أصلاً، لكن الناس لا يقبلون أية مساومة عليه، ويعدُّون وجوده من مقومات الحياة الهانئة. واقتناء هذه الأشياء صار ـ بالإضافة إلى ذلك ـ مؤشراً على الطبقة الاجتماعية التي يستحق مقتنيها الانتساب إليها. وهذا كله رفع مستوى عتبة الحد الأدنى للعيش المقبول، وزاد بالتالي في صعوبة العيش وتكاليفه، وفرض بذلك على الناس التزامات وواجبات جديدة، ينوء كثير منهم بحملها.

٣ ـ التقدم الحضاري عقَّد مصالح الناس إلى حد بعيد، وصار بذلك ما هو فطري وغريزي لديهم غير كاف لعيش حياة كريمة وسويّة. إن الإنسان يستطيع أن يجري بدافع غريزته دون الحاجة إلى تدريب سابق ـ كما هو الشأن لدى الحيوان ـ لكنه لا يستطيع أن يقود طائرة. يستطيع أن يرمي حجراً دون مران سابق، لكنه لا يستطيع استخدام مدفع . . . وذلك لأن أفق الغريزة لديه لا يلامس تلك المهارات الراقية والمعقّدة. وهذا يعني أن الإنسان اليوم مطالب حتى يحصل على المهارات المطلوبة للعيش أن يتعلم ويتدرب ويستفيد الكثير من الخبرات. وبما أن تكاليف التدريب والتعليم الفني عالية إذا ماقورنت بتكاليف التعليم النظري، فإن نجاحات الدول الفقيرة في هذا المجال محدودة. والإنسان لديها ـ مثل مواردها ـ ما زال خاماً، أي إنساناً بالقوة لا بالفعل؛ كما يقول المناطقة.

٤ ـ يميل الإنسان بطبعه إلى التعامل مع الأشياء الثابتة والساكنة؛ فذاك يؤمِّن له نوعاً من (العطالة) وتوفير الجهد؛ لكن الثورة المعلوماتية، وما يتبعها من تغيير سريع في التقنيات والنظم وأساليب العيش والتعامل والتبادل ـ أدت إلى

تسارع إيقاع الحياة، وإحداث موجات من التجديد الذي يصعب استيعابه على معظم الناس. إنه لا يكاد يُعمم نمـوذج من الحاسـبات الآلية حتى يطـرح في الأسواق نموذج آخر منه أكثر كفاءة وأصغر حجماً وأرخص ثمناً.

التغيّر السريع قسّم العالم إلى قسمين متمايزين: قسم ينظم شعراؤه الأشعار الحماسية التي تتغنى بأمجاد الأوطان، والعادات والتقاليد المحلية... وقسم يتغنى مثقفوه بفضائل (عالم بلا حدود) وميزات الوعي بوحدة الكوكب وعولمة الثقافة... وفي داخل كل قسم من هذين القسـمين أناس كثيرون، يلهثون في متـابعة التغييـرات الجديدة، وأناس يخافون من عواقب التبدل في كل شيء، وأناس يهمشهم التقدم السريع، فيعجزون عن فهم حقيقة ما يجري، لكن السواد الأعظم من البشر يشعرون بأنهم قد غُلِبُوا على أمرهم، أو كادوا، فقد صار الحصان خلف العربة، وعليه الآن أن يجري جهده، وقد كان هو الذي يقودها!.

لا أحد يدري عواقب هذه التبدلات السريعة، لكن الملموس أن على المرء أن يبذل جهداً مضاعفاً اليوم حتى لا يصبح خارج الحلبة كلياً.

٥ ـ الأمن والطمأنينة من المطالب الأساسية، ليس للحياة الهانئة فحسب، وإنما للنمو السـوي للشـخصية أيضاً. وقد امتنَّ الله ـ سبحانه ـ على قريش بإفاضة الرزق، وتخييم الأمن على بلدتهم حيث قال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش].

بضعف الوازع الديني، وضعف الخوف من الله ـ تعالى ـ إلى جانب عجز كثير من الدول والقوانين عن ضمان الأمن للناس انتشرت الجرائم ـ ولا سيما في المدن الكبرى ـ وصار على كثير من الناس أن يبحثوا عن الوسائل التي يحمون بها أنفسهم.

ونتيجة للشعور بالسأم والضجر والعدميّة، فَقَدَ كثير من الناس القدرة على الصبر والتحمل والتسامح، وصار العبوس والتجهم هو الحالة الطبيعية للكثيرين؛

بل انتشر نوع من الجرائم الوقتيـة ، والناتجة عن النزق والبَرم ، والإحساس بالكرب والضغط النفسي .

وقد ذكرت دراسة جرت في (ألمانيا) أن المنحنى البياني لأحداث العنف هناك ، يبدأ بالارتفاع بحلول شهر آذار (مارس)، ثم يبدأ بالانحدار بحلول شهر أيلول (سبتمبر) . وعموماً ترتفع معدلات الجرائم بنسبة (١٥٪) مع ارتفاع كل درجة حرارة مئوية يسجلها المحرار!

وتذكر إحصائية أخرى جرت في (أمريكا) أن كل درجة حرارة زائدة يسجلها الميزان الحراري، تعني ارتكاب (٦,٦) جريمة أكثر لكل مئة ألف مواطن في المعدل الوسطي . وعلى نحوٍ عام يتم ارتكاب (٦٠) ألف جريمة إضافية في العام في الولايات المتحدة عند ارتفاع درجة حرارة الجو درجة مئوية واحدة .

هذه الوضعية لم تبلغ هذا الحد في **العالم الإسلامي**، لكن من الملاحظ أن **(الأمن)** لا يتقدم في معظم الدول الإسلامية، وإنما يتراجع، وهذا يمثل مصدر إزعاج إضافي لإنسان هذا العصر .

٦ ـ لدى كثير من الشعوب النامية شعور **بالعدميّة** والعبث والاستلاب بسبب فقد **العدالة** وتكافؤ الفرص، وغياب القانون في ضبط الحياة العامة .

إن كثيرين من الناس يشعرون بانقطاع الرابطة بين الفعل وجزائه؛ فالتعب لا يؤدي إلى الراحة وإنما إلى مزيد من الشقاء . والمعادلة مقلوبة : الذين يتعبون، لا ينالون، والذين لايتعبون ينالون كل شيء . قد حطَّمت **النخبة الزائفة** التكافؤ بين الفضيلة والسعادة، وبين الكد الشريف والراحة . . . كل ما هو مرسوم سوف يمضي، والصامت والمتكلم سواء؛ فالسكوت إذن أولى . وهذا هو سر **(اللامبالاة)** التي يبديها كثير من الناس . وقد بلغ اليأس من صلاح الأحوال مداه، فلم يعد كثير من المقهورين يبحثون عن المعايير العادلة أو الصحيحة، وإنّما عن أسلوبٍ ما يحصلون به على قسم من **(الكعكة)** المنهوبة . وهم بذلك يقومون بدور المستلَب الذي ضاع شعوره بذاته، فاغترب عنها، وأخذ يتبنّى عقائد الذين

قهروه، واغتصبوا حقوقه، ويتبع (استراتيجيتهم).

إن للناس عقيدتين: **عقيدة نظرية وعقيدة اجتماعية**. العقيدة النظرية تنتمي إلى (المطلق) البعيد عن المصالح والظروف؛ فالمسلم يعتقد أن الكذب والغش والرياء، والسكوت على الباطل محرّمة، لكن من خلال حركته اليومية، ومن خلال خبرته، يقيم موازنات دائمة بين مبادئه وعقائده، وبين مصالحه والضغوط التي تمارَس عليه. وينتج عن هذه الموازنات شيء، اسمه **(العقيدة الاجتماعية)**.
العقيدة الاجتماعية: هي ترجمة لمبادئ المرء ومصالحه، ومركز التوازن بينهما. وهي في كثير من الأحيان أقرب إلى أن تكون انعكاساً للواقع المعيش من أن تكون أفقاً نظرياً.

حين يكون المجتمع مريضاً، ويكون الصدق فيه مجلبة للأذى، وحين يكون الحصول على الضروريات الحياتية، لا يتهيأ إلا عن طريق الرشوة أو اللصوصية والنهب، فإن الحسَّ الاجتماعي، يضعف حيال هذه المحرمات، بل إن الأم تنهى ابنها آنذاك عن **الصدق** ـ الذي تعتقد نظرياً أنه فضيلة ـ إذا كان يسبِّب له الأذى، وتوصيه أن يكون (شاطراً) و(كدعاً) أي متخففاً من القيود الأخلاقية التي قد تسبب له الضرر، أو تفوِّت عليه بعض المنافع!.

حين يكون المرء شريفاً في مجتمع تسوده السرقة، فإن شرفه يصبح عقوبة له، ويجعل مصالحه في مهب الريح، وجهاده في غير عدو... وهذا ما يعاني منه كثير من الناس اليوم؛ لكن **العاقبة للتقوى**.

٧ ـ إن أصحاب الشركات الكبرى، يسيطرون على حركة الإنتاج، ويسيطرون في كثير من البلاد على القرارات الكبرى المتعلقة بـ(التنمية). ومعظم أولئك قد تشبعوا بنهم لجمع الثروات، لا يعرف الارتواء؛ مما أدى إلى ترتيب جديد لأوضاع البشرية، لا تراعى فيه أحوال الموارد ولا البيئة الطبيعية ولا أحوال المناخ...

وهناك اليوم اعتقاد راسخ أن الثمن الذي سيتم دفعه للتنمية المجنونة السائدة سيفوق كل حساب. وقد قامت الأمم المتحدة بجمع أكبر فريق علمي في التاريخ،

وكلّفته بدراسة هذه المسألة التي تتعلق بمصير البشرية جمعاء، وشكلت هذا الفريق الضخم من (٢٥٠٠) عالم، ينتمون إلى بلدان شتى.

وبناءً على التقارير التي قدّموها للمنظمة الدولية، فإن ما هو متوقع، يبعث على الخوف والرعب؛ فالتغيرات المناخية ستسير في اتجاهين متطرفين؛ حيث إن بعض مناطق في العالم، ستشهد الكثير من الأمطار والفيضانات التي ستغمر أراضيها الزراعية، على حين أن مناطق أخرى ستقل فيها الأمطار، ويضربها الجفاف والتصحر.

وثمة دول أخرى سيزداد فيها الصقيع، كما أن أخرى سترتفع فيها درجة الحرارة. وهذا كله سيؤدي إلى تراجع المساحات الزراعية، وندرة الغذاء وانتشار البطالة... ولا أريد أن أخوض في التفاصيل، لكن يبدو أن البشرية انزلقت إلى وضعية، لم يعد بالإمكان التراجع عنها. **إن مأساة الأرض أن مستقبلها واحد، لكن مفاهيم وتوجهات ومصالح الذين يحكمونها، ليست واحدة!.**

حين تشح الموارد، ويصبح الماء والغذاء نادرين، فإن الحصول عليهما سيكون مُكْلِفاً، وآنذاك فإن وضع الناس في المجتمع الواحد، سيكون أشبه بركب في صحراء مجدبة، وقد قارب زادهم وماؤهم على النفاد... إن كل ما يخطر بالبال من التنافس والتشاحن سيقع آنذاك، وقد يصل الأمر إلى ذبح بعضهم للاقتيات به!.

كل ما ذكرناه على سبيل الاختصار؛ مما يشكل مناخ الحياة المعاصرة. يتطلب من المسلم أن يعيد صياغة ذاته وتحسين كفاءاته وعلاقاته، حتى يستطيع مقاومة الضغوط والمغريات، ويتجاوز العقبات التي تعترض سبيله وهو يحاول القيام بأمر الله تعالى وتبليغ رسالة الإسلام. ومهمة هذا البحث وما بعده أن يساعده على ذلك؛ ومن الله الحَوْل والطَّوْل.

* * *

العيش خارج العصر

كان الناس في الماضي يصنعون بيئاتهم المحلية بأنفسهم على المستوى الجماعي. وتأثرهم بما يجري بعيداً عن ديارهم ضئيل للغاية، وقد يكون معدوماً. حين كان الناس يعيشون في الصحارى والقرى الصغيرة، كانوا مغمورين بمشاعر العزلة والاستقلالية. ولم يكن من المألوف أن تتأثر حركة الحياة اليومية في قطر نتيجة اتخاذ قرارات معينة في قطر أخر إلا على نطاق محدود؛ وذلك لأن كل مقومات الحياة الأساسية متوفرة محلياً.

حين عرف الناس **(تقسيم العمل)**، وحين قامت **(العلاقات الاعتمادية)** بين الشعوب على نطاق واسع، أخذ كل شيء يختلف، وصار من الممكن أن يجوع إنسان أو شعب في أقصى الشرق بسبب اتخاذ قرار في أقصى الغرب. هذا التواصل الكوني استدعى ـ بالطبع ـ وجود معايير عابرة للقارات لكل شيء مشترك، مثل الاستيعاب والفاعلية والتأثير وحُسن التصرف والإنتاجية والقدرة على الاحتمال وما شاكل ذلك... الأمم الأكثر حضوراً في ساحات الإعلام والإنتاج والتقنية والسياسة، هي التي تضع معايير ما أشرنا إليه. وبقطع النظر عن صواب تلك المعايير فإنه لا يمكن تجاهلها على نحو تام. حين كان المسلمون يقودون الحضارة، كانوا هم الذين يضعون تلك المعايير، وكان تجاهلها يعني الانعزال عن قيادة الحضارة آنذاك.

العيش خارج العصر لا يحتاج إلى تخطيط، ولا إلى جهد، فهو الأصل. والعيش داخل العصر هو الذي يتطلب الكثير من الفهم والعناء والبذل... إن الذي لا يريد أن يصبح بطلاً رياضياً، غير مكلَّف بأي شيء من تمارين الأبطال.

وإن الذي لا يعبأ بالصحة والمرض والقوة والضعف، ليس مطالباً بأي شيء من التمارين الرياضية؛ وهكذا فالتصرف في الحياة على السجية، دون أي صقل للذات أو ترقية للمهارات أو محاولات للفهم. . . هو حياة نموذجية خارج هذا العصر، وخارج العالم الذي ننتمي إليه.

شؤون هذا العصر طبقات عديدة في شعاب كثيرة متفرقة، واستيعابها على نحو تام غير ممكن، ولذا فالاستجابة التامة لإشراطاته وتحدياته أيضاً غير ممكنة. والمشكلة العميقة التي يعاني منها كثير من الناس في هذا الجانب أن الواقع يتغير على نحو أعقد وأسرع من استيعاب الوعي له. والطروحات الفكرية، تكاد تكون مستخلصات مما يفرزه الواقع من مشكلات، أي لا يتم التنبه لكثير من المشكلات والتحديات إلا بعد أن تصبح حقيقة ماثلة.

العيش داخل العصر، يحتاج أيضاً إلى درجة من الشفافية والمرونة الذهنية، وهما غير متوفرين لدى الأميين ومتوسطي الثقافة، والذين يعشون في ظروف قاسية، حيث تحجب المتطلبات الضرورية للمعيشة اليومية رؤية الناس للمحيط العام، ولقدراتهم الكامنة والخيارات المتاحة لهم على طريق التحسن والاستجابة. لهذه الأسباب وأسباب أخرى فإن معظم الناس في الأرض يعيشون خارج عصرهم، ولا سيما أبناء الشعوب التي يغلب عليها الاستهلاك لمنتجات العصر، دون مشاركة فعّالة في إنتاجها.

سمات الذين يعيشون خارج العصر:

قلة أولئك الذين يختارون العيش على الهامش وهم على دراية بما يفعلون، فالكثرة الكاثرة من الناس تُهمَّش، وتعيش خارج الحلبة بسبب البيئة المحطمة التي يعيشون فيها، فهي غير ملائمة للنمو لأنها إما أن تكون قاسية إلى درجة الكبت الشديد والقهر، وإما أن تكون على درجة من التخلف، لا تمكّن من صناعة الإرادات ولا استنفار الطاقات، وهذا ـ مع الأسف ـ هو شأن أكثر من (٧٠٪) من البيئات المعاصرة.

العيش داخل العصر يعني استيعاب المرء لتحديات عصره ومشكلاته، إلى

جانب الوعي بالإمكانات المتاحة للاستجابة لتلك التحديات ، بالإضافة إلى امتلاك الآلية المناسبة لتحقيق ذلك على هدي من المبادئ والثوابت التي يؤمن بها؛ مما ينتج عنه العيش في غمرة الأحداث والتجديدات والتأثير فيها، والاستفادة من معطياتها.

سنذكر هنا على نحو موجز أهم سمات الشخص الذي يعيش خارج عصره بغية التنبيه على الوضعية البائسة لكثير من الناس، ولنتخذ من ذلك مرشداً لما سنقوله بعد ذلك عن المبادئ والشروط والسمات والأوضاع المطلوبة للعيش داخل العصر.

١ - **بعض الذين يعيشون خارج العصر، مكبّلون بالأوهام**، فهم تارة أسرى للتاريخ، يقيسون عليه الحاضر، ويفهمونه من خلاله، ويستبطنون إمكانية إعادته لنفسه على نحو شبه متطابق. وهؤلاء لا يتعلّقون بالتاريخ فحسب، وإنّما يفهمونه على نحو مشوّه، وهم غير قادرين على الاعتبار به، لأنهم يتعاملون مع مدلولاته وفق مركباتهم الذهنية الخاصة بعيداً عن القراءات والفهوم المغايرة. وبعض الذين يعيشون خارج العصر مكبلون بأوهام **(المثالية)**. فهم يظنون أن ما يجري في الواقع قريب، مما هو مستقر في الذهن، من مُثُل وقِيَم ومعايير، أي يتوهمون وجود نوع من التطابق بين ما هو كائن، وبين ما يجب أن يكون، غير عابئين بما تحدثه الظروف والمصالح والأهواء والشهوات من صدوع بين المبدأ والسلوك والخبرة والواقع.

بعض الذين يعيشون خارج عصرهم مكبّلون **بأوهام المؤامرة**، فهم يرون كل شيء محيك بإتقان وموجّه بعناية ضد توجهاتهم ومصالحهم. ومع أن العالم لا يخلو فعلاً من المؤامرة إلا أن الخطأ يكمن في اعتقاد أولئك أنه لا حول لهم ولا قوة حيال ذلك، مما يوجِد لديهم نوعاً من العقيدة الجبرية، ويشجعهم على التنصل من أخطائهم، وإلقاء تبعاتها على غيرهم.

بعض الأوهام ينشأ من **فهم قاصر للذات والمحيط**، إذ هناك من يعتقد أن بإمكانه وإمكان غيره أن يفعل ما يشاء، فهو ينتقل من مغامرة إلى أخرى متجاهلاً أن

الأمور الشخصية محكومة بإمكانات وموازنات خاصة، وأن القضايا العامة الكبرى محكومة باعتبارات محلية وإقليمية وعالمية. وتجاهل ذلك قد يكون ممكناً على المدى القريب، لكنه مهلك على المدى البعيد. وعلى العكس من هذا فإن هناك من يتوهم أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وكلما فكر في عمل خُيِّل إليه أن الساحة مزدحمة، فالفرص دائماً لغيره، وله التحسر على ما فات!.

لا أريد أن أسترسل أكثر في ذِكْر أصناف المكبَّلين بالأوهام، فنماذجهم تواجهك حيثما تولّيت.

٢ ـ **يظن بعض الذين يعيشون خارج العصر** أن زماننا هذا هو زمان الخفة والنشاط والحركة، **والتخفف من القيود الأخلاقية**، والتغاضي عن صوت العقيدة والمبدأ؛ ولذا فإن نشاطهم اليومي لايعدو أن يكون عبارة عن عمليات صفع على قيمهم ومبادئهم.

قد فقد هؤلاء الدليل والمرجع، واختلطت عليهم الأمور، فطلبوا السعادة والراحة والطمأنينة في أعمال ومواقف لاتجرّ عليهم سوى المعاناة في الدنيا والعقاب في الآخرة. والمؤسف أنهم يخسرون أنفسهم مقابل أوهام الثراء والمتعة التي تتكشف لهم كل يوم عن سراب خادع!.

إن الذي يتمسك بمبدئه، قد يفوته بعض الربح في بعض الأحيان، **لكنه يربح ذاته وآخرته في كل حين**. إنّ هذا العصر صار عصر المصالح والمكاسب الأنانية الضيقة لأن الناس أرادوا له ذلك، وما الكدمات التي في مُحيَّاه سوى انعكاس دقيق لملايين التصرفات والمواقف اليومية لأبناء زماننا.

٣ ـ **الذين يعيشون خارج العصر موزَّعون بين الماضي والحاضر**؛ فهم على مستوى التصورات والمفاهيم أسرى لمقولات ماضية ـ يعجزون غالباً عن التأكد من صحتها ـ وهم على مستوى الحاضر أسرى الهموم والمشاغل. أما المستقبل فلا يستحوذ إلا على القليل من اهتماماتهم وخططهم واستعداداتهم. هؤلاء الناس، لا يدركون أن التغيرات السريعة المتلاحقة، تتطلب أن ننظر إلى أبعد

مدى ممكن؛ لأن البعيد صار قريباً. بعضهم يظن أن التخطيط للمستقبل ينافي التوكل على الله ـ تعالى ـ. وبعضهم يجعل الاهتمام بما هو آت نوعاً من الاشتغال بالتنظير، والانشغال عن الاستفادة مما هو ماثل. ذلك كله جعل الذين يعيشون خارج العصر ينفعلون بالأحداث بدل أن يشاركوا في صناعتها، كما جعلهم يأتون دائماً بعد الحدث.

٤ ـ من سمات الذين يعيشون خارج العصر أنهم يفقدون روح المبادرة الشخصية، فهم ما زالوا ينتظرون من غيرهم نوعاً من الرعاية لهم[1]. إذا حاولنا أن نعمِّق النظر في أحوال عصرنا، فإننا سنجد أن المبادرة الفردية، قد أسهمت على نحو فذ في تكوين النهضة الحديثة، بل يمكن القول: إن مجموع المبادرات الفردية في أي مجتمع هو مقياس دقيق لمدى حيوية ذلك المجتمع، وقابليته للنمو والتقدم.

التربية لدينا ما زالت تركز على تخريج الإنسان التابع، والمعتمد على غيره، على أن الوضعية العامة لـ(التكليف) في الإسلام تؤكد على تنمية روح المبادرة والمسؤولية الفردية، وسلوك طرق الخير مهما كانت موحشة ومهجورة.

٥ ـ أشعة النقد لدى كثير ممن يعيش خارج العصر موجهة دائماً نحو الخارج، فهم غير قادرين على إلقاء نظرة (تقييمية) على أنفسهم وأنشطتهم، وهم يستبطنون في داخلهم نوعاً من الشعور بالكمال والرضا عن النفس، على حين أنهم يدققون في أحوال غيرهم. هذه الوضعية ولّدت مرضاً آخر، هو الترحيب بكل ما يعزز مواقفهم، والابتهاج بكل من يناصرهم، على حين أنهم يضيقون بالمخالف والمعارض. وهذا مخالف لروح العصر، فالمؤسسات والحكومات والجماعات الناجحة في زماننا هذا، تستمد الكثير من عناصر قوتها من كونها تتبع في أسلوب إدارتها وعملها نُظُماً قابلة للمراجعة والتجديد والتعديل؛ ولذا فإنها

---

(١) يُكثر الطفل من استخدام ضمير (أنت): أنت لم تأخذني، أنت لا تحبني...
ويُكثر المراهق من استخدام ضمير (أنا): أنا أضرب، أنا أفعل كذا...
أما الناضج فيكثر من استخدام ضمير (نحن): حيث يغلب عليه شعور الجماعة.

تهتم بوجود (تغذية مرتدّة)[1] من لدن عملائها، وهي لذلك تنظر إلى الرأي المخالف على أنه عامل ثراء وتقويم، ومساعد مهمّ في إصلاح الخلل وتلافي القصور.

إنّ الذين يعيشون خارج العصر، لا يدركون أن القصور الأساسي، هو قصور ذاتي، وأن النهضة الحقيقية، هي **نهضة روحية نفسية فكرية** قبل أي شيء آخر، ولذا فإنهم غير قادرين على تسليط أنوار التصحيح على أحوالهم الخاصة.

٦ ـ **اهتمام الذين يعيشون خارج العصر بالوقت شبه معدوم**، فالذي لا يتم إنجازه اليوم يمكن أن يُنْجَز غداً أو بعد غد. وهم على خبرة واسعة في قتل الوقت وإنفاقه في أنشطة، لا تعود عليهم أو على غيرهم بأية فائدة. العالم المتقدم اخترع آلات لقياس أجزاء الثانية، والذين يعيشون خارج العصر يستخدمون في التعامل مع الزمن الأيام والشهور... والقوم يعيشون من غير أهداف واضحة، ولذا فإن الحرص على الوقت لديهم يصبح غير ذي معنى.

٧ ـ **الإهمال والفوضى سِمَتان لازمتان لكثير ممن يعيشون خارج العصر**: إهمال للصحة والمظهر والمستقبل والأهل والعلاقات الاجتماعية والعمل... الفوضى ضاربة أطنابها في كل شؤون حياتهم، فلديهم دائماً التزامات كثيرة وإنجازات قليلة. كل شيء في حياتهم جائز، ويمكن أن تتوقع منهم أي شيء. الذين قدموا إنجازات كبرى للبشرية في هذا الزمان، كانوا دائماً يُبْدون اهتماماً بكل شيء ـ ولاسيما التفاصيل الصغيرة ـ وهم إلى جانب ذلك مُنظَّمون في حياتهم الشخصية والعامة، وفي أسلوب تفكيرهم وفي أعمالهم. ويرون أن التحلي بفضيلة الاهتمام شرط للإنجاز العالي. أما التنظيم الدقيق فهو الطريق الأقصر لبلوغ الأهداف الكبرى.

سوف نقف على مزيد من سمات الذين يعيشون خارج العصر عندما نتحدث عن سمات السبّاقين والمتقاعسين، مما يزيد الصورة جلاء ووضوحاً.

* * *

---

(١) كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي.

الفصل الثالث

نموذج المسلم المعاصر

يترتب على عموم الرسالة المحمدية وختمها أنها تحتوي في بنيتها الداخلية وفي أدبياتها على عناصر ثابتة وأخرى متحركة، حيث نجد في القضايا التي لا تختلف باختلاف الظروف والأزمان الكثير الكثير من الوضوح والتفصيل ـ كما هو الشأن في العبادات وأمور العقيدة ـ أما القضايا التي تختلف من زمان إلى زمان، ومن مكان إلى آخر فإن الشريعة السمحاء ترسي الأصول، وترسم الخطوط العريضة، وتُعرض عن التفاصيل والمسائل الجزئية؛ لأن بَلْوَرة هذه الأخيرة من واجبات المكلفين؛ فالشارع وجّه بإقامة العدل وتحقيق الشورى وإغاثة الملهوف . . . وترك بلورة النُّظُم والأطر والأساليب التي تحقق ذلك للناس، على مقتضى الظروف التي يمرون بها.

وهكذا فالإسلام لم يفصل في جميع جوانب نموذج الحياة المعنوية والمادية التي ينبغي أن يحياها المسلم؛ لأن مفردات ذلك النموذج، تختلف من بيئة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر. وعلى سبيل المثال فحين تكون البيئة التي يعيش فيها المسلم بيئة ضنك في العيش وضآلة في فرص الكسب، فإن المسلم حتى يكون معاصراً، يكون مطالباً بأن يبذل جهداً مضاعفاً في التدرب على مهنة، وفي إدارة الإمكانات القليلة، والتعاون مع إخوانه ومواطنيه في درء مخاطر المجاعة والبطالة.

وحين يجتاح بلداً ما تيار شهواني انحلالي، فإن الذي يبرز في النموذج آنذاك، هو السعي إلى إيجاد تيار روحي قوي، يواجه التيار الشهواني. وحين

يعاني المجتمع المسلم من الشبهات والشكوك في صلاحية الإسلام العامة لتوجيه الحياة، أو في مسلَّمة من مسلَّماته الكبرى، فإن أولوية العمل تُعطى للفكر والحجة والبرهان والدليل المفحِم، وهكذا. . .

نفهم من هذا أن المسلم بحاجة ـ حتى يكون معاصراً ـ إلى أن يستجيب في تكوينه واهتماماته ومهاراته وردود أفعاله لتحديات البيئة المحيطة ومطالبها، في إطار الثوابت التي أرساها المنهج الرباني للشخصية الفاضلة. وهذا يعني ألا نقدِّس اجتهادات السابقين ومقولاتهم في رسم أبعاد المسلم النموذج أو **(العبد الصالح)**، كما يوجب على أهل العلم والفكر أن يوضحوا القسمات الرئيسة التي يجب أن تتوفر في المسلم النموذجي في عصرهم. وما يقولونه يظل اجتهاداً قابلاً للصواب والخطأ.

إنه يمكن القول: إن ما يعد رذيلة في عصر أو مكان، لا يمكن أن يصبح فضيلة في عصر أو مكان آخر، لكن الذي يختلف هو حجم الاهتمام بالشيء الفاضل، والوضعية التي نمنحه إياها في سلَّم الأولويات. إن إسراع الموظف إلى الالتحاق بعمله مطلوب في كل وقت، لكن حين يكون الموظف (عامل إطفاء) فإنه يكون للسرعة معنى آخر أكثر أهمية.

وسأحاول هنا لفت النظر إلى بعض السمات والمهارات التي أرى أنها تحتل مكانه خاصة في نموذج **(المسلم المعاصر)** وهي أشبه بمخطط أوَّلي، سنحاول تعميق خطوطه وتوضيحها فيما بعد ـ بإذن الله تعالى ـ وذلك على النحو الآتي:

١ ـ توجيه جميع المناشط نحو الغاية العليا:

تقرر النظرة الإسلامية للإنسان أهمية توجيه جميع مناشطه في حياته المديدة نحو الفوز برضوان الله ـ تعالى ـ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ١٦٣] مناشط أوقات الفراغ، ومناشط الترفيه تعزز التوجه الإيماني لدى المسلم إذا

كانت في إطار المباح، واستحضر صاحبها النية الصالحة عند مباشرتها. وهذا في الحقيقة يضفي على حياة المسلم نوعاً من الانسجام والتماسك؛ فلا يشعر بأي انفصام بين مناشط تحقيق الذات والحصول على النجاح والتفوق الشخصي... وبين مناشط النجاة في الآخرة، كما هو واقع في حياة كثير من المسلمين اليوم، وإنما يشعر أن مكاسبه الروحية والنفسية قد تأتي من خلال الصدقة أو التبسُّم في وجه إنسان، كما قد تأتي من خلال نصحه لشريك في تجارة أو أنشطة رياضية يقوم بها، أو النوم مبكراً من أجل الاستيقاظ لصلاة الفجر.. حتى الأحداث غير السارّة فإن النظرة إليها على أنها ابتلاء من الله ـ تعالى ـ تجعل المسلم الحق يتلقاها بروح عالية ونفس مطمئنة، حيث ينتظر عاقبة الصبر عليها. وقد ورد في الحديث الصحيح: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

إن صَهْرَ جميع مناشط الحياة في بوتقة واحدة، ليس عبثاً ـ كما قد يتوهم ـ لكنه مصدر عظيم من مصادر السعادة والطمأنينة. وإن الخيط المنطقي والأخلاقي الذي ينتظمها جميعاً، يدعم كينونة المسلم، ويزيد في وضوح رؤيته الشاملة للحياة.

٢ ـ عدم المساومة على المبدأ:

هذه سمة أخرى مهمة في نموذج المسلم المعاصر؛ فالمغريات بالانحراف والضغوطات الحياتية المتزايدة، تدفع المسلم دفعاً إلى التنازل عن بعض مبادئه وقناعاته من أجل تحقيق بعض رغباته ومصالحه؛ ولذا فإن المرء الذي يحاول أن يحقق مصالحه إلى الحد الأقصى مع التمسك بمبادئه، يحاول في الحقيقة الجمع بين نقيضين، إذ لابد في بعض الحالات من التخلي عن أحدهما في سبيل استقامة أمر الآخر.

إن تحقيق المصلحة على حساب المبدأ، يعدّ انتصاراً لشهوة أو غرض آني. أما الانتصار للمبدأ فإنه بمثابة التربع على قمةٍ من الشعور بالسعادة والرضا والنصر والحكمة والثقة بالنفس. وقد أثبتت المبادئ أنها قادرة على أن تكرر النصر المرة

تلو المرة. وحين يخسر الإنسان مصلحة نتيجة الإصرار على مبدأ، فإنه في الحقيقة يخسر شيئاً، لكنه على المستوى الشعوري وعلى المدى البعيد يعد رابحاً. إن التمسك بالمبدأ في المنْشَطِ والمَكْرَه، هو الذي يمنح حياتنا معنى، ويجعلها تختلف عن حياة السوائم الذليلة التي تكافح من أجل البقاء المجرد.

لا شك أن الظروف الصعبة، توهن من ضبط القِيَم والمبادئ للسلوك، لكنها نفسها هي التي تمنحنا العلامة الفارقة بين أناس اختلطت مبادئهم بدمائهم ولحومهم، وبين أناس لا تمثل المبادئ بالنسبة إليهم أكثر من تكميل شكلي لإنسانيتهم. إن التمحور على المبدأ، يستلزم الانحياز الدائم إلى الحق ومقاومة الشر؛ فالالتزام بالمبدأ، ليس مسألة شخصية بحتة، وإنما هو موقف أخلاقي واجتماعي أيضاً؛ حيث إن من وظائف المسلم الأساسية في هذه الحياة **إحقاق الحق وإزهاق الباطل ومحاصرة الشر بكل صوره وأشكاله**. والتخلي عن هذه الوظيفة، يحوّل المجتمع المسلم إلى غابة، يأكل القوي فيها الضعيف، ويصبح البقاء فيه للأقوى لا للأصلح.

٣ ـ المحافظة على الصورة الكليّة:

يقوم المنهج الإسلامي في بناء الشخصية على العموم والشمول والتكامل. وهناك نصوص وأدبيات كثيرة، تؤكد مجتمعة على ضرورة تنمية كل أبعاد الشخصية العقلية والروحية والبدنية والعاطفية... لكن الملاحظ أن لدى الإنسان قابلية عجيبة للانجذاب نحو بُعد أو محور من المحاور، وترك باقيها غفلاً دون أي اهتمام. وهذا مشاهد لدى معظم الناس؛ إذ إن من المألوف أن ترى من يصرف كل اهتمامه إلى الرياضة، على حين أنه لا يقرأ كتاباً واحداً في السنَّة أو جزءاً من القرآن الكريم في الأسبوع. ونجد كذلك في المقابل بين المثقفين وطلاب العلم الكثير ممن لا يقيم أي وزن لِلّياقة البدنية. وهناك من ينهمك في المسائل الفكرية والتنظيرية، لكنه يعاني من جفاف روحي وتقصير في العبادات. وهناك من يقف على النقيض. **إن المرء ينتزع الإعجاب عندما يجتمع فيه ما تفرّق في غيره**. وإن التنمية الزائدة لجانب من الجوانب على حساب جانب آخر تبدو في بعض الأحيان

كما لو كانت نوعاً من البراعة النادرة، لكنها في الحقيقة تشويه وتبديد لفضيلة التناسق.

حتى لا نفقد الصورة الكلية للوضعية التي ينبغي أن نكون عليها، فإن علينا أن نعطي كل ذي حق حقه، وربما وجب لتحقيق ذلك القيامُ بأمرين:

أ ـ أن ننظر دائماً إلى خارج ذواتنا من أجل المقارنة، ومن أجل أن نستشرف ما نحن عليه عن كثب. إن الرؤية تتشوه عندما نعزل ذواتنا وأوضاعنا عن السياق الاجتماعي والتاريخي والحضاري.

ب ـ أن ننظر دائماً إلى واجباتنا العامة وأهدافنا الكليّة، ومدى خدمة بناتنا لأنفسنا لتلك الواجبات وتلك الأهداف.

٤ ـ التحرر الدائم:

كرّم الله ـ تعالى ـ الإنسان إذ خلقه في أحسن تقويم، وسخّر له ما في السماوات وما في الأرض منّةً منه وفضلاً. ومتّعه بالعقل والإرادة الحرة، وحمّله مسؤولية اختياراته؛ ليظل حراً كريماً منطلقاً، لا يأسره إلا قِيَمه ومبادئه؛ لكن الإنسان حتى يسهِّل عمله، ويعقل الوجود من حوله يقوم بإنتاج **عدد كبير من العادات على المستوى الفكري والنفسي والحركي**... ولا يمر وقت طويل حتى يشعر أنه صار أسيراً لتلك العادات، فطرق التفكير تتكلّس مع الأيام، وتصبح غير ملائمة، فتتحول من أدوات لتسهيل المحاكمة العقلية والتحليل والتركيب... إلى أطواق وسلاسل، تحدّ من انطلاقة الفكر، وتحجِّم فاعليته، بل قد تضلله، وتجعله يطرح طروحاً شكلية. وقل مثل ذلك في العادات النفسية والحركية.

حركة الحياة اليومية، ومصالح الإنسان، والضغوط التي يواجهها، كل أولئك قادر على استعباد الإنسان وإذلاله ومسخه، وتحويله إلى شيء أو جزء من آلة، أو تابع مقلد...

يحتاج المسلم من أجل الاحتفاظ بحريته وحيويته إلى أن يحمل بين

جوانبه روح (الثورة) أو روح التحرر الدائم، والتأبي على القولبة، ورفض البرمجة الثقافية المحلية الصماء، وضغوط البيئة المحطِّمة التي تحد من الطموحات، وتقتل المواهب. إنه لكي يفعل ذلك بحاجة إلى تلمُّس الآفاق غير المرئية، وتحسُّس مايمكن أن يكون، والسعي الدائب إلى ما هو أفضل، وعليه دائماً أن يبحث عن البدائل لما هو فيه. وما لم يفعل ذلك ـ وهذا ما عليه أكثر الناس ـ فإن من السهل أن يجد نفسه مكبلاً بالأوهام، والعادات البالية، والقيود التي صنعها لنفسه بنفسه، كما هو شأن مدمني المخدرات ومدمني التقليد والكسل والإسراف وقول الزور. إن التحرر الدائم ينبع من اعتقادنا أنه **لا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه**، ومن اعتقادنا بهشاشة **(البُنية العميقة)** للحرية والكرامة، مما يجعلها بحاجة دائمة إلى الحذر والرعاية.

٥ ـ التفوق على الذات:

بإمكان أكثر الناس عجزاً، وأقلهم حيلة أن يجد من هو أضعف منه؛ ليتغلب عليه ويقهره، ومن السهل على المرء أن يكتشف بعض النقاط التي تمنحه نوعاً من التفوق والتميز. . . لكن يظل المهم دائماً هو **(التفوق على الذات)** والشعور بالتحسن الدائم والارتقاء المطَّرِد. إن التفوق على الذات يعني أن يوم المتفوق خير من أمسه، وأن غده خير من يومه.

وهذا غير ممكن على نحو مطلق، لكن يمكن أن يلمسه الإنسان إذا أجرى تقويماً سنوياً لأحواله ومكتسباته. ولا شيء يحول دون التفوق المستمر، **كالنرجسية والإعجاب بالنفس**، ونزع إنجازاتنا من طبيعتها الزمنية، لنجعلها عملاً نهائياً، فنقصي بذلك عنها بُعدها الإنساني الحي والمرحلي، وندخلها في نفق الجمود ثم الاضمحلال.

إن قول الله ـ جلَّ وعلا ـ : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، حثٌّ خفي لنا على دوام الاستزادة من العلم، والنظر إلى ما هو أسمى؛ وإشعارٌ بأننا لن نصل إلى النهاية في الترقي، وأن الأفق أمامنا سيبقى ممتداً.

٦ ـ الشعور بالتأنق :

حين يقصر الإنسان في أداء واجب، فإنه يشعر بالتقصير، ويحدث في داخله نوع من الصراع. وحين يؤدي واجباً، فإنه يشعر بنوع من الرضا والإنجاز. وحين يقوم بعمل زائد عن الحاجة أو عن الواجب، فإنه يشعر بـ(**التأنق**). الشعور بالتأنق هو نوع من الشعور بالرَّفَه والتجاوز لحد الضرورة. إن المسلم حين يبدأ بإلقاء السلام تكون مشاعره مختلفة[1] عن مشاعره حين يرد السلام، حيث الأول سنّة، والثاني واجب. كذلك مشاعره عند أداء فريضة الصلاة، تختلف عن مشاعره حين يتنفَّل، كما تختلف أحاسيس الناس حين يأكلون ما يسد الرمق عن أحاسيسهم عندما يأكلون الفاكهة أو الحلوى. . .

القيام بما ليس مفروضاً، يعطي الإنسان إحساساً بالتفوق والاقتراب من الكمال، وهو إحساس ضروري لتعزيز الثقة بالنفس، وتحصيل نوع من السَّبْق للأقران والنظراء. المجتمعات التي تُنتج أكثر مما تَستهلِك، تشعر **بالتأنق**، كما تشعر به الأمم التي تجد لديها فضلة من طاقة لحل مشكلات الأمم الأخرى.

الشعور بالتأنق كثيراً ما يرتقي بالإنسان ـ على نحو ما ـ إلى درجة الريادة، حيث يضحي قدوة لغيره.

الفائض الاجتماعي مظهر من مظاهر التأنق، وهو في الوقت نفسه حاصل الأعمال التطوعيّة الخيرة التي يقوم بها أبناء المجتمع؛ وعلى مقدار ذلك الفائض تكون خيريّة ذلك المجتمع. في الظروف الصعبة تصبح الحاجة ماسّة إلى وجود أعداد كبيرة من الرجال الأخيار الذين يتجاوزون مرحلة التفكير بالحقوق والواجبات، وينغمسون في أعمال الإحسان والإتقان، حيث تغمرهم روح المجانية والعطاء غير المشروط.

هذه السمة من أهم سمات (المسلم النموذجي) في عصرنا هذا، فلنحاول

---

(١) كان عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ ينزل إلى الأسواق بهدف إلقاء السلام على الناس.

أن ننمي الشعور بالتأنق من خلال تنمية الأعمال التطوّعية، ومن خلال إرساء **تقاليد ثابتة للإنجاز العالي.**

٧ـ وضوح الهدف:

أعتقد أن أكبر أزمة تعاني منها الحضارة الحديثة والإنسان المعاصر، هي تحديد الغاية النهائية لأنشطة البشر، وهي القضية الكبرى التي ينبغي أن تخدمها كل القضايا الأخرى، القضية التي تستحق التضحية بكل شيء إذا اقتضى الأمر. إن **الامتداد يقتل الاتجاه، كما يقتل المكانُ الزمان**، وأعتقد أنه قد تطاول الأمد على كثير من الناس، فنسوا هدف وجودهم، أو عاملوه معاملة الناسي أو المهمل.

إن في الغرب اليوم تساؤلات كثيرة حول الهدف الأخير لكل هذه الجهود الضخمة، ولكل هذا العناء الإنساني الهائل. ونظراً لإلغاء الدين ـ عملياً ـ وإبعاده عن المساهمة في صياغة فلسفة الوجود، فإن كل الأسئلة تظل حائرة، دون أن تجد أية إجابة شافية.

المسلم في الأصل، لا يعاني من مشكلة تحديد الوجهة أو الهدف النهائي، لكن من الواضح أن زحمة المشاغل اليومية، والانحراف الذي أصاب **(التثقيف العام)** قد تسببا في إحداث غفلة كبيرة لدى كثير من الناس/ إن **إدراك الهدف بطريقة سوقية أو مبتذلة، يجعل حضوره ضعيفاً** كما يجعل قدرته على إثارة الحماسة للعمل من أجله محدودة./

كثير من الإحساس بالتفاهة والفراغ، وكثير مما يعرف بأنه مشكلات عاطفية أو عقلية، ما هو في الحقيقة سوى أعراض لفقد الناس الإحساس بهدفهم الأسمى، ورسالتهم في الحياة.

٨ ـ نحو الهدف:

قضية وجود أهداف واضحة في حياة المسلم المعاصر، من القضايا الكبرى التي لا تحتمل التأخير. وإذا كان الهدف الأكبر هو الفوز برضوان الله ـ تعالى ـ

والجنـة، فإن ذلك الهدف لا يتم بلوغـه إلا من خلال القيام بالأوامر واجتناب المناهي، وما يستتبعه ذلك من أخلاق وآداب وأوضاع . . . والقيام بذلك والتحلي به له وسائله وأساليبه وآلياته، وهكذا فكل هدف صغير، هو وسيلة لهدف أكبر منه، وكل هدف كبير، هو غاية لهدف أصغر منه. ووضوح الهدف الأكبر، يعني أن كل الأهداف الصغرى، يجب أن تسهم ـ على نحو ما ـ في الاقتراب منه والوصول إليه؛ وهذا وحده هو الذي يضفي على أهدافنا الصغرى المشروعية، ويضفي على مناشطنا المختلفة المنطقية والانسجام. ولعلنا نُبرز هنا في سمات الهدف وكيفية تحديده وقياسه النقاط التالية:

أ ـ **إن مجرد تحديد (الهدف) على نحو جيد، يستنفر الطاقات الكامنة**، ويوجه إرادة المرء وأنشطته؛ ولذا فإن الأشخاص المتفوقين، والناجحين نجاحاً متميزاً، هم ـ غالباً ـ أصحاب أهداف محددة. وقد قام أحد الباحثين في إحدى الجامعات الأمريكية بإجراء استفتاء لخريجي الجامعة عام ١٩٥٣، وكان السؤال الذي وجهه إليهم، هو: هل لك أهداف محددة ومكتوبة؟ وكانت النتيجة أن (٣٪) فقط من هؤلاء الخريجين، وضعوا لهم أهدافاً محددة ومكتوبة عما يريدون القيام به في حياتهم. وبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ، أي في عام ١٩٧٣ رجع إليهم صاحب البحث؛ ليستطلع أحوالهم، فوجد أن هؤلاء الـ(٣٪) حققوا نجاحاً في وظائفهم وأعمالهم أكثر مما حققه الـ(٩٧٪) الآخرون مجتمعين!.

ب ـ من السهل على الواحد منا أن يخطط المشاريع، ويرسم الأهداف بحماس وانفعال، لكن عند المجيء للتنفيذ يتلاشى الكثير من تلك الأهداف والخطط، و يشعر المرء بأنه كان في وهم، أو يشعر بالعجز والاكتئاب. ولذا فإنه لابد من أن تكون الأهداف ممكنة التحقق وقريبة المنال، بمعنى أن تكون الفجوة التي بينها وبين إمكانات من يرسمها فجوة، يمكن قطعها، وإلا فإن **تلك الفجوة، يمكن أن تكون مصدر شقاء**. ومن وجه آخر فإن الصعاب التي تعترض الواحد منا في حياته، قد تصرفه عن أهدافه، وهذا في الحقيقة، يشكل أزمة كبيرة لكثير من الناس. والواجب أن نتكيف مع الظروف الصعبة ـ في حدود معينة ـ وعوضاً أن

تتخلى عن أهدافنا نجدد عزيمتنا. وإذا اكتشفنا أن أهدافنا، لا تتلاءم مع ما لدينا من قدرات، فيمكن أن نجري نوعاً من التعديل عليها.

جـ ـ **تحقيق الهدف يحتاج إلى دفق جيد من النشاط** والعمل، وهـذا لـن يتم ما لم نستطع ضبط الاتجاهـات والميول والاهتمامات، وتوجيهها نحو الأعمال التي تخدم الهدف. وكل ذلك متوقف على توفر (الإرادة).

وفي هذا السياق فإن من المهم أن نعلم أن هناك فرقاً بين المحبـة والإرادة، فكل التجار يحبون الربح، كما يحب جميع الطلاب النجاح، لكن الذين يريدون ذلـك هم وحدهم الذين يحققونـه. إن الفعل الإرادي، هـو تعبيـر عن الـوعي الناضج، والإرادة الحرة في تحديد الهدف، واتخاذ القرار، وتحديد المسار الموصل إليه؛ وبذلك يتم تسيير كل القوى المتوفرة في اتجاه تحقيق الهدف.

ونحن نخطئ حين نقول: **إننا لا نستطيع أن نفعل كذا وكذا**، والصواب أن نقول: **إننا لا نريد أن نفعل**؛ لأن الإرادة الحقيقية، ليست متوفرة، فنغطّي على غيابها بادعاء انعدام القدرة. وقد قال الله ـ جل وعلا ـ في المنافقين: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ [التوبة: ٤٦]، فانعدام أي قدر من التـأهب للجهاد دليـل على أن إرادة الخروج له معدومة أصلاً.

د ـ **وضوح الهدف شيء جوهري**. ووضوحه يعني تحديده على نحو دقيق، وذلك بغية قياس التقدم نحوه فيما بعد. ويمكن القول: **إن كل هدف، لا يمكن قياسه، ليس بهدف**؛ ولذا فإن قول كثير من الناس: نحن بحاجة إلى إخلاص وصدق وتقـوى حتى نتقدم ـ لم يثمـر أي ثمـرة، حيث لا نملك المعايير التي نتمكن من خلالها من قياس حجم التقدم نحوها.

ويمكن أن نحيط الهدف الذي نريد إنجازه بالأسئلة التالية:

ـ ما الذي يجب تحقيقه؟

ـ لماذا يجب أن يتحقق؟

ـ متى يجب تحقيقه، وما المدة التي يستغرقها؟

- من الذي سيقوم بتحقيقه؟

- أين يجب أن يتم ذلك؟

- هل أحتاج إلى مساعدة أحد في تحقيقه؟ وإذا كانت المساعدة مطلوبة، فمَنْ الذي سيفعل ذلك؟

- ما الأدوات التي يحتاجها ذلك؟

يجب كتابة الأجوبة عن هذه الأسئلة والرجوع إليها عند الحاجة.

مما يزيد في توضيح (**الهدف**) أن نقسمه إلى أقسام عدة، فإذا كان الهدف أن أُصبح أستاذاً جامعياً بعد خمس سنوات، فإن من المرغوب فيه أن أُحدد وقتاً، وليكن سنتين للحصول على (الماجستير) وثلاث سنوات للحصول على (الدكتوراه). وحتى يتحقق ذلك، فقد يكون عليَّ أن أستهدف إنجاز ست ساعات من العمل في القراءة والكتابة يومياً وهكذا.. إن هذا التقسيم سيسهل إدراك الهدف وتحديده، كما يسهل إنجازه أيضاً؛ **فالحقيقة أنه ليس هناك عمل صعب إذا قسمته إلى أجزاء صغيرة.**

هـ - **يجب على صاحب الهدف أن يؤمن به إيماناً**، لا يشوبه أي شك، وأن يكون على ثقة تامة بالوصول إليه دون أدنى ريب، بل عليه أن يتصرف وكأنه حاصل على ما يريد، وأن يرسخ ذلك في أحاسيسه كلها حتى يصبح (**الهدف**) جزءاً من كيانه المعنوي. وحين يتغلغل الهدف في (**اللاشعور**) من صاحبه، فإنه يقوم بتوجيه طاقاته النفسية والجسمية نحو تحقيقه.

وقد كان النبي ﷺ يُبشّر أصحابه بظهور الإسلام في أصقاع الأرض في ظروف بالغة القسوة. وحين ساومته قريش، وعرضت عليه الجاه والمال والنساء، قال لعمه أبي طالب قولته المشهورة: «**والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك دونه**»!. إن هذا درس بليغ جداً في الثقة بالوصول إلى **الهدف**، وفي الإصرار عليه، مهما كانت المغريات الصارفة عنه.

٩ ـ السلوك المنطقي:

في زماننا هذا تعددت الأعباء التي على الواحد منا أن يقوم بها، وصار في الحقيقة في داخل كل واحد منا **عدد من الشخصيات المخبوءة**، فأنت مثلاً موظف ورب أسرة وعضو في جمعية خيرية، وتمارس الكتابة، وتطمح إلى أن يكون لك عمل تجاري، تزيد من خلاله دخلك... كل هذه الأعمال والانتماءات تحتاج إلى فكر وجهد ووقت. لا خيار لك في بعض ما ذكرناه، لكن حين تختار أعمالاً إضافية، فإن عليك أن تسأل نفسك: هل تستطيع أن تنجح في كل هذه الأعمال، أو أن المنطق يحتم عليك أن تعرض عن بعضها، لأنك لا تستطيع إعطاءه حقه، وبالتالي فسيظهر تقصيرك أو إخفاقك. **الرؤية المنطقية، هي التي ستساعد الإنسان على الحكم الصحيح في مثل هذه المسائل.**

إذا كنت **وكيلاً لمصنوعات ألمانية**، فإن المنطق يرشد إلى أن تتعلم اللغة الألمانية. وإذا كنت **مديراً لمستشفى** وأنت لست طبيباً، فإن من المنطق أن تلمّ بشيء مما يثير النزاع بين الأطباء عادة، وبينهم وبين المرضى، ومما يتعلق بالأنظمة المتعلقة بالخطأ الطبي ومعايير الكفاءة المهنية، وما شاكل ذلك.

إذا كنت **مديراً لمدرسة**، فإن من عوامل النجاح أن يكون لديك إلمام بأصول إدارة المؤسسات التربوية، ودرجة من الاطّلاع على سير المديرين الناجحين، إلى جانب نوع من الدُّربة على حلّ المشكلات وإصلاح العلاقات بين الأساتذة والطلاب.

السلوك المنطقي سلوك قائم على إدراك عميق للإمكانات الشخصية والظروف المحيطة، وفهم جيد لطبائع الأشياء ومنطق تطورها. وإذا دققنا النظر في الكثير من حالات الإخفاق في كل مجالات الحياة، فإننا سنجد نوعاً من التجاهل لبعض هذه الأمور أو جلّها.

السلوك المنطقي يكتسب كل يوم وظائف حيوية في حياتنا المعاصرة، نظراً لأن العلاقات الإنسانية والتجارية والتنظيمات الجديدة للمعرفة والتقنية، تقوم

جميعاً على التسلسل المنطقي والاعتبارات المنطقية. وفهم ذلك كله قد غدا شرطاً مهماً من شروط عيش الحياة المعاصرة.

١٠ ـ الحرص على النجاح مهما يكن صغيراً:

ليس في هذه الدنيا نجاح نهائي، فالنصر في أيّة معركة ـ أيّاً كان نوعها ـ يضعنا في مواجهة معركة جديدة، قد تختلف في متطلباتها، لكنها على أي حال، تستدعي جهداً جديداً. والوقوف عند أي نجاح مهما يكن ضخماً، والتقاعس عما بعده، هو أول خطوة على طريق تضاؤله وخسرانه. تلك هي سنَّة الله ـ تعالى ـ في الابتلاء. العمل المقبول عند الله ـ جلَّ وعلا ـ هو العمل الذي اشتمل على عنصرين أساسيين: **عنصر الإخلاص وعنصر الصواب**. النجاح في الأعمال الدنيوية مرتبط بـ **(الصواب)** أكثر من ارتباطه بـ **(الإخلاص)**. أما في الأعمال الأخروية، فالإخلاص هو الأساس، لأن الصواب قد ينعدم، أو ينقص بسبب وجود ظروف قاهرة أو اجتهاد خاطئ. إن الإصرار على النجاح سِمَة مهمة للمسلم المعاصر، فالعالم كله متورط في سباق محموم للاستحواذ على أي شيء وكل شيء، ولا نستطيع تجاهل ذلك. وإن كانت نجاحات المسلم، تظل مقيدة بقيود معينة، كما أن أهدافه تظل مؤطرة بهدف رفيع وخاص.

الخطوة الأولى في طريق النجاح هي الأهم، إنها بمثابة شرارة الإشعال الأولى، ثم بعد ذلك يشكل التدرج التراكمي في تحقيق النجاح نوعاً من الدعم المتلاحق للبواعث، كما أنه يولّد الرضا والسرور من خلال العمل. وهكذا النجاح الأول ـ مهما كان ضئيلاً ـ يمهد الطريق للنجاح التالي؛ **ولا شيء يغري بالنجاح كالنجاح نفسه**.

إن الناجحين في الحياة لا يشكِّلون أكثر من (٥٪) من الناس، وأكثر الباقين من العاديين والمخفقين، مع أن هناك إمكانات ووسائل كثيرة، تُيسِّر سبل النجاح، لكن مشكلة الإنسان أنه طالما وقع ضحية لقصوره الذاتي، وللأوهام التي تكبل عقله ووجدانه!.

النجاح ثمرة الفكر النير والجهد الوفير والإمكانات الجيدة. وهو لا يحدث

نتيجة امتلاك صاحبه بعض السمات الخاصة التي يتسم بها الناجحون عادة فحسب، وإنما هناك توفيق الله[1] ـ تعالى ـ إلى جانب الظروف المواتية.

ولا أريد هنا أن أذكر الصفات التي يحملها الناجحون، وإنما أريد التذكير بأهمها، وربما شرحنا بعضها في مواضع أخرى.

الرجل الناجح يتوقع لنفسه النجاح، وذلك التوقع، يلقي في عقله الباطن ـ على نحو خفي ـ الخطط والرؤى التي تساعده على النجاح، تماماً كما هو شأن الذي يتوقع لنفسه الإخفاق.

الرجل الناجح يمتلك قدرة على خوض نوع من المخاطر، فكثير من السكون، والرضا بالقليل من الإنجاز، سببه الخوف من المغامرة. نعم من الواجب على كل عاقل أن يقلل نسبة المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها، لكن لا بد في النهاية من الإقدام على الرغم من وجود بعضها.

الإنسان الناجح، يبحث عن الفرص؛ إذ إنه يعلم أنه في أسوأ الظروف، وفي أشد حالات الركود، تبقى هناك مجالات وفرص للنموّ والكسب، لكن معظم الناس ينتظرون أن تطرق الفرص أبوابهم. أما الناجحون، فهم الذين يعرِّضون أنفسهم لها، ويتحسسونها.

روح الاستقلالية، سمة مهمة من سمات الناجحين، فهم يثقون في أنفسهم، ويمتلكون القدرة على التجاوز، على حين يشعر العاديون من الناس بنوع من التبعية لغيرهم، ويخافون من القيام بأعمال منفردة.

الإنسان الناجح، يملك القدرة على الاحتمال، وهو بطبعه صابر على بذل تكاليف النجاح.

إنه يصبر على بذل الجهد، كما يصبر على ضبط إيقاع نفسه ورغباته، ويسيطر على الزمن فلا يفلت منه.

---

(١) إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى / فأول ما يقضي عليه اجتهاده

الخلاصة: أن الناجحين، هم أشخاص غير عاديين، ولذلك فهم قلة. وأمة الإسلام، لا تشكو اليوم من انعدام الكفاءات وأصحاب الاختصاصات في أي مجال، لكن تشكو من فقر مُدقِع في العناصر المتفوقة والكفاءات النادرة التي تشق طرقاً جديدة للممارسة، وتعثر على حلول ناجعة حين يشعر الأشخاص العاديون بانسداد الآفاق وانقطاع الحيلة.

١١ ـ الوضع الإيجابي:

من السمات المهمة التي ينبغي أن يتحلى بها (**المسلم المعاصر**) سمة (**الإيجابيّة**) وهي مغايرة لصفة (السلبية)، فماذا نعني هنا بالإيجابية أو الوضع الإيجابي؟

تعني الإيجابية أموراً عديدة، منها:

ـ **القدرة على التحكم بالعواطف**، حيث يتم بذلك تجاوز خطوط الغريزة، وهذا التجاوز، يعبر في اتساعه عن مدى استطاعة صاحبه تحقيق إنسانيته من خلال بعده عن (الحيوان) الذي لا يستطيع السيطرة على غرائزه ولا تأخير رغباته، والذي لا يقوى أيضاً على المخاطرة.. ونعني بالسيطرة على العواطف أن يلبس المسلم لكل حالة لبوسها، فليس من الإيجابية أن يحمل الموظف هموم بيته ومشكلاته الخاصة إلى مكتبه أو مصنعه، فالأداء الكفء، يتطلب موظفاً في أحسن أحواله، وفي أعلى درجات لياقته النفسية والبدنية.

كذلك ليس من الإيجابية أن يزعج المرء أهل بيته بمشكلاته مع طلابه أو زملائه أو مراجعيه... الحصول على هذه الوضعية يتطلب تدريب العاطفة وتقوية آلية الضبط الداخلي لديه.

ـ **الفهم العميق لتحديات العصر ومطالبه** وأشكال الاستجابة المطلوبة للعيش فيه، إلى جانب **الشعور بالقدرة على التغيير**/ تغيير النفس وتغيير المحيط وتغيير الرؤية للأشياء/ وينطلق الشعور بإمكانية التغيير وضرورته من خلال إدراك أن الله ـ تعالى ـ قضى على الكون بالتقلّب والتحوّل وأن يظل في حالة من

الصيرورة المستمرة؛ كما ينطلق أيضاً من مبدأ الاستفادة من التجارب السابقة التي خضناها، والتي رأيناها، ومن مبدأ ضرورة **الانتقال إلى مرحلة استلهام الحق والخير والفضيلة** وتمثلها في السلوك الجديد. **إن الرتابة نوع من العدم**، وإن الاستسلام للأخطاء، والقنوع بالحالة الحاضرة، نوع من الخروج من المحيط الحي إلى محيط الجماد.

ـ **الصحة النفسية ركن أساسي من أركان الإيجابية**؛ إذ لا يمكن أن يكون المرء في وضع إيجابي وهو يشعر بنوع من(**السأم الوجودي**)أو الحسد أو الغيرة أو الخمول النفسي، أو الحقد على الناس... ومن ثم كان لتزكية النفس وتنقية السرائر المكانة العظمى في الإسلام.

ما من إنسان إلا قد تعتريه أوضاع يفقد فيها لياقته النفسية، لكن المهم ألا يستمر ذلك، ويصبح صفة ملازمة. وللخلاصة من تلك الأحوال شرع الله ـ سبحانه ـ التوبة لغسل الشعور بالذّنْب، وشرع النوافل وأعمال البر من أجل الإحساس بتجاوز المصالح الضيقة إلى أفق أرحب، ولتجديد المعاني الروحية ونفض غبار التقاعس والخمول عن نفس المسلم.

١٢ ـ التقييم الذاتي:

التقييم الذاتي هو في الأصل مفهوم الإنسان لذاته، من حيث مظهره وأصوله وقدراته ووسائله واتجاهاته... وهذا المفهوم حين يترسخ، ويبلغ ذروة وضوحه يصبح **قوة موجِّهة للسلوك**. ويتكون مفهوم الإنسان لذاته من خلال الخبرات التي يكتسبها، ومن خلال الاحتكاك والاتصال بالآخرين. بل إن الناس كثيراً ما يكوِّنون المرآة التي يرى فيها الإنسان ماذا يمكن أن يكون عليه، والآفاق التي يمكن أن يرتادها، أي مجالات نموه الشخصي، وحدود ما يمكن أن ينجزه.

هذه الوضعية تحتم على الواحد منا **أن يعيد تقييم نفسه من جديد**؛ إذ إن من الوارد أن تكون المفاهيم التي كوّنّاها عن أنفسنا مغلوطة أو مشوَّهة، بسبب رداءة البيئة العامة، أو بسبب انحطاط البيئات المربية التي فهمنا ذاتنا بواسطتها.

على المسلم اليوم أن يمتلك القدرة على إعادة فهم ذاته، وإعادة تقويم إنجازاته، وكشف الطاقات الكامنة لديه. إعادة التقييم هذه ضرورية للتحرر من حتميات البيئة والمفاهيم الخاطئة السائدة، وضرورية أيضاً لكشف جوانب القصور في ذواتنا وأنشطتنا. وفي ظل التحديات المتصاعدة، وظل المتغيرات السريعة، تصبح هذه المسألة أكثر إلحاحاً، ويصبح إهمالها أشد خطورة.

مشكلة المراجعة أنها في أكثر الأحيان، تنتهي إلى اتهام النفس وازدراء الإنسان لإنجازاته الماضية؛ مما يجعلها تولِّد نتائج عكسية. ولذا فإن من المهم أن يحتفظ الإنسان بنوع من التقدير لذاته، وبالثقة في قدراته على التحسن والاستفادة من دروس الماضي. وله أن يعد مجرد المراجعة وإعادة التقييم إنجازاً جيداً.

لا أريد أن أتوسع أكثر في ذكر قسمات نموذج المسلم المعاصر، فهي كثيرة، وتقبل الكثير من التفريع والتفصيل والإضافة، فنكتفي بما ذكرناه هنا. وسوف يجد القارئ ما يمكن أن يعد امتداداً لها فيما سنقوله عن مسألة السبق والتقاعس؛ ونسأل الله العون.



الفص

قضاي
للاعت
القضا
وآليا
ومواء

وتسلي
جديد
مما ج
منغمس
الآتي:

والعلا
الكثير
التقلب
زرع، و

قضايا عامة

عصرنا الحاضر بمفاهيمه وتحدياته ومتطلباته... أثار انتباه الناس إلى قضايا كانت خارج نطاق وعيهم في الماضي، وأوجب عليهم أن يستعدوا للاعتراف بأهمية أشياء كثيرة، لم يكونوا يعترفون بها، أو يولونها أية عناية. تلك القضايا، منها ما هو عبارة عن أفكار ومفاهيم، ومنها ما هو عبارة عن أعمال وآليات وعادات، وذلك مثل المحافظة على الوقت، والنظر إلى المستقبل، ومواجهة المشكلات والسعادة والإنتاجية والدقة والسرعة والتنظيم...

وستتحدث عن هذه القضايا على نحو موجز بغية إدخالها في منطقة الوعي، وتسليط الضوء عليها، وتحديد بعض ملامحها./هذه القضايا ليست في الحقيقة جديدة على البشرية، وإنما اكتسبت نوعاً من المركزية في الحياة المعاصرة، مما جعل المتجاهل لها يدفع ثمناً باهظاً، حيث يصبح متخلفاً عن عصره، منغمساً في الكثير من شروره ومشكلاته./وإليك أهم تلك القضايا على النحو الآتي:

أولاً ـ المدينة الفاضلة وَهْمٌ:

طالما داعب خيال الواحد منا طيوف الاستمتاع بالصحة والمال والفراغ والعلاقات الحسنة مع الناس، ودفء القرابة والجوار... وطالما استمتع الكثيرون بالقصص والحكايات التي تصور حياة بعض الناس وكأنها أشكال من التقلب في نعيم مقيم... وكل ذلك يتناسى شيئاً جوهرياً، هو أن هذه الدنيا دار زرع، وليست دار حصاد، ودار ابتلاء، وليست دار نعيم...

الحقيقة الملموسة والبادية للعيان أنه ليس في هذه الأرض مدينة مثالية للعيش، ولا علاقات مثالية، تمنحنا الأمان والدعم الاجتماعي الكافي، كما أنه ليس في هذه الحياة صحة أو ثروة مثالية . . . كل ذلك أوهام وخيالات؛ فلا ينبغي للمرء أن ينزعج حين يجد نفسه محاطاً بالضرورات والتحديات والمكدِّرات، فهذا هو الشيء الطبيعي، وسيكون من المفيد لنا جميعاً أن نعدّ أنفسنا لمواجهة مختلف أحداث الحياة بتفهم كامل، وتوكل على الله ـ تعالى ـ ورضا بقضائه وقدره، وانتظار لرحمته ومثوبته . . . لا يعني هذا ـ بالطبع ـ ألا نسعى لتحسين بيئتنا وتنظيمها، وتوفير أسباب الهناء في العيش، ولكنه يعني ألا نتوقع الكمال في أي شيء، إذ ليس من الحكمة أن نبحث عن حلول كاملة في وسط غير كامل. وعلينا أن نعد أنفسنا لمواجهة تحدٍّ جديد كلما أدركنا نصراً في معركة من معارك الحياة، فعن طريق جدلية التحدي والاستجابة يرتقي الإنسان، ويوسع مدى حركته ونموّه، ويحسِّن سجله ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

ثانياً ـ إدارة الوقت:

حجم استغلال الوقت، والاستفادة منه؛ من أهم العلامات الفارقة بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة، وبين الأشخاص الناجحين والأشخاص العاديين، ويمكن للمرء أن يقول ـ وهو مطمئن ـ: إنه ليس هناك ناجحون في الحياة على نحو ظاهر، لا يهتمون بأوقاتهم. وكيف يمكن للمرء أن ينجح إذا كان لا يستغل أهم مورد يمكن الاستفادة منه في تحقيق النجاح؟.

أقسم الله ـ جل وعلا ـ بالليل والنهار والضحى والعصر والفجر . . . تذكيراً للناس بنعمة الزمن وتبياناً لقيمته العظيمة. وفي الحديث الصحيح: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ».

الإحساس بالمسافات الزمانية والمكانية، أحد المنتجات الحضارية، لذا فإن أمة الإسلام في أيام إقبالها وازدهارها، ضربت أروع الأمثلة في المحافظة على الوقت والعناية به، وحسن الاستفادة منه.

يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما ندمت على شيء مثل ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي». وقال الخليفة الصالح عمر بن العزيز: «إن الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما». وما أجمل اعتبار الحسن البصري (الإنسان) مساوياً لأيام عمره حين قال: «ياابن آدم إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك» وكان يقول: «أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم».

لو تساءلنا: ما الشيء الأطول والأقصر في وقت واحد، والأسرع والأبطأ معاً، والذي نهمله جميعاً، ثم نأسف عليه، ولا شيء يمكن أن يتم بدونه، والذي يبتلع كل ما هو صغير، أو ينمي كل ما هو عظيم؟ لكان الجواب: إنه الوقت.

المشكلة الكبرى أن الوقت لا يدار، فهو سلسلة من المقاييس التي تسجل بقاء دوران الأرض حول محورها، وتسجل فصولها المتعاقبة... فتقدمه ثابت؛ ولذا قالوا قديماً: «الوقت لا ينتظر أحداً».

أما الشيء الذي يمكن أن يدار فهو استغلالنا للوقت؛ ولذا فنحن في الحقيقة ندير أنفسنا وطاقاتنا لا أوقاتنا.

إن الطريقة التي نقضي لها أوقاتنا، هي نتيجة للطريقة التي ننظر بها إلى أوقاتنا، والطريقة التي ننظر بها إلى أوقاتنا مرتبطة بأشياء عديدة، منها تربيتنا، ووعينا بالتحديات المعاصرة، وأهدافنا في هذه الحياة، وسيطرتنا على رغائبنا، وصلابة إراداتنا، ورؤيتنا للأولويات.

● **لماذا يضيع الوقت؟**

يمكن تقسيم الوقت إلى قسمين: **وقت عمل ووقت فراغ**. وقت العمل ينقسم إلى قسمين أيضاً: **وقت إنتاج ووقت ضائع**. وقت الإنتاج هو الوقت الذي ينقضي في الإنجاز الفعلي لبعض المهمات التي نحن ملتزمون بها في حياتنا العملية أو في حياتنا الخاصة. أما الوقت الضائع فهو الوقت الذي ينقضي دون إسهام في إنجاز الغرض الذي عزمنا على تحقيقه. وهو يضيع بنفس الطريقة التي

يُبدد بها وقود السيارة إذا ما تركنا محركها يدور ونحن ننتظر عودة شخص من مكان ما.

ويمكن تقسيم وقت الفراغ أيضاً إلى قسمين: **وقت شخصي ووقت استرخاء (غير مستغَل)**؛ فالوقت الشخصي، هو الوقت الذي نحتاجه للعناية بمتطلبات بقائنا على قيد الحياة، مثل الأكل والنوم والرياضة والعناية بالصحة... أما وقت الاسترخاء فهو الوقت غير المخصص تحديداً لأي نشاط أو هدف معين. ويكون عندما نسمح للوقت بأن ينقضي دون إنتاجية، كذاك الذي ينقضي بين عمل ملزم، وما يليه من نشاط. وبهذا يتبين أن الوقت قد يضيع أثناء ما نسميه (**أوقات عمل**)، كما قد يضيع أثناء أوقات الفراغ التي لا نلتزم فيها بإنجاز أي شيء محدد. ينفر معظم الناس من تنظيم الوقت وبرمجته؛ لأنهم يشعرون أنهم بذلك يصبحون مقيدين أكثر مما ينبغي.

أضف إلى هذا أن كثيراً من الناس يكرهون أي شيء يرتب عليهم التزامات جديدة. وذلك وَهْمٌ، فبرمجة الوقت، لا تعني أن نواصل العمل إلى ما لا نهاية، بل على العكس من ذلك فإن الإدارة الجيدة للوقت تقلل من الأوقات التي يسميها الناس (**أوقات عمل**) لأنها تفعِّل الأداء، وتحسِّن الإنتاجية، مما يجعل المرء يحصل على الكثير من وراء القليل من العمل.

كما أن برمجة الوقت تساعدنا على تنظيم الاستفادة من أوقات الفراغ في دعم أبعاد ذاتنا كلها عوضاً عن الشعور بالفراغ والتفاهة، وعوضاً عن إهمال تنمية جوانب مهمة في شخصيتنا بسبب سوء التنظيم، وسوء التوزيع لطاقاتنا وأوقاتنا.

إن الأسباب التي تكمن خلف ضياع الوقت عديدة، يمكن أن نذكر منها ما يلي:

١ ـ **الكسل** فحين ينام الإنسان أكثر من ثماني ساعات في اليوم، أو يتقلب على فراشه تاركاً خلف ظهره المهام التي عليه أن ينجزها، فإن داءه آنذاك هو الكسل، وهبوط الهمة. الشعوب المتقدمة تقضي الكثير من أوقات الفراغ في

الرياضة، وتعلُّم مهارات جديدة، على حين أن أبناء الشعوب المتخلفة، يقضون الكثير من فراغهم في الجلوس على أبواب بيوتهم، أو في الاستلقاء على فرشهم، أو في السهر والسمر إلى ساعات الفجر الأولى!.

٢ ـ **عدم وجود هدف محدد سبب مهم من أسباب ضياع الوقت**؛ فالحاضر سيتفلت من بين أيدينا ما لم نضغط عليه بآمال مستقبلية. والمهم دائماً أن نحدد وقتاً للإنجاز، وأن نلتزم التزاماً صارماً بذلك التحديد، وإلا فمن الممكن أن ننقل التنفيذ من أسبوع إلى أسبوع، ومن شهر إلى شهر، ونكون بذلك قد قمنا بتجسيد شعار المسوِّفين: «**لا تفعل اليوم ما تستطيع تركه إلى الغد**»! إذا كان الهدف متواضعاً، لا يشغل سوى جزء من أوقات الفراغ، فإن باقي الوقت سيضيع هدراً. وهذا ما نجده لدى كثيرين؛ حيث إن البيئة المتخلفة والأسر المحطِّمة، تحملان المرء حملاً على جعل طموحاته محدودة.

ليست مهمة الهدف قاصرة على شغل الوقت، وإنما المساعدة على القيام بالأعمال المهمة أيضاً، فالهدف الواضح ذو التوقيت المحدد، يخلِّصنا من مشكلة الانشغال بالأنشطة غير المهمة ـ نظراً لسهولتها أو إمتاعها ـ عن الاشتغال بالأنشطة المهمة؛ حتى إذا أصاب الواحد منا الكلل لم يجد العزيمة لإنجاز ما هو أحوج إلى إنجازه.

٣ ـ **عدم وجود خطة، تحوِّل الهدف إلى إنجاز**. الأهداف بدون خطط تكون عبارة عن أحلام وأمنيات. الخطة في أبسط أشكالها، هي: **قائمة النشاطات التي تنقل صاحبها من موقعه الحالي إلى حيث يريد أن يكون في المستقبل**. إذا لم تكن أنشطة الخطة متسلسلة ومنطقية، فإن كثيراً من الوقت سوف يتم هدره قبل بلوغ الهدف.

٤ ـ **سوء التنظيم** حيث إن الأعمال التافهة التي يمكن أن تبدد الوقت أكثر من أن تحصى. لو أننا دققنا النظر في كثير من أنشطتنا اليومية، لوجدنا جزءاً كبيراً منها كان يمكن تفويضه إلى شخص آخر: موظف أو ابن أو زوجة... وقسم آخر، يمكن حذفه والاستغناء عنه أو دمجه في نشاط آخر. يذهب كثير من الوقت في

السفر والتنقل، مع أنه يمكن توفيره عن طريق الاتصال بالهاتف أو إرسال رسالة، أو التسوق بالجملة بدل المفرق أو . . .

٥ ـ **تطفل الآخرين وفوضاهم**، فمشكلات الواحد منا، ليست دائماً ذاتية، وإنما قد يكون مصدرها الآخرين؛ فمن المألوف في كثير من البلدان ـ ولا سيما الريف ـ أن يزور الناس بعضهم بعضاً من غير سابق موعد، كما أن من المألوف أن يكلمك شخص بالهاتف، فيطيل الكلام في غير فائدة. كما أن بعض الأشخاص يبدون من السماحة والكرم الذاتي ما يشجع الآخرين على طرح مشكلاتهم عليهم، وطلب المساعدة منهم. . . مما يبدد الوقت في كثير من الأحيان دون أي مردود. وهكذا البيئات التي لم تترسخ فيها المفاهيم الحضارية، لا تساعد من يعيش فيها على تنظيم وقته واستغلاله الاستغلال الأمثل.

● **مبادئ وآليات في الاستفادة من الوقت:**

إن العمل الشاق، يؤدي إلى التعب، والعمل الذكي، يؤدي إلى زيادة الإنتاجية؛ ولذا فإن الهدف من إدارة الوقت، ليس أن نعمل بجهد أكبر بل أن نعمل بذكاء أكثر؛ فالمقياس لنجاحنا في إدارة أوقاتنا، ليس زيادة ساعات العمل، وإنما الثمار اليانعة التي نقطفها من ورائها.

يجب أن نقول في البداية: إن الواحد منا مهما أبدى من الكفاءة والعبقرية في تنظيم وقته واستغلاله، فإنه لن يستطيع أن يستثمر وقته على نحو تام، فالعنصر الروحي الذي يتمتع به الإنسان، يجعل عمله مغايراً لعمل (الآلة). والظروف المختلفة المحيطة هي الأخرى، تحول دون ذلك، فلا بد إذن أن نقنع بمناهزة الكمال عن الوصول إليه.

وهذه بعض المبادئ والآليات التي تساعد على استثمار الوقت ـ على الوجه الأمثل ـ نسوقها في النقاط التالية:

١ ـ **على الواحد منا أن يحاول التخلص من حالة الهدر للوقت**، ولا سيما تلك الأوقات (البرزخية) التي تفصل بين أوقات العمل وأوقات الفراغ. وهذا

يعني أن نحاول ـ إلى أقصى حد ممكن ـ تقليل مدة التهيؤ للعمل، ونستخدم الصرامة مع أنفسنا في هذا الأمر، وقد لوحظ مثلاً أن الرد على هاتف من أحدهم، لا يعطل المرء عن متابعة عمله فقط، وإنما يضيِّع عليه أربع دقائق أو خمساً قبل أن يتمكن إلى العودة إلى ما كان فيه من قبل.

٢ ـ **الرتابة مكروهة؛ لأنها تقتل تفتُّح الروح والعقل**، لكن يمكن أن نستخدم شيئاً منها استخداماً نافعاً في بعض الأحيان، كأن يُلزم الإنسان نفسه بأن يخصص بعد الإفطار من كل يوم نصف ساعة للقراءة أو العبادة أو المشي أو قضاء بعض الأشياء المهمة. وبعض المشاهير يشعرون أنهم مدينون في شهرتهم إلى الالتزام بأشياء محددة في ساعات محددة من يومهم. وهذا يعني اقتطاع جزء من الوقت الضائع لاستخدامه في أشياء نافعة ومهمة. وعلى سبيل المثال فإن الالتزام بساعة من كل يوم للقيام بعمل محدد، تجعل المرء يكسب (٣٦٠) ساعة سنوياً، وهي مدة كافية لإنجاز أشياء جميلة مثل:

- حفظ أكثر من عشرة أجزاء من القرآن الكريم.
- تعلُّم أساليب القراءة السريعة.
- تحسين الخط، وتخليصه من الأخطاء الإملائية.
- إعداد أجمل حديقة في منطقة السكن.
- تأليف كتاب متوسط الحجم.
- الحصول على (دبلوم).

٣ـ **لأسباب متعددة، تنهال طلبات الخدمات والمقابلات والاستشارات على بعض الناس**. ومع أن هذا شيء حسن حين يكون في نفع الناس؛ لكن كثيراً ما يكون ذلك على حساب أشياء مهمة في حياة الإنسان؛ لذا كان من الواجب على كل واحد ألا يسرف في إعطاء المواعيد للناس، وأن يعلم أن كل موافقة على وعد أو القيام بعمل، ربما كانت على حساب عمل آخر قد يكون أهم وأكثر إلحاحاً. حتى المواعيد البعيدة، فإنها ستقترب، وسيجب الوفاء بها في النهاية.

٤ ـ **الوقت سيضيع من غير تخطيط واضح**، وسوف يجد المرء نفسه منجذباً إلى عمل الأشياء السهلة. لذا كان لابد من الالتزام بأهداف سنوية للتطوير الشخصي. الأهداف السنوية يتم تقسيمها إلى أهداف شهرية وأسبوعية. وسيكون من المفيد في هذه الحالة أن يخصص المرء عشرين دقيقة في مطلع كل أسبوع وخمس دقائق في مطلع كل يوم لكتابة قائمة بالأعمال التي سيتم إنجازها. العمل الذي لا يتمكن أحدنا من إنجازه يبقيه في القائمة؛ ليضاف إلى قائمة أعمال اليوم التالي.

٥ ـ كثيراً ما يذهب الوقت في تجزئة العمل وتشتيته. كثير من الناس يبدؤون عملاً ثم يقفزون إلى غيره قبل إتمامه، ثم يعودون للأول وهكذا... ولذا فإن النصيحة هنا أن يحاول الواحد منا ألا يركز اهتمامه في أكثر من عمل في وقت واحد، وإذا بدأ في عمل، فلا يتركه حتى ينهيه وهذا في الحقيقة يحتاج إلى العزيمة والمثابرة.

٦ ـ وضع أحد خبراء إدارة الوقت قاعدة سماها قاعدة (٨٠/ ٢٠) حيث لاحظ أن (٨٠٪) من إنتاج الإنسان يأتي من (٢٠٪) من جهده. وهذا يعني أن نعرف بشكل جيد الأوقات الملائمة لجعل (٢٠٪) من جهودنا تثمر (٨٠٪) من إنتاجيتنا، فنختار الوسائل الأكثر فاعلية، والأوقات التي نكون فيها في قمة نشاطنا وصفائنا، والأوقات التي نظن عدم وجود مقاطعة فيها من قبل الآخرين.

ومن وجه آخر فإن (٢٠٪) من الأعمال التي نقوم بها قد يكون فعلاً مساوياً في قيمته لـ(٨٠٪) فلنعط تلك العشرين حقها من الأولوية والعناية.

٧ ـ احمل معك بعض أعمالك أو بعض كتاباتك إلى الأماكن التي تذهب إليها، فقد تستطيع إنجاز شيء من مهماتك وأنت في قطار أو حافلة، أو وأنت تنتظر في دائرة أو مستشفى.

٨ ـ هناك إلى جانب ما ذكرناه بعض الإرشادات التي تساعد على توفير الوقت، مثل:

ـ لا تقم على الإطلاق بزيارة صديق دون أن تبلغه بذلك أو تحادثه.

ـ استفد من وقت الفراغ في القراءة أو الحفظ أو في عمل شيء نافع.

ـ حينما ترتب موعداً فتأكد أن الطرفين يفهمان الوقت والمكان والعنوان بالضبط.

ـ احسب وقت انتقالك إلى مكان الموعد، وأضف فترة زمنية مناسبة احتياطاً لمواجهة الطوارئ حتى تصل في الوقت المحدد.

ـ وفِّر كل المواد والمراجع اللازمة بين يديك قبل أن تبدأ العمل سواء أكان ذلك العمل طهواً أم كتابة مقال، أم خطبة.

ـ لا ترتب رحلة لإنجاز عمل ما إذا كان بوسعك إنجاز ذلك العمل برسالة أو بمحادثة هاتفية.

ـ إذا كان لديك مهام قصيرة أو مشتريات، فقم بإعداد قائمة بها تشمل كل البنود، وخطط نشاطاتك المختلفة، بحيث تحتاج إلى قطع أقصر مسافة ممكنة.

أستطيع أن أقول بعد كل ما ذكرته: إن «الزمن» قد احتل أهمية فريدة في تركيبة كل مايتصل بعصرنا، وإن الأمة المتقدمة والمتفوقة، ليست تلك التي تتحدث عن السنين والشهور، وتتعامل مع الأحداث من خلالها، وإنما تلك التي تستخدم الآن الدقائق والثواني. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على احترام الزمن ومحاولة استغلاله إلى أقصى حدٍّ ممكن. وبإمكان الواحد منا أن يجعل من استخدامه لوحدات الزمن مقياساً لحرصه عليه، ومقياساً لارتقائه في معارج العطاء والنمو والنجاح.

ثالثاً ـ تحسين الإنتاجية:

ثمَّة فجوة كبيرة تفصل بين العالم الإسلامي والعالم الغربي على مستوى الدخل والبنية الأساسية والعلم والتقنية وأمور أخرى كثيرة[1]. وتلك الفجوة

---

(١) سلّطنا الضوء على ذلك في كتابنا (نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي).

الآخذه في الاتساع ـ مع الأسف ـ هي ترجمة دقيقة لفارق الإنتاجية بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية. ولاينبغي أن يفهم من هذا أن علينا أن نلحق بالغرب بأي ثمن وعن أي طريق؛ فهذا ليس وارداً، ولكن المقصود أن يتهيأ لأمة الإسلام مايمكنها من توفير الحاجات الأساسية لأبنائها، والمحافظة على استقلالها وكرامتها؛ كي تتمكن من القيام بمسؤولية الاستخلاف في الأرض.

/ المجتمع الضعيف مكوّن في الأصل من أشخاص ضعفاء، والمجتمع القوي مكوّن من أشخاص أقوياء/ وإذا كنا نشعر بآلام جراح التخلف والاستكانة أمام غيرنا، وكنا نملك الإرادة على الارتقاء بهذه الأمة إلى المكانة التي تليق بها ـ فإن مهمتنا الأولى تتمثل في أن نحاول رفع سوية التزام الانسان المسلم وعطائه؛ حيث إن من غير الممكن أن نوجد أمة أقوى من مجموع أفرادها.

الإنتاجية مقياس، نقيس به العلاقة بين ماهو منتَج وبين الوسائل المستخدمة في عملية الإنتاج. وقيمتها الأساسية تكمن في أنها تمكننا من مقارنة أداءين أو أكثر مع بعضهما، أو مع مستوى من الأداء محدَّد مسبقاً. إذا وجدنا خالداً ومحموداً يصنعان صناديق خشبية، ووجدنا أن محموداً يصنع عشرة صناديق في ثماني ساعات، ثم وجدنا خالداً يصنع ثلاثة عشر صندوقاً في تسع ساعات، وافترضنا إلى جانب ذلك أن إنتاجهما متساوٍ في جودة الصنع، ومتطابق في جميع الجوانب، فأيهما أكثر إنتاجية؟

بعد القيام ببعض العمليات الحسابية سوف نجد أن خالداً ينتج صناديق أكثر من محمود، وذلك بعد أن أخذنا بعين الاعتبار عامل الوقت، حيث إن خالداً يعمل ساعة زائدة على عمل محمود. وهكذا يمكن القول: إن إنتاجية خالد أعلى من إنتاجية محمود[1].

من السهل تحديد مستوى الإنتاجية في مزرعة أو مصنع، لكن تحديد

---

(١) يستغرق صنع السيارة في اليابان (١٧٠٠٠) ساعة عمل، على حين يستغرق في أمريكا (٢٧٠٠٠) ساعة عمل، أما في أوروبا فيستغرق (٣٢٠٠٠) ساعة عمل. والحمد لله أننا غير واردين في هذه المقارنة!.

(**الإنتاجية الشخصية**) غامض ومعقّد، ومع هذا فيمكن قياسها حيال أشياء محددة جداً، كما لو قلنا: إن محموداً يحتاج إلى ست ساعات قراءة في حفظ جزء واحد من القرآن الكريم، على حين أن سعيداً، يحتاج إلى تسع ساعات وهكذا. . .

العوامل المؤثرة في الإنتاجية ومبادئ تحسينها:

إن العوامل المؤثرة في تحسين إنتاجية الإنسان، أكثر من أن تحصى، وربما كان من الصواب القول: إن أي تحسن يطرأ على أي جانب من جوانب شخصية الإنسان، ينعكس ـ بصورة ما ـ على إنتاجيته؛ ولذا فإن كل ماذكرناه، وما سنذكره في هذه الرسالة، يساعد على تحسين الإنتاجية الشخصية. وما سنشير إليه هنا، يستهدف لفت الانتباه وإيجاد نوع من التركيز على أمور نحسب أنها تساهم في تحسين أداء الواحد منا، ورفع كفاءته على نحو ظاهر؛ وذلك من خلال الحروف الصغيرة التالية:

ـ من أهم مبادىء تحسين الإنتاجية **أن يحاول الإنسان عمل ماهو ممكن ـ مهما يكن ضئيلاً ـ ولاينتظر تحسن الظروف والإمكانات**؛ فذاك قد يأتي، وقد لايأتي. ثم إن مباشرة الممكن نفسها، توسع دائرة العمل، وتذلل عقباته. إن الطفل الصغير يقف عاجزاً في البداية عن كتابة أية كلمة حتى اسمه. وبعد تعلم الحروف، وتعلم شبكها بعضها مع بعض يصبح المستحيل ممكناً، وتتحسن شروط الممارسة.

ـ لو راقب الواحد منا استمراريته في أداء عمله، لوجد أن أكثر ما يقطعها، ليس الأشياء المهمة، وإنما الأشياء التافهة. والحقيقة أن الواحد منا يتخذ من قضاء بعض الحوائج الثانوية ذريعة للتخلص من ضغط الاستمرار في العمل؛ ولذا فإن من شروط رفع كفاءة الأداء أن نتعلم كيف نؤجل رغباتنا، ونصلّب إرادتنا تجاه القواطع والصوارف الكثيرة.

مما يساعد على ذلك أن يحاول الواحد منا مكافأة نفسه على الأعمال التي يقوم بها، وذلك كأن يعد نفسه بإعطائها شيئاً تحبه بعد كل ساعة أو ساعتين من العمل المستمر.

ـ كل ما نقوم به يتم في ظروف محددة، وحتى نحصل على النتائج المكافئة للجهود التي نبذلها، فلابد من كون ظروف العمل ملائمة ومناسبة للإنتاجية الجيدة. قد نضطر أن نقرأ في مكان، لاتتوفر فيه الإضاءة أو التهوية الكافية، وقد نضطر إلى أن نجلس على كرسي غير مريح، أو في مكان تعلو فيه الأصوات. . . إنَّ كل هذا قد يقع، ويجب تقبُّله على أنه شيء مؤقت، لكن لايصح أن يصبح ذلك شيئاً مستمراً ودائماً؛ لأن ذلك سيؤدي إلى عدم استمرار العمل، أو إلى كثرة حدوث انقطاعات فيه؛ ولذا فإنه لابد من وضع خطة لتحسين ظروف العمل ـ أياً كان ـ وإلا فإن المتوقع آنذاك أن يكون مانحصل عليه من ثمار جهودنا محدوداً؛ هذا إذا استطعنا ألا نعزف عن العمل بالكلية.

ـ للمهارة في أسلوب العمل واستخدام الوسائل وظيفة أساسية في تحسين الإنتاجية.

وقد أحرز العالم تقدماً هائلاً في هذا الصعيد؛ فالدول تنفق اليوم أموالاً طائلة على التدريب بغية تحسين أساليب العمل، كما أن تطوراً غير مسبوق قد طرأ على الأدوات والوسائل إلى درجة أن (الإنسان الآلي) صار يقوم بكثير من الأعمال التي كان يقوم بها الإنسان، وهو يؤديها على نحو أكثر دقة وسرعة. وكان هذا يعني اختصاراً للجهد العضلي نتيجة الاستثمار الأمثل للجهد الذهني والفتوحات العلمية المستمرة.

/ **في العالم النامي الكثير من الجهد مع قليل من المهارة وقليل من الوسائل الجيدة.** والنتيجة إنتاجية متواضعة للأفراد، تترجم إلى إنتاجية متواضعة للشعب أو الأمة[1] ./

ولذا فإن علينا أن نتعلم دائماً كيف ننجز أعمالنا بمهارة أكثر، وكيف نوفر

---

(١) الناتج القومي ـ وهو مجموع ما ينتجه شعب ما من سلع وخدمات خلال عام ـ لليهود في فلسطين المحتلة، يزيد عن الناتج القومي لكل من مصر ولبنان والأردن والسودان مجتمعة!

الوسائل التي تساعدنا على ذلك.

- **استثمار الساعة الأولى من اليوم مهم**، حيث إن كثيراً من الناس يضيعها في النوم - الذي لاحاجة إليه - أو في أحاديث اجتماعية مع الزملاء، أو في قراءة جريدة... وهكذا يبدأ الكثيرون يومهم بنوع من الترهل الشعوري تجاه الوقت، وتجاه الواجبات الشخصية. إذا جرَّب الواحد منا أن يكف عن تضييع الساعة الأولى من يومه، فسيجد أن إنتاجيته تحسنت أكثر من (٢٠٪)، كما يخف عليه الشعور بضغط العمل طيلة ذلك اليوم، فهل نجرب؟

- لكل منا أوقات يكون فيها نشيطاً، وأوقات يكون فيها خاملاً؛ فإذا أمكن للمرء أن يتعرف على أوقات نشاطه وأوقات خموله، كان من الأفضل له أن ينجز الأعمال الشاقة في أوقات نشاطة، والأعمال السهلة الرتيبة في أوقات الخمول. التفكير والتخطيط وقراءة النصوص الفلسفية الراقية، أعمال شاقة، وينبغي أن نختار لها أوقات الحيوية وفراغ البال.

- إذا أردنا تحسين الإنتاجية والاستفادة من الإمكانات المتاحة، فإن علينا ألا نسأم من أن نلقي على أنفسنا ثلاثة أسئلة:

أ - ما هو العمل الذي بإمكاني أن أؤديه الآن لكنني لا أؤديه؟

ب - هل بإمكاني أن أعمل ما هو أفضل، أو أولى من العمل الذي أعمله الآن؟

جـ - هل ثمَّة طريقة أفضل، لإنجاز عملي، من الطريقة التي أستخدمها الآن؟

إننا بهذه الأسئلة نستثمر الكثير من أوقات الفراغ، كما أننا نكوِّن حساسية جديدة نحو الأولويات في حياتنا. وأخيراً فإننا بذلك نحاول الاستفادة من الخبرات الجديدة في إدارة أعمالنا وتصريف شؤوننا. وكل ذلك سيعود بالنفع على كفاءتنا الشخصية والإنتاجية.

- عندما يشعر المرء أن حيويته، بدأت تنخفض، فإن عليه أن يمنح نفسه استراحة قصيرة لتجديدها. وكثيراً ما يحدث هذا عند منتصف النهار عندما ينخفض

مستوى السكَّر في الدم. إذا تركت العمل مدة ربع ساعة ثم عدت إليه؛ فإنك ستعود بهمة جديدة.

ومن المهم أيضاً أن يخصص المرء لنفسه في كل يوم وقتاً يقضيه بعيداً عن العمل، حتى لايسأم ولايمل. ولابد بعد هذا وذاك من أن يحصل الإنسان على إجازة دورية، ويترك العمل خلف ظهره. وقديماً لم يكن الناس يحرصون على الإجازة؛ لأن الأعمال التي كانوا يقومون بها متفرقة، وحجمها أقل، وهي تستدعي أيضاً تركيزاً وتنظيماً أقل. أما اليوم فكل شيء قد اختلف، ولذا فلابد من تزييت (الماكينة) إذا ما أردنا لها أن تستمر في العمل.

رابعاً ـ مواجهة المشكلات:

في تربيتنا ونظمنا وأوضاعنا العامة تشجيع على (الغموض) وتشجيع على الهروب نحو الأمام. ونحن إلى جانب ذلك قلّما نملك الشجاعة على الاعتراف بأخطائنا. وقليل منا أولئك الذين يقدمون على تحمل المسؤولية عن تصرفاتهم. وهذا كله يجعل المجتمع يظهر بمظهر المعافى وهو يعاني من علل ومشكلات فتاكة.

نحن لاندعي العصمة، ولاتدعى لنا، لكنا نحب أن نظهر بمظهر المعصوم! إن وجود مشكلات في حياة الناس، هو الأصل، وهو ليس علامة مرض، فالعيش السهل والإحساس بأن كل شيء على ما يرام، قد يكون هو المدخل لتحلل الشخصية، على حين أن وجود المشكلات، ووجود بعض الظروف المعاكسة، يصلّب لدينا روح المقاومة، ويستخرج أفضل ما لدينا من طاقات كامنة، كما يصقل خبراتنا وينميها[1] وعلى مدار التاريخ لم يكن تقدُّم العالم من خلال الرخاء، وإنما من خلال الأزمات التي كانت تمنحه الفرصة لتجديد أبنيته،

---

(١) يرى بعض الباحثين أن تخلُّف (أفريقيا) يعود إلى سهولة العيش في الماضي، حيث المناخ المعتدل والحار الذي لايتطلب السعي إلى الدفء، وحيث وفرة الصيد والثمار؛ مما حال دون شعور الإنسان الإفريقي بالحاجة إلى تحسين ذاته واكتساب مهارات ومعارف جديدة.

ومراجعة حساباته وإبداع الحلول لمشكلاته.

إن الاعتراف بأننا نعاني من وجود مشكلات معينة عامل أمان ضد تفجر المجتمع من الداخل، وضد الانهيار السريع الذي يمكن أن يحدث عند تجاهل ما يتراكم من أخطاء وخطايا.

وهذه إضاءة لبعض النقاط التي تتعلق بهذه المسألة المهمة:

ـ الاعتراف بالمشكلة على ماهي عليه دون محاولة طمسها أو تشويهها، هو الخطوة الأولى على طريق العلاج، صحيح أن الاعتراف بالحقيقة مر في كثير من الأحيان، لكن لايمكن السير في طريق الشفاء من دونه. مافائدة وجود أطباء ومستشفيات وأدوية... إذا كان الناس لا يشعرون أنهم مرضى أو بحاجة إلى علاج؟.

إن كثيراً من المشكلات التي تواجهنا أشبه بـ(**السرطان**) في محوريّة مرحلة الكشف عنه في الشفاء منه؛ فكلما كان الاكتشاف مبكراً كان الأمل في الشفاء أكبر؛ ولذا فإن إهمال المشكلة لن يحلها، وإنما يجعل حلها يتجه نحو الأسوأ، كما يحل (**الموت**) مشكلة الأمراض المعضلة والمستعصية. قد نحتاج إلى بعض الوقت حتى نتقبل وجود المشكلة، ونفسح لها مكاناً في مشاعرنا واهتماماتنا؛ وهذا طبيعي.

كثير من الناس ينتابهم إحساس غامض بوجود مشكلة في حياتهم دون أن يتمكنوا من تحديدها. ويمكن القول: **إن كل مشكلة يمكن توصيفها على نحو جيد، هي مشكلة محلولة جزئياً**. وعلينا هنا أن نكون على حذر من أن نفكر في تحديد مشكلاتنا ونحن في حالة من الخوف أوالاكتئاب، حيث إن ذلك يجعل المشكلة تبدو كبيرة ومعقدة. على حين أن النظر إليها ونحن في حالة ثقة وتفاؤل وراحة من الضغوط، يجعلها تبدو أصغر، وسوف تصغر أكثر فأكثر عندما نبدأ بمواجهتها.

ـ مما يساعد على تحديد المشكلة **أن يتحدث صاحبها إلى من يثق به ويعرفه**

معرفة جيدة، فالأصدقاء القريبون جداً يشكّلون انطباعات واضحة عن أصدقائهم في العادة، وتلك الانطباعات ستلقي المزيد من الضوء على المشكلات التي يعانون منها.

أوقات الإجازة والاستراحة أوقات ملائمة للتفكير بالمشكلات، إذ من شأنها أن تكون أكثر وضوحاً حين نكون بعيدين عنها. وإذا استطعت أن تبتعد عن مشكلتك لتعالجها على أنها مشكلة إنسان آخر، فإن ذلك سوف يساعد على تحجيم دور (العاطفة) في المعالجة، وتناول المشكلة بقدر أكبر من الحياد والموضوعية. ومن المهم أن يثق الإنسان في حدسه وبصيرته في فهم أوضاعه، فهو على كل حال يظل الأقدر على الإلمام بها.

ـ لاينبغي للواحد منا أن يفكر في أكثر من مشكلة في آن واحد، لأن ذلك سوف يجعله يشعر بالوهن والهزيمة. وقد يجد المرء أمامه عدداً من المشكلات المترابطة، مما يخيل إليه استحالة حلّ واحدة منها دون حلّ أخرى مرتبطة بها. وهذا صحيح في بعض الأحيان، لكن لابد من محاولة فك الارتباط بينها ـ قدر المستطاع ـ وعزلها بعضها عن بعض حتى يجد الإنسان في نفسه الطاقة الكافية للتعامل معها؛ بل إن المطلوب قد يتجاوز ذلك إلى محاولة تفتيت المشكلة الواحدة إلى أجزاء عديدة. والحقيقة أن النجاح في تفتيت المشكلة سيمنحنا نوعاً من القدرة على حلها، كما تفعل الشركات حين تقسم طريقاً طويلة إلى وصلات صغيرة.

ويمكن القول: إن في العالم اليوم اتجاهاً إلى تجزئة كثير من الأعمال الكبرى؛ من خلال إعطاء المزيد من الاستقلالية لكل قسم أو مركز أو فرع عن مؤسسته الأم، وذلك من أجل رفع كفاءة الإنتاج، ومن أجل تعامل أفضل مع مشكلاته، لكن الأمر ليس بالسهولة التي نتصورها، فالفصل والتجزئة ليسا من الأشياء الجذابة، ومع هذا فإن علينا أن نُصرّ على النجاح في ذلك. ونحن نبحث عن حَلٍّ لمشكلاتنا يجب أن نكون على وعي بأمرين:

الأول: أن نُعرض عن المتشائمين والمثبطين الذين لا هَمَّ لهم سوى بث اليأس ودلالة الناس على الطرق المسدودة. إن الله ـ جل وعلا ـ ما أنزل داء إلا

أنزل لـه دواء، وإن كل نظرية أو رؤيـة تفضي بالنـاس إلى الحيرة والعطالـة، ليسـت بنظرية، وليسـت برؤية سديدة؛ لأنها مخالفة للمبدأ الثابت الذي ذكرناه.

الثاني: إننا نحتاج إلى أن ننتبه إلى أن المرء قد يكون اختار مجالاً خاطئاً لنشاطه، كأن يكون اختار العمل في مجال الزراعة أو التجارة أو التدريس... وهو لا يملك أي مقوّم من مقوّمات النجاح في الحقل الذي اختاره، وآنذاك فـإن الإصرار على المضي قُدُماً إلى ما لا نهايـة، ينافي الحكمة. والأفضل للمرء آنذاك أن يغير النشاط كله، ويتخذ قراراً واحداً جريئاً بدل أن يواجه في كل يوم مشكلة جديدة.

ـ هناك أسـلوب في التفكير اسـمه أسلوب (القصف الذهني)، وهو يعني أن يسمح الإنسان لكل الخـواطر والأفكار التي تدور حول المشكلة بالانسياب مهما كانت تبدو عقيمة أو بعيدة دون أن يبدي أي نوع من التقييم لها أو بيان لسلبياتها، وحتى إذا شعر أنه قد استنزف كل ما لديه أمكن له أن يستعرضها، ليسبر أغوارها، حلاً بعد حلٍّ، وفكرة بعد فكرة. وسيكون من المفيد الاستعانة بصديق للمساهمة في تقييم تلك الحلول والأفكار، والوقوف على إيجابيات كل منها وسلبياته. بعد ذلك يتم اختيار حل منها وتجريبـه بدأب ومثابـرة، وبعد مدة يتم تقييم الحل مـن جديد. وفي الغالب سـيجد المرء تحسناً كثيراً. وإذا لم يجد النتائج المرضية، فبالإمكان إضافة حل جزئي آخر إلى الحل الأول أو تجريب حل آخر غيره.

ـ من الأخطاء الشائعة لدى الشعوب والأفراد استسهال الحلول التي يتعلق جزء منها بالآخرين. ومع أن ذلك صحيح إلى حدٍّ ما؛ حيث إن المشـكلة التي تتعلق بأكثر من طرف ينبغي أن يسهم جميع الأطراف في حلها، وهذا منطقي، بالإضافة إلى أنه يخفف من ضغط المشكلة على المرء، حيث يشعر بإمكانية تلقي الدعم من الآخرين؛ لكن الذي يحدث في كثير من الأحيان أن ينسى كل واحد من الأطراف وظيفتـه، أو أنـه يعلق القيـام بواجبه على قيام الآخرين بواجباتهم. وتكون النتيجـة أن تبقى المشـكلة من غير أي حل، وكأننـا لم نفعل أي شيء. وانطلاقاً من هذا فإن علينا ـ إذا ما أردنا أن ننجز شيئاً ما ـ أن نُؤثِر الحلول التي

لاتعتمد على مشاركة الآخرين. ولاشك أن الحل لن يكون آنذاك مثالياً، لكنه يظل أفضل من تعليق المشكلة إلى أجل غير مسمى.

لنجعل من المشكلات والأزمات نقاط انطلاق جديدة، ولنكتشف من خلالها قدراتنا الكامنة، ولنجدد من خلالها أساليب عيشنا ووسائل إنتاجنا، وبذلك تصبح المحنة منحة، وننجح في الابتلاء.

خامساً ـ الاهتمام بالمستقبل:

إن النظر إلى الأمور بعيون مستقبلية منهج إسلامي صميم، وإن المسلم يضبط إيقاع حركته في الحياة كلها وفق متطلبات الفوز بالجنة الموعودة في الآخرة. وقد كان المأمول أن يتولّد من هذا المنهج نظر مستقبلي فريد لدى المسلم في كل أمور الحياة، لكن يبدو أن انتفاع المرء بمبادئه لا يتأتّى بطريقة عفوية، وإنما يحتاج إلى نوع من الفاعلية الذهنية والشعورية التي لاتوفّرها إلا درجة معيّنه من التحضر.

إذا ما أراد الواحد منا أن يبحث عن شيء محوري للمستقبل ـ على صعيده الشخصي ـ، فأتصور أن ذلك الشيء سيكون كيفية توفير الشروط النفسية والماديه التي تساعده على أن يحيا الحياة الكريمة التي تمكنه من القيام بأمر الله ـ تعالى ـ، والنجاح في مجموعة الابتلاءات التي تواجهه في هذه الحياة. وهذا في الحقيقة مطلب كبير، ولن يتم إلا من خلال خطة شخصية لكل واحد منا؛ إذ بالأنشطة المؤطَّرة في سياق خطة وأهداف واضحة، يمكن ـ فحسب ـ الانتقال مما نحن فيه إلى ما هو مرجو ومأمول.

وهذه بعض الأفكار التي تساعد على رسم خطة شخصية ملائمة، نسوقها على سبيل الإيجاز:

أ ـ علينا أن نكون على وعي بأن مصيرنا الشخصي، ليس منفصلاً عن مصير مجتمعنا، وليس من الصواب ولا المروءة أيضاً أن نبحث عن طريق لخلاصنا بمعزل عن أهلينا وإخواننا وأبناء مجتمعنا. وكل ماينوي الإنسان تحقيقه ـ على

أي صعيد كـان ـ لايمكن أن يتم في فـراغ، فالوسـط السيِّئ، لايساعد أبداً على إنجازات كبيرة؛ ولذا فإن أي خطة شـخصية نحاول وضعها للمستقبل، يجب أن تأخذ بعين الاعتبـار التشكلات المستقبليـة التي تتجه إليها البيئة التي نعيش فيها. والعوامل المؤثرة في تشكيل البيئة الخارجية كثيرة جداً، أهمها:

ـ الأفكار والمفاهيم السائدة.
ـ مايسود فيها من أحوال وأوضاع مادية واقتصادية.
ـ بؤر الصراع الظاهرة والكامنة فيها، ومحاور التنافي بين الناس.
ـ القوى المتنفذة والمؤثرة في تكوين اتجاهات الناس المعيشية.

يمكن للمرء من خلال إدراكه لهذه العوامل أن يحدد مدى ملاءمة بيئته لأفكاره وخططه ومدى الضغوط التي يمكن أن تمارسها عليه.

ب ـ **كما يجب أن نتبصر في البيئـة الخارجيـة**، علينا أن نجري نـوعاً من «التقييم» لإمكاناتنا لأن التخطيط ماهو في الحقيقة سوى استثمار وبرمجة وتوجيه لما هو متاح بين يدي المخطط من إمكانـات مختلفـة. ولا يخفى أن كثيـراً من الخطط باء بالإخفاق الذريع نتيجة سوء التقدير لما يمكن أن يُعتمد عليه من عناصر بشـرية ومادية في إنجاز الخطـة. وكثيراً ما يكون الدافـع لذلك توهج الرغبة في الوصول السريع إلى الهـدف. نحن بحاجـة إلى الحماسـة في تنفيـذ برامجنـا وخططنا، كما ينبغي أن نحتفظ بدرجة من التعاطف الصادق معها، لكن ذلك كله يجب أن يكون وقت التنفيذ وبذل الجهد، وليس وقت وضع الخطة التي تحتاج إلى التعقل والخبرة أكثر من أي شيء آخر.

جـ ـ **يحتاج كل هدف من أهدافنا إلى خطة منفصلة** سواء كان الهدف في المجال العقلي أو الروحي أو المادي أو الاجتماعي...، حيث يتطلب التقدم في كل مجال من هذه المجالات برنـامجاً خاصـاً واضح المعالـم. ومـن المؤسف أن قليلين منا الذين يفعلون ذلك؛ مما يؤدي إلى إهمال أشياء مهمة في حياتنا، وبالتالي إلى اختلال توازننا الشخصي. لابد ونحن نضع لكل هدف خطته من التأمل في شـأن القوى المؤثرة سـلباً في نجاح الخطة، والتفكير في كيفية تلافيها،

على قدر الوسع والإمكان.

د ـ **لكل خطة بعدان أساسيان**: بُعدٌ نظري فلسفي يتم من خلاله ترتيب أولويات الخطة. وبُعدٌ تنفيذي عملي، يرتب تلك الأولويات يوماً بعد يوم، ويوزع عليها الإمكانات والموارد المتوفرة.

البُعد الأول يبلوره الواحد منا باعتباره قائداً، ويبلور البُعد الثاني باعباره مديراً.

وحتى ينجح الواحد منا في رسم البعد الأول، فإن عليه أن يجد الجواب الواضح لتساؤل جوهري، هو: ما الشيء الذي إذ أُنجز سيكون له أعظم الأثر في تحسين وضعيته العامة، أو بلوغ هدفه السامي؟

إذا وجدنا الجواب، نكون قد وضّحنا أهم شيء في البعد الأول من الخطة، وبقي علينا أن نوفّر ما يحتاجه البعد الثاني من إرادة وأساليب.

النجاح في تنفيذ ما هو أَوْلى فعلاً، يحتاج إلى أن نفرّق بين الأشياء المهمة والأشياء الملحة. وهناك أمور كثيرة تدل على أنَّ إهمالنا لأشياء تافهة، يحولها إلى أشياء ملحّة، وبالتالي فإننا ننفق عليها الكثير من أوقاتنا، ونترك الأشياء المصيرية والمهمة.

إن إهمال معالجة (سن) قد يؤدي إلى التهاب جذوره، وربما عطّلَنا ذلك عن أعمالنا أياماً، مع أنه لو عولج في وقته، قد لايحتاج إلى أكثر من ساعة.

إذا لم نملأ أنبوبة (الغاز) عند فراغها، وفي أوقات الفراغ، فقد نضطر إلى ملئها في وقت حرج، نحن بأمسّ الحاجة فيه إلى كل دقيقة وهكذا... لابد أن نقول: **(لا) لأشياء كثيرة حتى نتمكن من تنفيذ الأمور ذات الأولوية في حياتنا**، ولابد إلى جانب ذلك من أن نعطيها أفضل مالدينا من فكر وجهد ووقت ومال، وإلا كانت فكرة الاهتمام بالأولويات شعاراً مجرداً، لايقدِّم ولايؤخِّر. إنَّ وضع الخطط ليس صعباً، لكن المهم هو التنفيذ من خلال تطويع النزعات والرغبات الشخصية لإرادة صلبة راشدة.

سادساً ـ السعادة والرضا :

الإحساس بالرضا والشعور بالسعادة من القضايا المهمة التي تستحق إلقاء بعض الضوء عليها، نظراً لأهميتها في حياتنا الشخصية، حتى إنه ليصحّ القول: إن أكثر الأنشطة التي يقوم بها الناس ـ أينما كانوا ـ يستهدف الحصول عليهما. وسيكون من المهم أن نبلور طبيعة كل منهما بغية الوقوف على ما يغذي كلاً منهما، حتى نصل إلى بعض المحكّات التي نستفيد منها في ترشيد سلوكاتنا، وأنشطتنا المختلفة.

الشعور بالسعادة شعور باعتدال المزاج وبالانشراح والسرور والبهجة، وهي جميعاً مشاعر ذاتية انفعالية داخلية. الشعور بالسعادة مطلق وشخصي وضعيف الارتباط بالظروف المادية الخارجية، فقد يشعر بالسعادة من يعيش في خيمة أو بيت من طين، ولا يملك الكثير من المال والمتاع. كما قد يشعر بالتعاسة من يملك الكثير الكثير.

الشعور بالسعادة غير الشعور باللذة أو النشوة الذي يأخذ طابع المؤقت والعابر، والذي قد يعقبه في بعض الأحيان شعور بالكآبة، ولا سيما عندما يكون مصدر اللذة محرماً في معتقد من يحسّ بها.

/ **الشعور بـ(الرضا) لا يلامس الأعماق**، كما يلامسها الشعور بـ(السعادة)؛ لأن الشعور بالرضا يكاد يكون نوعاً من التقدير العقلي للذات؛ كما أنه عبارة عن ترجمة لشعور المرء بالكفاءة الاجتماعية وشعوره بأنه (لائق) في نظر نفسه وفي نظر الآخرين. /

/ **المصدر الأساسي للشعور بالسعادة** هو مدى مايحققه المرء من المطابقة بين معتقداته وسلوكاته، فالانسجام بين المعتقد والقول والسلوك، هو أكبر مصدر لإحساس المرء بالسعادة. / وقد ذكر بعض المفسرين أن معنى **(الحياة الطيبة)** في قوله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[النحل: ٩٧] هو السعادة. وتُثبت دراسات كثيرة أن (التدين) مصدر

مهم للطمأنينة والشعور بالهناء. وكان أرسطو يقول: **على المرء أن يكون فاضلاً حتى يكون سعيداً**.

من مصادر السعادة كذلك تمحور أنشطة الإنسان حول غاية عليا أو هدف تعاوني مشروع وقريب المنال، والذين يفتقدون ذلك يشعرون بالعبثية والتفاهة.

ضيق الفجوة بين الإنجازات والطموحات هو الآخر مصدر للسعادة والانشراح، كما أن العلاقات الأسرية والاجتماعية الجيدة مصدر مهم من مصادر الهناء والأمن، حيث يتلقى المرء ما يحتاجه من الدعم الاجتماعي.

الانسجام الداخلي والخلاص من الصراعات الداخلية يسهم في الإحساس بالسعادة. ولا ننسى دور الاستفاضة في أعمال الخير على الصعيد الشخصي والاجتماعي؛ إذ تشكل أنشطة التعبد المختلفة ومساعدة الآخرين، والتخفيف من درجة العناء الإنساني للضعفاء مصدراً لا يُستهان به للشعور بالسعادة.

أما المصدر الأساسي للإحساس بالرضا **فهو المقارنة**: مقارنة حالة حاضرة مع حالة سابقة، ومقارنة الإنسان لنفسه بالآخرين في العلم والقوة والشكل والعمل والدخل والكفاءة الاجتماعية. . . ولذا فإن الشعور بالرضا، يظل دائماً نسبياً، وهو أقرب إلى أن يكون أحد المنتجات الاجتماعية. حين يقارن الإنسان بمن هو دونه يشعر بالرضا، وحين يقارن نفسه بمن هو فوقه يشعر بنوع من السخط على النفس؛ ولذا ورد في بعض الأحاديث التوجيه بأن ينظر المرء في أمور الآخرة (الفضائل) إلى من هو فوقه حتى يتخذ منه قدوة، أما في أمور الدنيا فينظر إلى من هو دونه، حتى لا يزدري نعم الله ـ تعالى ـ عليه.

ما نشاهده اليوم من اندفاع نحو اللهو والسفر والسياحة وارتياد المطاعم، والتمسك بالمظاهر والشكليات ـ على نحو لم يسبق له مثيل ـ ما هو في تصوري سوى **عبارة عن محاولات للتعويض عن السعادة الحقيقية** التي فقدها كثير من الناس نتيجة انخفاض مستوى التزامهم، واتساع الهوّة بين ما يعتقدون وما يفعلون، كل شيء فيهم مشرق ومبتهج سوى القلب الذي تغشاه عتمة الانحراف والتقصير!

سابعاً ـ السبق والتقاعس:

يقولون: **أساس كل العلوم وجود ظاهرتين مختلفتين**، أو وجود مستويين في ظاهرة واحدة؛ مما يشجع الناس على إجراء المقارنات والموازنات، ومما يوسع منطقة الوعي، ويدخل فيها صوراً وأفكاراً كانت بعيدة عنها، ونريد هنا تسليط بعض الأضواء على بعض سمات (السبّاقين) وبعض سِمات (المتقاعسين) أو (العاجزين) حتى نثري مشاعرنا وأخيلتنا ببعض المفاهيم التي تساعدنا على المزيد من البَلْوَرة للسمات والمواقف المطلوبة، وكذلك السمات والمواقف المعوِّقة للنمو والسير في طريق الاكتمال. بعض المعاني مما سنذكره، قد يكون سبقت الإشارة إليه، لكن نريد هنا جمع هذه السمات، وإبرازها من خلال المقارنة بينها، وهذا موجز لأهمها.

ـ **السباقون لا يرتبطون بمن حولهم**، ولايقعون أسرى لمحيطهم الطبيعي أو محيطهم الاجتماعي، ولا يتخذون من انحراف المجتمع ذريعة للانحراف؛ لأنهم يعتقدون أن المسؤولية أمام الله ـ جل وعلا ـ فردية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

السباقون يعلمون إلى جانب هذا أن معظم الناس حولهم، يعيشون خارج التاريخ، وخارج حدود مسؤولياتهم الخاصة؛ ولذا فإنهم لا يركنون إليهم، وهم بعد هذا وذاك يحاولون إغناء النماذج البشرية الراقية من خلال نموذجهم الخاص.

أمّا المتقاعسون، فهم يحملون مشاعر طفولية، تُترجم دائماً إلى الاعتماد على الآخرين، ويعتقدون بصدق قول الشاعر:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

مشكلاتهم ليست بسبب قصورهم الشخصي، وإنما بسبب سوء الحظ أو التآمر عليهم أو تدهور الزمان.. فهم غير مسؤولين عنها، ولا قادرين على

معالجتها، وهم إلى جانب كل ذلك يُخضعون (قيمهم) لمشاعرهم وظروفهم ومصالحهم، فهم محرومون من متانة الدين وصلابة الخلق.

ـ المفردات اللغوية التي يكثر أحدنا من استخدامها تعبّر بوضوح عن رؤيته العامة للحياة، كما تعبّر عن مدى رحابة آفاقه الفكرية والنفسية. وإذا تأملنا في حال السباقين والمتقاعسين، فإننا سنجد أن كل فريق منهما يستخدم ما يشبه النمط اللغوي الخاص به. ولعلّنا من خلال الجدول التالي نستطيع تكوين إحساس واضح بكل منهما:

لغة المتقاعسين	لغة السباقين
ـ لا أستطيع فعل أي شيء	دعونا ننظر إلى البدائل
ـ هكذا أنا	يمكنني اختيار طريقة مختلفة
ـ إنه يصيبني بالجنون	أستطيع السيطرة على مشاعري
ـ لن يسمحوا بذلك	سأجد فرصة ولو صغيرة
ـ أنا ملزم بفعل ذلك	سوف أختار الرد المناسب
ـ يجب عليَّ...	أفضِّل
ـ لو أن...	سوف...
ـ هذه مخاطرة...	هذه فرصة
ـ هذا صعب للغاية	هذا يمثل تحدّياً
ـ فهِّمني	ساعدني على الفهم
ـ أشعر بالعجز	أودّ الحصول على مساعدتك

لغة التقاعس هذه، تشكّل مع الأيام نظاماً فكرياً ونفسياً لدى صاحبها، وتصبح في النهاية عبارة عن أداة تنميط، تضغط على التفتح الفكري والروحي له.

ـ السباقون يستغلون أوقاتهم على نحو حسن، وهم واضحون جداً في مبادئهم وطموحاتهم وأهدافهم وقراراتهم. وعلى الرغم من قلة الإمكانات التي

بين أيديهم، فإن ثمار جهودهم تبدو دائماً وفيرة، هم لا يملكون الكثير من الأشياء، لكنهم يقومون بالكثير من الأعمال، والجوهر لديهم دائماً أهم من المظهر. نجاحاتهم تأتي ثماراً لجهودهم، وما يستخدمونه من إمكاناتهم.

أما المتقاعسون فأحلامهم متواضعة، وطموحاتهم محدودة، ونفوسهم مستكينة، وعقولهم خاملة، وحركتهم بطيئة، وحين يتحركون فإنهم يدورون في حلقة مفرغة، وهم يحتملون الآلام إلى ما لا نهاية.

المتقاعسون يجلسون أمام (التلفاز) ساعات طويلة، حيث لا برامج ولا أهداف تستحق العمل. وهم يشترون الفرش الوثيرة، ويجلسون عليها أطول مدة ممكنة، والاستلقاء أحب إليهم من الجلوس.

المتقاعسون يعانون من البطالة على الرغم من توفر فرص العمل. وحين يتجه الناس إلى أعمالهم في الصباح يتجهون هم إلى النوم؛ لأنهم لم يناموا في الليل، أو يتجهون إلى أماكن عملهم، حيث البطالة المقنّعة.

المتقاعسون لا يعتمدون على كفاءتهم الشخصية، وإنما ينجزون أعمالهم عن طريق الرشوة أو الواسطة، وعندما تحيط بهم مشكلة، يؤثرون الدوران حولها عوضاً عن مواجهتها؛ ولذلك فالتسويف، وتأجيل أعمال اليوم إلى الغد من أبرز سماتهم. **لا يملك المتقاعسون روح الاستمرار على العمل**، ويبحثون دائماً عن (**خبطة العمر**): فرصة واحدة تكفي. هم أسرى اللحظة الحاضرة. ومن شأنهم دائماً الحصول على القليل من الكثير. **يعيش المتقاعسون دائماً في منطقة رمادية**، يحدّها من الشمال (اللاسلم) و (اللاحرب)، ومن الجنوب (اللاقرار)، ومن الشرق البكاء على الأطلال، ومن الغرب الرؤية الضبابية.

إن السبّاق والمتقاعس، قد يعيشان في أسرة واحدة، وقد يحملان شهادتين متماثلتين، ويقومان بأعمال متشابهة، لكن كل ذلك عبارة عن تشابه شكلي، لأنهما ينتميان إلى عالَمين متناقضين، لا يجمع بينهما سوى عبقرية المكان.

ثامناً ـ لكل شيء ثمن :

زماننـا زمان التواصل الكونـي الفريد، وهو عصـر الازدحـام، حيث كل شـيء يحتشـد، في ظـل التـواصل والازدحام أمكن سـد فراغات كثيـرة. وقام نتيجة لذلك توازن دقيق بين كل الأشياء. قد انتهى عصر (المجانية) أو كاد؛ حيث لابد أن تقبض ثمن كل ما تتخلى عنه، ولابد أن تدفع ثمناً لكل ما تأخذه. التوازن القائم الآن، يتطلب التعامل معه رؤية شاملة وبصيرة نافذة، كي نفرّق بين الأشياء العزيزة والأشياء التافهة، فنعرف ماذا ندع، وماذا نأخذ. حين يريد الواحد منا أن يحقق مصالحه كاملة، فإن عليه أن يكون مستعداً للتخلّي عن بعض مبادئه وقِيَمه. وحين يأكل الإنسـان ما لذّ وطاب دون أي حسـاب، فإن عليه أن يهيئ نفسه لاستقبال أمراض السمنة المختلفة.

إذا جعل الواحد منا إيثار الأشياء العاجلة ديدناً له، فعليه أن يعلم أن العاقبة لكل أموره ستكون مفجعة. وفي المقابل فإن مَنْ ترك بعض المغانم تديُّناً وخوفاً من الله ـ تعالى ـ فإنـه سيجد شـيئاً من حلاوة الإيمـان في قلبـه، وستغمره مشاعر النصر والتأنق.

الذين يتابعون الأسفار مدمنين جمع الثروات وتكديس الأموال، يدفعون ثمناً باهظاً قد لايقتصر على البعد عن أهليهم، وإهمال تربية أولادهم، وضمور علاقاتهم الاجتماعية . . .

إن التوازن الجيد في زمان الشحّ والندرة والتراحم، يحتاج إلى أن نمتلك حاسـة جديدة تمكننا من الموازنـة الدقيقة بين ما نكسـب وما نخسر. وعدم امتلاكها قد يجعلنا نخسر الكثير في سبيل أرباح وهمية. ومن المؤسف حقاً أن قدرة وعينا على متابعة الموازنات المستحدثة ـ محدودة، كما أن خبراتنا بمآلات الأشياء، وعواقب التصرفات ضئيلة أيضاً؛ ولذا فإن قلّة من الناس أولئك الذين يملكون المهارة الكافية للنجاح في هذه المسألة الحيوية.

لا يجوز لأي توازن أو حساب للربح والخسارة أن يغض الطرف عن أن الآخرة امتداد للدنيا، ولذا فإن المرء قد يخسر هنا ليربح هناك، وقد يربح هنا ليخسر هناك. هذه الرؤية تجعل كل المكاسب الدنيوية صغيرة ومؤقتة؛ ولنتذكر قول الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

تاسعاً ـ الدقة:

يمكن لنا أن نصف عصرنا بأنه عصر الأشياء الدقيقة. وجود آلة ضخمة تحتوي على ألوف القطع الصغيرة جداً والتي تعمل في إطار نظام واحد ـ دليل واضح على أن صانعي تلك الآلة، قد بلغوا درجة عالية جداً من الدقة في التصورات والمقاييس والأدوات، واستخدام خواص المواد... وهذا يعني أنه صار لدى الإنسان شبكة معقدة من النظم الدقيقة التي أتاحت إنتاج ذلك الكمّ الهائل من الأشياء الدقيقة.

عصرنا إلى جانب ذلك هو عصر السرعة أيضاً، وبين الدقة والسرعة علاقة جدلية: فكلما كنت سريعاً وجب عليك أن تكون دقيقاً أكثر، وكلما كنت دقيقاً أمكنك أن تكون أكثر سرعة. إنّ سائق السيارة بحاجة إلى ملاحظة الأشياء في طريقه بتفحص أشد ودقة أكثر، والنظر إلى مسافات أبعد كلما زادت سرعته، وإلا فإنه يؤهّل نفسه للوقوع في حادث مروِّع. ويمكن تعميم هذا الحكم على جميع مسارات سيرنا في هذه الحياة. الإنسان بسبب تقدمه الحضاري، صار مضطراً إلى أن يتناغم مع بيئته الدقيقة، ويرفع من مستوى تعامله، ليصبح هو الآخر دقيقاً. الواحد منا مطالَب بأن يكون دقيقاً في فهمه، ودقيقاً في كلامه أيضاً؛ حيث إن نظم الفهم لدى الناس قد تعقدت، وخلفياتهم الثقافية وخبراتهم قد تحسنت كثيراً؛ مما يجعل إلقاء الكلام على عواهنه بالغ الضرر على المتكلم والسامع.

إذا شرحت فكرتك عشرين مرة، وفهمها الناس عنك تماماً كما تريد، فأنت محظوظ وبارع، بل يمكن القول: إنه لاسبيل لديهم إلى أن يفهموا مرادك فهماً

شـاملاً بكل ظلاله وتلويناتـه وإيحاءاته وأبعاده! الرسـالة المعقدة تتطلب فهماً معقداً، وإلا فقد نسيء فهمها، أو نفهم قشورها أو بعضاً منها، وهذا يتطلب أيضاً مزيداً من الدقة والمتابعة الجيدة والمناقشة والاستفسار، وقبل كل ذلك وبعده التعمق في التخصص كلما كان ذلك ممكناً. بسبب الفائض الضخم من المعاني والمفاهيم والنظم والأشياء تصبح (اللغة) ناقلاً قاصراً، حيث لاتستطيع أن تنمو نمواً مكافئاً لما عليها أن تعبّر عنه. وتعويض ذلك يجب أن يأتي من الأشخاص عن طريق المزيد من التوضيح في الاستخدام، والمزيد من الدقة في التلقّي والفهم.

عصر الدقة يفرض على كل واحد منّا أن يكون دقيقاً في سلوكه الشخصي: في مواعيـده وتربيـة أولاده وتعاملاتـه المالية وفي عقوده. دقيقـاً في تعامله مع جسده وصحته، ومع المؤثرات العامة التي يتعرض لها. إهمال الدقـة في ذلك وفي غيره سـيكون عبارة عن بوابـة لشرور ومشكلات لاحدَّ لها.

القرآن الكريم ـ والبنية التشريعية عامة ـ وضع الأسس الفكريـة والعقدية والشـعورية التي تجعل المؤمنين به دقيقين في كل شؤونهم. إن (الشـهادتين) تنقلان الإنسان نقلاً كاملاً من ديـن إلى ديـن، كما أن كلمـة واحدة سـتكون كافيـة لإخراجه من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر.

وقد ورد في الحديث الصحيح: «إن العبـد يتكلم بالكلمة من رضوان الله ـ تعالى ـ لايلقي لها بـالاً، يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمـة من سخط الله ـ تعالى ـ لايلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم». الصلاة والحج والصيام، كل ذلك محدود بمواقيت دقيقة؛ فصلاة الظهر ـ مثلاً ـ إذا أُدّيـت قبل وقتها بعشر دقائق لم تبرأ ذمة صاحبها، وكان عليه أن يعيدها بعد دخول الوقت، ولو أن إنساناً صام عشرين ساعة، ثم أفطر قبل غروب الشمس بعشر دقائق، لم يصح صومه.

إن أطول آية في كتاب الله ـ تعالى ـ هي آية (المداينة) تلك التي تعلمنا ضبط ضرورة من ضرورات الحياة (الدَّيْن) وهي تعلّمنا (الدقة) حيث يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فلاينبغي للمسلم أن يسأم من كتابة الدَّين سواء أكان صغيراً أم كبيراً إلى وقت حلول وفائه،

وذلك للتقليل من الاعتماد على الذاكرة، ولقطع الطريق على جحود الجاحدين.

ومرة أخرى يحثّنا القرآن الكريم على **الدقة**، ويوجهنا إلـى الإشهاد على اليتامى حين نرد إليهم أموالهم: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦].

إن المسلم ليس مطالباً بأن يكون دقيقاً في إدراك تفاعلات محيطه وعصره فحسب، بل إن عليه أن ينظر إلى التفاعلات المستقبليـة التي قد تُحدثها أقـواله وأعماله ومبادآتـه ومواقفـه؛ وقد قال بعض المفسـرين: إن المراد مـن (آثارهم) في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يـس: ١٢]: كل ما يبقى بعد الناس من خير أو شر؛ كعلم علموه أو كتاب صنفوه، أو مسجد بنوه، أو شيء أحدثوه فيه ضرر على المسلمين، أو صد عن سبيل الله . . . وهذا المفهوم واضح في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من سـنَّ في الإسلام سنّة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شـيء، ومن سنَّ في الإسلام سنّة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

سـتظل دقة المرء في شـؤونه عنوانـاً واضحـاً على استيعابه للمنهج الرباني الأقوم، وعلى ارتقائه الحضاري وفهمه لطبيعة عصره وتحدياته.

عاشراً ـ مطالب متناقضة:

في زحمة التطلعات المتطاولة للناس، وزحمة الظروف القاسية، واتجاه الأشياء إلى الشحّ والندرة ـ زادت وتيرة المطالب المتناقضة للناس، فهم يريدون الحصول على المزيد من أشكال المرفهات والمتع، والمزيد من التعليم والتدريب دون أن يفكروا فيمن سيدفع الثمن، وكيف سيتم توفير ذلك؟!.

كثير من الناس يهاجم نظام الطوابق والشقق في الأبنية الحديثة، ويقول: إن مدننـا الحديثة فقدت الروح ومعاني الحيـاة حين تحولت إلى غابـات من الإسـمنت والحديد، وهم في الوقت نفسه يطالبون بخدمات أفضل في الماء والكهربـاء والصرف الصحي والاتصـالات والنظافـة. . . وهم غير مستعدين

لتفهّم أن التخلّي عن نظام بناء الطوابق، سيؤدي ـ إلى جانب استهلاك مساحات واسعة من الأرض ـ إلى جعل تكلفة الخدمات وصيانتها أعلى بكثير مما هي عليه الآن. وهم غير مستعدين لدفع رسوم أو ضرائب لذلك.

بعض النـاس يهاجم كل ماهـو صناعي، ويتندرون على الحليب المجفف والأغذية المعلّبة والبيوت (البلاستيكية) التي تُزرع فيها الخضروات . . . وكلامهم لايخلو من شـيء من الصواب، إلا أنهم يتجاهلـون أنه في ظل الزيادة السـكانية المتنامية، وفي ظل التنظيمات الجديدة للمجتمع، لم يعد بالإمكان تلبية حاجات الناس عن طريق المنتجات الطازجة أو الطبيعة، كما كان الأمر في الماضي. وهكذا. . .

لا أريد أن أسـتطرد في ذكر الأمثلـة على عدم منطقيـة الناس في مطالبهم وسـعيهم إلى الحصول على كل شيء، وعلى أحسـن ما يكون؛ ولكن أريد أن أقول: إن البشرية تدخل في كل يوم في أنفاق ودهاليز ضيقة جديدة، وهي في كثير من الأحيان غير قادرة على التراجع نحو الوراء، إما لأن الظروف والنظم الجديدة، لاتسمح بذلك، وإما لأنها لاتملك من الرؤية والوعي والإرادة ما يمكّنها من ذلك.

الشعوب بحاجة إلى أن تحاول رؤية الأشياء من منظار الحكومات، كما أن الحكومات بحاجة إلى أن ترى الأشياء من منظار الشعوب. وبالمثل فإن على المنتجين والمستهلكين والمؤجرين والمستأجرين. . . أن يفعلوا مثل ذلك. ومن مجموع الرؤى المختلفة تنبثق رؤية تنموية وإصلاحية مشتركة، تحقق للجميع أعلى قدر ممكن من المنافع، مع أقل قدر ممكن من التكاليف والخسائر.

إن اعتقاد المسلم أن هذه الدنيا ليست دار حصاد، ولادار راحة واستقرار، وإنما دار عبـور وعطـاء وابتـلاء ـ سيمنحه رؤية جديدة للأشياء وصبراً، لاينفد على مواجهة الصعاب، وهذا وحده يمثّل جزءاً من الحلول المطلوبة. والله مولانا.



البَابُ الثَّالِثُ

العَيْشُ في الزَّمَانِ الصَّعْبِ

البُعْدُ العَقْلِيُّ والبُعْدُ النَّفْسِيُّ

الد

لأن
ولأ
جم

الم
الح
والت

لأن
هي
صعي
التفك

يبدأ
الش

البعد العقلي

العقل وأهميته المتزايدة:

إنّ تطوير أي جانب من جوانب الشخصية الإنسانية، يعد بالغ الأهمية؛ لأن تكلفته ليست كبيرة، ولأن ذلك قد يكون الخيار الوحيد في بعض الأحيان، ولأن النجاح فيه قد يكون بعيد الأثر، واسع الأصداء؛ إذ يمكن أن ينعكس على جميع جوانب الحياة.

إنّ **التقدم المادي**، قد تعترضه معوِّقات كثيرة، وقد تُستنفد الموارد الأساسية المستخدَمة فيه؛ كما أن تقدم الإنسان على المستوى العضوي محكوم ببعض الحتميات التي تجعله يقف عند حدود معينة، ثم يدخل في مرحلة التراجع والتدهور التام.

أما **التقدم الروحي والعقلي**، فإن أمداء النمو أمامه ما زالت فسيحة جداً، لأن ما حصل من تقدم في هذا المضمار محدود، ولأن إمكانات هذا المضمار هي في الأساس هائلة؛ بالإضافة إلى أن خبرات كثيرة قد تراكمت لدى الناس على صعيد تعلم طرق التفكير الجيد، كما تم اكتشاف الكثير من الأخطاء الشائعة في التفكير؛ مما يؤذن بفتوحات كبيرة في هذا الشأن.

كان يعتقد أن الدماغ يصل إلى الذروة بين سن (٨ ـ ٢٤) عاماً من العمر، ثم يبدأ بالتدهور بعد ذلك، والذي يشمل معظم القدرات العقلية. وكانت الأقاويل الشعبية تدعم هذا المعتقد، كالقول: «لا يمكنك أن تعلِّم كلباً عجوزاً حيلاً

جديدة». لكن **البحوث الحديثة** أثبتت أنه إذا ما حُفز الدماغ ـ بقطع النظر عن سنّ صاحبه ـ فإنه ينمي فيزيولوجياً المزيد من النتوءات على مجسّات الخلايا الدماغية، وإن هذه النتوءات تزيد من عدد الروابط داخل الدماغ الإنساني. في ضوء هذه المعرفة **يذوي المعتقد القديم** بأننا نفقد خلايا دماغية مع تقدم العمر. هذا إلى جانب حقيقة أنه يمكننا توليد روابط دماغية جديدة بسرعة أكبر من معدل النقص في الخلايا الدماغية بكثير.

إنّ العقل البشري نعمة عظمى من الله ـ جلَّ وعلا ـ وله قدرات خارقة، هي أكثر مما يظن، **وهو أشبه بعملاق نائم**. وتُظهر الدراسات النفسية والتربوية وأبحاث الكيمياء والفيزياء والرياضيات ـ أن ما تم استخدامه من إمكانات العقل الهائلة لا يزيد **على (١٪) من إمكاناته الحقيقية**. كمبيوتر (كراي) حاسب عملاق، يزن سبعة أطنان، فإذا عمل بطاقة ٤٠٠ مليون معادلة في الثانية مدة مئة عام، فإنه لن ينجز سوى ما يمكن للدماغ البشري أن ينجزه في دقيقة واحدة! مع أن وزن الدماغ البشري هو نحو من كيلو ونصف ليس أكثر؛ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

في العالم اليوم توجه شامل وراسخ إلى اختصار الأعمال البدنية، وتقليل المواد المستخدمة في الإنتاج، إلى جانب تقليل الحركة والتخفيف من أعمال المكاتب لصالح العمل في المنازل، كما أن هناك محاولات جادّة وحثيثة في مجالات الكشف عن المواد الجديدة وعن مصادر للطاقة المتجددة... وكل ذلك يدفع ـ على نحو متسارع ـ بحركة الاهتمامات البحثية صوب **الاستثمار في الأعمال الذهنية والمعرفية**، كما أنه يتم التخلي شيئاً فشيئاً عن الاهتمام بالأعمال البدنية، وما تستلزمه من المهن والحرف المتدنية. ويمكن القول: إنّ ما سيكون مطلوباً من الأجيال القادمة هو المزيد من الاستخدام الكفء للقوى الذهنية، حيث التعقيد المتناهي في جميع نظم الحياة.

وقد باتت الشركات الأكثر ذكاء تدرك أن كلاً من الإنتاجية والربحية يمكن أن يرتفعا ارتفاعاً هائلاً بقدر ما يجري من **تخفيض العمل (اللاذهني)** إلى الحد

الأدنى، وهذا كله يستلزم منا اهتماماً جديداً بأحوالنا العقلية والذهنية.

يمكن القـول: إنّ لـ(العقل) شـكلاً ومضموناً، فشـكله تلك القدرات والإمكانات التي زوَّد الله ـ تعالى ـ بها دماغنا، مثل قدرته على خزن المعلومات واسـترجاعها، ومثل قدرتـه على التخيل والتحليـل والتركيب. . . وقد كان يظن قديماً أن عِظَمَ الرأس دليلٌ على شـرف الإنسـان ونباهته وذكائه، والمقـولات الشعبية تعكس ذلك. وبعد تقدم المعرفة بالدماغ ساد الاعتقاد بأن عدد الخلايا الدماغية، يقرر مستوى الذكاء عند الإنسـان، لكن سرعان ما تم التخلي عـن هذا الاعتقاد بعد أن اكتشـف أن هنـاك العديد من النـاس الذين لديهم أدمغة كبيرة وذكاء قليل، كما أن هنـاك العديد منهم الذين لهم أدمغة صغيرة وذكاء ملحوظ.

وقد كان العالم (أنوخين) من أوائل الذين أدركوا حقيقـة أن ما يقرر درجـة الذكاء ليـس عدد الخلايـا الدماغية بل علاقة النتوءات الصغيرة لمجسَّات خلايا الدمـاغ. ووجد أن كل نتـوء يرتبط على الأقل بنتوء آخـر بفعل الاندفاعـات (الكهروكيماويـة). وتشـكل هاتان الخليتان أشكالاً صغيرة مع خلايا فردية أو مجموعات خلايـا أخرى. في أثنـاء تقدمه في هذا المجال أدرك (أنوخين) أن كل دماغ هو (تحالق)[1] أخّاذ لأشكال كوَّنتها آلاف النتوءات على الأذرع العديدة لملايين الخلايـا الدماغيـة. وقدرات الدمـاغ المختلفـة قابلة للتنمية وللشحذ لتعمل على أحسن وجه ممكن.

أما مضمون العقل فمنـه ما يعود إلى مجموعـة المبادئ الفطريـة العالمية التي تستخدم في استيعاب الأشياء وإدراك العلاقـات بينها، مثل إدراك عدم إمكانية اجتماع الضدين، وإدراك أن الكل أكبـر من الجزء، واسـتحالة القيام بعمل خارج الزمان والمكان. . . والتمايز بين الأمم والأفراد في استخدام تلك المبادئ شبه معدوم.

ومنـه ما يعود إلى شـيء مكتسـب مرتبط بـ(**الثقافة**) السـائدة، وهـذا في

(١) التحالق: الربط بين شيئين أو أكثر بحلقة أو عدة حلقات.

الحقيقة يتشكّل من مجموعات المفاهيم الراسخة والمترابطة التي يحاول المجتمع من خلالها وبها استيعاب الواقع الموضوعي وتنظيمه وتكييفه مع حاجاته . . . وهذا النوع من المضمون مطلٌ بالضرورة على مبادئ التفكير الفطرية ومرتبط بها .

القرآن الكريم يركز على هذا المضمون الفكري المكتسب باعتباره شيئاً قابلاً للتصحيح والتنمية ، كما أنه قابل للكثير من الضلال والانحراف ، وما ذلك إلا لأنه يعكس الشروط الاجتماعية والتاريخية **للثقافة** التي تغذيه ، وتمده بالمفاهيم المكونة لوجوده ، والتي تحرك الوعي وتوجهه في نهاية الأمر .

والقرآن الكريم في سبيل ذلك لا يستخدم لفظ العقل أو الفقه أو الفكر ، وإنّما يستخدم صيغة الفعل (**يعقلون**)، (**يفقهون**)، (**يتفكرون**) ليشير إلى المحصول النهائي الذي يشكل العقل ومضامينه ، والذي يتجلى في سلوك المرء ، ويحدد مواقفه ، كما ينظم ردود أفعاله . وكأنه بهذا النهج يشير إلى العمل على ذلك المحصول باعتباره الثمرة الشاملة لكل جوانب العقل ، وباعتباره المحك النهائي في (تقييم) ما نحرزه من تقدم في هذه السبيل . وذلك المحصول يسميه القرآن الكريم ـ على نحوٍ عام ـ (**الحكمة**) التي هي ناتج مركب ثلاثي ، هو : الذكاء والمعرفة والإرادة .

العقلانية :

العقل من خلال شكله ومضمونه ينتج شيئاً نسميه (**العقلانية**) وبما أن الثقافة تختلف بين أمة وأخرى في كثير من قيمها ومبادئها واهتماماتها ـ فإن المتوقع من (**العقلانية**) أن تتسم بطابع النسبية بسبب الدور البالغ للثقافة في تكوينها ؛ ولذا فليس ثمة عقلانية تستحوذ على الحياد والإطلاق . ومن الملحوظ في التعبير القرآني استخدام كلمة (**الحكمة**) بعد كلمة (**الكتاب**) حيثما اجتمعا في الآية الواحدة ، وهذا يشير إلى ما ذكرناه هنا ، فلابد للحكمة وللعقلانية من أن تؤطرا بإطار الكتاب (الوحي) حتى يكتسبا المرجعية العليا والمصداقية الحاسمة ، ويمثلا أرضية مشتركة في تعايش الأفراد والأمم ، وفي صياغة الخطوط العريضة لفهم الحياة والأحياء .

إنّ بُنَانا الفكرية ليست مسوَّرة بأسوار، تصد عنها رياح التغيير العاتية، فهي ـ باعتبار ما ـ انعكاس لما يجدّ من نظريات وآراء علمية مبثوثة في جميع مجالات الحياة، كما أن توازنها يمكن أن يتعرض للاختلال بسبب مطالب الحياة الجديدة، والصعوبات البالغة التي تكتنف الحصول على مستوى مقبول من العيش الكريم.

إنّ من واجبنا دائماً أن نمتلك أعلى درجة من اليقظة والحذر حتى نحمي مضمون عقولنا من البرمجات الثقافية والبيئية الزائفة التي تحول دون استيعاب الواقع على الوجه الصحيح، والتي تشوش تنظيمنا لردود أفعالنا. والأهمية المتزايدة التي يكتسبها الجانب العقلي من ذواتنا تجعل آثار الأخطاء الصغيرة كبيرة، وعواقب فقد التوازن مدمرة.

إن كثيراً من تطورنا العقلي يأتي من خلال (التعليم الرسمي) لكن ما أن يترك كثيرون منا مقاعد المدرسة أو الجامعة حتى يتركوا عقولهم للتجمد، فلا يقومون بأية قراءة جادة، ولا يستكشفون موضوعات جديدة بعمق حقيقي خارج دائرة عملهم اليومي، ولا يفكرون بطريقة تحليلية، ولا يكتبون ـ على الأقل ـ بطريقة يختبرون بها قدرتهم على التعبير عن أنفسهم بلغة منفتحة وواضحة ومختصرة، ويستسلمون عوضاً عن ذلك لقضاء الوقت في الجلوس لرؤية التلفاز!.

وفي النهاية فإن أفكارنا حول التجديد والتغيير والنمو ستظل عديمة الفائدة، ما لم نمتلك الإرادة الصلبة التي تكتشف الإمكانات، وتصنعها.

* * *

الفصل

وحتى
يولي
جميعاً

تتطلب
أهداف
وبين ال
المعلو

إ
في الدن
يعد نف
دائماً بُنيَ
أخرى
هنا بعض
العقلي ا

١

ل

تجديد البعد العقلي

الإنسان ليس عقلاً ولا جسداً ولا روحاً... **إنه مركّب فذ** من كل ذلك، وحتى يحيا المرء **حياة طيبة**، وحتى ينجح في أداء رسالته في الحياة، فإن عليه أن يولي عنايته لكل أبعاد ذاته، وأن يحرص على إحداث التوازن المطلوب بينها جميعاً.

إنّ طبيعة **التكليف الرباني**، وطبيعة ابتلاءات الحياة المتنوعة والمتجددة، تتطلب أن يوازن الإنسان بين مجموعة من الاحتياجات؛ مما يستدعي وجود أهداف متعددة، وذلك كله يتطلب نوعاً من **التكامل المنهجي** بين أركان الشخصية وبين الأنشطة التي تخدمها وتنميها. وهذا لن يتم من غير ضخ كميات جيدة من المعلومات في شرايين الخطة التي سيضعها الواحد منا للقيام بما هو مطلوب منه.

إنّ المنهج الرباني قد وضع للمسلم المخطط العام لكل ما يحقق له النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة؛ لكن ذلك لن يحقق له **النمو والتقدم** المأمول ما لم يعد نفسه لمواجهة التحديات والابتلاءات المتجددة؛ وتلك المواجهة تُنتج دائماً بُنيَات فكرية متراكبة وشروطاً جديدة للبقاء والتحسن، مما يستدعي رحلة أخرى في اكتشاف آفاق وإمكانات الوضعية الجديدة، وهكذا... وسنقدم هنا بعض الأفكار والمفاهيم والآليات التي نرى أنها تساعد على تجديد البعد العقلي لدينا، وذلك من خلال النقاط التالية:

١ ـ شروط للتجديد:

ليس التجديد في أي جانب من جوانب الحياة شعاراً يرفع، ولا هو بالأمر

اليسير، وإلا لتحسنت أشياء كثيرة وفق مانشتهي. . . إنّ التجديد يتضمن دائماً نوعاً من التخلي عن بعض المألوفات والمحبوبات، كما يتطلب تكاليف جديدة وضبطاً أكثر للذات، وكل ذلك من الأمور الشاقة على النفس؛ ولذا فلابد من توفر عدد من الشروط لذلك، منها:

أ ـ أن نعرف (ثوابتنا) على نحوٍ جيد؛ إذ إنّ عدم التفريق بين الثوابت والمتغيرات من أكبر العوائق التي تصد الناس عن التجديد، وتخيفهم منه. وقد يظن بعض الناس أنّ التخفف من الأصول والمسارات المرسومة، يجعل حركة التغيير أكثر تدفقاً. وهذا غير صحيح؛ لأن التغيير المستمر المطلق كبير التكلفة، عظيم المؤنة، ومفتاح معايشته وتحمل تبعاته هو أن يكون في داخل المرء (جوهر) يستعصي على التغيير، حيث إنّ الجوهر الثابت لا يؤدي وظائفه من خلال تطوره وإنما من خلال جموده، وآنذاك فإن كل المتغيرات تُسخَّر في خدمته وتدعيمه.

هذا الجوهر يتجلّىٰ في **الغاية الكبرى للوجود الإنساني**، وفي المبادئ والقيم العليا التي يؤمن بها الإنسان، إلى جانب معرفته اليقينية بذاته وإمكاناته وتوجهاته العامة.

ب ـ امتلاك ما يكفي من الخيال والوعي للإحساس بالنهاية التي نرنو إلى الصيرورة إليها. من شأن **الخيال** أن يمكننا من تصور عوالم من الامتدادات والإمكانات، لم تخلق بعد. ومن شأن **الوعي** أن يمكننا من الاتصال بالقوانين والمبادئ العامة التي تساعدنا على ارتياد تلك العوالم من خلال مواهبنا الفردية والسبل المتاحة. إن حجم أنشطتنا اليومية واتجاهها وتمحورها يشير بوضوح إلى النهاية التي سننتهي إليها على كل الأصعدة. وبإمكان الواحد منا أن يستحضر **تلك النهاية**، ويتخذ من إيحاءاتها حافزاً على التغيير وبذل الجهد.

من السهل على الواحد منا أن ينغمس في أنشطة تافهة، ويضيّع الكثير من أيام العمر في طلب أمور لا تتلاءم أبداً مع الوضعية التي يتمنى أن يلقى ربه ـ جل وعلا ـ عليها.

حتى تتخلق الأشياء في **الواقع** فإنه ينبغي أن تتخلق في **الذهن** أولاً، وتستقر

في (اللاشعور) وتختلط بمبادئ المرء وأحاسيسه، وآنذاك يمكن للحياة أن تتنمط في الذهن وفق مقتضياتها، وآنذاك أيضاً يمكن للمرء أن يتأكد على وجه الدقة من كون جهوده ومناشطه، تقع في محلها الصحيح.

جـ ـ لا بد للمرء حتى يتجدد من أن يوقن أن في إمكانه أن يغيّر عاداته الفكرية وسلوكاته. بعض الناس يخشى من التغيير، وبعضهم يشعر بنوع من الشلل وانعدام الحيلة، ويظن أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، فيستسلم لأحواله الحاضرة، فيتأسّن كل شيء في حياته، ويخرج من عصره، وتتضاءل فاعليته.

إنّ التجديد مشروط بالقدرة على مجاهدة الأهواء والأوهام والكسل والإخلاد إلى المألوفات واليأس من إمكانات التقدم. وإذا نظرنا في سير المصلحين العظام وجدنا أنهم دائماً يتخذون من الأشياء الإيجابية الصغيرة رأس جسر للتغيير والتحسين، وما كان للواحد منهم أن يفعل ما فعله لولا إيمان راسخ بوجود إمكانات الانتقال نحو الأفضل، ولولا تمتعهم بالقدرة على العمل اليومي الشاق.

٢ ـ استخدام العلاج الإدراكي:

من أهم الإنجازات الحديثة في علم النفس التطبيقي ما يسمى بـ (العلاج الإدراكي) وهو يقوم على ثلاثة مبادئ أساسية، هي:

أ ـ الأحداث السارة والأحداث السيئة عندما تتوالى على المرء، تولد لديه انطباعاً عن نفسه يتناسب معها، فالنجاح المتوالي يوجد حالة نفسية، تظلل جميع حياة الفرد، وتجعله يعتقد أنه ناجح فعلاً. ويستدعي ذلك إنتاج عدد من الصور الإدراكية التي تدعم ذلك، وتدلل عليه. ويحدث العكس من ذلك عندما تتوالى أحداث الإخفاق على الإنسان. في كلتا الحالتين تبدو الصورة التي نكوّنها عن أنفسنا وكأنها الصورة الوحيدة الدقيقة والصحيحة. ولكن الأمر ليس كذلك، فحين يزور خمسة من الناس مكاناً، لا يعرفونه من قبل، فإن من الممكن أن تكون

لهم حياله وجهات نظر متعددة، وبعض تلك الصور، سيكون أكثر مطابقة للحقيقة من بعضها الآخر.

نجاح المرء في عمله، قد يكون على حساب **مبدأ يؤمن به**، أو على حساب علاقته بأسرته، أو على حساب صحته العامة... والإنسان الذي أخفق في مشروع مهم من مشروعاته قد يكون أباً جيداً أو كاتباً ذائع الصيت... المراد من كل هذا أنّ نؤمن أن هناك دائماً أكثر من طريقة للنظر إلى الأشياء، حيث إن هناك دائماً منظورات مختلفة. كثيراً ما يشعر الواحد منا أنه ليس أمامه سوى رؤية واحدة أو خيار واحد؛ وهذا في الحقيقة مجرد **وَهْم**؛ حيث إن الأفكار والقناعات التي نسجناها حول قضية ما، هي التي أوحت إلينا بذلك، وكثيراً ما يكون ذلك خاطئاً؛ لذا كان من الحيوي أن يسأل الواحد نفسه دائماً: كيف أستطيع أن أفكر في هذا الأمر بطريقة أخرى؟ وكيف يستطيع غيري أن ينظر إليه؟ وما وجهات النظر الأخرى حياله؟.

إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة، تشكل تمريناً عقلياً علينا أن نجرِّبه من وقت إلى آخر.

ب ـ إذا كان صحيحاً أن هناك أكثر من طريقة واحدة للنظر إلى الأمور؛ فإن الصعوبة إذن تتمثل في أن يجد المرء وجهات نظر أخرى للاختيار بينها.

في أعماقنا ميل إلى **الانحياز** لمشاعرنا وطرق تفكيرنا، وهذا الميل هو الذي يزهِّدنا في البحث عن الطرق المغايرة. نحن بحاجة إلى أن نطور في أنفسنا عادة **البحث عن المنظورات الأكثر رحابة**؛ فذاك هو الذي يتمشى مع الحقيقة القائلة: عندما تنشأ مصاعب وأزمات جديدة، فإنها تتيح لنا المزيد من الفرص والاختيارات. وتأمّل معي في قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[الشرح: ٥ ـ ٦].

جـ ـ قلما يدرك الناس حلقات الاتصال بين المشاعر والأفكار، وانعكاس كل منهما على الآخر. ويتوهم كثيرون منا أنهم قادرون على **عزل أفكارهم عن مشاعرهم**، وأن بإمكانهم أن يحملوا مشاعر تعاطفية نحو أمر ما رغم أنهم يحملون

أفكاراً سيئة عنه. والحقيقة أن أفكارنا ومشاعرنا، تتناوب التأثير والتأثر طوال الوقت، وهناك توافق حميم فيما بينها.

إذا شعر المرء بالغبطة لنجاحه في أمر ما، فإنه سيتعرض لتيار من الأفكار الشارحة لأسباب ذلك النجاح، والمذكِّرة بالإمكانات التي تم توفيرها له، والعقبات التي تم اجتيازها؛ وحين يقلِّب الإنسان نظره في إخفاقه في أمر، كان يأمل منه الكثير، ويتمادى في بحث أسباب الإخفاق، والأوهام الكثيرة التي تلبَّس بها حوله ـ فإن فيضاً من مشاعر الإحباط والقلق وعدم تقدير الذات، والخوف من تكرار الإخفاق، سوف يجتاحه، وينغِّص حياته، وهكذا...

في اعتقادي أن علينا للخلاص من الأفكار السيئة والمشاعر المحبطة أن نتبع طريقة (**إغلاق الملفات**) حيث يمكن أن نستخلص العبر والدروس الممكنة من إخفاقات الماضي، ثم نحذفها نهائياً من اهتماماتنا، فذلك هو الطريق الأفضل للتخلص من أسر الماضي وأوهاقه.

إنه لا ينبغي لنا أن نقع تحت ضغوط المشاعر وعلينا عوضاً عن ذلك أن **نصنعها عن طريق العمل الصالح، والصمود في مواجهة الصعاب**. وفي هذا يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

إن مقابلة السيئة بالحسنة كثيراً ما تعني الخلاص من مشاعر العداء التي يتبادلها الخصوم، كما تعني الفكاك من حمأة الأفكار السلبية والأوهام التي يتبادلونها في العادة. **إن الوعي وحده هو الذي يحول دون أن يرسف المرء في أغلال من نسج يديه.**

٣ ـ النظرة المتعمقة:

إن **العقل** الذي وهبه الله ـ تعالى ـ للإنسان يتمتع بقدرات فائقة ـ كما ذكرنا ـ لكنه في النهاية يظل محدوداً، والأفكار التي نمتلكها، أكثرها وليد التجربة وثمرة المعاناة، أي هي خبرة وجودية تشتبك فيها منظومات المبدأ والرمز وأنظمة

المعارف وألاعيب الهوى، وأنماط السلطة، وأساليب العيش وأشكال الاهتمام بالذات. . . ولذا فإنه يجب ألا نعتبرها نهائية، فصدق الأفكار لايتبلور إلا من خلال إخضاعها للتجربة، وما من فكرة تدخل في مضمار التطبيق، تستطيع المحافظة على ما كانت عليه من تحديد وتماسك، بل يُعاد إنتاجها من جديد ترميماً وتطعيماً وإغناءً وتوسيعاً، أو انتهاكاً وتأويلاً.

ولذا فلا ينبغي أن ننتظر الفوز برؤية نهائية، نسترشد بها في مواصلة البناء، وتخطّي العقبات، **فالأعمال العقلية المتزايدة، لا تؤدي بالضرورة إلى تقدم عقلاني مطرد**، فالنكوص والتراجع من الأمور الواردة بكثرة اليوم؛ بل إن للتقدم العقلي مفرزات جانبية شديدة الخطورة عليه، ولا سيما إذا ما **تأتى للعقل أن يتحلل من القيم والقيود الأخلاقية**. ثم إن المسيرة الحضارية، لاتمضي على هدي أفكار ونظريات مبلورة، وليست هي مجرد مخطط، يتخيله مثقفون حالمون متفائلون بمستقبل البشرية على صعيد العقل والمعرفة والحرية والحوار وإحقاق الحق وتجسيد القيم النبيلة. . . فهناك أيضاً المصالح والأهواء والشهوات والقصور الذاتي والظروف المعاكسة. . . وكل ذلك يجعل من ميادين الحياة مصانع سيئة لإنتاج الأفكار وتطبيقها.

ما أريد قوله من وراء هذا هو أن علينا حتى نستمر في **التجديد العقلي** أن نسعى دائماً إلى تفحص برامجنا وقراءة أحوالنا وإقامة علاقات نقدية مع ذواتنا وإنجازاتنا، فالنقص شيء ملازم لنا. وليس المطلوب أن تصبح **المحاكمة العقلية** لدينا كاملة، وإنما المطلوب هو مداومة **فضح الممارسات** الفكرية الخاطئة، وكشف زغل أعمال العقل، بالإضافة إلى استشراف المزيد من النضج والاقتراب من الصواب.

وما لم نتعامل مع منتجاتنا الفكرية وتجاربنا، ومع أحداث العالم من حولنا على هذا النحو فإن كثيراً من مكتسباتنا النهضوية يمكن أن يكون في خطر، كما يمكن لكل ما أحرزناه من تقدم عقلي وفكري أن يصبح موضع تساؤل.

٤ ـ الاستماع الجيد:

يصرف الإنسان ما بين (٥٠٪) إلى (٨٠٪) من ساعات يقظته في **الاتصال** بالآخرين، ويمضي (٤٥٪) منه في (**الاستماع**). في الثقافات الشفهية تكون (**الأذن**) هي البوابة الأساسية للمعلومات الواردة إلى الدماغ.

واليوم أفضى التدفق الهائل لكل ألوان المعرفة إلى إعطاء أهمية متزايدة لكل من **الأذن والعين**، لكن سيظل من المهم أن نحسن الاستفادة من كل ذلك من خلال تطوير آليات **القراءة والاستماع**[1]، واستثمار الإمكانات الكبيرة التي تتاح لنا بواسطتهما، حيث إن تجديد البعد العقلي، يستلزم فيما يستلزمه اتخاذ وضعيات جديدة في التعامل مع (المعرفة) التي تشكل المادة الجوهرية في إعادة تشكيل مفهوماتنا ورؤانا؛ لكن لأسباب عدة لم تنل مسألة **الاستماع** والإنصات حقها من العناية والاهتمام، مما جعل استفادة كثيرين منا مما يسمع محدودة. وربما كان لظهور **السامع** بالمظهر السلبي، أو المتأثر أكبر الأثر في الإعراض عن ذلك. ولعلنا نجلّي هنا بعض المبادئ والمفاهيم التي تساعد على تطوير عادات السماع لدينا في الحروف الصغيرة الآتية:

أ ـ ليس من النادر أن يكون ما نسمعه **مكروراً أو مملاً**، أو قليل الفائدة، وفي هذه الحالة، فإن معظم الناس، يُعرض إعراضاً تاماً عن الاهتمام بما يسمع. أما الحريص على الفائدة، فإنه يسأل نفسه: كيف يمكنني الاستفادة من هذا الحديث؟ يمكن للمرء أن يتعرف من خلال ما يسمع على نمط التفكير لدى المتكلم، كما يمكنه التعرف على بعض القيم الاجتماعية السائدة، واستخلاص مغزى من ذلك، أو تدعيم نسق فكري يتبناه. . . وليس من المستغرب أن يعثر المرء على **فكرة عظيمة في سيل من اللغو**.

ب ـ يقولون: إنّ الله ـ تعالى ـ خلق للإنسان لساناً واحداً وأذنين اثنتين

---

(١) عالجت هذه القضية في رسالة خاصة بعنوان (القراءة المثمرة)، وقد نشرت عبر سلسلة (كتب قيمة)، فارجع إليها إن شئت.

حتى يسمع ضعف ما يتكلم، لكن يبدو أن شهية معظم الناس للكلام ـ أي كلام ـ لا تقاوَم. وقدرة المرء على أن يسمع أكثر مما يتكلم دليل على تحلّيه بقدر من الحكمة. ومن المهم هنا ألا نحاول مقاطعة المتكلم حتى يكمل الفكرة التي يريد إيصالها إلينا، ومن المهم أكثر ألا ندلي بأي تعليق أو إصدار أي حكم قبل الحصول على الصورة كاملة.

جـ ـ لنحاول أن نستمع ونحن في حالة استبشار وتفاؤل وجاهزية عقلية جيدة، فذلك أدعى إلى إدراك مرامي الكلام، وتحسين القدرة على الربط بين أجزائه؛ كما أن عملية الاستماع بمجملها تضحى أكثر إمتاعاً.

د ـ كثير من الناس يتضايق من سماع الأحاديث ذات المستوى الرفيع، ويرون أن أصحابها (يتفلسفون)، وهؤلاء أنفسهم، هم الذين يعرضون عن قراءة النصوص الممتازة والراقية. وفي اعتقادي أن (الدماغ) بحاجة إلى مواجهة التحدي من خلال سماع أحاديث أرقى من مستوى استيعابه؛ لأنها وحدها هي التي ستحفزه، وتزيد مهارته في الفهم. نحن في الحقيقة لا نفهم إلا ما نعرف، فإذا فهمنا كل ما يقال بيسر، فهذا يعني أننا نعرفه، وإذن ما الفائدة التي سنجنيها من ورائه؟.

د ـ من المهم أن نشرك النظر مع الأذن أثناء السماع، فالعينان مغرفتا الكلام، وهما تنظمان التفاعل الداخلي بين المتكلم والسامع وقد أثبتت بعض الدراسات الحديثة أن ما تشعه وضعية المتكلم وإشاراته، ورسائله غير اللفظية، ربما يتفوق على ما نستفيده من الدلالات المباشرة للكلام الذي نسمعه. ولا ننسى إلى جانب هذا أن نتخذ الوضعية الجسدية الملائمة أثناء الاستماع، فالاتكاء والاستلقاء ـ مثلاً ـ يساعدان على النوم، وشرود الذهن.

هـ ـ نحن بحاجة إلى أن نستمع بعقل مفتوح، ولا سيما حين نسمع كلاماً يثير المشاعر بسبب ما فيه من مبالغة أو استفزاز أو دفق روحي عال. . . وسيكون علينا أن نحاول تفسير ما نسمع تفسيراً موضوعياً، ولانمضي مع المتحدث بعيداً عما هو طبيعي أو معقول أو مخالف للأصول. لا يعني هذا ـ بالطبع ـ ألا نحاول

فهم وجهة نظر المتكلم حتى وإن كانت معارضة لما نراه. وعلينا أن نتذكر دائماً أن كثيراً مما نسمعه لا يعدو أن يكون رأياً من الآراء.

و ـ إن سرعة دماغ الإنسان في التفكير تفوق سرعته في الحديث ما بين (٤ ـ ١٠) أضعاف، ويمكن استخدام هذا الفارق الكبير في استغلال القدرات العقلية المختلفة أثناء الاستماع في تنظيم ما نسمعه وتلخيصه ومقارنته مع الأفكار الأخرى، وتفسير ما توحي به لغة جسد المتكلم. وسيكون كل ذلك أكثر جدوى عند سماع متحدث بطيء التكلم، أو كثير التكرار للأفكار.

ز ـ قد يكون المتحدث كثير اللحن، أو لا يحسن اختيار ألفاظه، أو لا يحسن تنظيم جمله... وفي هذه الحالة فإن السامع قد يعجب بنفسه، ويقع ضحية لعقدة التفوق، وينصرف بالتالي عن محاولة الاستفادة مما يقال. والذي يليق بنا في هذه الحالة هو التركيز على المضمون تركيزاً كلياً، فجوهر الفائدة، إنما يكمن فيه.

ح ـ لنحاول أثناء الاستماع عدم الانسياق خلف الأفكار الجزئية أو الاستطرادات والمعترضات، وعلينا أن نحاول فهم المغزى الأساسي للحديث، وربطه بالبنية الرئيسة لأفكارنا ومسلماتنا ورؤانا. ومن المؤسف أن كثيرين من الناس يبدون ضعفاً في هذا الجانب!.

ط ـ مما يعكر صفو كثير من المجالس انشغال المستمعين بالصوارف الطارئة، حتى إن المتكلم في بعض الأحيان يضطر إلى السكوت، أو أن يستمر في الحديث، ليجد في النهاية أنه يكلم نفسه! المستمع الجيد يمتلك القدرة على إقصاء الملهيات، ومتابعة الانتباه لما يقوله المتحدث.

ي ـ مهما كان حرصنا على مواصلة الاستماع إلى آخر كلمة يقولها المتحدث ـ شديداً فإننا سنظل بحاجة إلى التمتع باستراحة بعد كل ساعة استماع. وإذا كان الحديث شديد التركيز، فسنكون بحاجة إلى الاستراحة بعد أقل من نصف ساعة. وهذه الاستراحة ليست ضرورية لتنشيط القدرة على الاستيعاب فحسب، وإنما لإتاحة الفرصة لبرمجة المعلومات التي حصلنا عليها ودمجها

ضمن معقولاتنا ومنظوماتنا المعرفية أيضاً[1].

٥ ـ تنشيط الذاكرة:

يشعر معظم الناس أن ذاكرتهم تتدهور كلما تقدموا في العمر. وهناك من يعتقد أن الذاكرة تزدحم بكثرة المعلومات، ويفقد الإنسان بذلك القدرة على التذكر؛ لذلك يتجهون إلى عدم إثقال الذاكرة بالمحفوظات؛ بل إن الدعوة إلى التخلي عن التعليم التلقيني، والهجوم المكثَّف على الحفظ عن ظهر قلب، قد أديا إلى الحط من قدر الذاكرة. وهذا صحيح إذا تم الاقتصار عليه، وإلا فوظيفة المعلومات في عملية التفكير جوهرية.

إنَّ طبيعة الذاكرة وطبيعة عملها، من الأمور غير الواضحة على نحو جيد، ومن الأقوال الحديثة في ذلك أنها عبارة عن سلسلة من التغيرات الكيميائية.

وأعتقد أن كثيراً مما ينسج حول الذاكرة، يعبر عن تجارب ناقصة، ولذا فإن هناك إمكانات كثيرة لتحسينها وتنشيطها. ويدل العديد من البحوث على أن لدى الدماغ سعة فيزيولوجية هائلة لتخزين المعلومات التي ترد إليه. وأجرى (روز ينفيغ) العملية الحسابية التالية: لو غُذي الدماغ بعشرة أخبار كل ثانية طيلة حياته، فإنه لن يمتلئ كلياً.

ويمكن القول: إنّ المشكلة الجوهرية في قضية التذكر، ليست في طاقة الدماغ على التخزين، وإنما في القدرة على استدعاء ما تم تخزينه. وهناك اليوم أفكار ونظريات كثيرة حول تحسين التذكر، واستدعاء المعلومات، نشير إلى بعضها:

هناك خمسة عناصر أساسية، تساعد الذاكرة على الاستدعاء، هي:

ـ الأوّلية في الترتيب أو المنزلة؛ فإذا ما تساوت كل الشروط الأخرى، فإن الواحد منا يتذكر بداية الأحداث أكثر من وسطها، ويتذكر الحدث الأول أكثر من تكراره.

---

(١) انظر تفصيلات أكثر حول الإصغاء، ص٣٠٢ من هذا الكتاب.

ـ **الحداثة**: حيث يميل الإنسان أيضاً إلى تذكر الأحداث الأخيرة، فنحن نتذكر أحداث (أمس) أكثر من أحداث اليوم الذي قبله.

ـ **الربط**: فالإنسان يتذكر الشيء الذي يرتبط بشيء آخر، أكثر من تذكّر الأشياء غير المرتبطة.

ـ **البروز**: نحن نتذكر الأشياء الغريبة أو غير الطبيعية، أو الخارجة عن السياق العام سواء أكانت جيدة أم سيئة.

ـ **المراجعة**: يعتقد كثير من علماء النفس المعاصرين أن إمكانية الاستدعاء، تعتمد جزئياً على (قوة شكل أو مخطط الدماغ) القائم كهربائياً أو بيولوجياً. ويؤكدون أن هذه القوة، تتزايد بتكرر أشكال الذاكرة. ويعني ذلك أن أي شيء تتم مراجعته يتم اختزانه في الدماغ بقوة أكبر من الذي يمر عليه مروراً.

الاستفادة من هذه المعطيات:

للتعامل مع حقيقة أنّ الدماغ يستدعي أول الأحداث وآخرها أكثر من وسطها يمكن ألا نستمر في الدراسة ساعات متواصلة؛ لأن ذلك سوف يمنح دماغنا أولية واحدة وحداثة واحدة فقط، ويكون استدعاء المعلومات في الوسط واهناً.

إذا قسمنا الساعات الأربع إلى ثماني وحدات، فإننا سنحصل على عدد أكبر من حالات (الأولية والحداثة) مما يؤدي إلى ارتفاع مستوى الاستدعاء. ويمكن للفاصل بين كل وحدة وأخرى أن يكون ما بين (دقيقتين أو خمس دقائق) حيث يستريح العقل، ويتاح له فرز وتصنيف المعلومات الداخلة عليه أثناء القراءة.

إن الربط يساعد على الاستدعاء بطرق متعددة، ويمكن وضع خط تحت المعاني والكلمات المترابطة، كما يمكن تلوينها بلون خاص، أو وضع دوائر عليها، أو كتابتها بحجم معين. . . فإذا كنا نقرأ موضوعاً عن (المدرسة) ـ مثلاً ـ أمكن تلوين كلمات: معلم، مدير، كتاب، سبورة، دفتر، قلم، نظام، معرفة،

علم بلون موحد، حيث تعد هذه الكلمات بمثابة مفاتيح للموضـوع الذي نقرؤه، والربـط بينها بلون واحد ـ مثلاً ـ يسهل استدعاءها عند الحاجة؛ وبذلك نتمكن من استرجاع أكبر قدر من المعلومات التي قرأناها في ذلك الموضوع.

الدماغ يستدعي بسهولة الأشياء البارزة؛ وحتى نتذكر شيئاً، فينبغي أن نضخّمه، ونلقي عليه أضواء إضافية، وألواناً صارخة؛ على سبيل المثال إذا كان عليك أن تهاتف شريكك بعد وصولك إلى مكتبك لتتحدث معه عن عقد عمل، فإن بإمكانك أن تتخيل شريكك خارجاً من أحد جانبي الهاتف، وبيده عقد كبير يلوح به.

المراجعة من أهم الوسـائل التي تسـاعدنا على اسـتدعاء المعلومات المخزونة. وتدخل المعلومة إلى **(الذاكرة الطويلة الأمد)** بعد أربع أو خمس مراجعات، وينبغي أن تتم المراجعة الأولى بعد حوالي عشر دقائق من الفراغ من إدخال المعلومة إلى الدماغ. أما المراجعات التالية، فتتم على فترات متباعدة تصاعدياً، كأن تكون المراجعة الثانية بعد يوم والثانية بعد أسبوع والثالثة بعد شهر، وهكذا...

إن **الدماغ** الفارغ من المعلومات، يطرح طروحاً شكلية، ويكون الخيال لديه محدوداً، ويكون وضعه العام أشبه **بطاحون** تدور، دون أن نضع فيها أي شيء تطحنه؛ ولذا فإن من الحيوي أن نهتم بمحفوظاتنا، ونعرف كيف نُعمل العقل فيها، كي نسـتثمرها على الوجه الأكمل.

٦ ـ المرونة الذهنية:

إن مما ينبغي وعيـه أن ما أتيح من المعلومـات على هذا النحـو الغزيـر والمتدفق، لا يـؤدي على نحو تلقائي إلى تحسـين الملكات العقلية والأعمال الفكرية، بل قد يؤدي إلى إعطاء نتائج **تصلُّب الذهن**، وتقلل من فاعلية التفكير؛ فالعلاقات اللينة التي تسربل النظم والمنتجات المعرفية كافة، قد تقرأ بطريقة خاطئة؛ مما يجعل انعكاساتها على البنية العقلية سلبية. ولذا فلا بد لتجديد البعد

العقلي من أن يشتمل على محاولة امتلاك قسط ملائم من (**المرونة الذهنية**) حتى نستطيع أن نستفيد الاستفادة المطلوبة من هذا الكم الهائل من المعارف المتسايلة.

ومما يؤسف له أن كثيراً من الناس لا يفهم من هذا المصطلح سوى التراجع والتنازل والاستسلام.. وبذلك يتحول من ميزة إلى ثغرة في الشخصية! أعني **بالمرونة الذهنية** هنا قدرة العقل البشري على إدراك الفروق الدقيقة بين الأشياء، والمراوحة المستمرة بين الأسس والأصول وبين المسائل الفرعية التخصصية، بالإضافة إلى القدرة على تعرية الألفاظ والمصطلحات مما يعلق بها من شوائب الاستعمال والتقليد، إلى جانب قدرته على فهم العلاقات الخفية بين الأشياء والتأبي على (**القولبة**) **والنماذج الجاهزة**... ولعلنا نفصل بعض هذه القضايا في المفردات التالية:

أ ـ من مظاهر المرونة الذهنية وتطبيقاتها القدرةُ على إدراك **العلاقات** (**المتدرجة**) بين الأشياء؛ فالحرام ليس درجة واحدة، إذ إن حرمة الغيبة ليست مثل حرمة قتل النفس أو الزنا. والفرائض والواجبات أيضاً درجات؛ فوجوب الصدق ليس كوجوب الصلاة أو الزكاة...

حين نتعامل مع أشياء ذات **أوساط متدرجة**، فإن وضع الموسى على المفصل يكون أمراً تقديرياً اجتهادياً؛ فمن الصعب في لوحة زيتية ذات ألوان متداخلة أن نقول: هنا يبدأ اللون الأصفر، وينتهي اللون البرتقالي. ولو فعلنا ذلك لوقعنا في التعسف والتحكم. بين ما لا يشك أنه أصل، وما لا يشك أنه فرع (**منطقة برزخية**) تحتمل الخلاف الجدي؛ لأنها تحمل من خصائص الطرفين، وتظل قابلة للنزاع، مهما كان وعينا عظيماً. وإدراكنا لمثل هذا يوفر علينا الكثير من الجدل والأخذ والرد الذي لا طائل تحته.

ب ـ القدرة على فهم **الفوارق الدقيقة** بين الأشياء مظهر آخر من مظاهر المرونة الذهنية؛ ومن المعروف أن المرء حين يحاول اكتشاف تشابه بين شيئين فإنه يستطيع في أكثر الأحيان أن يجد أكثر من وجه شبه واحد؛ لكن المهم أيضاً

ألا ننساق وراء التشابه الظاهري أو الجزئي، وننسى الفوارق العظيمة التي تميز بين المتشابهات.

ونجد في هذا السياق ـ على سبيل المثال ـ من يشبّه الهجمة الحديثة على أمة الإسلام بالهجمة التاريخية للتتار والصليبيين، ويعتقدون أن آليات المواجهة والمدافعة لا تبتعد كثيراً عن آليات الهجمات السابقة. وفاتهم أن الوضعية العامة لأمة الإسلام كانت أفضل من وضعية التتار والصليبيين آنذاك على المستويين الحضاري والعسكري.

والتتار خاصة قوم همج، واجهوا أمة متحضرة؛ على حين أن المسلم يرى أعداءه اليوم متفوقين عليه في المعرفة والتنظيم والتقدم الصناعي، وينظر إلى كثير مما عند قومه بعين الأسى والحسرة، حيث الجهل والفقر والفوضى والحروب الداخلية... وهذا كله يجعل المطلوب للمواجهة اليوم مختلفاً اختلافاً جذرياً عما كان مطلوباً من قبل.

جـ ـ من أمارات **المرونة الذهنية** القدرة على وزن مصادر المعرفة بطريقة صحيحة، وعدم الخلط بين معلومات تفيد الظن، وأخرى تفيد اليقين. وقد حاول علماء المسلمين القدامى اتخاذ صحة الإسناد والبرهنة العقلية المنطقية سبيلين للوصول إلى عصمة الذهن من الخلط بين **القطعي والظني**، ووصلوا في ذلك إلى ضوابط رائعة، لكن المشكلة كانت تكمن دائماً في القدرة على تعميم تلك الضوابط بحيث تصبح جزءاً من ثقافة الأمة، وفي استخدامها وتطبيقها خارج نطاق العلوم، أي في الحياة اليومية والمواقف المختلفة.

هناك فارق ـ مثلاً ـ بين معلومات مصدرها الاستقراء، وأخرى مصدرها **القياس**. ولا شك أن المعلومات التي مصدرها **استقراء تام** قد تقترب من القطعية المطلقة، كما لو أننا استقرأنا رأي أعضاء مجلس من المجالس حول قضية ما فإن من الممكن أن نقول: إنّ (٥٦٪) منهم يرون كذا و(٤٤٪) يرون كذا، ويكون كلامنا حينئذٍ ذا دلالة قطعية.

أما إذا أردنا معرفة رأي شعب تجاه قضية ما، وقمنا بسؤال (٤٠٠٠) شخص

منه حول رأيهم في تلك القضية، ثم قلنا إن (٩٠٪) من الشعب الفلاني يرى في تلك القضية كذا بناء على أن (٩٠٪)من العينة ترى ذلك، فإن نتيجة ذلك الاستقراء ستكون ظنية؛ لأننا استخدمنا استقراء ناقصاً، وعممنا نتيجته عن طريق القياس. إن في استخدام القياس استخداماً لعناصر ذهنية في أمور حسية، لا يحكمها نمط أو نموذج محدد، وذلك لا ينتج عنه سوى النتائج الظنية.

د ـ نحن دائماً على صلة بعالمين مختلفين: **عالم المدركات الواضحات وعالم الغوامض والمبهمات**. وقد جرت العادة أن نستخدم **(الفلسفة)** وسيلة للتعامل مع المسائل الغامضة. أما الأمور الواضحة، فإننا نسيطر عليها من خلال **الملاحظة والتجربة وإدراك أبعادها المختلفة**. من المهم أن نفرق بين معطيات الفلسفة ومعطيات العلم، فمهمة الفلسفة لا تتجسد في مدِّنا بالمعلومات، وإنما في زيادة شفافيتنا، وفسح المجال أمام استشراف المستقبل، وتكوين قدراتنا في مجال التعليل والتحليل. إنها تعلِّم الشمول، لكنها لا تمنح أبداً الدقة، ولا تسعفنا باليقين.

أما **العلم** فإنه على العكس من ذلك، فهو يوقفنا على جملة من الخبرات الجزئية الدقيقة لكنه ينفر من التعامل مع غير المحدد والمبلور والملموس. ويظهر **التصلب الذهني** بوضوح حين يدافع أكثر الناس عن وجهة نظرهم ورؤيتهم لحدث ما دفاعاً مستميتاً، حيث تبدد الساعات الطوال في البرهنة على قضية لا يحسمها أي برهان ولا أي جدال مهما طال.

أما صاحب **الذهن المرن**، فيعرف أنه يقف على أرض هشة، وأن ما تجمع لديه من مقدمات ومعطيات، لا يكفي لجعل تحليله وحكمه قطعياً، ومن ثم فإنه يكتفي بعرض وجهة نظره، وإبداء رأيه في وجهات نظر الآخرين تاركاً لمناظريه الخوض في الظنون والأوهام، ومحاولات القبض على السراب!.

هـ ـ **العقل المرن** يفرق بين القيمة الأصلية والقيمة الإضافية للأفكار والأساليب والأشياء... ففي مجال الإصلاح الشامل ـ مثلاً ـ تكتسب التربية الصحيحة للأجيال أهمية خاصة، حيث إنّ المجتمع، لا يمكن في النهاية أن

يكون أقوى من مجموع أفراده.

أما القيمة الإضافية، فتتجلى في إمكان القيام بالتربية المطلوبة في أجواء يسودها الفساد والخوف والانغلاق والطغيان... فإذا قلنا: إن التربية الجيدة يمكن القيام بها في هذه الأجواء، فهذا يعني أن التربية تكتسب قيمة إضافية، حيث لا يحتاج القيام بها إلى إصلاح المناخ العام الذي يحتاج في العادة إلى وقت طويل، وهذا يعني توفير الكثير الكثير.

أما إذا قلنا: إنّ التربية المطلوبة، لا تتم في تلك الأجواء، فإنّ التربية تفقد آنذاك القيمة الإضافية، كما أن الإلحاح عليها قبل توفير أجوائها، يفقد الكثير من قيمته؛ لأن حصولها سيكون عسيراً، ونتائجها محدودة. وذلك كله لأن أهمية تطبيق منهج أو فكرة أو أسلوب، تتناقص كلما كانت شروط تجسيده أشق، وكلما كانت الفئة التي يمكن إيصاله إليها أو قيامها به ضئيلة ومحدودة والعكس بالعكس.

إنّ من المؤسف أن كثيراً منا يطالب بنشر أفكار طيبة دون أن يعير أدنى اهتمام لتدبير الوسائل والآليات التي تجعل نشرها ممكناً، أو التفكير فيما إذا كان توفير تلك الوسائل هو من الممكن أصلاً!.

مظاهر المرونة العقلية كثيرة، واستقصاؤها يطول، فلنكتف بما ذكرناه.

٧ ـ تحسين التفكير عن طريق القبعات الست:

إن القبعات الست ليست قبعات حقيقية، وإنما هي عبارة عن مواقف نفسية عقلية يجري تقمصها خلال جلسات الحوار والمناقشة، وخلال حالات التفكير الفردي، وهذا موجز لأهمها:

القبعة السوداء:

تفكير القبعة السوداء، هو التفكير الناقد، وهو تفكيرٌ منطقي، لكنه سلبي. وهو تفكيرٌ مطلوب، وكثيراً ما يكون مبنياً على حقائق وصادقاً، وإن كان لا يشترط أن يكون منصفاً دائماً.

على عكس ما يظن الناس، فإن إتاحة فرصة للنقد، ولإبداء الملاحظات

السلبية، لا تزيد في النقد، وإنما تخفف من حدته، وميل الناس إليه. إنّ إعطاء وقت للنقد، يعني أننا نجحنا في وضع حد للنقد القائم. وهذا ينبهنا إلى جانب من الطبيعة البشرية حيث لا يرغب الشخص الماهر في النقد أن يظهر بمظهر الضعيف في غير هذا اللون من التفكير. وعلينا أن نتذكر أن **التفكير الناقد**، هو على مستوى ما تفكير بنائي، حيث لا يستغني أي عمل جيد عن المراجعة وإعادة النظر. والأعمال التافهة وحدها، هي التي لا تحتاج إلى ذلك. وهذا لا يمنع من القول: إنّ الملكة النقدية، قد تتضخم لدى بعض الناس إلى حد المرض. وربما كان النقد شديد الإغراء، لأنه يمنح الناقد تفوقاً سريعاً على النظراء، على حين أن التفكير الذي يشيّد النظريات والقوانين، يحتاج إلى وقت طويل، ويحتاج حتى يكتسب المصداقية المطلوبة أن يتجسد في واقع مرئي، وليس كذلك النقد.

سيكون **النقد** في أحسن أحواله حين يدخل في **علاقة جدلية** مع الأعمال البنائية الإيجابية حيث يؤدي المزيد من النقد إلى تصحيح العمل، ويؤدي تصحيح العمل إلى ترشيد النقد وتأطيره، والكشف عن مدى صواب مقولاته وطروحاته.

إنّ حضور الجانب القاتم من الصورة ضروري لاكتساب شيء من الاتزان، ولدفع لوثة **(التهور)** التي يصاب بها الكثير من الأعمال.

القبعة الصفراء:

تفكير القبعة الصفراء هو **التفكير الإيجابي** الذي يركز على الإيجابيات في المسألة موضوع البحث، ويقوم به المرء بدافع من الفضول والسرور. ويستخدم الإنسان تفكير **(القبعة الصفراء)** في الغالب حين تكون له مصلحة شخصية في الموضوع. في بعض الأحيان تكون الإيجابيات غير واضحة، وهذه هي التي ينبغي أن تلقى الاهتمام. والناجحون دائماً ينتبهون إلى جوانب النفع الخفية، فيسبقون غيرهم.

إنّ من الثابت أنه في أغلب الحالات، لا يغلق باب إلا ويفتح معه باب آخر، لكن غالباً ما يصيبنا الارتباك، ونشغل بالباب الذي أغلق عن الباب الذي

فُتح. إنّ التفـير الإيجابي ليس تفكيراً مبنياً على أوهام، ولا على مجرد التفاؤل، ومـع هذا فـلابد من القول: إنّ الخط الفاصل بين الاندفـاع الأحمق والتفكير الإيجابي المتفائل هو خط ضيّق جداً، وإن اختلاط الأمرين على الناس، ليس من الأمور المستغربة.

إنّ في تفكير القبعة الصفراء رؤية نافذة للجوانب الإيجابية، ولو لم تكن مبنيـة على مؤشـرات موضوعيـة، ثم تأتي بعد ذلك دراسة متفائلة، لتبرز تلك الإيجابية السارة في معطيات ملموسة.

القبعة الخضراء:

إن تفكير القبعة الخضراء، يعني النمو والتغيير، والخروج من المألوف. إنه يخالف ميولنا الطبيعية التي تدعونـا إلى البقـاء ضمن الخط المعهـود؛ فالعقـل الإنساني، يكوّن لنفسه نماذج يقيس عليها ما يرد عليه من أشـياء من خارجـه؛ وكل ما لا يوافـق النماذج المستقرة لديه يتم طرحه وإبعاده.

لا يعني الدخول في التفكير الإبداعي أن يغير المرء عقله، وإنما يعني أن يستثمر المرء ما لديه من قدرة على التفكير على نحو أشمل وأتم، بحيث يرى الاحتمالات كلها.

إنّ أكثر التفكير الذي نتشبع به من بيئاتنا مهيّأ لمعالجة المعلومات، وذلك مثل المنطق والرياضيات، والتنسيق بين المعلومات. وهذه العمليات، لا تحدث إلا من خلال الرموز. والذي يقوم به التفكير الإبداعي، هو إيجاد أشكال جديدة، تضاف إلى ما عندنا من تراكيب ندرك من خلالها العالم. التفكير المبدع، يحتاج إلى الوقت؛ والعجلةُ هي عدوه الأول. والعادة تجعلنا نقبل الحل الذي يظهر لنا لأول وهلة. والمطلوب هو أن نوفر الوقت لاستخراج حلول أخرى، ثم نختار منها الأكثر مناسبة لحاجاتنا وإمكاناتنا.

إنّ من المهم أن نظل نرى أنّ الحلول التي توصلنا إليها ليست الوحيدة، وقد لا تكون هي الأفضل. وهذه الرؤية وحدها هي التي تجعل تطلعنا للجديد غير قابل للاستنفاد.

القبعة الزرقاء:

تفكير القبعة الزرقاء، يعني تفكير التحكم بأنواع التفكير الأخرى. إنّه بمنزلة لوحة تحكم كبيرة، عليها أضواء وأزرار، وأذرعة تحكم. ويمثل من يلبس القبعة الزرقاء دور القائد لجلسة الحوار والتفكير. ومهمته ضبط عمليات التفكير وتوجيهها، فهو يحمي المجموعة من الانزلاق أو الابتعاد عن الموضوع الذي يدور حوله البحث أو التفكير، كما أن عليه أن يوجه أنواع التفكير بحسب الظروف المحددة؛ ففي جو يكون الحاضرون فيه كثيري الانفعال تجاه الموضوع المطروح للبحث، يعطي للمشاعر والانفعالات وقتاً أوسع، حتى يُخرج الحاضرون كل ما لديهم من مشاعر وأحاسيس.

وبعد فتح المجال لإبداء المشاعر، قد يجد صاحب القبعة الزرقاء أنّ من المناسب إتاحة المجال لتفكير القبعة البيضاء أو السوداء، وهكذا...

نحن بحاجة إلى لبس القبعة الزرقاء في إحداث التوازن في تفكيرنا الشخصي، حيث يمكن عن طريقها ضبط الموازين والمقادير في ألوان التفكير المختلفة، فلا يغلب على الواحد منا التفاؤل أو التشاؤم أو النقد أو التفكير البنائي، ويتم إهمال الجوانب الأخرى.

إن في جلسات الحوار، وعمليات التفكير الفردي الكثير من الفوضى والجنف، وما أكثر اختلاط التفكير النقدي بتفكير العواطف بتفكير المعلومات!.

إنّ من المألوف أن نرى جلسة كاملة، لا يذكر فيها إلا النقد، كما أننا نرى جلسة أخرى، لا نسمع فيها إلا سرد المعلومات المفككة التي تُنثر دون أي تحليل. وفي جلسة ثالثة نجد البشائر وألوان التفاؤل التي تنهال من كل جانب. إنّ التفكير الجيد، يحتاج إلى ملاحظة ومتابعة دائمة، حتى لا يخرج عن مساره ويفقد توازنه.

* * *

الفد

موض
الخر
الأشي

من ال
والفك
بنـا .
واجت
في ال
الوص

والترا
جداً ما

مشـكا
النـاس
غيره ع

التفكير المعوجّ

ليس التفكير المستقيم سهلاً دائماً، ومن العسير أن نفكر بطريقة منطقية موضوعية، ثم لا نقع خلال تفكيرنا في شَرَك التفكير غير المنطقي أو المتحيز أو الخرافي. وأولئك الذين يفخرون بالتزام **المنهج العقلاني** في التعامل مع الأشياء، لا يملكون أي ضمانات للنجاة من ذلك.

إنّنا حين نمارس التفكير في أي موضوع، فإننا في الحقيقة نستخدم عدداً من العناصر البالغة التعقيد، مثل مبادئنا العقلية وثقافتنا العامة، والعادات النفسية والفكرية والمعلومات المتعلقة بالمسألة موضوع التفكير، وعلاقته الشخصية بنا... ولا نستطيع أن نستخدم كل ذلك في فراغ، فهناك ضغوط ظرفية واجتماعية، تكتنف تفكيرنا، وتؤثر على نحوٍ ما فيه. وبما أن كل ذلك، لا يكون في العادة كاملاً ولا نقياً، فإنّ علينا ألا نتوقع أن يكون باستطاعتنا دائماً النجاح في الوصول إلى تصورات وأحكام راشدة.

كل تجديد لأي بعد من أبعاد ذواتنا، لا بد أن يشتمل على إزالة الأنقاض والتراكمات القديمة؛ والفائدة من تعليم أساليب التفكير الصحيح ستكون محدودة جداً ما لم نتمكن من محاصرة الأنماط القديمة والأمراض التفكيرية المعوجة.

إنّ الفلاّح يقلع الأشواك والأعشاب الضارة قبل أن يلقي ببذوره. وإنّ مشكلة الانحرافات الفكرية أنها كثيراً ما تظل خارج منطقة الوعي، فمعظم الناس يشعرون بالرضا عن حالتهم الفكرية، وذلك طبيعي، فالفكر الذي يقوِّم غيره على نحو خاطئ يرتكب الخطأ ذاته حين يقوِّم نفسه.

عدم الوعي **بالخطأ الفكري** هو الذي يجعل الناس لا يشعرون بأية

مسؤولية تجاهه، وهو السبب في عدم رغبتهم في مقارنة أنماطهم الفكرية بأنماط غيرهم، وعدم الحرص على سماع آراء الآخرين، والانفتاح على تصورهم للأمور؛ مما يحرمهم من رؤية موضوعية أدق وأوسع.

إنّ كثيراً من أشكال التعثر التي نلاقيها في حركتنا النهضوية والعلمية خاصة، يعود إلى أننا لم نستطع أن نخترق الكثير من طرقنا وعاداتنا الفكرية التي ورثناها من عهود الانحطاط؛ فنحن في الحقيقة ما زلنا نكرر الأخطاء السابقة، ولدينا نوع من المناعة ضد التعلم منها!.

المشكلات التي نواجهها في الحياة، تزداد كماً وكيفاً، لا بسبب تعقد أساليب العيش فحسب، وإنما لأن النمو جزء من طبيعة المشكلات، ولذا فإن المستوى الفكري الذي يكون سائداً عند ولادة مشكلة ما يصبح بعد مدة غير كاف لمعالجة تلك المشكلة، ما لم نكن قد نجحنا في زيادة كفاءته، وتخليصه مما يعانيه من عيب وقصور.

لن نستطيع أن نحل مشكلاتنا المختلفة إذا لم نعالج طرق التفكير لدينا، ما دامت هي الأداة التي سنستخدمها في معالجة كل شيء. والأسس العميقة لكل مشكلات الأمة قابعة في عقولها ونفوسها، وعليها أن تضرب على الجذور، فضربة واحدة على الجذور خير من ألف ضربة على الأغصان.

النماذج التي تجسد الاعوجاج في التفكير كثيرة، ولا تتسع المساحة هنا لاستعراض كثير منها، فإليك شيئاً من أهمها في المفردات الآتية:

١ ـ إصدار الأحكام المسبقة:

نحن إذ نفكر ننطلق من مبادئ ومسلمات ثقافية، ونعد من لا يملكون تلك المسلَّمات غير قادرين على التفكير الكفء. المسلَّمات الفكرية والثقافية، لا تؤمِّن تسايل عمليات التفكير، فحسب، وإنما تريح العقل من عناء البحث والتمحيص، أي تؤمِّن له نوعاً من العطالة والسكون، ومن هنا تنبع جاذبيتها وخطورتها في آن واحد.

لو فتشنا في عقولنا، لعثرنا على مخزون ضخم من المسلَّمات المتعلقة بالناس والأفكار والأحداث. وتصنيفات الأمم والشعوب بعضها لبعض نموذج صارخ على ذلك؛ فالشعب الفلاني كسول، والشعب الفلاني محتال، والشعب الفلاني ماهر... ووسائل الإعلام في الغرب (العقلاني) تميل إلى وصم كل مسلم بالإرهاب. أما العرب في نظرها فهم شعوب مهووسة بالتبذير والجنس، فوضوية جاهلة... وهكذا فهناك أحكام عامة ظالمة، لا يعرف مصدرها، وليس هناك أدلة موثوقة لتعميمها على أمة أو شعب بأكمله، ولكنها راسخة جداً، ومن العسير تغييرها. وتلك **الصور الذهنية المنطبعة**، تشكل مشاعر الناس، وتوجه سلوكهم، وتنظم ردود أفعالهم.

إنسان القرن الحادي والعشرين مع أنه يتحدث باستفاضة عن **العولمة والقرية الكونية** وتلاقي الثقافات، إلا أنه غير قادر على تغيير أنماط تفكيره القديمة، فهناك انجذاب هائل نحو **الإقليمية والعنصرية والطائفية**، أي هناك انسحاب من (عالمية) الرؤية والثقافة والإحساس المشترك في الوقت الذي تتسع فيه عالمية التجارة، ويتسايل انتقال المعلومات والأشياء!

سيكون من المفيد حين نسمع حكماً لا يستند إلى أي إحصاء أن نحاول التعرف على النماذج التي تخالف ذلك الحكم، وسنجد آنذاك نماذج كثيرة معاكسة لما هو شائع، وستتمكن في ذلك الحين من كسر بعض الأغلال التي تكبل عقولنا.

٢ ـ سوء التعامل مع المعلومات غير الملائمة:

حين نكوِّن اعتقاداً ما فإن القوى غير الواعية فينا تحشد على نحو غير مرئي كل الأدلة والبراهين التي تقوِّيه، وتجعله أمراً غير قابل للنقاش. وحين تأتينا معلومات تناقض ما انتهينا إليه، فإن أكثرنا، يحاول الإفلات من التغييرات التي تقتضيها المعلومات الجديدة، ونحاول تحويرها أو إسقاطها من الاعتبار، أو التشكيك في صحتها...

إذا قيل لنا: إن صديقنا أحمد البارع جداً والمتفوق جداً كان بطيئاً في

القراءة حين كان طالباً في المدرسة، فإننا لا نقبل هذه المعلومة؛ لأنها مناقضة لاعتقادنا أن الأطفال الذين يستغرقون وقتاً طويلاً لكي يتعلموا القراءة هم أقل ذكاء من الآخرين. ومن ثم فإن بطء صديقنا أحمد في القراءة، لا يغير من الحقيقة شيئاً، بل هو الشذوذ الذي يؤكد القاعدة، فأحمد عبارة عن شخص واحد، فلا ينبغي أن يؤخذ في الحسبان!.

في بعض الأحيان لا نسلِّم أن أحمد كان بطيئاً في القراءة، فهو متفوق في جميع المهارات الدراسية، ولم يُعرف عنه أنه يشكو من صعوبة تعلم أي مهارة، ثم إنّ أحمد كان ذكياً جداً، والبطيء في القراءة لا يُعدّ في الأذكياء جداً، فهو إذن لا يمكن أن يكون بطيئاً في القراءة.

وقد نقول: إن من صرَّح بذلك لم يكن على خبرة به، أو إنه قال ذلك بدافع الحسد أو الحقد. وهكذا فالمسلَّمات لدينا تحول دون الاستفادة من المعلومات!. في أحيان كثيرة لا نفنِّد المعلومات التي تشوش على آرائنا، ونعاملها بإهمال شديد ـ لأنها لا تستحق الاهتمام ـ ومن ثم فإنه لا يتم تخزينها، ويصبح الأمر كما لو أن العقل لدينا ليس فيه (خانة) مستعدة لقبول المعلومات المشوَّشة. ولو أننا أردنا تذكر تلك المعلومات، فإننا لا نستطيع، لأنه لم يتم إدخالها في الذاكرة، وبالتالي فإنها لم تختلط بنماذجنا وأنساقنا الفكرية الخاصة.

هذه الحالة بعيدة الأثر في التركيب العقلي لكثير من الناس. ومن المؤسف أن أكثر الناس يقرؤون التاريخ بأحداثه المختلفة بهذه الطريقة، كما يقرؤون الواقع، ولذا فالفائدة من دراسة التاريخ والتفحُّص في مجريات الأحداث، تكاد تكون معدومة لديهم!.

لست أدعو إلى أن يغير المرء آراءه عند كل معلومة جديدة تفد إليه، ولكن الذي أصر عليه هو أن نأخذ ما يخالف تصوراتنا وأحكامنا بالجدية التامة، وأن نتعامل معه بالأسلوب نفسه الذي نتعامل به مع ما يوافقها، ويدعمها.

٣ـ الضلال في تفسير الظواهر:

لو تساءلنا: هل **الضلال** الذي ينشأ من اختراع أمور، لا أصل لها أعظم أو

الضلال الذي ينشأ من تفسير أمور موجودة تفسيراً خاطئاً؟

لكان الجواب ـ من غير تردد ـ إن الضلال الذي يجتاح حياتنا الفكرية من وراء التفسيرات الخاطئة أعظم بكثير من الضلال الذي ينشأ من الكذب الصراح، حيث إنّ كشف الكذب كثيراً ما يكون سهلاً، لكن التفسير الخاطئ، هو في أكثر الأحيان نتاج **نقص في المعلومات وقصور في التركيب العقلي**، وهذا الأخير هو الداء العياء الذي يحتاج علاجه إلى صبر لا يعرف النفاد!.

نجد في خبراتنا اليومية التي نمر بها من يقول: إن فلاناً متفوق؛ لأن أباه لا يكلفه شيئ، فهو متفرغ للدراسة، وفلان منحرف؛ لأنه نشأ يتيماً، فلم يلق التربية المناسبة. والبلد الفلاني ثري، لأنه يملك أنهاراً غزيرة. والشعوب الإسلامية متخلفة؛ لأنها تقع تحت ضغوط مؤامرة كبرى، وهكذا... ولو أردنا تمحيص هذه التفسيرات، لوجدنا أنها جميعاً محتملة وليست قطعية، فهناك طلاب أثرياء ومفرّغون للدراسة، ومع ذلك يرسبون. وهناك أعداد ضخمة من الأيتام ذوي السلوك الحسن والخلق الرفيع، وهناك...

إنّ تفسير الظواهر الكبرى **بعامل واحد** من أكثر الأخطاء الفكرية انتشاراً، وهو الذي يقبع خلف عدد لا ينتهي من التفسيرات الخاطئة للحوادث التاريخية والأحداث المعاصرة، ولا علاج له سوى إيراد كثير من الأمثلة، يتوفر فيها العامل المفسِّر مع تخلف النتائج المزعوم ارتباطها به.

٤ ـ تأثير الانطباعات الأولى:

الحاسوب يعمل وفق تسلسل منطقي صاف وتام. أما **العقل البشري**، فليس كذلك، فنحن لا نستطيع أن نقوِّم الأشياء بعيداً عن مشاعرنا وثقافتنا، ولا عن الظروف التي نمر بها؛ ولذا فإن من السهل أن نقع ضحية لبعض **الانطباعات الأولية** غير الصحيحة؛ لنصدر بعد ذلك أحكاماً غير صحيحة.

في عام ١٩٤٦م أجرى (سولومون أش) تجربة سأل فيها بعض الناس أن يكوِّنوا رأياً في شخص، وصفه بأنه «ذكي، مجتهد، مندفع، ميال إلى النقد،

عنيد حسود». وسأل أناساً آخرين السؤال نفسه، لكنه بدأ بالصفات السلبية: حسود عنيد ميال إلى النقد. . . وكانت النتيجة أن الفريق الأول كوَّن آراء أكثر إيجابية حوله من الفريق الثاني، حيث إن الصفات التي تم تقديمها في البداية، كانت إيجابية، فكوّنت انطباعاً أولياً إيجابياً أثَّر في الحكم النهائي.

وأعتقد أن تقويم واحد ممن استفتوا سيكون أقل إيجابية لو كان آنذاك خارجاً من قسم من أقسام الشرطة، بسبب مشكلة، سببها تهور أحد أبنائه.

مظهر الأشخاص الذين نقابلهم شديد التأثير في تكوين الانطباعات الأولية، وكذلك الأشياء السريعة والخاطفة التي لا تتيح لنا فرصة للمحاكمة والتمحيص.

وعلى كل حال فلن يكون شيء من ذلك ضاراً إلا إذا تسرعنا في إصدار الأحكام، وخضعنا لما كوَّناه من انطباع أولي، أو خضعنا لظروفنا ومشاعرنا وتجاربنا الخاصة، وسيظل الوعي بذلك هو الخطوة الأولى على طريق التصحيح.

٥ ـ تأثير الهالة:

قدرة الناس على مناقشة الأفكار، ومعرفة مزايا الأشياء على نحو دقيق: محدودة، ولذا فإنهم يتشبثون بأي شيء يمكن أن يساعدهم على استيعاب ما يرغبون في استيعابه. وعلى الرغم من الاستفاضة في الحديث عن ضرورة احترام التخصص وعن ضرورة اعتماد الفهم المستقل، إلا أن الصحيح أن الاستيعاب الموضوعي والمجرد للأمور، ما زال ضئيلاً. وربما كان لهذا الزخم الهائل من المنتجات ـ من كل الأنواع ـ تأثيره في ذلك، حيث صار الناس يشعرون بعدم القدرة على الإلمام الشخصي بكل ما يتم اطلاعهم عليه، فيلوذون بغيرهم ليساعدوهم على ذلك.

حين يتفوَّق إنسان ما في مجالٍ ما، فإنه يكوِّن لنفسه (هالة) تترك انطباعاً بالجدارة والثقة لدى الآخرين. وبتأثير تلك الهالة ينسى الناس جوهرية (الاختصاص) ويسألون المعجبين بهم عن أشياء ليس هناك أي دليل على تفوقهم في فهمها ومعرفتها.

ومن المألوف اليوم أن يُقبل الناس على استخدام نوع من الصابون أو العطر أو معجون الأسنان. . . لأن النجم الفلاني يستخدمه، أو ظهر في دعاية له. وطالما سئل رياضيون وفنانون عن قضايا سياسية واجتماعية وتاريخية، وينفعل بعض الناس بأجوبتهم أكثر من انفعالهم بأجوبة بعض المختصين!!.

إذا كنت قد اشتريت جهازاً يابانياً، وأعجبت بأدائه، فإنه ربما يتولد لديك انطباع بأن كل الصناعات اليابانية متفوقة. وإذا بهرت بطيبة شخص، ينتمي إلى بلد معيَّن، فليس من المستبعد أن يترسخ في نفسك أن أهل ذلك البلد كلهم طيبون. إذا اجتذب أحد مندوبي المبيعات اهتمامك بحديثه البارع أو مظهره الأنيق أو طريقة استخدامه للصور التوضيحية، فإنك غالباً ستصدق ما يقوله عن بضاعته.

في عصرنا هذا صار لـ (**الحقيقة العلمية**) هالة كبيرة، فنحن نحترمها أشد الاحترام، ونحاول الاستفادة من مؤشراتها، لكن كما أنه من السهل أن تتاجر بعملة زائفة، فمن السهل أيضاً أن يتاجر بعض الناس بالحقائق العلمية. وقد وقع كثير من الناس ضحية لتناول أدوية تخلصهم من السمنة أو الصلع، حيث بُهروا بالشرح العلمي لميزاتها وخصائصها.

تقوم معظم فروع العلم بتطوير لغتها الفنية الخاصة. وتستطيع (التعبيرات الخاصة) والغامضة غموضاً مقصوداً أن تضلل السامعين والقراء، وتولد لديهم نوعاً من الانبهار، وبالتالي الاستسلام والسقوط في يد المتحدث والكاتب. هذا كله يدعونا إلى أن نحاول جعل عقولنا دائماً متيقظة، وأن نتعلم المزيد عن كيفية (تقييم) **المعلومات** الواردة إلينا، كما يوجب علينا ألا نملَّ من طلب (تبسيط) ما نسمعه ليكون بلغة أسهل، وأن نتعود تأجيل إصدار الحكم عند عدم وجود ما يكفي من القناعة والوضوح.

٦ ـ المبالغة:

نحن لا ندرك الأشياء بطريقة مباشرة، وإنما عبر وسيط ثقافي وفكري

ونفسي أيضاً؛ مما يجعل رؤيتنا لها قابلة للكثير من الخصوصية، وبالتالي للكثير من الانحراف. **المبالغة** مرض واسع الانتشار في كل زمان ومكان، والبنية التحتية له بنية فكرية نفسية، فالإدراك القاصر، وضعف المحاكمة العقلية، مما يدفع إلى المبالغة على النحو الذي تدفع إليه الأهواء والأمراض النفسية، والانطباعات الخاصة والخاطئة. ولعلنا نلقي الضوء على بعض مظاهرها في الآتي:

أ ـ بعض الناس يميل إلى تضخيم كل الأشياء لتبدو كأنها مجموعة (كوارث) فهم يتوقعون دائماً الأسوأ، فأي ألم مفاجئ يصيب الواحد منهم، هو دليل على وجود مرض خطير. وأي خطأ يقع فيه يمكن أن يحرمه من وظيفته...

ب ـ هناك من ينجذب إلى (**تعميم الافتراض**) فلأن شيئاً ما قد وقع، فهذا يعني أنه سيقع دائماً، فإذا نسي موظف لديه تنفيذ أحد طلباته قال له: إنك تنسى دائماً ما أطلبه منك. وإذا تبين له أن إحدى الإذاعات كذبت في خبر من الأخبار، حكم بأن تلك الإذاعة لا تصدق أبداً!.

جـ ـ بعض الناس يبالغ في إعطاء الأحداث السلبية أهمية أكثر مما تستحق، وهو في الوقت نفسه يقلل من قيمة الأمور الإيجابية؛ فإذا رسب في اختبار لنيل (**رخصة قيادة**) حكم على نفسه بالغباء؛ لأنه يرى أن النجاح في اختبار كهذا سهل على كل الأشخاص الأسوياء. وإذا أثنى عليه شخص فسَّر ذلك بأنه مجاملة من أجل رفع معنوياته. وإذا نجح في أمر من الأمور اعتبر ذلك من باب الحظ أو المصادفة... إنهم يمارسون نوعاً من تعذيب النفس دون أي مسوِّغ!.

د ـ تتجلى **المبالغة** في بعض الأحيان في صورة قراءة لما في عقول الآخرين، حيث يعتقد بعض الناس أنه يملك حساسية خاصة لمعرفة ما يدور في أذهان الناس، وما تنطوي عليه سرائرهم؛ فإذا توجهت إليه شركة بسؤال ظن أنها سألته لأنها لم تعثر على شخص آخر بإمكانه أن يجيب على أسئلتها. وإذا واجه مشكلة ولم يتدخل فيها أحد من أصدقائه، فليس ذلك بسبب محافظتهم على خصوصيته، وإنما بسبب إهمالهم له، أو شماتتهم به. وإذا نصحه شخص بنصيحة، فذلك ليس بقصد إصلاحه، وإنما بقصد تحطيمه أمام نفسه وهكذا...

هـ ـ المبالغة تأخذ في بعض الأحيان شكلاً من أشكال عدم الاتزان، فترى بعض الأشخاص يتحولون من النقيض إلى نقيضه بسرعة البرق؛ فبسبب كلمة أو حركة، يمكن أن يصبح مشروع ما مشروع العمر، ويمكن أن يصبح الصديق الحميم عدواً... وتجد هذا في تعبيراتهم: «إن كان بوسعك أن تقول ذلك فهذا يعني أن علاقتنا لا تعني أي شيء»، «خطأ واحد يفسد الأمر كله»، «إذا لم أستطع تصحيح هذا الأمر فسأتوقف عنه كلياً».

هناك أشكال أخرى من المبالغة تتجلى في مديح الآخرين، وفي ذمهم، وفي تصوير بعض الوقائع التاريخية، سبقت لنا معالجتها[1].

وأعتقد أن كثيراً من الوسائل الإعلامية، يبني بأساليب شتى عقلية (المبالغة) وضعف حركة النقد، إلى جانب انعدام أجواء المصارحة والمناصحة، يساعد على استمرارها بل نموها. والحد من هذا الانحراف الخطير، سيظل مرتبطاً بمدى درجة الوعي لدينا، وبمدى ما نحققه من تقدم حضاري.

٧ ـ القراءات القاصرة:

نحن نحاول باستمرار أن نستوعب الواقع الموضوعي، ونسلك إلى ذلك مسالك شتى، لكن قد نوفق فيما نرمي إليه، وقد نخفق. وكثيراً ما نخرج بنتائج غير صحيحة بسبب عدم معرفتنا ببعض القواعد الأساسية في علم (الإحصاء) وهذه بعض النماذج على ذلك:

ـ حين نريد أن نحكم أن طرازاً معيناً من السيارات يعمر أكثر من غيره، فإن علينا أن نعاين أكبر عدد ممكن منه. وكلما كانت العيِّنة كبيرة، وكانت عشوائية كان الحكم أقرب إلى الصحة. وسيكون من الخطأ أن نحكم على طراز بأكمله بأنه معمّر واقتصادي من خلال مشاهدة سيارة واحدة؛ فربما كان صاحبها، لا يستخدمها إلا لماماً، وربما كانت هي في الأصل ذات مواصفات خاصة، وربما كانت الظروف المناخية التي تستخدم فيها أكثر ملاءمة...

---

(١) انظر بعض ذلك في كتابنا: فصول في التفكير الموضوعي ص٢٠٤ وما بعدها.

وإذا أردنا أن نعرف نسبة المصلين في مجتمع، فلا ينبغي أن نصمم (استبانة) ونوزعها على طلاب كلية الشريعة؛ لنعرف المصلي من غيره. وإذا أردنا أن نقيس مستوى دخل الفرد في بلد، فلا ينبغي أن نأخذ عينة من رجال الأعمال أو العمال. . . فالعيِّنة في كل هذا ليست عشوائية، ولا تمثل المجتمع على نحوٍ صحيح. نعم يمكن لهذه العينات أن تعطي مؤشرات على الفئات التي أُخذت منها ليس أكثر.

ـ الأعداد المطلقة، قد تصدمنا، وقد تدفعنا إلى تفاؤل غير ذي معنى؛ لأنها في الحقيقة لا تعني أي شيء ما لم نطلع على بعض الحيثيات المتعلقة بها. وعلى سبيل المثال إذا سمعنا أن حوادث السير في البلد الفلاني تسبب وفاة ألف شخص في العام، فإن هذه المعلومة، لا تعني أي شيء ما لم نعرف عدد السكان في ذلك البلد، وما لم نعرف عدد السيارات التي تتجول في طرقه وشوارعه، وهل ذلك الرقم يمثل تحسناً مقارنة بالسنوات السابقة؟ وإذا كان في زيادة، فهل زيادته مساوية لنسبة الزيادة السكانية، وزيادة عدد السيارات فيه أو أكثر أو أقل؟.

وإذا قارنّا أعداد تلك الوفيات بما هو موجود في البلدان الأخرى، فهل تكون منخفضة أو مرتفعة؟.

إنّ بلداً كالهند ـ مثلاً ـ سيكون أفضل بلد في العالم إذا كانت وفيات عدد حوادث السيارات فيه ثلاثة آلاف شخص في العام، على حين أن هذا العدد سيجعل بلداً مثل قَطَر أو سنغافورة أسوأ بلد في العالم في هذا الجانب. والسبب هو الفارق الأساسي في عدد السكان الذي يزيد مئات المرات.

ـ كثير من الناس يظن حين يرى أمرين يحدثان معاً أن أحدهما سبب للآخر. وعلى سبيل المثال فإن ذوي الشعر الأحمر كثيراً ما تكون وجوههم شاحبة، لكن أياً من هاتين الظاهرتين لا يؤثر في الأخرى، وليس سبباً لها. إنّ تناول الإنسان لحبة (أسبرين) أثناء إصابته بالزكام تجعله يشعر بالتحسن، لكن من المستبعد أن تؤثر في سرعة شفائه.

وهكذا فلا بد من فحص دقيق لنوعيـة المقارنة والارتباط بين الأشـياء المقترنة قبل إصدار حكم حولها، ولا سيما في المسائل الإنسانية والاجتماعية؛ فنحن نسـتطيع أن نربط بين الريـاح الشـديدة البرودة ودرجات الحرارة المنخفضة جداً وبين تيبس أوراق الشجر وأعشاب الأرض على نحو يقيني، لكن لا نستطيع أن نملك اليقين نفسه في التعامل مع قضية أسرية ـ مثلاً ـ فلا يجوز أن نقول: إن كثرة الخلافات بين الأبوين سوف تؤدي قطعاً إلى انحراف سلوكي لدى أطفالهم، حيث إن التمزق الأسري، ليـس هو العامل الوحيد الوثيق الصلة بالموضوع.

إنَّ العيش في الزمان الصعب يتطلب ملاحقة مسـتمرة لأوجه القصـور والخلل في فهمنـا للأشياء وتعاملنا معها؛ ولا يمكن أن نطمئن إلى ما ننجزه في هذا الشأن، ونكتفي به؛ فالتفكير المستمر، ينتج باستمرار مشكلات جديدة. وبإمكاننا أن نذكر المزيد من أشكال الاعوجاج في التفكير، لكن نكتفي بما ذكرناه هنا، اتكاءً على ما ذكرناه من قبل في (فصول في التفكير الموضوعي) من نحو التعصب، وعقليـة البعد الواحد، والتفسير التآمري للتاريخ، وإسقاط القاعدة بالمثال الشاذ، وتقديـس الأشخاص، والكيل بمكيالين. . . فـارجع إليها إن شئت. والله ولي التوفيق.

* * *

الفصل الرابع

البعد النفسي

تجديد البعد النفسي:

العقل يتحسَّس معالم الطريق، ويستنبط من مصادر عدة إشـاراتٍ للفعل والكف، أما **النفـس** فتشكِّل البُنية العميقة للسـلوك والعلاقات، وفيها تصب حصيلة ذلك كله.

إذا استعرضنا أدبيات الأمم، وجدنا تركيزاً غير عادي عليها، حيث المطالبة الملحة بالصفاء والنقاء والتطهر من أوضار المادة والشهوات، وحيث المطالبة بالرقي والسمو والترفع . . .

نصوص كثيرة تشـير إلى محوريـة **(تزكية النفوس)** في رسـالات الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مما يدل على أن العنـاية بها ظلت على مدار التاريخ ذات أهمية اسـتثنائية، كما ظلت درجـة صلاحها مقياسـاً معتبراً لمدى استجابة الناس للدعوة، وقبولهم للهداية. يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]. فجعل تزكية النفوس مهمة أساسية من مهمات الرسول ﷺ وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠]، فحكم بالفلاح لمن اهتم بإصلاح نفسه وتزكيتها.

القرآن الكريم يعلمنا أن زوال النعم، وتبدل الأحوال إلى الأسوأ، لا ينشأ أساساً من تدهور البيئة، ولا خراب العمران، وإنما من **تغير النفوس** وانحطاطها: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ۝ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٣ ـ ٥٤]. وإذا أراد الناس استعادة ما فقدوه، وإصلاح ما أفسدوه، فالخطوة الأولى على طريق العودة أيضاً نفسية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

إنّ تمايز الإنسان عن الشجر والحيوان وقدرته على الخروج عن الخطوط الغريزية التي تضمن سلامته، وتكيفه مع بيئته، يوجب عليه أن يقوّي داخله حتى يستطيع ضبط نزواته، كما أن عليه أن يُدعِّم **جهازه النقدي الداخلي**؛ حتى يتمتع بالقدرة على التمييز بين الأشياء الحسنة والأشياء القبيحة، وحتى يرشِّد اختياراته بين تلك الأشياء، ويكون قادراً على تحمل مسؤولية تلك الاختيارات.

التحديات التي تواجه الأمم كالتحديات التي تواجه الأفراد هي غالباً داخلية. والأفراد العظماء كالأمم العظيمة حين يشتد عليهم الهجوم من **الخارج**، لا ينهمكون في أنشطة خارجية لصده، وإنما يرتدُّون إلى **الداخل** تنمية وتحصيناً وتنظيماً وتطهيراً.

وهذا هو **القرآن الكريم** يقرر هذه الحقيقة الهائلة بأبسط أسلوب: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

إنّ كل الحلول في **الرؤية الإسلامية**، هي حلول تتم في الداخل أولاً، ثم يتم الانطلاق إلى الخارج. الأمم التي لم تجد الطريق الصحيح في الحياة، وتلك التي تعرفه ولا تجد الطاقة لدفع تكاليف السير فيه، تحاول دائماً أن تغطي على مشكلاتها الداخلية بالاتجاه إلى الخارج، تتسوَّل منه الحلول، أو تصرف عن طريقه الانتباه عن أزماتها الداخلية من خلال اختراع حرب مع قريب أو بعيد... ولا يختلف سلوك الأفراد أيضاً عن هذا المسلك، فحين تجف **المنابع الداخلية** للعيش الهانئ فإن كثيراً من الناس يسعون ـ بدل إعادة الحيوية إليها ـ إلى تنظيم البيئة من حولهم، ويضفون عليها المزيد من اللمعان، كما يندفعون إلى اللهو

والأكل والشرب والجلوس أمام (التلفاز). . .

إنّ كل سياق إصلاحي لشؤون الأمة يجب أن يرتكز على سياق داخلي ذاتي، يتمثل في تحسين الخصائص والأوضاع النفسية والسلوكية، وإلا فإن النتائج ستكون مخيبة للآمال.

كان المهتمون بتزكية النفوس في الماضي يركزون على نحو أساسي على ما يمكن أن نسميه بـ(قمع النفس) وضبطها وإماتة نزعاتها أكثر من التركيز على الثقة بالنفس والاعتداد بها، وتلمُّس أوجه تقويتها. . . وهذا أفرز نتائج سيئة على المستوى الاجتماعي، حيث صار الناس الأطهر نفوساً، والأكثر صلاحاً وزهداً يعيشون على هامش المجتمع: لا مال ولا نفوذ ولا منصب، وهذا حرم الأمة من عطاءاتهم العظيمة، كما مهّد الطريق لتكون القوة ـ بمعناها الشامل ـ بيد من لم ينل داخله من التزكية سوى القليل.

وإننا نأمل أن نستعيد التوازن في هذه القضية، فنعلِّم الناس كيف يحصِّنون أنفسهم، كما نعلِّمهم كيف يؤثرون في الحياة العامة، ويقودون السفينة إلى بر الأمان. وإليك بعض المبادئ والأفكار التي تساعد في هذا عبر الحروف الصغيرة التالية:

١ ـ تخليص النفس من أمراضها:

هذه أول خطوة على طريق تجديد البعد النفسي، وهي أهم خطوة أيضاً، فما بعدها لا يعدو أن يكون تفصيلاً لإجمال، وتأكيداً على معلوم. إنّ كلمة التوحيد وإشعاعاتها الروحية والخلقية ومقتضياتها السلوكية، تشكل المرقاة الأولى في سلَّم العافية، كما أنّ الشرك الأكبر والأصغر، وما يتولد عنهما من رغبات ومقتضيات، تشكل البداية لسلسلة من العلل النفسية والسلوكية؛ ولا أمل في الشفاء مع الشرك والانحراف العقدي الفاحش.

إن حلول النفس في الجسد، فتح الطريق أمام تأثيره فيها، حيث يحاول جعل مطالبها لا تنتهي عند حد، لأن مطالبه كذلك. والمسلم مطالب بأن يُدخل

حاجاته النفسية والجسدية جميعاً في منطقة **(الوعي)**، فيلبي منها ما هو حق «وإن لنفسك عليك حقاً»، ويقاوم الرغبات والحاجات التي تشكل الاستجابة لها انحرافاً عن المنهج الرباني.

حين تسطع أنوار التوحيد في نفس المسلم، وتضيء جوانبها، فإن السلوك يستجيب لتلك الإضاءة، وينضبط بآدابها ومتطلباتها.

وحين يصبح الإيمان عبارة عن (قناعة عقلية) ويكفُّ عن توجيه السلوك، فإن حزمة ضخمة من الأمراض النفسية تجتاح كيان المسلم، فتحول حياته إلى شيء لا يطاق.

حين يشعر المسلم شعوراً عميقاً بأن الله ـ جلَّ وعلا ـ هو المعطي، فإنه لا يحسد أحداً، ويطلب من الله أن يجود عليه، كما جاد على غيره. وحين يشعر بأن الله خالق كل شيء والمهيمن عليه، فإنه لا يحس آنذاك **بالكبر والعجب**.

وحين يحس المؤمن بالخشية من الله **والخوف منه**، فإنه يتحاشى الوقوع في الانحراف وظلم العباد وهكذا.. وعلى هذا فإن بداية طريق الخلاص من العلل النفسية والقلبية، تتمثل في التركيز على إحياء المعاني الإيمانية من إخلاص وصدق وحب لله ـ تعالى ـ وخشية وإجلال له... وهذا لن يتم إلا من خلال سقيها بالماء الذي لا ينبع إلا من المزيد من التعبير.

ثم إن على المرء بعد ذلك أن يجاهد نفسه في ذات الله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ١٤٥]. وهذه المجاهدة تقوم على أمرين:

الأول ملء الوقت ـ قدر الإمكان ـ بما يرضي الله ـ تعالى ـ من أعمال وأنشطة.

والثاني هو كفّ النفس عن بعض مطالبها ونزواتها.

والمشاهد اليوم أن هناك نزوعاً قوياً نحو الإكثار من كل شيء: الكلام ومخالطة الناس، واستهلاك الأشياء، والاستحواذ عليها، والتحرر من الالتزام بأي شيء نافع... وهذا وما شاكله أوجد خواء روحياً قاتلاً، وباعد بين واقع

المسلم وبين جوهر الالتزام بالسلوك الإسلامي، وصرنا نرى في تفاصيل الحياة اليومية لكثير من المسلمين ألواناً من الكبر والعجب، والحقد والحسد، والغيرة والطمع، وسوء الظن والخيانة والظلم، وأكل الحقوق، والشماتة بالآخرين والحرص على متاع الدنيا الزائف والضجر والهلع . . .

وهذا كله جعل المجتمع الإسلامي يفقد روح التراحم والتماسك، وصار أشبه بثوب نفيس، نُقض نسجه، وتحول إلى كومة من الخيوط! أما على الصعيد الشخصي فقدْ فقدَ المبتلون بهذه العلل أو بعضها الإحساس بالسعادة والطمأنينة والأمان، كما فقدوا الإحساس بالاتجاه والغايات الكبرى لوجودهم؛ مما حرم حياتهم من أهم معانيها، وآكد مقوماتها.

ومن الملاحظ أن الذين يحسنون التفريق بين الأمراض النفسية وبين المطالب العادلة للنفس والجسد قليلون؛ فالأكثرية لا تعرف الحدود التي إذا تجاوزها المطلب العادل تحول إلى مرض نفسي أو سلوكي، وكم رأينا بين من يخلط بين الكبر والثقة بالنفس، ومن يخلط بين الحذر وسوء الظن، ومن يخلط بين التدبير وبين الشح والحرص على الدنيا، ومن يخلط بين الغيرة وبين المنافسة الشريفة. . . مما يوجب على المسلم التحلي بدرجة من النظر المدقق، حتى لا تلتبس عليه الأمور، ويقع فريسة للمعايير الزائفة.

والملاحظ كذلك إلى جانب هذا اشتداد العناية بالاستقامة الفكرية، وكسب المزيد من القدرة على المحاكمة العقلية السديدة على حين أننا نرى المزيد من الإهمال لتزكية النفس وتطهير القلوب وتقويم السلوك. وكأن هذا رد فعل غير متزن على الخلل الذي وقع في عصور الانحطاط!.

لن يستطيع أحد أن يزعم أنه تخلص من أمراضه النفسية، وصار من حقه الإخلاد إلى الراحة؛ فملابسة أحداث الحياة، تولِّد في كل يوم مشكلات جديدة، وتترك انطباعات سلبية في نفوس الناس؛ مما يوجب اليقظة، والاستعداد لكفاح لا ينتهي إلا بانقضاء العمر، «لا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه».

٢ ـ تخفيف القلق:

القلق هو حالة من التوتر الشامل والمستمر نتيجة توقع خطر فعلي أو رمزي قد يحدث، ويصحبها خوف غامض وأعراض (نفجسمية).

إن القلق والانشغال الذهني ببعض الأمور التي يمكن أن تحدث، لا يعد في الأصل شيئاً سيئاً، حيث إن البديل عنه قد يكون ضعف الإحساس، أو الفوضى الوجدانية، أو عدم الشعور بالمسؤولية؛ ولذا فإن قدراً من **القلق** ضروري في توازن الشخصية، فهو قد ينبه الإنسان إلى وجود شيء خاطئ في حياته، والذي لن يكون من الحكمة تجاهله. كما أنه يدفع المرء إلى الشعور بعدم الارتياح تجاه التفكير في أمرٍ ما يجعله بداية للتحفز والعمل. وهو بعد هذا وذاك منشِّط قوي **للخيال** إذا ما وظِّف في العثور على بعض الحلول أو ارتياد بعض الآفاق الجديدة.

ينشأ (القلق) من خلال ما تنطوي عليه سرائر الناس من توقعات وطموحات، ومن كون المستقبل غيباً، يمكن أن يحمل لهم ما يسر، وما يسوء... ويعد **(القلق)** من الأمراض الكثيرة الشيوع؛ ويُثْبت بعض العلماء وجود (مكوّن جيني) يجعل قابلية الناس للقلق أمراً كثير الورود. وربما كان لخبرات الطفولة أيضاً دور مؤثر في ذلك.

إنَّ القلق من أكبر الأعداء للحالة المزاجية الجيدة، وهو يؤثر في مشاعر الإنسان وانفعالاته، كما يؤثر في كفاءة تفكيره. ويشعر ذوو القلق المرَضي بالارتباك والفزع، كما يشعرون بفقد السيطرة على أنفسهم، والهزيمة أمام التحديات التي تواجههم.

أما تأثيره في **كفاءة التفكير**، فيتمثل في بقاء القلِق في حالة ترقب للمشكلات والكوارث، كما أنه يؤثر في مقدرته على التركيز، وإعطاء الأشياء المهمة ما تستحقه من انتباه كامل، وبذلك يصبح اتخاذ القرارات أمراً صعباً. ويتجاوز تأثير **القلق** ذلك إلى التأثير في الوضع الجسدي، حيث إنه يقلل من

مقدرة الإنسان على الاسترخاء، والنوم الجيد، كما أنه يسبب له الصداع، ويخفض من درجة نشاط الجسد، بما يسببه من توتر وإجهاد. والحصيلة النهائية لكل ذلك هي انخفاض الأداء لدى القَلِق، فهو يبالغ في العناية بأشياء لاتستحق العناية، كما يهمل أشياء تستحق الاهتمام، كما أنه يدفعه إلى الاعتماد على الآخرين أكثر من اعتماده على نفسه، بالإضافة إلى أن القلِق يؤدي واجباته ببطء وتقاعس.

كيف نخفف القلق؟:

كم سيكون مؤلماً حين يكتشف المرء بعد أن يقضي قسماً كبيراً من حياته أنه كان منشغلاً على الدوام بمتاعب لم تقع، وخائفاً من أشياء وهمية، لا وجود لها إلا في عقله. طاقات بددت، وأوقات ضاعت، وأشياء مهمة كان ينبغي أن ينجزها صُرف عنها... ولذا فإن من الضروري للواحد منا أن يتخلص من الانشغال بالأمور غير الهامة، والأمور غير الممكنة، والأمور غير القابلة للحل؛ ليحافظ على لياقته النفسية، وليستخدم جهوده وإمكاناته فيما يعود عليه بالنفع. وهذه بعض الأفكار التي تساعد على ذلك:

- حين يقع أمر سيِّئ، أو نتوقع حدوثه، فإنّ تياراً من الهموم المكثفة، يجتاح الواحد منا، ويغمره بآلامه وهواجسه، ومع مرور الوقت يتضاءل كل ذلك إلى أن يتلاشى؛ وقد قالوا: «كل شيء يكون صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة تكون كبيرة ثم تصغر».

وقد يتضح أن ذلك كان ينطوي على الكثير من الخير. وفي الحديث الشريف: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» فأول المصيبة، هو الذي يحتاج إلى استجماع قوى المقاومة. والمهم أن نشتت الوقع النفسي لما وقع، أو لما يتوقع أن يقع، قبل أن تشتته حوادث الأيام والليالي، وذلك من خلال تجاوز الحاضر، والاستبشار بما هو آت. وبإمكان الواحد منا أن يسأل نفسه: ماذا ستكون أهمية هذا الذي يشغلني بعد عام، أو بعد خمسة أعوام؟ لا شك أنها ستكون ضئيلة جداً. حين يرسب طالب في مستوى من المستويات، أو يتوقع الرسوب، فإنه

يعيش أهوال كارثة حقيقية، حيث إن تخرجه سيتأخر سنة عن موعده المأمول. ولو أن أحد الخريجين سأل نفسه بعد عشرين سنة من التخرج: ما الأمور التي كانت ستتغير في حياتي لو أنني تخرجت عام ١٤٢٠ بدل عام ١٤٢١ ـ لوجد أن لا شيء يستحق الذكر.

ـ حين نقلق من حدوث أمرٍ ما، فلنسأل أنفسنا: هل هذا الأمر المتوقع حدوثه يستحق كل هذا الانزعاج، وكل هذه الحسابات؟ إنّ أهم مواردنا الوقت والطاقة المختزنة، ومن السهل أن نهدر هذين الموردين العظيمين في أمور تافهة، أو حين نعطي أموراً كبيرة أكثر مما تستحق من الاهتمام والانشغال. علينا أن نتذكر دائماً حين نقلق لأمر ما أن هناك الكثير من المهمات التي تنتظرنا، وسيكون من غير الحكمة الانصراف عنها.

ـ إخراج ما يقلق إلى منطقة الوعي، أمر في غاية الأهمية؛ إذ إن أخطر ما في القلق هو الغموض والإبهام. ولذا فإن من المهم أن نحدد بدقة ما يقلقنا، ونحدد موقفنا منه، من خلال مجموعة من الأسئلة:

السؤال الأول: ما الذي يقلقني؟

السؤال الثاني: هل هناك ما بوسعي أن أفعله حياله؟

إذا كان الجواب (لا)، فتوقف عن الانشغال به، واعمل على إلهاء نفسك بشيء نافع. وإذا كان الجواب (نعم) فاعمل على أن تخرج من الحالة التي أنت فيها بما تستطيع عمله، واكتب قائمة بذلك.

السؤال الثالث: هل هناك أي شيء أستطيع أن أقوم به على الفور؟

إذا كان الجواب (لا) فاشتغل بالتخطيط لما تستطيع أن تقوم به، وحدد وقتاً لذلك.

وإذا كان الجواب (نعم)، فابدأ به لتجد المقلقات تتساقط من حولك. وقد قالوا: «عقل الكسلان بيت الشيطان». فالمقلقات تسيطر على الفارغين الذين لا يجدون ما يشتغلون به؛ ولذا فإن ملء الوقت وشغل النفس بالأشياء المفيدة،

هو صمام الأمان الذي يحول دون تمادي القلق في إزعاجه.

ـ إذا ما حاصرتنا الهموم، ولم نجد منها مفراً، فالحكمة آنذاك ألا نتجاهلها ونداف‍عها إلى ما لا نهاية، وإنما أن نعطيها جزءاً من وقتنا للتفكير فيها، كأن نخصص لها ساعة يومياً، وحين تأتي المقلقات في غير تلك الساعة، فينبغي أن نعمل على تأجيلها. وحين يحين وقت الانشغال بها، فلنحاول أن نصور كل مصدر قلق على أنه مشكلة منفردة، تستدعي حلاً معيناً. وبذلك نكون قد ضربنا سوراً حول القلق، فلا يطرق في كل الأوقات، كما نكون قد حولناه من هواجس مزعجة إلى شيء محدد، يمكن التعامل معه.

كل ذلك يحتاج من الواحد منا ألاّ يعطي الدنيا ومشكلاتها أكثر مما تستحق، وأن يعمر قلبه بذكر الله ـ تعالى ـ ويثق بعونه ولطفه، كما يحتاج إلى إرادة صلبة حتى يقاوم هذا المرض.

٣ ـ تخلَّصْ من الاكتئاب:

الاكتئاب: حالة من الحزن الشديد المستمر[1]، تنتج عن الظروف المحزنة الأليمة، وتعبر عن شيء مفقود، وإن كان المريض لا يعي ـ في كل الحالات ـ المصدر الحقيقي لأحزانه.

وربما كان الدافع الخفي لحدوث الاكتئاب، هو تهدئة القلق، ومنع حدوثه، أو إخفاء العدوان، أو القصاص التكفيري من النفس، أو استجداء عطف الآخرين ورعايتهم... وأهم أنواع الاكتئاب، هما: الاكتئاب العصابي والاكتئاب الذهاني. ولا نريد الخوض في تفصيل مثل هذا.

إنّ أخطار الاكتئاب على الصحة النفسية للإنسان، وعلى كفاءة أدائه، أكبر

---

(١) يقول شاعر مكتئب:

وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى ... وتحتي بحار بالأسى تتدفق

ويقول آخر:

فثوبي مثل شَعري مثل حظي ... سوادٌ في سَوادٍ في سواد

مما يظن الكثيرون، حيث يصاحبه جمود انفعالي، يصعب معه التعاطف الشعوري والابتسام الموضوعي، كما أنه في حالاته الشديدة يضعف صلة المبتلى به بالواقع الخارجي، كما أنـه يؤدي إلى احتقار الإنسـان لذاته، إلى جانب أنه يؤدي إلى هبـوط النشـاط النفسي والحركي والوظائف العقليـة، وقد يدعو صاحبه إلى الانتحار.

كيف نتحامى الاكتئاب؟.

الأسـباب التي تـؤدي إلى الاكتئـاب، ليسـت واضحة دائماً، فربما عادت الإصابـة به إلى تذبذب في كيميـاء المخ، أو إلى بُعد الهـوة بين الإنجـازات والطموحـات، أو إلى حـالات متكـررة من الإخفاق، أو بسـبب المقارنـة مع الآخرين، أو بسبب الحرص على درجـة عاليـة من (المثـالية) لا يتمكن صاحبهـا من بلوغهـا... ومع هذا فـإن الاكتئـاب شـائع جداً، ودرجـاته المنخفضة مخبورة لمعظم النـاس. وأكثر الناس لا يعيرونه الاهتمام المطلوب، وهذا ليس خطأ عندمـا يكون الاكتئـاب في درجـة متدنيـة؛ ولذا فإن ما سـنذكره هنا من أساليب ووسائل لحماية النفس من الاكتئاب، ينطبق على الحالات الشديدة والمتوسطة. وهي أساليب كثيرة جداً، ولها علاقة بجوانب عديدة من حياتنا. وسنقتصر على بعضها خوف الإطالة:

ـ سيكون المكتئب محظوظاً إذا استطاع أن يحدد المصادر والعوامل التي أدت إلى اكتئابه؛ لأن ذلك سيساعد على معالجتها والتعامل معها. وقد يكون من العسير على الواحد منا وهو في وسط المعمعة أن يحدد مصادر مشكلته، فينبغي ألا يتردد في استشارة طبيب أو صديق يثق في صداقته وخبرته. ومن المؤسف أنَّ حالات الاكتئاب الشديد تبدد الصداقات، وتشتت الأصدقاء... وقليل أولئك الذين يقفون إلى جانب المكتئب في محنته حتى النهاية، مع أنه بحاجة ماسة إلى دعم اجتماعي قوي وغير مشروط، حتى يتخلص من التمحور حول ذاته، وحتى يهتدي إلى المخارج التي يتمكن بها من مغـادرة النفق المظلم الذي وجـد نفسه فيه.

ـ يحوِّل الاكتئاب صاحبه إلى إنسان كسول مسلوب الإرادة والقدرة، ولذا فمن المهم أن يغمس نفسه في أنشطة يومية بسيطة مثل تلاوة جزء من القرآن أو كتابة رسالة بسيطة، أو إجراء اتصال هاتفي، أو الإتيان بالأطفال من المدرسة، أو اللقاء مع بعض الإخوان والأصدقاء. . . إنّ هذه الأنشطة وما شاكلها تجعل المكتئب يشعر أنه أفلت ـ ولو جزئياً ـ من قبضة الاكتئاب الذي عطل الكثير من أعماله اليومية المعتادة.

ـ المكتئب يرى أخطاءه مضخَّمة ومكبَّرة، ويقوِّم إنجازاته تقويماً سلبياً، مما يجعله مغموراً بأمواج الأفكار السلبية السوداء عن ماضيه وحاضره ومستقبله، وبالتالي عن ذاته وإمكاناته. وهذا يفرض على المصاب بالاكتئاب أن يقطع حواره الداخلي وأن يوفر لنفسه قدراً من الراحة العقلية. وأسهل الطرق وأسرعها إلى تحقيق ذلك هو (التناسي وعدم التفكير) وعليه أن يشغل تفكيره عوضاً عن ذلك بقراءة شيء أو تأمل شيء. المكتئب يفقد ثقته في نفسه، ولذا فإن من المفيد له أن يفكر بما يملك من إيجابيات ونجاحات وقدرات؛ ليتخذ من ذلك رأس جسر على طريق استعادته لحالته المزاجية الطبيعية والسوية.

ـ إن الاكتئاب مثل سوس الأسنان يصطفي المواقع الصالحة لعمله؛ وحتى يحمي الإنسان نفسه من الاكتئاب، فإن عليه أن يكون في الوضعية الصحيحة قبل كل شيء: الوضعية التي يكون فيها في أحسن أحواله، وذلك عن طريق أمور عدة، مثل: إعطاء الجسم حقه من الغذاء والنوم والرياضة، حيث إن التداخل بين أحوال النفس والجسد معقد. كما أن عليه أن يكون واضحاً في مبادئه وقيمه وأفكاره وأهدافه، فالاكتئاب يتغذى على الغموض؛ والوضوح هو عدوه الأول. كما أن من المفيد في هذا الإطار ألا يحرم المرء نفسه من حقها من بعض المباهج المباحة، فالرتابة والضغوط الحياتية الشديدة، والجدية الزائدة عن الحد، كل أولئك يؤهل الإنسان للإصابة بالاكتئاب.

الاكتئاب كثيراً ما يصيب أولئك الأشخاص الذين وضعوا كل بيضهم في سلة واحدة حين وضعوا كل إمكاناتهم وآمالهم في نجاح عمل، أو نيل شيء، فإذا

لم ينالوه شعروا بأن كل شيء قد انتهى، ولم يعد ثمة مجال لعمل أي شيء.

العزلة والانطواء وقلة الأصدقاء، مرشحات قوية للإصابة بالاكتئاب، وسيكون من المهم للإنسان أن يظل منفتحاً ومستعداً لإقامة علاقات اجتماعية ناجحة، ومستعداً لرعايتها والمحافظة عليها، حتى يتلقى منها في النهاية ما يحتاج إليه من دعم ولاسيما في وقت الأزمات.

٤ ـ الثقة بالنفس واحترامها:

مطالبة المسلم بأن يزكي نفسه، ويطهرها، ويراقبها؛ لا تعني أن يهينها، وأن يحتقرها، وأن يبخسها حقها، بل إن هناك من النصوص ما ينهى عن ذلك، فليس للمسلم أن يذل نفسه وذلك بأن يكلِّفها ما لا تطيق، أو يعرضها للوقوع في المهالك. وهو إلى جانب ذلك مأمور بأن يثق بعون الله ـ تعالى ـ له، كما أنه مطالب بألا يتهم نفسه بأمور هي منها بريئة، وأن يعرف قدر نفسه من خلال ذكر إنجازاته، واكتشاف الإمكانات الكامنة فيه. إنّ الله ـ جل وعلا ـ جعل باب التوبة مفتوحاً أمام العبد مدى الحياة حتى لا يكوِّن فكرة نهائية عن نفسه، وحتى يظل قادراً على تجديد الثقة بها وبإمكانية إصلاحها.

كثير من الناس يفقد ثقته بنفسه واحترامه لها بسبب الإخفاقات المتكررة التي واجهها، أو بسبب أخطاء مرحلة الصبا. وبعضهم يكون كذلك بسبب مقارنته لنفسه بأشخاص، يعتقد أنهم أفضل منه بكثير، وأن لا أمل باللحاق بهم. وبعضهم يكون كذلك بسبب ضخامة طموحاته، حيث يشعر دائماً بالانحسار والانكسار. والحقيقة أن الأسباب التي تقف خلف هذه الظاهرة كثيرة ومتشابكة، وبعضها يستعصي على التحديد.

كيف نبني الثقة بأنفسنا؟

احترام النفس نتيجة مباشرة للثقة بها، كما أن ازدراءها نتيجة مباشرة للشعور بنقصها. وحين نعتقد أن كل الأحوال والأوضاع السيئة، تظل قابلة لدرجة من الإصلاح والتحسين، فإننا في الغالب سنجد الأسلوب الذي نصلحها به. والمشكل

دائماً يكمن في ضعف الاهتمام بالمشكلات، وفي ظن ما هو في طور (الصيرورة) متحجراً ومنتهياً.

الطرق والوسائل التي تعزز ثقة الإنسان بنفسه كثيرة، نذكر منها ما يلي:

ـ سيكون من الخطأ الاعتقاد بأنّ الثقة بالنفس شيء محدد وموحد، وعلينا فقط أن نمد أيدينا لنتناوله. إنّ الثقة بالنفس شيء متأرجح، فبعض الإخفاق، يخفض درجته، كما أن بعض النجاح يزيد فيه. وثقة الناس بأنفسهم درجات عدة. وليست زيادة الثقة بالنفس على نحو مبالغ فيه بالشيء الحميد؛ فقد تدفع الثقة الزائدة بالنفس إلى بعض الأعمال الطائشة والمتهورة، وبذلك فإنها تكون أول خطوة على طريق الإحباط، والتقدير المنخفض للذات؛ ولذا فإن العقلاء يتركون في أنفسهم مساحة ما من الشك في قدراتهم، وتلك المساحة هي التي تولد لديهم الحرص على التطور، كما تولد لديهم درجة من الحذر تجاه المغامرة والتسرع في تناول الأمور.

ومع هذا فكثير من التقاليد الثقافية يدفع الناس إلى أن يظهروا واثقين بأنفسهم أكثر مما هم عليه في واقع الحال؛ وهذا يسبب أزمة لأولئك الذين يحرصون دائماً على أن يقيِّموا أنفسهم دائماً من خلال المقارنة مع الآخرين، ولأولئك الذين يعتقدون أنهم غير محظوظين في هذا الباب.

ـ الممارسة عامل مهم في اكتساب الثقة في النفس، فالإنسان يولد مزوداً بالحذر من كل شيء، والخوف من التعامل معه. والمعلومات التي نستفيدها عن المحيط والأشياء، تقلل من ذلك الخوف، لكنها لا تخلصنا منه. الممارسة وحدها هي التي تبخر ذلك الخوف، الذي يحد من ثقتنا بأنفسنا، وهي وحدها التي تقضي على الأوهام التي ننسجها حول الأشياء. الخريج الجامعي، يتهيب التدريس، ويشك في مقدرته على القيام به على نحو جيد، وكلما انغمس في إعطاء الدروس اكتسب المزيد من الثقة بنفسه. وسوف تزيد ثقته بنفسه أكثر عندما يلقي درساً ناجحاً أمام (الموجِّه) أو عندما يلقي درساً نموذجياً أمام زملائه، أو حين يدرِّس طلاب الصف الثالث الثانوي...

ـ بعض الناس، لا يفكر في بناء ثقته بنفسه إلا عندما يكون في حالة تدهور أو انزعاج أو عندما يواجه مشكلة أو أزمة، مع أن الصواب أن نخطط لهذا الأمر ونحن في حالة انشراح وارتياح. إنّ علينا أن ندرك أن الكثير من **الثقة بالنفس**، لا يأتي عن طريق التخطيط، ولا يولد ولادة صناعية، وإنما هو ثمرة النجاح في الحياة ومظهر من مظاهر التوازن النفسي.

ـ الشعور بالثقة شعور خاص، لكن له **بُعد اجتماعي**، ففي أوقات الأزمات ـ خاصة ـ يتأثر المرء بآراء الآخرين ومواقفهم تأثراً بالغاً[1]. وهذا يفرض على كل واحد منا أن يتصرف في أوقات الطوارئ كما يتصرف الواثقون بأنفسهم، وإن لم يكن كذلك، وأن يجعل من نفسه مصدراً لإشعاع الثقة في محيطه، فالناس يثقون بالمرء على مقدار ما يثق هو بنفسه، ويرون الأشياء على النحو الذي يراها عليه الواثقون.

ـ الإنسان ـ مهما بلغ ـ يظل ضعيفاً، ووقوعه في الأخطاء، يظل هو الأصل في مسيرته، ولو حاول إنسان أن يرتكب نوعاً غير مسبوق من **الحماقة أو الخطأ**، فالغالب أنه لن يصل إلى ما يريد؛ ولذا فإن الله ـ جل وعلا ـ فتح باب **التوبة** على مصراعيه ليدخله المخلصون والصادقون والمفرطون المقصرون الذين أفاقوا من غفلتهم، وأحبوا أن يبدؤوا بداية جديدة كي يتخلصوا من وخز الماضي وعقابيله.

سيظل المهم بالنسبة إلى كل واحد منا هو تقليل نسبة الوقوع في الخطأ، والتعلم منه، وهذا لن يتم إلا من خلال العزيمة والفهم العميق للأسباب والظروف التي أحاطت بالخطأ. بعض الناس يكبلهم الماضي، ويحطم ثقتهم بأنفسهم، حيث تتشوه صورة أنفسهم في أعينهم، وييئسون من التقدم والصلاح بدل أن ينظروا إلى الأخطاء على أنها مصدر للمعلومات، ومصدر للوعي والتجربة، فيستفيدوا منها.

ـ كثيرون أولئك الذين يعانون من مشكلة في الشكل أو البنية الجسدية

---

(١) يمكن لفرار ضابط من المعركة أن يشكل كارثة لجيشه بما يشيعه من الخوف والخذلان، ولذا كان (الفرار من الزحف) كبيرة من الكبائر، ويمكن أن تصل عقوبته شرعاً إلى الإعدام.

أو العمل . . . وكثير ممن هم كذلك، يقوم ببعض التصرفات التي يظن أنها تستر مشكلته عن عيون الناس على نحو ما يفعل بعض المفلسين من رجال الأعمال حين يتحدثون عن الجهود الجبارة التي بذلوها لاجتناب الإفلاس. وكما يفعل قبيح الشكل حين يلبس بعض الملابس التي لا تليق بمن هم في سنه أو مكانته . . . وسائل كثيرة، تستهدف القضاء على الإحساس بالنقص، لكنها في الحقيقة قلما تفلح في ذلك، بل كثيراً ما تؤرق صاحبها وتقلقه، حيث يخشى أن يكتشف الناس حقيقة أمره. ولو أن الواحد منهم انصرف عن التفكير في مشكلته، وتجاهلها لكان أجدى له، وأعون على كسب احترامه لنفسه، واحترام الآخرين أيضاً.

ـ إذا تمكن الإنسان من معرفة الأسباب التي تجعل ثقته بنفسه ضئيلة، فإن عليه أن يتأمل فيما يمكن أن يفعله لمعالجتها، فالذي يشكو من ضعف قدرته على بناء علاقات اجتماعية جيدة، يستطيع أن يقرأ كتاباً أو أكثر عن معاملة الناس وكسب الأصدقاء، وتفهم أصول العلاقات العامة. والذي يرى أن العجلة ـ مثلاً ـ هي سبب إخفاقاته المتكررة، يمكنه أن يتعلم كيف يخطط حياته، وكيف يحد من اندفاعه بمحاسبة نفسه، واستشارة غيره. وهكذا فأفضل علاج هو ذاك الذي يسدّ منافذ المرض، ومداخل الشكوى، وكلما استطاع الإنسان أن يضيّق تلك المنافذ شعر بالمزيد من الثقة بالنفس، وبالمزيد من التقدير لها.

ـ **التعويض والإحلال** أسلوب آخر يمكن اتباعه في معالجة أسباب الشعور بالنقص وضعف الثقة. فإذا كانت المشكلة المتسببة في الاستخفاف بالذات غير قابلة للمعالجة، فإن بإمكان المرء أن يبحث عن شيء يخفف من آثار تلك المشكلة ويوفر في الوقت نفسه فرصة للثقة بالذات؛ فإذا كان المرء يعاني من قماءة شديدة ـ مثلاً ـ فإن بإمكانه أن يتجاوزها، ويرتاد الآفاق الذهنية والفكرية، فنحن نقدر أهل العلم والفكر تقديراً عالياً، ولا يخطر في بالنا تقويمهم من خلال أشكالهم وألوانهم.

وإذا كان المرء يشعر بانخفاض درجة ذكائه، فإنه يستطيع التعويض عن ذلك بتكثيف القراءة وتحسين الفهم. ويستطيع من يشكو الفقر، وضعف الإمكانات

المادية أن يحسِّن مستواه في الإدارة، فيدير وقته وإمكاناته المحدودة على نحو كفء، كما يستطيع أن يتعلم مهنة رائجة، أو القيام بعمل إضافي، يحسِّن من خلاله مستواه المادي وهكذا. . .

إنه ما يغلق باب حتى يفتح باب آخر، لكن قصورنا التربوي والثقافي يجعلنا نُشغل بالباب الذي أغلق عن الباب الذي فتح، وبذلك نضيع فرصاً كثيرة، ونخسر قضايا عديدة.

ـ لا يحب الناس السماع إلى قصص **الإخفاق** وسوء الحظ، كما لا يحبون أن يروا على المرء أمارات الفقر وعدم الاهتمام؛ ولذا فمن المهم للمرء ألا يدمن الشكوى إلى الناس، فيقابلوه بما يؤكد له أنه ضعيف، ويستحق الإشفاق والمساعدة. كما أن من المهم كذلك ألايظهر المرء بمظهر ينمّ عن **الفوضى السلوكية، أو الفقر** المدقع. . . فذاك يخفض ثقته بنفسه، وثقة الناس فيه، وكلا الأمرين ضار بتوازن الشخصية.

المطلوب أن نبحث عن الأشخاص الذين يساعدوننا على **الثقة بأنفسنا**، وكم من زوجة غيَّرت مسار حياة زوجها بسبب دعمها وتشجيعها له، وكم من صديق دفع صديقه إلى أعلى مراتب النجاح بسبب ثقته به، ودلالته على مكامن النجاح!.

ـ إن **اليأس** أحد **الأعداء** المهمِّين لاحترام الذات، فاليائس إنسان أعلن الاستسلام وألقى أسلحته، حيث اعتقد أن كل دفاعاته، قد انهارت، ولم يبقَ أمامه سوى انتظار النتائج المأساوية التي تقترب منه!

إن المؤمن لا ييئس أبداً، وكيف يصاب بانقطاع الرجاء، وهو عبد لربٍّ كريم معين رحيم، لا يزداد على السؤال إلا كرماً وجوداً؟ إن **عظماء الرجال**، ليسوا أولئك الذين يستسلمون لما أعدّوه من مقدمات وأسباب **للفوز**، وإنما أولئك الذين يستمدون طاقتهم العظمى من **(الغيب)** عبر ثقتهم بعون الله وتوفيقه وتذليله الصعاب لعباده المؤمنين.

إن المسلم لايستسلم؛ لأنه حين تنقطع به الأسباب، يتصل بمسبب

الأسباب ـ سبحانه ـ وبذلك يظل يأمل في زوال الغُمة وتحسُّن الأحوال.

إن الإنسان ليس ضئيلاً، لكنه كسول إلى حد بعيد، وإن علينا أن نثق أن ما هو كائن لدينا أعظم بكثير مما هو ظاهر، وما هو معطَّل أكبر مما هو مستغل؛ ولذا فإن هناك مساحات شاسعة لتجاوز كل الصعاب وتحقيق أسمى المطالب والرغاب.

٥ ـ الإرادة الصلبة:

كل إنسان يملك درجة من الإرادة، كما يملك قدراً من القدرة. ومن مجموع الإرادة والقدرة يتكون العمل. **الإرادة والقدرة تتفاوتان بين شخص وآخر**، لكن مشكلة معظم الناس، ليست في ضآلة إمكاناتهم وطاقاتهم، وإنما في افتقارهم إلى القدر المطلوب من الإرادة والعزيمة والتصميم. خالد وسعيد، كل منهما يملك القدرة على قراءة شيء نافع ساعةً كلَّ يوم، لكن الذي يفعل ذلك هو سعيد؛ أما خالد فيؤثر الاستلقاء، أو مسامرة الأصدقاء!.

إن مما يؤسف له أن تزداد قدرات الناس اليوم على نحو مدهش بسبب معاونة المنتجات التقنية المختلفة، في الوقت الذي ترتفع فيه نِسَب أولئك الذين يُذعنون لرغباتهم وأهوائهم! وهذه الوضعية ناشئة في تصوري من ثلاثة أمور، هي:

أ ـ تراجع مستوى التَّدَيُّن الحق لدى كثير من الناس، أضعف إراداتهم، حيث قلّ الحافز على أعمال الخير، وقلّ الرادع عن الجري خلف المتع والشهوات، كما أن النظرة إلى الدنيا على أنها ممر إلى الآخرة قد تغيرت ـ في البنية العميقة لثقافتنا ـ لدى كثير من المسلمين.

ب ـ كثرة الأشياء المحيطة بالإنسان، أوجدت متطلبات وضغوطاً جديدة عليه؛ مما قيد إرادته، وقنن حركته.

جـ ـ أسهم كثير من الفلاسفة وعلماء النفس إسهاماً سلبياً في هذه القضية، حين أعطوا لبعض العوامل ثقلاً نوعياً في السيطرة على التصرفات، فقد كان (نيتشه) وكذلك (شوبنهور) ينكران حرية الإرادة. ومدرسة (التحليل النفسي)

تقول إن الشهوة الجنسية (الليبيدو) هي العامل المسيطر على تصرفاتنا. ومدرسة السلوكيين تنفي وجود شيء يسمى الإرادة أو الوعي؛ وكل شيء عندهم يفسَّر في ضوء الإثارة والاستجابة. ونتيجة للثقافة النفسية والسلوكية السائدة، صار كثيرون يعتقدون أن الإنسان إذا بلغ سن النضج صعب عليه بعد ذلك أن يغير شيئاً من عاداته وأخلاقه!.

تربية الإرادة الصُّلبة:

للمجتمع الدور الأساسي في تربية الإرادة، حيث إنه يرسي بعض الأعراف والتقاليد والنظم التي توضح الحد الأدنى المقبول من الانضباط والجدية والمثابرة. وكلما رقى المجتمع في سلَّم الحضارة، تعقدت مصالح الناس ومطالبهم الحياتية، وباصطحاب ذلك تتعقد أيضاً معايير الأداء والانضباط؛ وذلك كله يضع الإنسان في ظروف تتطلب منه المزيد من التحكم في رغباته والمزيد من العمل والعطاء.

لكن إذا لم تكن المسيرة الحضارية للمجتمع مهتدية بالهدي الرباني ومنضبطة بمناهيه، فإن الفرد لا يتلقى آنذاك ما يصلِّب إرادته على نحو صحيح ومتكامل. وهذه الصورة نشاهدها في المجتمعات الصناعية عامة والغربية منها خاصة، حيث الجدية والإرادة الحديدية في مجال العمل والإنتاج، وحيث الاستسلام غير المحدود للرغبات والشهوات في كل ما يسمى (**مسائل شخصية**).

مشكلة كثير من الشباب المسلم أنه يعيش في زمان صعب، يتطلب منهم درجة عالية من الإرادة والفاعلية والانضباط وتجويد الأداء، لكن مجتمعاتهم الإسلامية، لا تساعدهم على ذلك؛ فأوضاعها العامة، لا تحفز أبناءها على الوصول إلى الرقي المطلوب، بل كثيراً ما تخذلهم، وتضع العقبات في طريقهم. وهذا يجعل كل واحد منا مطالباً بأن يستمد من الله ـ تعالى ـ المعونة كي يستطيع النهوض بذاته دون انتظار المساعدة من الوسط الذي يعيش فيه. وإليك بعض ما يمكن أن يشكِّل أفكاراً وأساليب وأدوات في تربية الإرادة، وذلك من خلال الآتي:

ـ بعض النـاس يعترض على عمليـات تربيـة الإرادة بحجة أنها تحرمنا من التعبير الفطري والطبيعي عن أنفسنـا، وذلك يفصلنـا عن أعمـاق مشاعرنـا، وتكويننا الداخلي، كما أنهم يرون أن الكبت والقمع للنفـس، قد يُلحق أضراراً بالغـة بالتـوازن العميق للشخصية.

والحقيقة أن تربية الإرادة حين تؤدي إلى نوع من البرمجة المحكمة للرغبة والسلوك، فإن شيئاً من ذلك المحذور، قد يقع، لكن حين تستهدف تقوية الإرادة وضعَ النفـس في السـياق الحياتي الصحيح ـ من غير عسف ـ فإن الوضع يكون مختلفاً؛ لأن الارتكاسات التي تنشأ عن الفوضى الوجدانية والسلوكية ذات ضرر هائل على المرء؛ وعلى سبيل المثال، فإن إدمان المخدرات، والانسياق خلف اللذة الجنسـية، وعدم الانضباط في أداء الأعمال المهمة... تؤدي إلى تدمير الكيان الشخصي والاجتماعي للإنسان. ثم إن عون الله ـ جل وعلا ـ للمرء في تجاوز الصعاب، وإكرامـه له بالهدايـة كثيراً ما يتـوقف على مجاهدة النفـس، وحملها على بعض ما تكره. يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ [السجدة: ٢٤].

ـ قسم كبير من النجاح في حياة الناس، نابع من امتلاكهم إرادة الاستمرار في أعمالهم، وإرادة مقاومة الصوارف والمشـاغل التي تعترض سـبيلهم. وعنـد التدقيق في تفاصيل حياتنا العامـة نجد أنه ليـس لدينا سوى نسـبة قليلـة من الناس القادرين على اسـتخدام إراداتهم في متابعة منهج عملي إلى منتهاه. إذ كثيراً ما يطرأ في برنامجنا اليومي ما يحوِّلنا عن وجهتنا التي كنـا قد عقدنا العزم على متـابعة السـير فيها. ونحن جميعاً نملك براعة نادرة في التماس الأعذار التي تسوغ ذلك التحول. وهذه القضية المهمة جداً هي التي تجعلنا نرى أشـخاصاً كثراً ذوي مواهب وكفـاءات عاليـة، لا يحققون سـوى القليل من النجاح والتقدم. وهـي نفسها تجعلنا نرى كثيرين من ذوي القدرات المتوسطة يرأسون أعمالاً ناجحة، ويحققون إنجازات مهمة.

ـ ليس الاستمرار فيما ينبغي أن نستمر فيه هو التحدي الوحيد الذي يواجه إراداتنا فهناك تحدٍ آخر، ربما كان أكبر، وهو أن ننفذ الأعمال التي نرى أنها تستحق أن تُنفَّذ أولاً؛ فنحن مع الأسف ميالون دائماً إلى القيام بالأعمال السهلة، وإن تكُ غير مهمة، وتأخير الأشياء الصعبة، وإن تكن حيوية وخطيرة.

تحدث أحد رجال الأعمال الناجحين إلى عدد من زملائه يوماً قائلاً: إن في وسعهم أن يضاعفوا أرباحهم إذا فعلوا الأشياء التي يعرفون مقدماً أنه ينبغي أن يفعلوها. ولم يهز هذا التصريح الخطير شعرة في جسد المستمعين، مع أن هذه الفكرة تمثل إحدى القواعد الأساسية في تحقيق النجاح!.

علينا أن ندرك عن طريق الخيال والوعي تلك الأشياء التي تستحق أن تكون في طليعة اهتماماتنا، وطليعة إنجازاتنا، وعلينا بعد ذلك أن نتخذ من القيام بوضعها موضع التنفيذ ميداناً لاختبار قوة إرادتنا، وميداناً لاكتساب تلك القوة. وإن ثمار أي تقدم ثابت في هذا الصعيد، ستكون مثيرة أكثر مما نتوقع.

ـ في تربية الإرادة لا بد من التدرج، فالالتزام بأعمال كبيرة مغرٍ لكثير من الناس، لكن كثيراً ما يخفق الإنسان في الوفاء به؛ لذا فإن تدريب الإرادة ينبغي أن يبدأ بإلزام النفس بالقيام بأعمال بسيطة وهينة. لنحاول أن نضيف إلى أنشطتنا اليومية والأسبوعية والشهرية نشاطاً صغيراً. وهذه في الحقيقة أفضل طريقة لتكوين عادات جديدة. إذا استطاع المرء الالتزام بما أضافه إلى نشاطه، فإنه يكون قد عوَّد نفسه البطولة على نطاق ضيق.

ـ كثيراً ما تتجلى قوة الإرادة في طول نَفَس الإنسان على المتابعة، ومن ثم فإنه يمكن تدريب النفس على المثابرة على بعض الأعمال التي نتضايق عادة من الاستمرار فيها، وسيكون من الجميل أن يعوِّد المرء نفسه صلاة ركعتين طويلتين، يقرأ فيهما نصف جزء من القرآن مع الحرص على الخشوع. وكذلك قراءة جزء من القرآن دون التفات أو انقطاع. بل يمكن للمرء أن يقوم ببعض الأعمال التي لا تعني شيئاً بغية تقوية إرادته، وذلك كأن يقف على كرسي وذراعاه متشابكتان فوق صدره لمدة عشر دقائق. أو أن يحضر مئة عود ثقاب، أو مئة

قصاصة ورق، ثم يعمد إلى وضعها في صندوق بتؤدة وأناة.

ـ من المجالات المهمة لتربية الإرادة حرمان النفس من شيء مما اعتادته، مما هو كمالي، ولا ضرر في الإقلال منه، كالامتناع عن نوع من الشراب، أو الحلوى المفضَّلة.

عادات الاستيقاظ من النوم مجال مهم لهذا، فكثير من الناس يستمتعون بالاستيقاظ المتدرج الذي قد يستمر أكثر من ساعة! وسيكون من الحميد أن يقسر الإنسان نفسه على الاستيقاظ السريع فور النداء عليه، أو سماع جرس المنبه؛ فذلك يجعل المرء يشعر بقوة الإرادة، كما أن الاتجاه الذهني عند الاستيقاظ كثيراً ما ينعكس على عمل اليوم كله.

العادة هي: كل عمل يتكرر من غير تدخل من جانب الإرادة، وأكثر عاداتنا ـ الحميد منها والمذموم ـ يُكتسب عن طريق التربية. والتخلي عما ينبغي أن نتخلى عنه منها، لا بد أن يتم عن طريق تدخل الإرادة. لنحاول دائماً أن نضفي على عاداتنا نكهة **الإرادة الواعية**، حتى لا نقع في فخ الرتابة التي هي عدو لدود **للإرادة الحرة**، وحتى نشعر بالتمكن من تسيير حياتنا فيما هو خير. وقد قال الفقهاء: إن النيّة الحسنة تحوِّل المباحات إلى عبادات.

وسيكون من المهم أن نحاول إحلال عادة حسنة في موضع عادة قبيحة؛ فالمطلوب من الذي تعوّد الجأر بالشكوى من سوء الأحوال ليس أن يكف عن ذلك، ويصمت، بل أن يتعود التحدث بنعم الله ـ جل وعلا ـ والثناء عليه، وتذكر الأشياء الجميلة الموجودة في حياته. والذي تعوّد كثرة النوم، لا يطلب منه الإقلال منه فحسب، بل عليه أن يتعود استخدام ما يفيض من الوقت في عمل نافع بعد أن تخلص من النوم الذي لا حاجة له وهكذا. . .

ـ **الابتكار والإبداع**، من أهم سمات **الإرادة القوية**؛ ولذا فإن تدريب الإنسان نفسه على إبداع بعض الأشياء، هو في الحقيقة تدريب على تقوية الإرادة. **القدرة على الابتكار**، هي القدرة على إيجاد شيء من لا شيء، أو هي إيجاد شيء رائع من شيء أو أشياء تافهة؛ فهل يشك أحد أن في اللوحة الرائعة

شيئاً هو أكثر من القرطاس والألوان والإطار؟.

الميل إلى الإبداع يولد مع أكثر الناس بدرجات متفاوتة، ولكنه يظل دفيناً نتيجةً للإحساس بالنقص، أو ضآلة الثقافة، أو عجز التربية والبيئة المحيطة. . . لاينبغي أن يُظن أن الإبداع هو نـاتج آلي للموهبـة، فالشواهد الملموسـة تؤكد أن المثابرة وحسن إدارة الإمكانـات المحدودة أعظم أثراً في إيجاد الأشـياء المبتكرة من الومضات الذهنية أو الإمكانات العقلية الفائقـة[1]. ليحاول كل منـا أن يعتق نفسـه من ربقـة التقليد، وأن يشق لنفسه طريقاً في الحياة، يضفي عليه التميز، وليحاول أن يعمل عملاً فذاً يضع عليه لمساته الخاصـة، ويصب فيـه ما ينفرد بـه من رؤى ونمـاذج وإمكانات ومواهب. . . وبمجرد العزم على فعل ذلك نكون قد بدأنا مرحلة انتصار الإرادة.

ـ ليحاول من يريد تقوية إرادته أن يتخذ من بعض الشـخصيات الناجحة والمتفوقة مثلاً أعلى؛ فمعظم الناجحين، يملكون قوة الإصرار على المضي مهما كانت الصعاب. وقراءة سِيَرهم أو الاتصال بهم، ومعرفة أخلاقهم وعاداتهم. . . كل ذلك يجعل المرء يقلدهم، ويقتدي بهم؛ وإذا ما عثر على بغيته فإن سِيَرهم ستشكل له البيئة الجديدة والمساندة في دعم إرادته وتقويتها. وتاريخنا الإسلامي غني جداً بالرجال الأفذاذ الذين صنعـوا العجائب في أسـوأ الظروف، وحسبك بسيرة النبي ﷺ وبسِيَر أصحابه الكرام، ففيها ما يكفي ويغني، ويفيض.

٦ ـ حسم الصراع الداخلي:

لكل منا طاقاتـه وإمكاناته، إلى جانب التزاماتـه وواجباته، بالإضافة إلى أهدافه وطموحاته ومصالحه. . . وكثيراً ما يجري صراع شديد داخل نفوسنا حول أجزاء هذه الشبكة النفسية المعقدة، صراع متعدد الوجوه، متفاوت الأشـكال والوتائر. الصراع الداخلي مزعج للغاية، حيث تتشتت بصاحبه السبل، وتغشى أهدافه عتمة التردد، كما يضطرب سلوكه ومواقفه. ويفوِّت الصراع كثيراً من

(١) يقول أحد المفكرين: إن الذكاء لا ينفع الذين لا يملكون سواه شيئاً.

الفرص، إذ إنه أكبر عائق في وجه اتخاذ القرارات المهمة.

من الضروري للمرء أن يتعلم حسم الصراع الذي يدور في نفسه، وبما أنّ الصراع يتجدد مع تجدد المواقف الحياتية المختلفة، فإنّ من المهم أن يكون للإنسان أصوله وأساليبه ومعاييره الخاصة في ذلك. وأتصور أن مما يفيد في تحديد ذلك ما يلي:

ـ في داخل كل منّا شخصيات عدة، وعليه مسؤوليات متنوعة، ولا بد عند حسم الصراع من إعطاء كل جانب حقه من الوقت والاهتمام والجهد. ولدى الإنسان قابلية شديدة للانحياز، مما يستوجب الانتباه والحذر. إنّ لله ـ جلّ وعلا ـ حقوقاً يومية، لابد من أدائها. ولثقافة الإنسان وجسده ووظيفته وأهله وإخوانه... حقوق لا بد أيضاً من القيام بها. والخلل الذي يحدث في مراعاة هذه الحقوق لا يظهر أثره على المدى القصير، لكن إذا استمر مدة طويلة، فإن عواقبه تكون وخيمة. قد تبدو بعض الأمور مهمة في بعض الأحيان؛ مما يستوجب أن نوجه إليها عناية أشد؛ وهذا طبيعي، لكن في الأوضاع العادية والعامة يجب أن يحسم الصراع دائماً لصالح التوازن والاعتدال.

ـ عندما نريد حسم الصراع داخل نفوسنا حول مشروع أو عمل أو موقف أو اختيار شيء ما، فإن من المهم أن نحسمه لصالح **المبدأ**، وليس **المصلحة**، ولحساب **الآجل**، وليس **العاجل**، والدائم وليس المؤقت.

وإذا تشاجر في فؤادك مرةً أمران فاعمد للأعف الأجملِ

وحسم الصراع على غير هذا النحو، لا يعد حسماً، بمقدار ما هو بداية لمشكلات وتوترات جديدة. والمسلم مستقبليّ الرؤية والحسّ والهمّ والمنهج، ولابد أن ينحاز في النهاية إلى ما ينسجم مع ذلك.

ـ من المفيد للمرء أن يجمع المعلومات المتعلقة بالمسألة موضع النزاع قبل اتخاذ أي قرار. كما أن من المهم استقصاء وجهات النظر المتعلقة بها، والاستفادة من نصح ذوي الحكمة والتجربة؛ ولكن عند الأخذ برأي واحد منهم، فينبغي أن

يتم ذلك وفق ما يستشعره المرء في نفسه: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون». وسيكون من الضرر أن نحسم صراعاتنا بعيداً عن بصيرتنا الداخلية بسبب الرضوخ لمكانة من نستشيرهم أو مركزهم أو خبرتهم، أو أي سبب آخر.

ـ لا بد لحسم أي صراع إذا ما أريد له أن يفلح من أن يتم في ضوء الإمكانات المتاحة؛ إذ إن هناك مَن يشعر بوطأة الحيرة والتردد، فيحاول الخلاص، واتخاذ قرار أي قرار مهما تكن الظروف والأحوال. وحين تسير الأمور على هذا النحو، فإن إنهاء الصراع يكون كحال من يداوي عيناً بقلعها!.

نحن نتحرك دائماً في أجواء مزدحمة، وذات مطالب متناقضة؛ ولذا فلا بد من التريث عند اتخاذ أي قرار، ولابد من حساب تكاليفه وتبعاته؛ حتى لا نخرج من أزمة إلى أزمة، ومن حيرة إلى أخرى.

وفي الختام أود أن أقول: إن وجود الصراع شيء طبيعي، ودليل حيوية المرء، ورهافة إحساسه، ما دام ذلك الصراع تحت السيطرة، وما دمنا نعرف كيف نديره إن لم نعرف كيف نحسم أمره.

٧ـ كافئ نفسك:

العيش في الزمان الصعب، يتطلب أن نحسِّن كلّ شيء في حياتنا، وهذا القدر الهائل المطلوب من التحسين، لا يمكن أن يتم دون مضاعفة الجهود، ودون الكثير من الضغط على النفس، ودون المزيد من التنظيم وتأجيل الرغبات... وهذا كله يعني زيادة أعبائنا النفسية.

مهما كان أحدنا قوي الشكيمة، ماضي العزيمة، فإن لتحمله في النهاية حدوداً. وعدم الانتباه لتلك الحدود، قد يفضي إلى أن ننفض أيدينا في النهاية من كل برامج التطوير والتحسين. وقد يفضي إلى أن نعمل كثيراً، وننتج قليلاً، وذلك عندما يجثم الملل والسأم على صدورنا، وعندما لا نستمتع ببعض ثمار الجهود المضنية التي نبذلها. وليس المقصود من مكافأة النفس المساعدة على تحمل الضغوط النفسية فحسب، وإنما إيجاد بيئة تساعد على تغيير العادات والاتجاهات

الفرعية التي نرغب في التخلي عنها؛ فالوقت المملوء بالجد والمهام يقوِّض مقدرتنا على التطور، ويضعف من استجابتنا لدواعيه؛ لذا كان لا بد من أن يبتدع كل منا نظاماً يكافئ من خلاله نفسه كيما يستطيع الاستمرار والنمو على الوجه المطلوب. ونقترح في مكافأة النفس ما يلي:

ـ لا ريب في أن **مكافأة النفس** حتى تؤتي ثمارها، ينبغي أن تكون **(مشروعة)**، ولا بد كذلك أن تكون (آمنة) لاتسبب حدوث مشكلات شخصية أو اجتماعية، فالذي يكافئ نفسه بتناول بعض الوجبات الشهية المؤذية لصحته، يكون قد اختار المكافأة الخاطئة. والذي يكافئ نفسه بالسفر مع أصدقائه؛ مما يسبب له مشكلات عائلية، يكون قد فعل مثل ذلك.

ـ لا بد لمكافأة النفس حتى تؤدي وظيفتها من أن تكون **(ممتعة)**. ويمكن إلى جانب ذلك أن نتخذ منها عنصر هدم لبعض العادات السيئة، أو عامل تعويض عن أشياء، نشعر بالعوز إليها؛ وعلى سبيل المثال فإن أحسن مكافأة لمن تعوَّد أن يعمل وهو متوتر أن يعِد نفسه بساعة هادئة، يسترخي فيها. وأحسن مكافأة لمن تعود أن يقوم عن الطعام بسرعة أن يعِد نفسه بالبقاء دقائق إضافية على الإفطار، كما أن المكافأة المفضلة لمن تعوَّد مواصلة العمل الكثيف، أن ينظم لنفسه رحلة أو إجازة، وهكذا...

ـ لنستخدم المكافآت للقيام بالأعمال غير المحببة، فإذا كانت (القراءة) ثقيلة على نفسي فإنه سيكون بإمكاني أن أعد نفسي بنصف ساعة راحة بعد كل ساعتين أقرأ فيهما. ويمكن أن أعد نفسي بزيارة لأحد الأقرباء، أو بنزهة قصيرة عند إتمام قراءة الكتاب الفلاني.. إننا بذلك نمارس نوعاً من الحيلة على أنفسنا، كما يفعل صانعو الدواء حين يضيفون إلى المادة الفعالة فيه شيئاً حلواً، يجعل تناولها مستساغاً.

ـ **المكافأة الفعالة**، هي التي تأتي بعد إنجاز العمل مباشرة، وإلا فإنها تفقد قيمتها على الحث، وقدرتها على كسر الحواجز والعوائق النفسية. بعض الناس لا يتأخر في مكافأة نفسه، وإنما يماطل أيضاً، وقد يخلف الوعد الذي قطعه على

نفسه، مما يقلل من حجم الاستجابة للمكافآت الموعودة في المستقبل.

ـ التنويع في مكافأة النفس أمر مطلوب، إذ إنّ الإنسان مَلُول بطبعه، ومهما كان نوع المكافأة محبباً، وأثيراً لدى النفس، فإن تكراره يجعله باهتاً في النهاية، وغير ذي معنى؛ لذا فالمكافأة قد تكون أحياناً بتناول وجبة شهية، أو التحدث في الهاتف مع صديق، أو في أخذ إجازة، أو شراء شيء جميل...

ـ الاستراحات أثناء العمل مهمة جداً لإبعاد الإجهاد والسأم، فإذا جعل المرء العشر دقائق الأخيرة من كل ساعة عمل للاستراحة، وكسر الرتابة، فإنه سيجدد نشاطه، ويستعيد حيويته، وينطلق بروح جديدة.

إنّ المهم دائماً ليس أن نعمل كثيراً، ولكن أن ننتج كثيراً، وأن نحافظ مع العمل الكثيف على حيويتنا، وعلى قدرتنا على الاستمرار مدة طويلة، وذلك لايكون إلا من خلال الاستراحات القصيرة والطويلة...

٨ـ السيطرة على الانفعالات:

المواقف والأشياء والتصرفات والصور والذكريات... التي تحرك انفعالاتنا لا تكاد تحصى، ولا تكاد تنقطع في أوقات اليقظة. والانفعالات منها ما هو إيجابي، مثل الحب والإعجاب والاحترام والاهتمام بالفضائل... ومنها ما هو سلبي، مثل الخوف والبغض والغضب والرغبة في الانتقام... وقد أوجد البارئ ـ جل وعلا ـ هذه الانفعالات في النفس البشرية من أجل حمايتها وتوازنها، وبعث الحيوية فيها؛ فدورها الأساسي إيجابي، لكن إذا تجاوز أي منها حدود (السواء) فإنه يتحول إلى عامل سلبي، قد يهدم الشخصية كلها.

هناك ما يشبه الاتفاق على أنه لا ينبغي إصدار أحكام أخلاقية على الانفعالات، فالإحساس بها، مثل الإحساس بالبرد أو الخمول، لكن الذي يتوجه إليه الحكم الأخلاقي، هو (السلوك) أو التعبير عن تلك الأحاسيس والعواطف.

إنّ اعتقاد المسلم بأن كل ما يصيبه من مصائب ومكدرات بقضاء الله وقدره، واعتقاده بأن ما يأتيه من خير وفوز ما هو إلا شيء مؤقت وزائل، وأن

المصائب يجب أن تقابل بالصبر، والنعم بالشكر، إنّ كلّ ذلك يمنح شخصيته درجة عالية من التوازن والتماسك، وقد قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

التخلق بأخلاق القرآن والاهتداء بهديه، يجعل ما بداخل الإنسان أعلى وأقوى من طوارئ الأحداث وانعكاساتها الشعورية المختلفة، وهذا ما نلمسه في شخص النبي ﷺ وسلوكه وتعامله؛ فحين دخل مكة فاتحاً دخلها وقد ألصق صدره بمقدمة رحله تواضعاً وإخباتاً وشكراً لله ـ تعالى ـ على نعمة الفتح. ويقول خادمه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: «خدمت رسول الله عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قطُّ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلت كذا؟ ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا». وفي رواية: «خدمت رسول الله ﷺ فما دريت شيئاً وافقه ولا شيئاً خالفه رضيَ من الله بما كان».

مشكلة الانفعالات أنها حين تتجاوز الحدود الطبيعية، تسبب للمرء عدداً من المشكلات، منها أن الميل الشديد إلى أمر من الأمور، كالنفور الشديد منه، يشوش رؤيتنا للخيارات المتعلقة به، والظروف المحيطة به، والمآلات التي قد يفضي إليها، واتخاذ قرار بشأنه؛ إذ من النادر أن نتمكن من إصدار أحكام عقلية منطقية وموزونة في حالة طغيان الانفعال الإيجابي أو السلبي، فالانحياز، هو سيد الموقف:

وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلة كما أنّ عين السخط تُبْدي المساويا

وإلى جانب هذا فإن الانفعالات القوية، تفسد كثيراً من العلاقات بين الناس، ففي حالة الحب أو الخوف الشديد، يشعر الطرف الآخر في العلاقة بعدم التكافؤ. وفي حالة الغضب، يشعر بأن علاقته مع رجل أحمق كانت غلطاً...

والانفعالات الشديدة ـ بعد هذا وذاك ـ أقوى معول يمكن أن يهدم (الإرادة)

ويشوه تجلياتها في السلوك، مما يوجب على الواحد منا أن يتعلم بعض الطرق التي تمكنه من التعامل الجيد مع انفعالاته.

كيف نسيطر على الانفعالات؟:

إننا حين نحاول السيطرة على انفعالاتنا، نكون قد شرعنا في استعادة **التوازن بين العقلانية والعواطف**. ومعنى هذا أن السيطرة على العواطف لا تعني كبتها، والتخلص منها، وإنما إيقافها عند حدود معينة، بحيث لا تؤثر على المحاكمة العقلية والموقف العقلاني للشخص. ولعل مما يساعدنا على السيطرة على الانفعال ما يلي:

ـ أول خطوة على طريق السيطرة على الانفعال، تتمثل في **الاعتراف به**، وإدخاله في منطقة الوعي، إذ إننا كثيراً ما نكون غافلين عن انفعالاتنا، وانفعالات غيرنا، فالخوف والإحباط والغضب الشديد والحب الشديد، يمكن لكلٍّ واحدٍ منها أن يُلم بنا في أي وقت، ويبدأ في التأثير في سلوكنا دون إدراك منا لما يحدث. وربما شاهد جليسي علامات الغضب أو الميل المبالغ فيه على حركاتي وأقوالي، وأنا غافل عنها تماماً. حين أمتدح كل شيء في حياة شخص ما، وأحاول أن أدافع عن جميع تصرفاته، وحين أحاول تفسير أخطائه تفسيراً يخالفني فيه من حولي...

فإنَّ كلّ ذلك دليل على أن ميلي إليه، قد خرج عن حد المألوف، وبات علي أن أعيد الأمر إلى نصابه. وفي المقابل، فإني حين أشعر في موقف من المواقف بتقلصات في معدتي، أو أجد أن راحتيّ نديتان أو أن عضلات فكي منقبضة، أو قمت بتجميع قبضتي، أو بت أقبض على الأشياء بإحكام، أو أرفع صوتي، وأتوسع في مقاطعة محدثي... فهذا دليل واضح على أن **انفعال الغضب**، قد تملكني، وصار من الضروري عمل أي شيء للحد منه.

ـ لنحاول في حالة طغيان نوع من الانفعال تذكُّر الصور والمواقف والخصائص المضادة للحالة التي نحن فيها؛ ففي حالة **الانزعاج** من مصيبة، حلّت بأحدنا؛ فإن عليه أن يتذكَّر مقدار ما متّعه الله ـ تعالى ـ به من السلامة

والعافية في الأيام الماضية، وأن يتذكر أيضاً الشيء الكثير الذي بقي له بعدها: «إن أخذ فقد أبقى».

كما أن عليه أن يتذكر المثوبة التي تنتظر الصابرين المحتسبين، والعواقب الحسنة التي يمكن أن تنتج عنها. في حالة الحبّ الشديد يتذكر الإنسان سلبيات من يميل إليه، ويكيل له المدائح.

وحين تسيطر على المرء مشاعر **الإحباط** واليأس والإخفاق، فعليه أن يتذكر **الأحداث السارة** في حياته، والنجاحات التي حققها، وأن يقارن نفسه بمن دونه حتى يستشعر الخير الذي هو فيه. في حالة **الحقد** الشديد على شيء، أو التقزز منه، أو الاستخفاف به، فإن علينا أن نتذكر ما عسى أن يكون له من **ميزات وخصائص مشرقة** وفضائل، وذلك حتى نوجد **مشاعر جديدة**، تخفف من حدة المشاعر السلبية.

ويذكرون في هذا السياق أنّ عيسى ـ عليه السلام ـ مرّ مع نفر من أصحابه على شاة ميتة، فجعلوا يتحدثون عن قبح منظرها ونتن رائحتها. . . فقال لهم: لم يذكر أحد منكم أن أسنانها شديدة البياض! . حين نبحث عن **منظور** جديد للأشياء، فإننا سنؤثّر في **انفعالاتنا** على نحو ما.

ـ سيكون من المفيد في هذا الشأن أن نحاول الخروج من فلك **الانفعال** بتغيير الوضعية، والحيلولة دون انعكاسه على السلوك. في حالة **الغضب** ـ مثلاً ـ يطلب من الغضبان أن يصير إلى وضعية تحول بينه وبين الانتقام؛ وقد ورد في الحديث الشريف: «إذا غضب أحدكم وهو قائم، فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع».

ومن تغيير الوضعية أيضاً اللجوء إلى السكوت باعتباره نوعاً من إيقاف الغضب عند حده. وفي الحديث: «إذا غضب أحدكم **فليسكت**» قالها ثلاثاً.

كما أن الوضوء والغسل، مما ينصح به في حالة الغضب كذلك، وقد ورد في الحديث: «إذا غضب أحدكم **فليتوضأ**». ويمكن للغضبان أن يغادر المكان، أو يغير مجرى الحديث الذي أثار غضبه، وهكذا. . .

ـ المعالجة العقلية ذات أثر جيد في السيطرة على الانفعالات، فبعض ردود أفعالنا الانفعالية ليس غريزياً، ولكنه عادات أخذناها عن أسرنا وأصدقائنا، حيث تعلم الكثيرون منا ـ عندما كانوا أطفالاً ـ أن الثورات الانفعالية، توجّه إليهم الانتباه، أو أنها أسلوب مفهوم ومقبول للتعبير عن الغضب وخيبة الأمل. ولعلهم يحملون معهم إلى سن الرشد الاعتقاد الضمني بأنهم يحصلون على ما يريدون إذا كانوا حادِّي المزاج، يصرخون، ويضربون الأرض بأرجلهم، ويَصْفُقون الأبواب. . .

ويعتقد كثيرون أيضاً أن رفع الصوت والظهور بمظهر الضعف سيجعلهم يربحون قضيتهم مع خصومهم؛ وكأن الانفعالات الحادة، صارت وسيلة ابتزاز وقهر للحصول على أشياء غير مشروعة؛ لكن هؤلاء ينسون أن الاتكال على هذا الأسلوب، يجعل صاحبه يظهر بمظهر الضعيف والأحمق الذي لا ينبغي أن يلتفت إليه؛ كما أنه على المدى الطويل، يفقد قيمته في تغيير آراء الآخرين، وكسب عواطفهم. وقد يتسبب هذا الأسلوب في تحقيق بعض المكاسب الآنية، لكنه على المدى الطويل، يترك انطباعات سيئة، لاتخدم مصالح صاحبه.

على المجتمع أن يحرم الذين تعودوا الانفعال المصطنع من قطف ما يرمون إليه من ثمار وأن يتجاهل ذلك بغية الحد منه.

ـ لنشاور غيرنا في الموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه الأمر الذي سبَّب لنا انفعالاً حاداً، إيجابياً كان أم سلبياً؛ فالكثير من الخطأ يكمن في هذه الحالة في التصرف المنفرد. وإذا تعود الإنسان أن يشاور غيره؛ فإنه يربح من غير وجه، حيث إنه قد نجح في تأخير اتخاذ قرار في حالة انفعالية، مما يعني تأخير المواجهة، ومنح النفس فرصة جديدة. ثم إن المشاورة تجعلنا نرى الأشياء من زاوية جديدة، وذلك يجعل مواقفنا وقراراتنا أكثر حكمة واتزاناً. واعتياد المشاورة بعد هذا وذاك، يعني أننا نعطي الأمور الصعبة ما تستحقه من الوقت والاهتمام، وفي ذلك خير كثير.

ـ عصرنا عصر الضغوط والمطالب المتزايدة؛ والجملة العصبية لدى كل واحد منا لها في النهاية طاقة محدودة على التحمل؛ ولذا فإن المتوقع أن ترتفع وتيرة الانفعالات المختلفة لدينا، وهذا يفرض علينا أن نتعلم كيف نخفف عن أنفسنا الضغوط. والحقيقة أن ذلك يحتاج إلى نوع من إعادة البرمجة الشخصية، كما يتطلب أن نستخدم ما لدينا من خيال وإرادة في تحسين قدرتنا على المقاومة. ونحن بحاجة إلى جانب هذا إلى أن ندرب أنفسنا على (الاسترخاء) وإلى تخطيط أعمالنا بطريقة أكثر كفاءة، حتى نقلل من المفاجآت غير السارة، كما أننا محتاجون إلى المحافظة على صحتنا الجسدية، والترفيه عن أنفسنا في إطار من المشروعية والاعتدال.

أضف إلى هذا حاجتنا إلى أن نملك الشجاعة على رفض الالتزام بأعباء لا نستطيع القيام بها، والابتعاد عن الأشخاص الذين تُشعرنا وضعيتهم العامة بالإحباط.

وبعد؛ فإن السيطرة على الانفعالات، لا تعني كبتها، ولكن تعني حسن التعبير عنها، وحسن تجسيدها في سلوكاتنا. والله الموفق والمعين.





الباب الرابع

العيش في الزمان الصعب

البعد الخلقي والبعد البدني وإدارة شؤون العيش

الفصل

تلك ال
جداً، و
و
وهـذا
رَبِّيٓ وَمَآ أ
هـ
محورياً
لكن (ال
الماضي
وبسبب
صار الإ
إلى الطا
الوعي أو
الخطط و
وا

الفصل الأول

تجديد البعد الخلقي

القاعدة الروحية الخلقية:

إذا صح القول: إن الذات الإنسانية طبقات، بعضها فوق بعض، فإن أعمق تلك الطبقات هي طبقة (الروح) ذلك البعد الفسيح المدى، الشفّاف جداً، والمبهم جداً، والمهم جداً.

ويبدو أن البشرية ستغادر هذه المعمورة دون أن تقف على حقيقة الروح، وهذا ما نلمسه من قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

هذا الجانب من شخصية الإنسان، كان يحتل على مدار التاريخ مركزاً محورياً في حياة الناس، وهذا واضح جداً في كثير من النصوص القرآنية والنبوية، لكن (الروح) في العصور الحديثة فقدت الكثير من الأرض التي ربحتها في الماضي، وصار يُنظر إلى كثير من قضاياها على أنه نوع من الخرافة والوهم. وبسبب من التوجه العلمي والفكري العام الذي ينشره الغرب في أنحاء المعمورة، صار الإنسان الحديث، يَقْبل دون جدل أن الاهتمام الأساسي، ينبغي أن يوجَّه إلى الطاقة والمادة المعروفتين، وصار يُعبّر عن الروح في كثير من المراجع بأنها الوعي أو الصورة الذهنية للمدركات أو المعنى... وهذا كله أدى إلى تواري الخطط والتنظيمات التي تدعم الجوانب الروحية والخلقية في معظم الأحيان.

وإذا كان هذا مفهوماً في أمم وشعوب يغلب عليها الإلحاد، فإنه ليس

مفهوماً ولا مقبولاً في أمة تعطي عقيدتُها الأولويَّة للبناء الروحي والقِيَمي والسلوكي، وتعد الانتصار على صعيده، هو الانتصار الحقيقي!.

من الواضح أن الحضارة المادية الحديثة، قد قدمت كل رهاناتها للإنتاج الصناعي والارتقاء المادي، وحين تتناقص إمكانات النمو المادي ـ وهذا شيء قادم لا محالة ـ فإن الإنسان سوف يلجأ إلى الروح مرة أخرى؛ ليستمد منها طاقة الإبداع والتكيّف مع الظروف الجديدة، لكنه سوف يجد أنه قد هدم كل المنابع الثرّة التي يمكن أن يرتوي منها، وسيجد نفسه آنذاك مفلساً من المادة والروح معاً!.

إن القاعدة الروحية الأخلاقية في أي مجتمع هي التي تتحمل الأثقال التي تتولد من طبيعة الحياة المادية والاجتماعية، وعن الانتكاسات التي تصاب بها الأمة في ميادين الحياة المختلفة. وحين خُطط لهذه الأمة أن تجعل القيم الأخلاقية والروحية في مرتبة متدنية من اهتماماتها، أخذت أخلاقها وقيمها في التراجع، كما فقدت الكثير من شفافيتها حين واجهت ضائقات العيش وشحّ الموارد، حيث لم يجد كثير من الناس السند الأخلاقي الذي يساعدهم على الصمود في وجه المغريات والمحفزات على الانحدار.

الحضارة الإسلامية كانت غنية في جميع جوانبها، لكن الذي كان يميزها عن غيرها ذلك الطابع الروحي الأخلاقي الذي كان يسربل كل الأنشطة الحضارية. والحقيقة أن الجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام، تنبع على نحو أساسي من طابع الاستقامة والنبل والتضحية والصفاء والتضامن الأهلي الذي كان يطبع الحياة العامة، وليس من التفوق في الحروب أو العلوم أو العمران.

قد آن لنا أن ندرك أنه لن يكون بإمكان أفضل النظم الاجتماعية، ولا في إمكان أقسى العقوبات الصارمة أن تقوِّم الاعوجاج، ولا أن تملأ الفراغ الناشئ من ذبول الروح وانحطاط القيم، فالعقوبات لا تنشئ مجتمعاً، لكنها تحميه. والنظم مهما كانت محكَمة ومتقَنة لن تحول دون تجاوز الإنسان لها، وتأويلها على نحوٍ يفرغها من جلِّ مضامينها؛ وكل الحضارات المندثرة، تركت تنظيماتها

وأدوات ضبطها خلفها شاهدةً على نفسها بالعجز والعقم.

المنظومة الروحية والخلقية بعد هذا وذاك، هي التي تضبط سلوك الفرد من الداخل، حيث المساحات الشاسعة التي تعجز عن تغطيتها النظم والأعراف والتقاليد... ومن ثم فإن وظيفة **(الخلق الكريم)** أنْ يردع أصحابه عن استغلال مساحات **(الفراغ القانوني)** على وجه سيِّئ، يضر بالفرد نفسه أو بمجتمعه. إن الحالة الروحية الخلقية، هي المرآة التي تنعكس عليها عقيدة المجتمع وظروفه وأوضاعه العامة، ومن ثم فكما أن الأخلاق السامية، تساعد المجتمع على تجاوز الكثير من محنه، فإن أزمات المجتمع الفكرية والسياسية والاقتصادية...، وما يتحصل منها من وعي المجتمع بذاته، تنعكس بصورة واضحة على أخلاق الناس، وتعيد ترتيب سلم القيم لديهم.

حين يصاب مجتمع بالشلل الأخلاقي، فإنه يفقد فاعليته العقلية والاجتماعية مع أن إمكاناته الحضارية قد تكون في نمو وتوسع، إلا أن إرادته الحضارية تكون مكبَّلة بالأهواء والشهوات والمطامع الشخصية، وهذه الحالة تستفحل اليوم في طول العالم وعرضه: المزيد من القوة وتعاظم القدرة، إلى جانب المزيد من ضعف الإرداة والمبادرة!.

إن نواة القاعدة القِيمِيَّة الأخلاقية، تتمثل في **شفافية روحية** تمنح حياة الفرد معنى جديداً، وتصبغ أنشطته كلها بصباغها، وهذه الشفافية، تستمد كينونتها من معين الإيمان بالله ـ جل وعلا ـ والصلة به، وإن الشفافية الفطرية التي يتمتع بها بعض الناس تظل مهددة بقتامة المعاصي، والقلق على المصير، وأوضار النزعة المادية؛ وهذا يعني أن الإيمان العميق والمصحوب بالالتزام بالسلوك الإسلامي يشكل الضمانة الأساسية لاستمرار التألق الروحي الفطري، والمكتسب من خلال الأنشطة العبادية المختلفة.

إن عماد الشفافية الروحية، هو حب الله ـ تعالى ـ الذي يستحق وحده كمال المحبة، فهو المتصف بجميع صفات الكمال، المنزَّه عن جميع صفات النقصان، وهو الذي أسدى الخير، وتكرَّم على عباده بما لا يحصى من النعماء: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا

نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

هذه المحبة، لا تتحقق في فراغ، ولا ينفع فيها الادّعاء المجرد، وإنما هي إجلال لله ـ تعالى ـ ورجاء لما عنده، وخوف من عواقب المعاصي والمخالفات، إنها **استجابات وجدانية وسلوكية لمحبوبات الله** من الأقوال والأحوال والأعمال، قال ـ سبحانه ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

وتلك الاستجابات هي الطريق إلى محبة الله ـ تعالى ـ لعبده، وحين تحصل تلك المحبة، فإن أخلاق العبد كلها تتغير، كما أن حياته كلها تمسي مغمورة بلطف الله ورضاه وتوفيقه على نحو ما ورد في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

الإشراق الروحي شديد الحساسية، فلا بد من مراعاته وتعاهده في إطار من الشريعة السمحة وآدابها على الصعيد الشخصي والاجتماعي، وبذلك وحده تتأسس القواعد القيمية كلها، وتولد إمكانات التجديد الخلقي. **إن أعظم المعارك يتم خوضها وحسمها في حجرات صامتة داخل الروح**، ففيها تصنع الانتصارات والهزائم الكبرى، وأساس النجاحات الشخصية هو نجاح روحي في المقام الأول.

خلق وسلوك جديدان:

لم يكن العيش في زماننا صعباً إلا لأنه عصر الأزمات والمشكلات؛ فمع وجود الوفرة في أشياء كثيرة هناك شح متزايد في الموارد وفرص العمل، مما يتطلب من المسلم الذي ينبغي أن يعيش عصره باستقامة وكفاءة أن يكون على استعداد للتجديد في أخلاقه وسلوكاته وعاداته. ولا يعني هذا ـ بالطبع ـ أن لكل زمان

أخلاقه الخاصة، وإنما يعني نوعاً من التركيز على بعض المفاهيم والمفردات الأخلاقية والسلوكية التي تساعد على الاستجابة لتحديات العصر، في إطار من الثوابت والقيم الإسلامية العتيدة.

ولعلي أنوّه إلى أن كل ما سنذكره، وما ذكرناه عن تحسين اللياقة الشخصية، وعن تحسين العلاقات مع الناس، وعن التأثير في الآخرين... إن كل ذلك يوزن بمقصد المرء ونيته، فكل أشكال القوة والنفوذ والكفاءة، يمكن أن تسخَّر في **نصرة الحق وإشاعة الخير**، كما يمكن أن تستخدم في **البغي والعدوان وتحقيق أهداف غير مشروعة**. وعقيدة المسلم تدفعه في أكثر الأحيان إلى أن يحاول تحقيق مصالحه في إطار من قيمه ومبادئه، كما تدفعه إلى توخي العدل وإحقاق الحق، ونشر الخير بين الناس، وهذا هو بالضبط ما تتطلبه المواجهة الجيدة للصعوبات التي نواجهها على مستوى الفرد، وعلى مستوى الجماعة. ونحن لا نستطيع أن نتحدث هنا عن كل نواحي التجديد الخلقي والسلوكي، فلنقتصر إذن على ما نراه أكثر أهمية من خلال النقاط التالية:

١ ـ التمسك بالسُّنَّة:

النبي ﷺ هو النموذج الذي على المسلمين أن يحاولوا تقليده في جميع شؤون حياته، مما لم يفعله بحكم بشريته، ومما ليس من خصائصه. وكتب السنَّة صوَّرت لنا هديه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على نحو تام. ومما هو ملموس في ذلك الهدي صلابة في الحق لا تعرف الملاينة، وخروج من حظوظ النفس لا حدود له، والسير على هدي القرآن الكريم في كل كبيرة وصغيرة. التمسك بالسنَّة لا يعني الجنوح إلى ما هو أكمل وأجمل في جميع أنشطة الحياة ومواقفها فحسب، وإنما يعني أمرين إضافيين:

الأول: هو تعويد المسلم نفسه، وتمرينها على أن تحيا دائماً في حالة من الوعي الداخلي، والانضباط الذاتي؛ فالتزام المرء بالسنَّة يعني حضور نيته الطيبة في مختلف المواقف والأعمال، وتسليط الوعي على حركته اليومية، فلا تزيغ به الأهواء، ولا تحرفه الضغوط الحياتية؛ ويتنسم في الوقت نفسه عبير الاستقامة.

الثـاني: **تعظيم الذات الاجتمـاعية**، بما يضفي عليها التمسك بالسنَّة من التجانس والتآلف، فيظهر الناس في سلوكاتهم ومعاملاتهم وكأنهم متشبعون بـروح واحدة، وخاضعون لنظام واحد، وهذا كله يسهل الحركة الاجتماعية، ويحسِّن نوعية العلاقات بين الناس، بالإضافة إلى تأسيسه أعرافاً صالحة تؤطر الأنشطة اليومية.

٢ ـ تجسيد المبادئ الأخلاقية:

لاتفتخر أمة من الأمم بانعدام الأخلاق لديها، كما أنه ليس هناك من يخطط لتدمير المنظومة الخلقية لديه، لكن الذي يحدث دائماً أن الناس في غمرة تطلعهم إلى تحسين أوضاعهم، قد يقفون بعض المواقف التي قد تؤدي إلى تحقيق بعض مصالحهم على حساب بعض مبادئهم، أو التي تؤدي إلى إيجاد ظروف جديدة، لا يكون للأخلاق تأثير توجيهي فيها.

والمعروف أن كل مبدأ أو هدف لا يتحقق يتحول إلى شعار، ثم إلى نوع من اللغو، ثم إلى وسيلة خداع للأغرار... والضمانة الأساسية لعدم حدوث ذلك، هي محاولة تجسيد ما نؤمن به من قيم ومبادئ في أطر وسلوكات محددة؛ فالذي يماطل في **الصدقة** بإمكانه أن يرتب على نفسه مبلغاً من المال يدفعه كل أسبوع إلى أحـد المحتـاجين. والمهمـل في **زيـارة أرحامه** يقوم بترتيب موعد أسبوعي أو شـهري ـ بحسب الحال ـ لزيارة أرحامـه ووصلهم. وحين يشعر المرء بفضل **إغاثة الملهوف**، يحاول مساعدة هيئـة خيرية أو إغـاثية من خلال التطوع في بعض أنشطتها. والذي يقدِّر قيمة القرض الحسن في تفريج الكروب عن المسلمين، يعزل من ماله مبلغاً، ويخصصه لإقراض من يحتـاج إليه من إخوانه، وهكذا...

هذا التجسـيد لما نؤمن به من قيم ومبادئ هو الدليل على اختلاط مبادئنـا بدمائنا ولحومنا، كما أنه الدليل على أن معتقداتنا لا ترسـم الفضاء النظري لنـا فحسب، وإنما تمارس الحثَّ والكفَّ، وتصوغ مفردات أنشطتنا اليومية أيضاً. إن كثرة الكلام لدينا وقلة الأنشطة، تعود إلى قصور آخر في حياتنا الاجتماعية،

هـو ضعف التقاليد الثقافيـة التي تمجد **الروح العملية الصامتة**، فالوجاهة عندنا دائماً للأقدر على الكلام! أضف إلى هذا أن المؤسسات الخيرية التي بإمكانها استيعاب الأنشطة الطوعية لكثير من الخيِّرين محدودة جداً في عالمنا الإسلامي، مع أنه ليس لدى أمة من الأدبيات والتعاليم التي تشجع على الإحسان والمشاركة الاجتماعية كالذي لدى أمتنا!.

٣ـ نحو أخلاق شفيفة:

إن مظاهر التحضر، وأشكال الرقة واللطف والدماثة في التعامل، ما هي في الحقيقة سوى قشرة حضارية رقيقة، يكمن تحتها وحش متوثب، ومستعد للافتراس متى ما حانت الفرصة، أو اقتضت المصلحة ذلك . . .

وإذا أَجَلْنا النظر في أحوال معظم الشعوب النـامية، وجدنـا أن التعانـف والتحارب الأهلي، واللجوء إلى حل المشكلات عن طريق الغلبة والقوة الضاربة ـ هو الطابع الذي يطبع تصرفات كثير من الناس وعلاقاتهم؛ فالأخلاق الجميلـة السـهلة المسـالمة مازالت في منأى عن الحركة اليومية لكثير من الناس، بل إن الانفجار الأخلاقي يمكن أن يحدث فـي أي وقت.

والسبب في ذلك هو ضعف العناية بالشفافية الأخلاقية وضعف تركيز المؤسسات والمناهج التربوية عليها، مع أن رصيدنا من النصوص والتوجيهات في هذا الباب كبير جداً.

الحروب المحلية المستعرة بين أبناء البلد الواحد في أكثر من مكان من العالم الإسلامي، هي ثمرة لفقد تلك الشفافية، وهي سبب للقضاء على البقية الباقية منها[١].

إن المسلم بحاجة اليوم أن يبني حول نفسه من خلال **التثقف والمجاهدة** خطوط دفـاع أولية، تحول بينه وبين السـلوك الهمجي الذي يتجسَّد في مقاتلته

---

(١) في دوائر البناء الحضاري كثيراً ما تكون النتيجة مقدمة إذا نظرت إليها من زاوية ثانية، على نحو ما نجده من العلاقة بين الفقر والمرض.

لأخيه المسلم، والتي تحول دون العدوان على الممتلكات والحقوق العامة.

إن لدينا الكثير من النصوص الصحيحة التي تبني تلك الخطوط المتقدمة، مما يكفي لجعل المسلم يتحرج من إيذاء هرة، أو قطع شجرة، أو رمي شيء من النفاية في الطريق... وهذا كله يشكل في النهاية بُنية نفسية وثقافية عميقة وخيّرة، تشيّد ولا تهدم، وترحم ولا تشمت، وتعطي أكثر مما تأخذ.

وتأمَّل معي ما يمكن أن يحصل عليه المسلم حين يتخلَّق بما تشعُّه بعض النصوص من رهافة الحسِّ، والدقة في التصرف، والانضباط الذاتي، على نحو ما نجده في الأحاديث الصحيحة التالية:

- «إذا قال المسلم لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه».

- «لَعْنُ المسلم كقتله».

- «لا يُشِرْ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لايدري لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار».

- «عُذِّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها، ولا هي سقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

- «ما من مسلم غرس غرساً، فأكل منه إنسان أودابة إلا كان له صدقة».

وقد ثبت بالإضافة إلى كل ما سبق نهيه ﷺ عن سبّ **(الحمّى)** وعن سبّ **(الريح)**، كما ثبت نهيه عن البول والتغوط في الماء الراكد، وفي طريق الناس، وأماكن استظلالهم.

إن كثيراً من المسلمين اليوم يعرِّض سمعة الإسلام الدولية لسوء الفهم، بل للأحكام الجائرة والحرب السافرة من خلال الصور الشائنة التي يتيحونها لوسائل الإعلام العالمية دون أي إحساس بالمسؤولية!.

إن المسلم حين يطرز حياته بآداب الشريعة، يقدم أرقى صورة يمكن أن

يتطلع إليها إنســان هذا العصر، ويمكن أن تكون نموذجـاً فذاً لما ينبغي أن يكـون عليـه (**المواطن العالمي**) الحديـث من خُلُق وسلوك.

٤ ـ التأبِّي الخلقي:

تُثبت الأحداث يوماً بعد يوم أن البُنية الخُلُقية على درجة عالية من الهشاشة، فهي لارتباطها بالثقافة والسياسة، والظروف المعيشية المختلفة، تتسربل بالليونة والمرونـة، ومن ثم فـإن إمكانـات ضمورهـا وتدهورهـا تظل حاضـرة، من خلال التحويرات والتأويلات التي تجتاحها. الشعور بالاغتراب هو الآخر يحمّل أخلاقنا وأرواحنا أعباء ثقيلة، تنوء بها.

إن الذي ينظر في سِـيَر العظماء يجد أنهم دائماً يملكـون طاقة كبرى على التميز والتـأبي على الانجراف في التيـار، والامتناع عن الخضوع للحدود التي ترسمها المعطيات السياسية والاقتصادية، وبالتالي فإنهم يندفعون دائماً نحو مستقبل مفتوح. **إن التأبي الخلقي**، يعني تجاوز الدلائل الزائفة القائمة على جاه مصطنع، وحفنـة من مال، وشـيء من متـاع، والتي تراوح فيها المجتمعات، وترهن كل إمكانات تفتحها لديها.

التأبي الخلقي يعني أن ننمي ببطء القدرة على ترميز القيم السائدة، حيث نكف عن رؤية الأشياء في ضوء المعايير القائمة، ونصير إلى طرح أسئلة جديدة عن معنى الحياة عامة، وعن معنى حياتنا خاصة. وسيعني هذا بالطبع سباحة ضد التيار، كما يعني وقوع بعض الخسائر الشخصية، لكن العواقب تستحق التضحية.

إن (**الحرية**) ليست ذات بنية ثورية، وإنما هي **ثمرة النضج البطيء** الذي نحرزه على صعيد تقويتنا لإراداتنا، وعلى صعيد فهمنا لواجباتنا ومسؤولياتنا. والتأبي يحتاج في أول ما يحتاج إلى **الشعور بالتحرر الداخلي** من استعباد الملذات والمطامع الصغيرة؛ وعلى مقدار ما نحصل عليه من ذلك نتمكن من إيجاد صياغة جديدة لعلاقاتنـا بما حولنا، وصيـاغة رؤية جديدة للحاضر والمستقبل. وهذا وحده هو الذي يمكن أن يسمى **تقدماً أخلاقياً**.

إن ارتباط المسلم **بالمنهج الرباني** الأقوم، يعني دائماً الارتباط بثوابت تشده إلى عالم المثل والقيم، وهو عالم مرتبط بكل الأزمنة، كما أنه مرتبط بالجوهر الإنساني الأعمق، وذلك كاف لإغلاق العديد من أبواب الخضوع لأحكام البيئة ومقتضيات العيش الصعب.

٥ ـ لياقة خلقية:

مهما ضاقت الأحوال، وتأزمت الأمور، فإن انعكاساتها على المنظومة الخلقية، هي الأهم؛ فالانتصارات والهزائم، وحالات الرخاء والشدة، تظل هامشية ما **لم تعمِّق مدلولاتها في أخلاقنا ونفوسنا وعلاقاتنا**... والعيش في الزمان الصعب، لا يتطلب ـ كما قد يتوهم ـ المزيد من الحرص والمزيد من الدوران في فلك المصالح الشخصية، فذاك يعقِّد الأمور، ويكدِّر صفو الجميع، وإنما يتطلب أن نحرص على بعض الآداب والأخلاق التي تجعل كل واحد منا **لائقاً في نظر غيره**، وهذه اللياقة ينبغي أن تتمحور حول الإحسان والمودة والمشاركة إلى جانب الإيحاء بالقوة والانضباط والقدرة على الريادة وتحمُّل المسؤولية، وما إلى ذلك من الأخلاق الإيجابية.

وإنما نقول ذلك؛ لأن المرء حين يشع هذه المعاني في الوسط الذي يعيش فيه، يؤكد للناس الذين حوله إمكانية النجاة من الانعكاسات السيئة للأزمات الاقتصادية والسياسية والبيئية التي يمر بها سكان هذا الكوكب اليوم. وحين لا نتمكن من ذلك على نطاق مقبول، فإن علينا أن نتوقع الدخول في **(دورات أخلاقية)** كالدورات الاقتصادية، وفي هذا من الإهانة لكرامة الإنسان الكثير.

وأود هنا أن أشير إلى بعض ما يشكّل اللياقة الخلقية الضرورية للعيش في هذا الزمان من خلال المفردات التالية:

أ ـ إغناء الحياة العامة: إغناء الحياة بكل ما يعود نفعه على الإنسان والحيوان والبيئة المحيطة عامة، فنحن وكل ما حولنا، نعيش في حالة فريدة من التعاون والتكامل ـ على الرغم من كل أشكال التنافس ـ وينبغي أن نتملك الخلق الذي

يساعدنا على المساهمة في إثراء هذا التكامل وتدعيمه، وتأمل معي ما رواه الشيخان من قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كل معروف صدقة».

وما أخرجاه من قوله: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخَّره، فشكر الله له فغفر له».

إن هناك أنشطة كثيرة لا تعود على الواحد منا بالنفع المباشر، ولاتكلفه الكثير، لكن عندما يحتسبها المسلم، فإنه يكون في النهاية أكبر المنتفعين بها.

وهناك نصوص كثيرة، تؤكد أن المسلم الحق، لا يكون إلا متعدي النفع، متجاوزاً الصلاح إلى الإصلاح، فبذلك تنتقل الأمة من مرحلة **الكلالة والتهميش**؛ ولو أن الناس عملوا على نحو ما جاء بنص واحد من تلك النصوص لتغيَّر الكثير من حالهم؛ يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وفي حديث الشيخين: «على كل مسلم صدقة». قال أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «يعمل بيديه، فينفع نفسه ويتصدق». قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يعين ذا الحاجة المهلوف». قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يأمر بالمعروف أو الخير» قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «يمسك عن الشر فإنه صدقة».

ب ـ **فضيلة الاهتمام**: ربما كانت فضيلة الاهتمام من أعظم الفضائل التي يمكن للإنسان أن يتخلق بها، فالقوى النفسية والعقلية، تظل راكدة ما لم تجد ما يحركها من الرغائب والمحفزات، أو المثيرات والمقلقات.

والعيش في الزمان الصعب، يتطلب على نحو جوهري أن نهتم بكل شيء حتى التفاصيل الصغيرة جداً، فالحياة البالغة التعقيد، جعلت الاهتمام بكل شيء أمراً حيوياً. الاهتمام لا ينبغي أن ينصب على الأشياء الشخصية فحسب، وإنما على الحياة العامة، وعلى العلاقات الإنسانية أيضاً. الأشياء التي ينبغي الاهتمام بها كثيرة جداً، نذكر منها:

ـ **الاهتمام بالآخرين**، ففي زماننا هذا يتجه كثير من الناس نحو المزيد من توسيع دائرة (الخصوصية) مما ترتب عليه نوع من الإهمال للشؤون العامة، ونوع من الإهمال لمشاعر الآخرين، ويمكن أن نقول: إن بعض المسلمين باتوا يشعرون بنوع من الضيق إذا ما ألقي عليهم السلام، أو سمعوا من يسألهم عن أحوالهم، وهذا تطور سلبي جداً في الحقيقة، ولا بد من مقاومته من خلال تدعيم الروح المشتركة، وإبداء الاهتمام بجيراننا وزملائنا ومعارفنا، وكل أولئك الذين لنا بهم نوع من الصلة أو الاحتكاك.

والتعاليم الإسلامية في هذا الشأن واضحة جداً، فالمسلم مطالب بأن يلقي السلام على أخيه المسلم، وعلى من ألقي عليه السلام أن يرد التحية بأحسن منها، كما أنه مطالب بأن يشمته إذا عطس، وأن يفسح له في المجلس، وأن يَعُودَه إذا مرض، وأن يكرمه إذا نزل ضيفاً عليه، وأن يسأل عنه إذا غاب، وأن يلاطفه في الحديث، ويتعلم كيف يجامله ـ من غير مبالغة ـ وأن يبتسم في وجهه، وأن ينصت له إذا تحدث، ولا يقاطعه حتى يفرغ مما يود قوله، وأن ينصحه، ويقدم له النقد البنَّاء المهذب في حالة الحاجة إلى ذلك. وإذا كان محدِّثي واقفاً، فإنَّ عليَّ أن أستمر في الوقوف ما دام هو كذلك.

وإن من جملة حقوق الأخوّة والمعرفة حفظ السر، وإبرار القسم، والوفاء بالعهد، والدقة في تنفيذ الوعد، وعدم ذكر الأخبار والمسائل التي نشعر أنها تسبب إحراجاً، أو تعكر مزاجاً، أو يعدها صديقنا من خصوصياته التي لا يجيز تناولها في مجلس عام. أضف إلى هذا فإن المسلم مطالب بألا يقوم ببعض الأمور المخلة ـ عرفاً ـ بآداب المجالسة، مثل التثاؤب وفرقعة الأصابع، ومد الرجل نحو الجليس، وما شابه ذلك. . .

ـ مما يحتاج إلى اهتمام: **الوضعيةُ الشخصية للواحد منا**، فينبغي أن نوحي للآخرين بأن شأننا الخاص موضع عناية، وضمن منطقة وعينا ونقدنا، فنحاول أن يكون كل ما يتصل بنا منظَّماً ونظيفاً ومتناسقاً ـ داخل إطار الاعتدال ـ وحين يقف الواحد منّا يقف معتدل القامة، وإذا مشى أوحى لمن يراه بالنشاط

والحيوية، فلا يسحب رجليه سحباً على الأرض، كما يفعل بعض الناس.

- **روح المبادرة** من القضايا التي تحتاج إلى اهتمام خاص، ففي أوقات الأزمات، يبحث الناس عمن يقودهم، أو يفتح لهم طريقاً، أو يجمعهم على عمل خير.. لكن الجميع إلا ما ندر يتجهون آنذاك إلى حماية المصالح الخاصة، والتفكير في الهمّ الشخصي؛ وهنا تبرز أريحية المسلم، كما يبرز شعوره بالمسؤولية، ووعيه بضرورة المواجهة المشتركة للأزمة؛ ولذا فإن من الحيوي أن يشعر كل من حولنا أننا نملك طاقة الريادة والمبادرة إلى عمل شيء يعود على المجموع بالخير والنفع، ويخفف من لأواء الأزمة الجائمة.

ولو أن الواحد منا أعطى كل يوم نصف ساعة من وقته للتفكير والعمل في مسألة من مسائل الشأن العام لوجد أنه بات محوراً ورائداً لأعمال خير كبيرة، كما أنه سيشجع كثيرين من إخوانه على أن يسلكوا المسلك نفسه، وبذلك تولد فضيلة الاهتمام، وتصبح ظاهرة اجتماعية.

جـ- **خُلق التسامح**: في زمان العيش الصعب، تسود المشاحَّة، وتتوتر الأعصاب، ويشعر الكل أنهم مظلومون من قبل الجميع، ويظن كل واحد أنه يعيش مأساة فريدة، وينتظر من الآخرين أن يقدروا ذلك، وأن يصبروا على ما يرونه منه.. في هذه الحال تبرز قيمة الإحساس المرهف، وأن يبدي كل واحد ما يستطيع من التفهم لأوضاع الآخرين، إلى جانب المسامحة، وسعة الصدر، والصبر على الأذى. وهذه في الحقيقة من أهم مظاهر (**اللياقة الخلقية**).

قد لا نملك شيئاً ملموساً نخفف به من عناء إخواننا ومعارفنا، لكن نملك دائماً ما يمسح على الجرح، ويطيّب الخواطر، ويرفع المعنويات، ويفسح في آماد التفاؤل والبِشر. قال أحدهم:

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم يسعد الحالُ

وقال عمرو بن معديكرب:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها   ولكنَّ أخلاق الرجال تضيق

والأجر المنتظر على ذلك من الله ـ جلَّ وعلا ـ كبير، وليس ثمة منافسة أشرف من المنافسة في هذه السبيل.

٦ ـ اكتساب عادات جديدة:

ينبع مبدأ التغيير لسلوكنا وعاداتنا من مسألة فكرية، هي أن الإنسان يظل ناقصاً، والعلاقة بينه وبين الكمال عبارة عن محاولات مناهزة ومقاربة ليس أكثر؛ ونظراً لتبدل الظروف والتحديات والمتطلبات على نحو سريع وحاسم، فإن الواحد منا مطالب من جهته بأن يقابل ذلك بإطلاق إمكانات جديدة، وتطوير مواهب غير مستثمرة، واتخاذ وضعيات جديدة.

إن العادات التي تشكل نمط سلوكنا اليومي، تريحنا من عناء التفكير، وتسهِّل علينا الحركة، لكنها في الوقت نفسه، تضع على مداركنا ما يشبه **الغشاوة**، فلانرى الإمكانات الكامنة والآفاق الممتدة، كما أنها تضفي على تفاعلنا الداخلي نوعاً من السكون والعطالة؛ ولذا فإن من المهم قبل كل شيء أن نتفحص العادات النفسية والسلوكية التي تتحكم بنا، فقد يكون بعضها غير ملائم لمبادئنا أو طموحاتنا أو صحتنا أو علاقاتنا... وبذلك نكون قد أدخلنا عاداتنا في منطقة **الوعي** تمهيداً لتغيير ما يحتاج منها إلى تغيير.

إن تغيير الإنسان لبعض عاداته دليل على أنه قادر على الارتقاء بمستوى سلوكه وحياته عامة من خلال **السعي الواعي والجهد المبرمج الهادف**. وهذا في الحقيقة من أعظم الحقائق التي تستحق التقدير والتشجيع والمتابعة.

العادة هي: ما اعتيد حتى صار يُفعل من غير جهد، إنها أنشطة تتكرر وفق نهج ونمط معين. كل عادة من العادات، هي حصيلة لتشابك **المعرفة والمهارة والإرادة**؛ وإذا تخلف أي واحد منها لم نستطع القول: إن هذا العمل عادة. المعرفة أو الرؤية تحدد ما الذي ينبغي فعله، ولماذا ينبغي فعله. **والمهارة هي كيفية الفعل**، أو هيكل العادة. والإرادة، هي **الرغبة الدافعة إلى الفعل**. هذه العناصر الثلاثة معرَّضة دائماً لأن تكون خاطئة وناقصة، وهذا مايجعل عاداتنا بحاجة دائمة إلى المراجعة والتغيير والتصحيح.

العادات ـ كما قال أحدهم ـ: مثل الحبال الفولاذية، نجدل فيها كل يوم سلكاً، وسرعان ما نعجز عن قطعها. إن العادات ذات قوة جذب هائلة أكثر مما يعرفه الناس، أو يعترفون به؛ وإطلاق عملية التغيير ـ ككل بدايات الانطلاق ـ يحتاج إلى جهود كبيرة، لكن ما أن نتخلص من شد الجاذبية، حتى تتخذ حريتنا بعداً جديداً، نتنعم بظلاله الوارفة.

العيش في الزمان الصعب، يتطلب أكثر من أي وقت مضى أن نتخلى عن بعض العادات، وأن نكتسب بعض العادات الجديدة، إذا ما أردنا أن ننمو على نحو مكافئ للصعوبات المتزايدة التي علينا أن نواجهها على كل الأصعدة. ولعلي أسلط الضوء هنا على بعض العادات التي أظن أن البلوى قد عمت بها، وصار من الضروري التخلي عنها، وإحلال عادات أخرى محلها:

أ ـ التخلص من التسويف:

الأعمال التي علينا أن ننجزها تنقسم إلى قسمين: أعمال ملحَّة، لا يجوز تأجيلها، وأعمال غير ملحَّة، يصح تأجيلها إلى وقت آخر. ما يجب إنجازه، لا يشكّل مشكلة لدى كثير من الناس، حيث يقومون به طائعين أو مكرهين، لكن كثيراً ما تكمن المشكلة في الأشياء غير الملحَّة، حيث تعوَّدنا أن نعاملها بإهمال شبه تام، بل قد نستغرب ممن يهتمّ بها. وهذا الإهمال يؤدي إلى أمرين سيئين:

أولهما: أن كثيراً من الأشياء التافهة، يتحول إلى أشياء مهمة، بل قاتلة أحياناً.

والثاني: أن حياتنا تصبح مزدحمة بالأشياء المهمة، وهذا يعني أن نظل دائماً مأزومين ومغلوبين على أمرنا، وملاحقين من قبل متطلبات الحياة المتعاقبة. ونتيجة ذلك معروفة، هي التخلي عن أشياء مهمة في حياتنا، أسنان المرء يكون علاجها سهلاً ما دامت هناك متابعة، فإذا أهملها شكّلت له قضية مزعجة. خلل يسير في سيارة الواحد منا، قد لا يكلف إصلاحه شيئاً، إذا تم في وقته، لكن إهمال إصلاحه، قد يخرب أجزاء أخرى مهمة، وقد يفضي إلى كارثة مروعة!.

ـ قال الضيف لمضيفه : الماء يتسرب من السطح ، لماذا لا تصلح السقف؟ .

ـ رد المضيف : كيف أصلحه والمطر ينهمر؟ .

قال الضيف : لماذا لا تصلحه عندما يتوقف المطر؟ .

قال المضيف : عندما يتوقف المطر لا يتسرب الماء! .

وهكذا . . فشعار المسوّفين : كل ما تستطيع أن تؤجله إلى الغد، فلا تعمله اليوم! . الحجة الجاهزة لدى كثيرين : ليس عندي وقت للقيام بالعمل الفلاني، فأنا مشغول دائماً بأمور مصيرية! .

التخلص من عادة الإهمال والتسويف، قد يتطلب أن يتعلم الواحد منا تخصيص وقت لما يعتقده هاماً، وقضاء الأشياء غير المهمة فيما نسميه (**الوقت الضائع**) الذي يقع في الفترات الانتقالية بين ما نعده مهماً من الأعمال.

وأعتقد جازماً أن استغلال نصف ساعة يومياً من الأوقات الضائعة ـ وهي كثيرة ـ سيخلصنا من كثير من الأعمال المتراكمة التي تسبب أذى لمشاعرنا، وتسبب في النهاية أضراراً بالغة عندما تتفاقم، وقد كان من المفترض أن يتعلم المسلم من البرمجة اليومية لأداء الصلوات ما يرسخ لديه النهوض للواجبات المختلفة، لكن يبدو أن استفادة المرء من مبادئه تحتاج إلى درجة من الفعالية والحساسية لم يبلغها كثيرون منا بعد! .

ب ـ الخروج من دائرة الكلالة :

طلب القرآن الكريم من المسلمين أن يقارنوا بين نمطين من الناس : نمط العاجز، ونمط السبّاق المبادر والمؤثر، حيث يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ٧٦]

الأول منها عاجز، وهو ثقيل عالة على مولاه وسيده، وهو لضعف قواه العقلية لا ينجح في أي مسعى يكلَّف به، فكأنه جمع بين الضعف الجسدي والعقلي .

أما الثاني فهو ذلك الرجل الذي اهتدى إلى الصراط المستقيم، ومضى فيه، ووجد لدى نفسه فضلاً من طاقة وجهد، فصار متعدي النفع، إذ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. هذان الصنفان يمثلان طرفي التنافي، والمطلوب من المسلم أن ينحاز إلى الثاني.

وقد ثبت عن النبي ﷺ في أحاديث عدة أنه كان يستعيذ بالله ـ تعالى ـ من مظاهر العجز، وصفات الضعفاء والعاجزين؛ فقد استعاذ من العجز والكسل والجبن والبخل، وغلبة الدَّين، وقهر الرجال، وفتنة الغنى، وفتنة الفقر، ومن الهرم. وهذه الأمور كلها تشير إلى نوع من الضعف والكلالة، وهذه في الحقيقة ليست كل ما ينبغي تحاميه والبعد عنه، فهناك أمور كثيرة ـ على المستوى الحضاري ـ تعد من أمارات القصور والهشاشة، وقد أبرزتها التحديات المعاصرة التي تواجه كل واحد منا، نذكر منها:

ـ الإكثار من ذكر عبارات: لو أن...، وبسبب كذا لم أستطع فعل شيء.. وكامل المسؤولية تقع على فلان...

ـ انتظار الإحسان والمعاملة الطيبة من الآخرين عوضاً عن البدء بذلك.

ـ إخضاع القيم والمبادئ للمصالح والدوافع.

ـ الانشغال بأمور خارج دائرة التأثير، وإهمال ما هو داخلها.

ـ الاعتقاد أن معظم المشكلات خارجية، وليست داخلية، والتصرف على أساس هذا الاعتقاد.

ـ الانشغال بأخطاء الماضي بدل تجاوزها بعد أخذ العبرة منها.

ـ كل شيء أو لا شيء؛ وبما أننا لا نستطيع أن ننال كل شيء، فالأحسن ألا ننال أي شيء!.

ـ التركيز على الأشياء التي تُظهر ضعف الآخرين بدل الاهتمام بالارتقاء الذاتي.

ـ السـعي إلى أن يصبح المرء جزءاً من المشـكلة بدل أن يصبح جزءاً من الحل.

ـ التطلع إلى نتائج عظيمة مع القليل من الجهد والوسائل.

وهذه السمات لا تحتاج إلى تعليق، وما ينبغي أن نخرج إليه منها واضح أيضاً، لكن الذي بقي هو العزيمة والصبر.

جـ ـ الانهماك في الأعمال الصغيرة:

يمكن القول: إن الواحد منا يمارس على صعيد حركتـه اليومية، وبرمجة أنشـطته المختلفة وظيفتين أساسيتين: وظيفة (القائد) ووظيفة (المدير). العمل القيادي يبحث دائماً في المسائل الكبرى والخطوط العريضة لمسيرة الحياة، أما العمل الإداري، فيبحث في التفاصيل والتقنيات والطرق التي تساعد المرء على النجاح في حياته. **الإدارة** ـ كما قال أحدهم ـ هي تسلّق السلّم بنجاح. **أما القيادة**، فإنها تحدد ما إذا كان السلَّم يرتكز على الجدار الصحيح.

اتساع أنشطة الحياة على هذا النحو الذي لم يسبق له مثيل أوجد عدداً هائلاً من الخيارات، لكن تعقد الظروف والمعطيات المختلفة، وازدحام كل المجالات بالمتنافسين أعطى مكانة مهمة لتحديد الاتجاه واتخاذ القرار، أي لأعمال القيادة، لكن الناس يفرون من الانشغال بالقضايا الكبرى لسببين جوهريين:

الأول: أن التفكير فيها يعد شاقاً، إذ إن على المرء أن يستجمع عدداً كبيراً من التفاصيل والمعطيات الإيجابية والسلبية للقضية التي يفكر فيها، وهذا ثقيل على النفوس.

أما السـبب الثاني فيكمن في أن البحث في القضايـا الكبرى، يحتاج في النهاية إلى اتخاذ قرارات كبرى؛ مما يجعل المرء يشعر بالخوف من عواقبها ومن التغييرات التي تفرضها على نمط الحياة الخاصة.

لا يصح أن ننسى أن من المفرزات السيئة للحضارة الحديثة، جعل الناس

يغرقون إلى آذانهم في التفاصيل والأعمال الصغيرة، حيث صار الواحد منهم بمثابة مسمار صغير في آلة كبيرة، والهم المسيطر هو: كيف يظل هذا المسمار في موقعه أولاً؟ وكيف يظل يعمل منسجماً مع باقي الآلة ثانياً؟ أما التفكير فيما إذا كان وجود الآلة كله ضرورياً، وفيما إذا كانت الآلة كلها تعمل في الاتجاه الصحيح، فهذا مما قل المشتغلون به، وصار ينظر إليه على أنه اشتغال بما لا يعني!.

السرعة المتزايدة للتغيرات الشاملة، تجعل الخروج عن المسار الصحيح أمراً في غاية السهولة، مما لا يوجب على الواحد منا وضع دستور عام لحياته فحسب، وإنما مراجعة ذلك الدستور بين الفينة والفينة، فنحن لا نرى الحقيقة الكلية دفعة واحدة، وإنما نقترب منها، ونحاول اجتراحها ليس أكثر.

العادة الجديدة التي علينا أن نكتسبها هي أن يخصص الواحد منا كل ثلاثة أشهر ـ مثلاً ـ جلسة مفتوحة للتفكير في وضعيته العامة: أهدافه، أنشطته، وسائله، علاقاته... ومحاولة اكتشاف ما يحتاج منها إلى تحسين، أو إلى تجديد، أو إلى تصحيح. نحن بحاجة في هذا السياق إلى أن نوسع رؤيتنا للحياة، وأن نوسع المنظور الذي ننظر من خلاله إلى الأشياء؛ وذلك بواسطة الخيال والوعي، والاتصال بالهدف الأسمى لوجودنا ـ وهو الفوز برضوان الله؛ جل وعلا ـ ومن خلال إبراز سلسلة الأهداف الصغرى التي تتصل بذلك الهدف وتخدمه، مثل تحسين مستوى الالتزام بأمر الله ـ تعالى ـ وتحسين مستوى النجاح في أعمالنا، وتحسين مستوى مساهمتنا في إصلاح الحياة العامة.

سوف يحفزنا على استلهام دور القائد في حياتنا الخوفُ من أن تصبح أنشطتنا المحمومة نوعاً من الجهاد في غير عدو، أو نوعاً من الخطأ الفاجع على نحو ما يصنع الطائر حين يبيض في غير عشه الذي تعب في بنائه!.

إن التفكير في المسائل الكبرى شاق، وربما بدا عديم الجدوى، لكن الصحيح أنه ـ إلى جانب كل ما ذكرناه من مسوغات القيام به ـ يدلنا على البدائل والخيارات التي لا تظهر لنا أبداً عند الانشغال بالأمور الصغيرة، وهو بذلك يسهِّل علينا اكتشاف السبل الأكثر ملاءمة لإمكاناتنا، والأكثر ملاءمة للظروف المتغيرة

التي نمر بها، وهو بذلك يساعدنا على بلورة فلسفة أفضل في التعامل مع كل ما حولنا.

هناك في الحقيقة الكثير من العادات السيئة التي ينبغي التخلص منها، مثل عادة التدخين، والنوم الكثير، والإفراط في تناول الطعام، والمنبهات، ومثل زيادة الفضول، وحب تتبع أخبار الآخرين، ومثل الفوضى في التعامل مع الأشياء... لكن المساحة المتاحة لا تسمح بأكثر مما سطرناه، وأعتقد على كل حال أننا إذا وعينا الأمور الرئيسة في حياتنا، فإن كثيراً من المسائل الفرعية سيجد حله على نحو تلقائي؛ والله المستعان.

٧ـ الشعور بالواجب:

الأفق الفكري للإنسان هو النبع الرئيس الذي تفيض منه المشاعر، وهو الإطار الذي تتفاعل في داخله تلك المشاعر، وهو المنظِّم لتداعياتها المختلفة. عقيدة التوحيد والدواعي المشتقة منها، تجعل من المسلم أمة في رجل، فهو لا يتحسس واجباته ومصالحه الشخصية فحسب، وإنما يتحسس واقع أمته ومستقبلها أيضاً، ويحمّل نفسه من ذلك أموراً ربما لم تكن مفروضة عليه أساساً، لكن طبيعة أخلاقية الشعور بالواجب، تفجر في ذات المسلم ينابيع المجانية والكرم الذاتي التي لا تعرف الرسوم والحدود. الشعور بالواجب شكل من أشكال الالتزام، تشعر به ذات حرة، تلزم نفسها بنفسها، فأكثر الناس شعوراً بالحرية، أكثرهم شعوراً بالواجبات والفرائض الحضارية.

عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان ـ ومازال ـ مضرب المثل في العدل، وفي القيام بواجبات الوظيفة على أفضل وجه ممكن، ومع هذا كان يقول: «ياليتني أخرج منها ـ أي الخلافة ـ لا عليَّ ولا لي». وكان يقول: «والله لو عَثَرتْ شاة في أرض العراق لخشيت أن يسألني الله عنها، يقول: لمَ لمْ تعبِّد لها الطريق»؟!.

الإحساس بالواجب هو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية، ليعكس تسامي الإنسان، أو قدرته على الالتزام تجاه غيره، والتضحية في سبيله. في حالات التخلف، وفي حالات الأزمات الحادة ـ خاصة ـ يصبح التهرب من

المسؤولية ديدن الناس، ويندفعون إليه بالغريزة دون تفكير، وينتظر كل واحد من الآخرين أن يفعلوا شيئاً؛ ويكون السواد الأعظم من الناس في **مقاعد النظارة**!.

إن ضعف الشعور بالواجب يتولد عنه تلقائياً ضعف الشعور بالمسؤولية، ويتولد عن الثاني شعور عميق بالتفاهة والعقم والفراغ، وإن كثيراً مما يسمى مشكلات عاطفية، ليس في جوهره سوى أعراض لذلك الشعور.

تجديد البعد الخلقي، يفرض على الواحد منا أن يتفحص بدقة نوعين من الالتزام:

الأول والأهم: هو ما التزمنا به بسبب إيماننا بالله ـ تعالى ـ وإسلامنا الوجه له.

الثاني: ما قبلنا به حين انخرطنا في الحياة الاجتماعية، وربطنا مصيرنا، ومصير أشياء كثيرة بمصير أمة الإسلام. ومن الجليّ أننا نعاني من فراغ كبير في هذا الجانب، فالمسائل المهمة والملحّة التي تتعلّق بعيشنا ومستقبلنا المشترك، لا تلقى سوى القليل من الاهتمام ومن فئة محدودة من الناس!.

المجتمع بتربيته وأعرافه وتركيبته الثقافية، ينشِّط **الشعور بالواجب**، أو يقتله، وهنا يبرز دور الرواد العظام الذين لايخضعون للمعطيات الاجتماعية السائدة وإنما يندفعون بوحي من مبادئهم نحو تجاوز السقف الاجتماعي، وتأسيس بُنىً ثقافية جديدة أكثر صحة ونقاء وصلاحية. وسيكون للمؤسسات التربوية والاجتماعية دور حاسم في هذا الشأن؛ نظراً لكونها أدوات تغيير ودفع نحو الوضعية الصحيحة.

إن الإنسان يكون إنساناً على مقدار ما يرتاع للفارق بين ما هو كائن، وبين ما يجب أن يكون، ولا يتم ذلك إلا من خلال الإحساس بالوظيفة الشخصية في ردم الفجوة، وإحداث عملية التطابق.

* * *

الفص

يتصرف
فإنه لي
يمتنع
ما ثبت
على تن

صحيح
إلى الله
وحَسُن
يقمن ص

كذلك ت
الحديث
فيها، ف
ل

الفصل الثاني

تجديد البعد البدني

تحديات جديدة:

إن النظرة الإسلامية للإنسان أنه مملوك لله ـ تعالى ـ ومن ثمَّ فإن عليه أن يتصرف في جسمه ـ وجميع شؤونه ـ على النحو الذي يقرّه عليه الشرع، ومن هنا فإنه ليس للمرء أن يقتل نفسه، أو يقطع عضواً من أعضائه، كما أنه ليس له أن يمتنع عن الطعام حتى الموت، وليس للمسلم أن يتناول من الأطعمة والأشربة ما ثبت ضرره، وكلما اشتدّ ارتباط إمكانية الشفاء بدواءٍ ما كانت درجة الحض على تناوله أقوى من أجل صيانة الجسم الذي ائتمننا الله ـ تعالى ـ عليه.

هناك العديد من النصوص التي تحثّ المسلم على المحافظة على بدنه قوياً صحيحاً معافى، منها قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير»، وقوله: «خيركم من طال عمره، وحَسُن عمله»، وقوله: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرّاً من بطنه، بحسب ابن آدم لُقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه».

وعلى المسلم بعد هذا وذاك أن يتجنّب التعرض للأمراض، وأن يتجنب كذلك تعريض غيره لها، فلا يدخل بلداً انتشر فيه وباء من الأوبئة، كما ورد في الحديث: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض، فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها، فلا تخرجوا منها».

لا خلاف اليوم أن الأرض ـ على الرغم من توفر كثير من المرفهات،

ووسائل الراحة، وتقدّم التشخيص الطبي، والسيطرة على الكثير من الأمراض - لم تعد المكان الأكثر ملاءمة لصحة الإنسان وعافيته بسبب التخريب الواسع النطاق الذي أحدثه الإنسان في البيئة من خلال تلويث الماء والهواء والتراب، ومن خلال إتلاف الغابات، واستهلاك الموارد غير المتجددة بصورة جشعة لم يسبق لها مثيل. أضف إلى هذا السلوكاتِ وأنماطَ العيش الجديدة التي فرضتها، أو أتاحتها الحضارة الحديثة.

عدد سكان الأرض يقاربون الآن ٦ مليارات، وكانوا قبل ألفي سنة نحواً من ٢٥٠ مليون فقط. وقد زادوا نحواً من (٥٠٪) خلال الربع الأخير من القرن الحالي، ومعظم هذا العدد الضخم من الناس، لا يسلكون السلوكات التي ترضي الله - تعالى - ولا السلوكات التي تجعل الأرض صالحة لاستمرار العيش عليها.

ولا أريد أن أفصّل في هذا، لكن من المهم أن نعرف أنّ أمراض السرطان والحساسية وأمراض المناعة والكبد، وأمراض الدم والقلب، وغيرها من الأمراض المستعصية، يزداد انتشارها عاماً بعد عام، وهذا يتطلّب من كلّ واحد منّا أن يحسِّن مستوى ثقافته الصحية، مادامت المخاطر التي تهدد حياته تزداد باستمرار.

بعض الناس ينظر نظرة استخفاف إلى كل ما يتعلق بهذا الشأن، ويظن أن الاهتمام بالبعد الجسدي، لا يعدو أن يكون شكلاً من الانغماس في المادية، أو استثماراً في مشروع خاسر، حيث إن الموت هو نهاية الجميع! وربما كان هذا التوجه من بعض موروثات عصور الانحطاط التي مرّت بها أمة الإسلام، وإلا فإن مجمل التعاليم الإسلامية، تدعم الاهتمام بالجسد والعناية به، وحين كانت أمة الإسلام تملك الرؤية الصحيحة لأمور دينها ودنياها - كانت أسبق الأمم في مجالات النظافة والوقاية من الأمراض، وبناء المستشفيات، والعلوم الطبية عامة.

إن محافظة الإنسان المسلم على جسد قوي وسليم ونشيط، هي مطلب إسلامي لأن الجسد هو الراحلة التي سنبلغ عليها كل الأهداف، وينبغي أن تكون

تلك الراحلة قوية بما فيه الكفاية. ومن وجه آخر فإن الأجهزة الطبية المتقدمة، ومعظم الأدوية ـ لاسيما المواد الفعَّالة فيها ـ مستوردة، وتستهلك جزءاً مهماً من الأموال الإسلامية، مما يعني أن محافظة كل فرد على صحته العامة، ستعني توفير الكثير من المال، وتخفيف الضغط عن المشافي والمراكز الطبية التي يشكو كثير منها ضعف الإمكانات، وتزايد الأعباء.

إن الآجال بيد الله ـ تعالى ـ واهتمام الإنسان بصحته قد يوفر عليه الكثير من آلام الشيخوخة وعذاباتها، والتي تصرفه عن الكثير من عبادة ربه، والكثير عن واجباته المختلفة. مما يوجب استهداف المرور بها بسلام قدر المستطاع؛ والله غالب على أمره.

قواعد في حفظ الصحة العامة:

هذه بعض الأفكار والقواعد والملاحظات التي تساعد على حفظ الصحة العامة[1] نسوقها عبر المفردات التالية:

١ ـ النظرة إلى وضعية الحياة الدنيا:

ينبع أساس الموقف الصحيح من البدن وحقوقه والمحافظة عليه من نظرة الإنسان إلى الدنيا والآخرة؛ فالذي يغلب على حسِّه ووعيه أن **الحياة الدنيا هي كل شيء أو هي الشيء المضمون**، فإنه في الغالب سوف يُهزم أمام رغبات **الجسد**[2]، ومغريات الاستمتاع بالمآكل والمشارب، وصنوف المتع، وأشكال اللهو. وحين ينظر المرء إلى الحياة الدنيا على أنها دار ممر، وأنه ينبغي أن نعيش

---

(١) ننصح باقتناء كتاب حول الصحة العامة، مثل كتاب (الوقاية خير من العلاج) للدكتور عبد الرزاق الكيلاني، والذي اعتمدنا عليه في أكثر ما كتبناه هنا.

(٢) حدّثني أحد الأشخاص ذات يوم عن أسلوبه في تأثيث بيته وإمتاع نفسه ـ في دائرة المباح ـ وحين وجدت في ذلك نوعاً من التوسع الزائد، قال لي: وكم حياة سنعيش؟ فقلت: سنعيش حياتين: مؤقتة ودائمة. وأنا في الحقيقة لم أضف إلى معلوماته، ولا إلى معتقده شيئاً، لكني نبّهته من غفوة كان فيها.

فيها وفق متطلبات الدار الآخرة ورمزياتها ـ فإنه حينئذٍ سيستطيع ـ بعون الله ـ أن يفعل الكثير على طريق سلامته الصحية.

ويؤسفني القول: إن الإحساس بكون العيش هنا مؤقتاً وزائلاً قد ضعف لدى كثير من المسلمين، مما جعل سلوكهم العملي لا يختلف كثيراً عن سلوك غيرهم ممن لا يرجو الله والدار الآخرة؛ ولذا فإن التقدم على صعيد الجسد قد يتوقف على التقدم على صعيد الفكر والروح والعقيدة، وهذا ما يـؤمّنه إلى حدٍّ ما ما ذكرناه في ثنايا هذا الكتاب عن ذلك.

٢ ـ التوازن:

التوازن سرّ نجاح الإنسان وتميزه، وعند النظر في مسيرة الحياة كلها نجد أنها تقوم على قاعدة من التوازنات المعقدة؛ ولا ينبغي للإنسان أن يخرج عن ذلك، فالانسجام مع ما بثّه الله ـ تعالى ـ من سنن في كل أرجاء الحياة مصدر مهم للفلاح والنجاح، ولابد أن نراعيه على صعيدنا الشخصي قبل أي شيء آخر، ومن الملاحظ هنا أن بين شبابنا اليوم مَن انهمك في رعاية حاجات الجسد إلى الحد الأقصى، بل إن نشاطاً واحداً من نشاطات الجسد ـ كالرياضة ـ صار محور اهتمامه وتثقفه ومتابعاته... وهو على الصعيد الروحي والفكري والاجتماعي، يكاد يكون مفلساً!.

في المقابل نجد من غلب عليه الاهتمام بشؤون الفكر أو الروح أو المال... وأهمل جسده، فلا يعرف شيئاً عن أحواله، ولا عن علاجه، ولا مدى صلاحية أجهزته، وهذا كله من الخلل الذي يحطّ في النهاية من النسق العام لتوازن الشخصية كلها، وإن لم يشعر بذلك؛

وحين زار سلمان الفارسي أبا الدرداء ـ رضي الله عنهما ـ صنع له طعاماً، وقال له: كلْ فإني صائم. قال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ـ أي الليل ـ فقال له: نم، فنام، ثم أراد أن يقوم، فقال له: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلّيا جميعاً، وقال سلمان: إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ

حقَّه. فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ فقال: «**صدق سلمان**».

إن تلبية حاجات الجسد، تخرج ذات المرء من أفق المثالية والانعزال عن الواقع، إلى الموضوعات الخارجية؛ لتصبح مركز توازن ودمج بين المثالية والواقعية، ومن خلال ذلك تستقيم شؤون الحياة، أو يصبح الاستمرار ممكناً؛ ومع هذا فإن لدى الإنسان قابلية كبيرة للانجذاب إلى العناية ببعض جوانب حياته وشخصيته على حساب جوانب أخرى، ولابد من الانتباه ومجاهدة النفس من أجل **استعادة التوازن**، ولاسيما حين تكون الأشياء المهملة شاقة، أو بعيدة عن نور الوعي.

٣ـ توجيهات شرعية:

إن العقيدة الإسلامية، تؤمّن للمسلم الفضاء النظري لرؤاه وتوجّهاته ومعاييره، وأولويّاته. أما **الشريعة**، فتؤمّن له البصيرة بمواضع الفعل والكفّ من خلال الأحكام الفقهية، ومن خلال الآداب الفردية والاجتماعية. وتوجيهات الشريعة الغرّاء وآدابها في مجال حفظ الصحة العامة كثيرة جداً، نذكر طرفاً منها في الآتي:

أ ـ أكل الطيبات من غير تبذير ولا إسراف، ومراعاة الاعتدال في الشأن كله، وفي هذا يقول ـ سبحانه ـ: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]. وقال في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ب ـ التداوي: تناول الدواء من أجل مكافحة الأمراض والأوبئة التي تهاجم الجسم ـ شيء حثت عليه النصوص، فقد جاء بعض الأعراب إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: «نعم يا عباد الله تداووا فإن الله ـ عزَّ وجلّ ـ لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد»، قالوا: ما هو؟ قال: «الهرم».

وهناك أحاديث كثيرة ـ كما في الطب النبوي ـ تصف بعض الأدوية لبعض

العلل أو الأمراض، أو تلك التي تبيّن بعض فوائد وميزات بعض الأطعمة، ومما يؤسف له أن بعض المسلمين يرى العلل تفتك في جسده، ثم لا يعيرها أي اهتمام بسبب احتجاج فاسد بالقَدَر تارةً، أو بسبب طبيعة الإهمال لديهم، أو الادّعاء بالانشغال بما هو أهم!.

جـ ـ الامتناع عن المحرمات: إن الناظر فيما حرّمه الإسلام من الأشياء والأفعال يجد أنه دائماً يعود بنوع من الضرر على صحة الإنسان العامة، أو على طريقة إدراكه للأشياء، أو على علاقته مع الناس، أو علاقته بالبيئة من حوله... وكلما تقدم العلم، وزادت خبرة البشرية بأوضاعها العامة، صارت رؤيتنا لذلك الارتباط بين المحرمات والأضرار أوضح. ولذلك فالملتزم بالشرع يربح مرتين: رضوان الله ـ تعالى ـ أولاً، وصلاح وضعيته العامة ثانياً.

ولاأريد أن أستعرض هنا مشكلات الربا والقمار والخمور والمخدرات وأكل لحم الخنزير ولحم الميتة، وما شاكل ذلك مما يغرق العالم اليوم، فذاك حديث يطول، ويكفي أن نتلمس بعض الأضرار التي تسببها فاحشة الاتصال الجنسي غير المشروع: الزنا واللواط؛ لنعرف فداحة الخسائر التي تحيط بحياة البشر من جرّاء الإعراض عن المنهج الربّاني الأقوم.

إن فشوّ الزنا واللواط في كثير من المجتمعات قد أدى إلى انتشار عدد من الأوبئة الخطيرة، مثل مرض الأفرنجي (السيفيليس) الذي يقع منه في أمريكا وحدها نصف مليون إصابة سنوياً على الرغم من كثرة الأدوية وتقدّم التشخيص الطبي. ويراجع عيادات الأمراض (الزهرية) فيها نحو ٢٠ مليون مريض. ويقال: إن في العالم عام ١٩٨٦م ما يقارب ٢٥٠ مليون شخص مصاب بالسيلان (التعقيبة)!.

والمرض الخطير الذي بات يحصد بني الإنسان حصداً، هو فيروس (الإيدز)، الذي كثيراً ما ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي بأناس مصابين به، فيحطّم جهاز المناعة لدى الإنسان فتنهار مقاومته، ويصبح الجسم بلا حول ولا قوة، كالجيش الذي سُحب منه سلاحه، أو الحصن الذي تهدّمت جدرانه.

هنـاك أرقام كثيرة ومخيفـة حول انتشـار هذا المرض الذي لم يُكتشَف له علاج ناجع حتى الآن. ونصيب الدول الفقيرة والنامية من هذا المرض أكبر من نصيب الدول المتقدمة، لا لعفّة الشعوب الصنـاعية، ولكن لوجود وعي صحي لديهـا أفضل مما هو عند غيرها، ويقدّر بعض الإحصاءات أن عدد حاملي حمى (الإيدز) سيتراوح عام (٢٠٠٠) بين (٤٠ ـ ١٠٠) مليون نسمة. ونصف حاملي هذا الفيروس موجودون في أفريقيا، وهو ينتشر بين الذين أعمارهم (١٠ ـ ٢٥) سنة. وبعض القرى في أوغندا مُسح سكانها مسحاً. والنمو السكاني الذي يبلغ في أفريقيا نحواً من ٣٪ يمكن أن ينعدم قريباً. وقالت منظمة الصحة العالمية: إن الإيدز سيقضي على ربع قوة العمل الأفريقية بين عام ١٩٩٩ وعام ٢٠١٠.

ويذكر أحد البـاحثين في أمراض السـرطان في معهد (دانـا فاربر) أن من المتـوقع أن يكـون عدد المصابين بحمى الإيدز في سنة ٢٠٢٥: مليار شخص، وإن (٢٠٪) من شـبان دول أفريقيا الوسـطى والهند وتايلند وبعض بلاد أمريكا الجنوبية مصابون بحمى الإيدز الآن[1].

وتشـير تقارير وزارة الصحـة الفرنسـية إلى أن حالة وفاة واحدة في مدينة باريس من بين كل ثلاث وفيات بين سِنّ (٢٥ ـ ٤٤) سنة من العمر، هي بسبب الإيدز.

إن الخمر تضعف كريات الدم البيضاء التي تمنع تكاثر حمى الإيدز، وإن العدوى بالإيدز كثيراً ما تحدث في الغرب نتيجة الشذوذ الجنسي، ونتيجة حقن المدمنين على المخدرات أنفسهم بحقن ملوثة، وهكذا يتلاقى الشذوذ الجنسي مع الزنـا وشرب الخمر وتناول المخدرات في حملـة مترابطة لإبادة الجنـس البشري.

---

(١) أرجو أن تؤخذ كل الأرقام المتعلقة بالإيدز، وجميع الأمراض الوبائية على أنها إحصاءات غير دقيقة، وهي ليست أكثر من مؤشرات، تنبع خطورتها من دلالتها على تطوّر الحالة الصحية للعالم أكثر من أي شيء آخر.

وهكذا تبدو روعة التشريع الإسلامي في حفظ الكيان الإنساني من التدهور والانحلال. ولكن يبدو أن الحضارة الحديثة قد أضعفت إرادة الإنسان على مقدار ما زادت في قدراته، فكأنها نزعت منه من الإنسانية على مقدار ما زرعت فيه من البهيمية والوحشية!!

د ـ **النظافة**: من أهم مايساعد على المحافظة على الصحة العامة **(النظافة)** على المستوى الشخصي، وعلى مستوى البيئة، وليس هناك دين من الأديان أعطى من الاهتمام بمسألة النظافة ما أعطته الأحكام والآداب الإسلامية.

الجلد ذو أهمية بالغة في حياة الإنسان، فهو يشكل الدرع الواقي، وخط الدفاع الأول عن الجسم، وهو المكيِّف الذي يحفظ حرارة الجسم في حدها الطبيعي، ويحمي الجسم من الأشعة الضارّة... خلايا الجلد تتجدّد باستمرار، والخلايا الميتة تبلغ الملايين يومياً، وهي تتراكم على سطح الجلد، كما أن العرق الذي يرشح منه، يتبخر ماؤه، وتبقى أملاحه... مما يوجب العناية به وتنظيفه باستمرار؛ وقد ورد في الحديث: «إن الله طيّب يحبّ الطيب، نظيف يحبّ النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولا تَشَبَّهوا باليهود»[1].

وفي حديث الشيخين: «حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده». الشريعة توجب على المسلم الاغتسال من الجنابة والاحتلام، كما توجب على المسلمة الاغتسال بعد الطهر من الحيض والنفاس. وسنَّته لصلاة الجمعة ـ وبعض الفقهاء يقول بوجوبه ـ وللعيدين والإحرام ودخول مكة، والإفاقة من الإغماء، وعند طواف الإفاضة، وعند التوبة من الذنب، وفي مناسبات أخرى عديدة.

وأوجبت الشريعة الوضوء ـ وهو غسل أعضاء الجسم الظاهرة التي يكثر

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، والأفنية: ساحات الدور.

تعرضها للوسخ والغبار ـ للصلاة والطواف وصلاة الجنازة. ومن السنّة التوضّؤ قبل النوم وللأذان والوقوف بعَرَفة، وعند ثورة الغضب وغيرها. . .

وبالإضافة إلى هذا فإن **الإسلام** يولي اهتماماً خاصاً لنظافة الفم والأسنان، لِما لذلك من دور جوهري في المحافظة على صحة الجسم؛ ولذا فقد شرع المضمضة **والسواك** في أوضاع وأوقات عديدة في اليوم والليلة على ما هو معروف ومشهور.

لاتقتصر النظافة على ما ذكرناه، وإنما تتعدّاه إلى ضرورة المداومة على تقليم الأظافر بانتظام، وغسل الأيدي قبل الطعام وبعده، وبعد قضاء الحاجة، بالإضافة إلى الانتباه إلى نظافة الطعام والشراب، ومكافحة الذباب والبعوض، وعدم التبوُّل والتغوُّط في الماء والطريق والظل.

إن الإسلام لا يحرص على **النظافة** فقط، وإنما على **الطهارة أيضاً**، والتي هي مفهوم شرعي، لا تعرفه أمم كثيرة، ولذلك نجد أن تنزّه المسلم عن البول والغائط في جسمه وثوبه لا نظير له عند معظم ـ إن لم نقل جميع ـ الأمم الأخرى، وبذلك يمكن القول: إن المسلم الملتزم بتعاليم دينه، هو الأطهر والأنظف في هذا العالم؛ ولله الحمد.

٤ ـ الغذاء المتوازن:

هو شرط أساسي لصحة جيدة، ومعظم الناس على جهل عظيم بما يحتاجه جسم الواحد منهم. ويظن كثيرون أن مجرد ملء المعدة يعدّ كافياً لحصول أجسامهم على حاجتها من الغذاء؛ ولذا ترى بعض الناس قد أصيب **بالبدانة** نتيجة كثرة ما يأكل، وهو إلى جانب ذلك مصاب بفقر الدم بسبب سوء ذلك الذي يأكله!.

المتخمون في أمة الإسلام كُثُر، والجياع وأشباههم أيضاً كثر، وكل ذلك بسبب أشكال من الخلل والقصور الثقافي والسلوكي؛ والمطلوب أن نستعيد التوازن الضروري لاستقامة حياتنا الفردية والاجتماعية.

وظائف الغذاء في جسم الإنسان أربع: البناء، وتوليد الطاقة، ودعم المناعة، وبقاء النوع. ولكي يتم تزويد الجسم بالغذاء على أحسن وجه يجب أن يشكّل (البروتين) نحواً من (١٥ ـ ١٨٪) من غذائنا، والدهون (٣٠٪)، والسكريات والنشويات (٥٢ ـ ٥٥٪)، بالإضافة إلى بعض المعادن و(الفيتامينات). وإن الخلل الكبير في هذه النسب يسبب أضراراً كبيرة للجسد على المدى البعيد؛ وعلى سبيل المثال فإن نقص (البروتين) في الراتب الغذائي اليومي إذا كان حاداً فإنه يؤدي إلى ضمور العضلات وانتفاخ البطن ونقص المناعة... أما زيادته عن الحد المطلوب، فإنها تشكّل عبئاً على الكبد والكلى، وهكذا...

إنني لا أريد التفصيل في مسألة أنواع الغذاء، وما يشتمل عليه كل منها من عناصر مهمة، لكن أقول: إن الوعي الصحي بما تحتاجه أجسامنا كمّاً وكيفاً، وبمصادر ذلك؛ أمر ضروري لكي نساعدها على عبور رحلة الحياة الشاقة.

٥ ـ التخلص من البدانة:

أساس مهم من أسس الصحة العامة، وأحد مطالب السلامة والنجاة من معطيات زماننا، حيث كثرت وسائل الترفيه، وصنوف الأطعمة التي لا تكاد تُحصر، مما يغري الإنسان بالإسراف في تناولها، والذي تنشأ عنه زيادة في الوزن لدى كثير من الناس.

كان القدماء يعرفون الكثير عن **مضار البدانة**، وقد ورد من الآثار والحكم في ذمها الكثير، ومن ذلك قوله ﷺ: «أكثر الناس شبعاً في الدنيا، أطولهم جوعاً يوم القيامة»، وقوله: «المؤمن يأكل في مِعَىً واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

ويروى عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «إياكم والبطنة[1] في الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسم، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة، وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السَّرَف. وإن الله ـ تعالى ـ

(١) البطنة: الامتلاء الشديد من الطعام.

ليبغض الحبر[1] السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه».

هناك مقاييس عدة للوقوف على **الوزن المثالي**، أشهرها يقوم على تساوي الوزن مع الطول بعد حذف ١٠٠سم من الطول، فالذي طوله ١٧٠سم يكون وزنه المثالي ٧٠كغ؛ فإذا زادت **كمية السعرات الحرارية** التي يتناولها الشخص عن حاجة الجسم اليومية، فإن الجسم يحوّل كثيراً من الزائد إلى «دهون» تتراكم تحت الجلد، وفي العضلات، وحول الأوعية الدموية... فيبدأ وزنه بالازدياد. والبدانة أو السمنة في نظر بعض العلماء ثلاث درجات:

١ ـ **سمن معتدل** إذا زاد الوزن بنسبة (٢٠ ـ ٤٠٪) من الوزن المثالي.

٢ ـ **سمن متوسط** إذا زاد الوزن بنسبة (٤١ ـ ١٠٠٪) من الوزن المثالي.

٣ ـ **سمن شديد** إذا زاد الوزن بنسبة أكثر من (١٠٠٪) من الوزن المثالي.

لكن تجب معالجة السمنَة منذ أن تصل في الوزن إلى (١٠٪) خاصة في الأطفال؛ لأن المعالجة بعد ذلك تصبح صعبة.

يمكن القول: إن البدانة تؤدي إلى سلسلة مروِّعة من المخاطر على الصحة العامة للإنسان، وتوضح بعض الإحصاءات أن البدانة تترافق مع نقص العمر بسبب ما تؤدي إليه من الأمراض، فقد تبيّن أن ازدياد الوزن ١٠كغ عن الحد المثالي يترافق مع نقص العمر بنسبة ١٨٪، وازدياده ١٥كغ يترافق مع نقص العمر بنسبة ٢٨٪. ويقول أحدهم: كلما زاد الوزن عن الحد المثالي ١٠كغ نقص العمر عشر سنوات[2].

---

(١) الحبر: العالِم.

(٢) الأعمار بيد الله ـ تعالى ـ وهذا الكلام عن الوضع العام وليس عن الأفراد، وإلا فقد يعيش النحيف أقل من السمين، وقد يُعَمَّر البدين جداً أكثر من المعدل الوسطي السائد في بلاده، لكن الله ـ جلَّ وعلا ـ بنى الحياة كلها على الأسباب والمسببات، والإحصاءات التي يذكرها العلماء في هذا الشأن، عبارة عن استقراء لما هو واقع بالفعل، وليس لما يمكن أن يقع.

من الأمراض التي تسببها البدانة ارتفاع الضغط الشرياني، وتشحُّم الكبد، والروماتيزم المزمن، ودوالي الساقين، وخثرات الأوردة، وقصور القلب الاحتقاني، وأمراض الشرايين التاجية، والعقم لدى النساء، وقصور التنفس، وانتفاخ الرئة، وازدياد (كولسترول) الدم، والإصابة بالسكري، إلى جانب الإصابة بتآكل غضاريف المفاصل. . .

وعلى سبيل المثال، فقد تبيّن أن زيادة الوزن عن الحد المثالي بمقدار (٢٠٪) تجعل صاحبها مهيّأ للإصابة بالداء السكري أكثر من الشخص الطبيعي بنسبة عشرة أضعاف. وكلما ازداد وزن الجسم كيلوغراماً واحداً عن الحد المثالي، يزداد طول الأوعية الدموية في الجسم ٣كم؛ وهكذا فالقلب الذي كان عليه أن يخدم وزناً معيناً للجسم وطولاً معيناً للأوعية الدموية، يجد نفسه مضطراً لخدمة جسم أكثر وزناً بكثير، وأوعية أكثر طولاً بكثير، مما يجهده، ويضعفه قبل الأوان!

هناك الكثير من الطرق للتخلّص من البدانة، ولكن أكثرها أمناً وفاعلية تلك التي تعتمد على (الإرادة الصلبة) التي تساعد صاحبها على مقاومة شهوة التهام المقادير الكبيرة من الطعام، إلى جانب شيء من الرياضة الملائمة.

٦ ـ الإقلاع عن التدخين:

لا نريد أن نتحدث عن البعد عن تناول الخمور والمخدرات؛ لأننا لا نوجّه الخطاب إلى الفئة المتورطة في مثل هذه الأمور، وإنما نوجّهه إلى تلك الشريحة الخيرة من الناس، والتي ترغب في تحسين أحوالها، والارتقاء في معارج الكمال. وبعض من هذه الفئة قد يجد نفسه أسيراً لعادة التدخين بسبب عوامل مختلفة.

ومن المؤسف حقاً أنه في الوقت الذي بدأ العالم الغربي يحارب التدخين، ويرتب العقوبات والغرامات على تناوله في الأماكن العامة، وأماكن العمل والطائرات. . . في هذا الوقت أخذ (الدخان) ينتشر بين اليافعين والشباب من أبناء المسلمين على نحوٍ مخيف، ينذر بأوخم العواقب.

وقد كان بعض علماء المسلمين يتردّدون في تحريم الدخان، أما الآن بعد أن ثبتت أضراره الكثيرة، فينبغي أن تصير الفتوى إلى التحريم أو ما يقاربه، وينبغي على الحكومات أن تقف موقفاً صارماً من الاتجار به وترويجه، وإلجاء المنتفعين من ورائه إلى أضيق السبل.

إن أهم المواد المنبعثة من الدخان ثلاث، هي: النيكوتين، وغاز أوّل أكسيد الفحم، والقطران؛ وهي ما بين مواد سامة ومسرطنة، كما أن الورق الذي يُلفّ به التبغ هو أيضاً مادة مسرطنة.

وأضرار التدخين عديدة، ويذكر د. **كيلاني**: أن الإحصاءات تشير إلى أن التدخين يتسبب في (٣٠٪) من الإصابات بالسرطان، وفي (٢٥٪) من الوفيات بأمراض الشرايين التاجية لمن هم دون سنة الـ(٦٥) سنة من العمر. وهو يتسبب في (١١٪) من إجهاضات الحوامل، وفي (١٥٪) من سرطانات الرئة (خاصة)، ونسبة إصابة المدخنين المعتدلين بسرطان الرئة تبلغ تسعة أضعاف نسبة غير المدخنين. أما في المدخنين المدمنين، فتبلغ النسبة عشرين ضعفاً.

وفي تقرير لمنظمة الصحة العالمية ما ملخصه: **يحدث كل سنة (٢,٥) مليون وفاة بسبب التدخين في العالم.** وهو يسبب (١٦٪) من وفيات أمراض القلب و(٣٩٪) من وفيات جهاز التنفس، و(٨٧٪) من وفيات سرطان الرئة.

إن ثمن السكاير التي تُدخَّن في العالم كله كلَّ سنة يقدَّر بـ(١٠٠) مليار دولار، تذهب هباء، وتلوِّث البيئة أيضاً، فهل هذا حلال؟.

إن مسؤولية الإقلاع عن التدخين تقع على المدخن أولاً، لكن لابد من سنّ التشريعات والقوانين التي تحارب هذه الظاهرة المستفحلة، ولابد للأسرة والمدرسة من أن تقوما بواجبهما في التوجيه والرقابة والمتابعة، كما أن الوسائل الإعلامية المختلفة لها دور بالغ الأهمية في محاصرة هذه الظاهرة. ولا يخفى أن هذه الموجة الهائلة التي تجتاح أقطاراً عديدة في عالمنا الإسلامي، هي جزء من موجة الضياع التي يتعرض لها شبابنا اليوم، لأسباب عدة، باتت واضحة للقاصي والداني؛ والله المستعان.

٧ ـ الراحة النفسية:

لا يصح للمسلم أن ينسى أن كل ما يحققه من نجاح، وما يصيبه من خير، هو من توفيق الله ـ تعالى ـ ومعونته وفضله، وأن ما يصيبه من بلاء وشدائد قد يكون بسبب أخطائه وتقصيراته، وقد يكون ابتلاء من الله ـ تعالى ـ يُثاب عليه إذا صبر واحتسب. وفي كلتا الحالتين، فإنَّه لا يصح لنا أن ننسى أن كل المكاسب والنجاحات التي نحققها في هذه الحياة، هي مكاسب ونجاحات مؤقتة وزائلة، هي وأصحابها، وأيضاً فإن كل أشكال الإخفاق والبلاء، هي الأخرى مؤقتة، وستزول إن عاجلاً وإن آجلاً. وهذا الإدراك يؤمّن للمسلم نوعاً من التوازن النفسي، كالذي نستشفّه من قول الله ـ سبحانه ـ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

حتى يصل المسلم إلى هذه الحالة، فإن عليه أن يحرر نفسه من أسر الهموم والوساوس والأوهام؛ إذ على الواحد منّا أن يأخذ بالأسباب، ويفعل كل ما يستطيع فعله في الاتجاه الصحيح وأن يرضى بالنتائج، ويستسلم لأمر الله ـ تعالى ـ.

نقول هذا لأن (**الجلطة القلبية**) تأتي اليوم في الدرجة الأولى بين أسباب الوفاة في كثير من بلاد العالم، وهذه **الجلطة** سببها تصلّب الشرايين، وحين تُصاب شرايين القلب بالتصلّب والضيق، يكون القلب مملوءاً بالدم، ولكنه لا يستطيع أن يأخذ منه الكمية الكافية له. وسبب تصلّب الشرايين هو ازدياد نسبة (**الكولسترول**) و(**الغليسيريدات**) الثلاثية في الدم.

إلى جانب ذلك فإن (الكرب) ذو تأثير بالغ في تصلّب الشرايين وحدوث الجلطة، وبعض الأطباء يجعل العامل النفسي هو السبب الرئيس في حدوثها، ويذكرون أن وزنه بين أسباب حدوثها يصل إلى (٧٠٪)، وتخفيف الكرب يكون

بالعلاج الإدراكي، والرضا بقضاء الله وقدره، والتذكّر بأن هناك أناساً كثيرين قد أصيبوا بأكبر مما أُصبنا به، ويعانون أشد مما نعاني منه.

لابد بعد هذا وذاك من الحرص على الاسترخاء والنوم المبكر، وقد ثبت أن نوم أول الليل أنفع للجسم من نوم آخره؛ فالسهر خلاف السُّنّة إلا من حاجة مشروعة، فتقليله هو الأصل، وتعوّد النوم المبكر يساعد المسلم على اغتنام أوقات السحَر المباركة، وحضور صلاة الفجر مع الجماعة.

٨ـ ممارسة الرياضة:

إن ممارسة الرياضة الملائمة لسن الواحد منّا على درجة عالية من الأهمية، فهذه الأجهزة التي متّعنا الله ـ تعالى ـ بها تحتاج المحافظة عليها إلى استخدامها بأسلوب يحافظ على سلامتها، ويحرضها على النمو.

وقد كان كثير مما هو مطلوب يتم في الماضي بطريقة عفوية، حيث الآلات التي توفّر الجهد العضلي شبه معدومة، مما يضطر الناس آنذاك إلى استخدام أيديهم وأرجلهم على نحوٍ مستمر في جلّ شؤونهم. أما اليوم، فإن فلسفة الإنتاج، ووفرة وسائل الاتصال، وكثرة الأجهزة، والآلات المختلفة ـ فإن كل ذلك يتجه إلى تقليل الحركة، وقضاء الأعمال في المنزل أو في المكتب، واستخدام الجهد العضلي إلى أدنى حدّ ممكن على ما هو معلوم...

كثيرون أولئك الذين يقولون: إنه لا وقت لديهم لممارسة الرياضة، مع أن الواحد منهم لو حسب ما يقضيه من وقت في أحاديث غير ذات قيمة على الهاتف، وما يقضيه من ساعات عديدة أمام التلفاز لوجد أن ما يبذّره من وقت أكثر بكثير مما يحتاجه لتجديد بُعده البدني، وإبقائه في حالة جيدة من الحيوية.

إن تنشيط الجسم ورفع كفاءة أجهزته المختلفة، ثمرة لن تكون أبداً مجانية، فمبدأ: «**لا فائدة بدون ألم**» ينطبق على موضوع الرياضة، كما ينطبق على موضوعات أخرى كثيرة.

فوائد الرياضة كثيرة جداً، فهي تحرق الدهون الزائدة عن حاجة الجسم، وتخلّصه من أذاها وشرورها، كما أنها تحرك المفاصل، وتنشّط الدورة الدموية، فتأخذ المفاصل حاجتهـا من الكلـس والمغنزيوم، وغيرهما كاملة.

وللريـاضة أيضاً أثر جيد على الحالة النفسية. وكلما كان الهواء نظيفـاً، وكان المكان مفتوحاً، كانت فائدة الرياضة أعظم، وبعد الفجر يكون الهواء في قمة نقائه، لذا فإن ممارسة الرياضة بين طلوع الفجر وطلوع الشمس تكون ذات مردود أفضل. المشي والجري والحركات السويدية وركوب الخيل والسباحة... كلها ريـاضات مفيدة ونافعة، ويمكن للواحد منّا أن يسـلك الطريق الأطول إلى المسـجد أثناء ذهابـه إليه والإيـاب منه، كما يمكنه ترك استخدام سيارته يوماً في الأسبوع، وقضاء حاجاته القريبة ماشياً. وإن مشي نصف ساعة إلى ساعة يومياً يُعدّ كافيـاً للمحافظة على درجـة جيدة من الليـاقة البدنيـة، المهم أن يختار المرء الرياضة المناسبة لسنّه، وأن ينتظم فيها في كل الظروف والأحوال.

إن الاهتمام بالبدن مطلوب في هذا الزمان أكثر من أي وقت آخر نظراً لأننا نعيش حياة مصطنعة، كثيراً ما تكون خارجة عن دورة الحياة الفطرية الطبيعية، ولابد أن نعوِّض ما فقدنـاه نتيجة ذلك بالوسـائل المختلفـة التي أشـرنا إلى كثير منها. والله المستعان.

* * *

الفصل الثالث

إدارة شؤون العيش

المنطلق النظري:

العيش في الزمان الصعب، يتطلب من المسلم أن يستنفر كل قواه: الروحية والعقلية والجسمية والمهارية؛ حتى لا يُهمَّش، أو يجد نفسه تابعاً ذليلاً لجهة ما، أو يجد نفسه كسيراً حسيراً، لا حول له ولا طَوْل. إن الحياة العامة التي يعيشها السواد الأعظم من الناس ليست **حياة سوية**، حيث اختصر كثير من الأنشطة الروحية والأدبية، أو ألغي؛ مما جعل المجال الأكبر للتنافس بينهم هو **المال**، ومايتبعه من متاع الدنيا، وصار مما لا جدال فيه أن **(المال) قد غدا محور الحياة الحديثة** أكثر من أي وقت مضى؛ فعن طريقه يمكن الوصول إلى أي شيء، كما يمكن دفع أي شيء، وبه يمكن ستر أي شيء...

وهذه الوضعية الصعبة لا يصح تجاهلها، كما لا تصح مسايرتها على نحو مطلق. **الرؤية الإسلامية** العامة في مسألة المال والاقتصاد والكسب والاستثمار والإنفاق، رؤية تميل إلى التوازن والاعتدال، **وهي رؤية مترابطة**، تراعي مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة في آن واحد، كما تراعي حيثية كون الدنيا مزرعة للآخرة، وكونها دار ممر، لا دار مقر أيضاً. ولعلنا نجمل المنطلق النظري في هذا الشأن في النقاط التالية:

١ - **إن الله - جلّ وعلا - ضامن ومتكفل بالرزق** لكل إنسان، بل لكل ذي روح، يقول - سبحانه -: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[هود: ٦]. ويقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]. لكن ذلك لا يعني

أن رزق الله للناس سيكون على درجة واحدة، فالحكمة البالغة اقتضت التفاوت في المعايش تحقيقاً للتكامل، وتنويعاً للابتلاء، وفي هذا يقول ـ سبحانه ـ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]. لكن النظام الإسلامي يكفل تكافؤ الفرص في العيش والكسب، ويؤمّن وسائله على نحوٍ متساوٍ؛ ولكل مجتهد من جهده نصيب.

٢ ـ الكسب والعمل والكد في طلب الرزق عبادة، وإن لم تتعدَّ ثمرات ذلك الدائرة الشخصية والأسرية للمسلم، لكن بالشروط والآداب التالية:

ـ أن يكون العمل مشروعاً، فالعمل في الربا وأمكنة القمار والملاهي، لا يكون طيباً؛ والله ـ تعالى ـ لا يقبل إلا طيباً.

ـ أن تصحبه النية الصالحة: نية المسلم إعفاف نفسه، وإغناء أسرته، ونفع أمته، وعمارة الأرض، وما شابه ذلك.

ـ أن يلتزم فيه حدود الله ـ تعالى ـ فلا يظلم، ولا يخون، ولا يغش، ولا يجور على حق غيره.

ـ أن يحاول تأدية العمل بإتقان وإحسان ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ـ ألا يشغله عمله الدنيوي عن تأدية واجباته الدينية، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧]. ومرّ على النبي ﷺ رجل، فرأى الصحابة من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟! (أي الجهاد) فقال: إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً، فهو في سبيل الله؛ وإن كان خرج يسعى على أبويْن شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله؛ وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها، فهو في سبيل الله؛ وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان»[1]. وفي حديث مسلم:

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة (أي عتق عبد) ودينار تصدّقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، **أعظمها الذي أنفقته على أهلك**».

٣ ـ تستنهض الرؤية الإسلامية في مجال الكسب كل مسلم إلى العمل وبذل الجهد في استنباط خيرات الأرض، وتدوير رأس المال، وإنتاج الخدمات المختلفة، فهي تحارب العطالة والبطالة وهدر الطاقات والإمكانات، وهناك من النصوص ما يحبّذ قيام المسلم على أعماله بنفسه، وكسب قوْته من عمل يده وجهده الخاص، مهما كانت ثمار ذلك متواضعة ومحدودة؛ فذاك خير من سؤال الناس، وإراقة ماء الوجه في ذلّ الحاجة إلى الآخرين، وفي حديث البخاري: «ما أكل أحد طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده». وعند البخاري أيضاً: «لأنْ يأخذ أحدكم أَحْبُلَه، ثم يأتي الجبل، فيأتي بحزمة من حطب على ظهره، فيبيعها، فيكفّ بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

٤ ـ اختلف العلماء اختلافاً واسعاً في التفاضل بين **الغني الشاكر والفقير الصابر**، واستدلّ كل فريق بأدلة صحيحة على اختياره. والذي أراه أننا حين ننظر إلى المسألة على المستوى الفردي، **فإن الأفضلية تتوقف على مسلك الغني ومسلك الفقير تجاه الحالة التي هو فيها**، فالشكر ليس درجة واحدة، وهناك رذائل وانحرافات كثيرة تصاحب الوفرة، كما أن هناك رذائل وانحرافات كثيرة تصاحب الفقر والقلّة.

أما على المستوى العام، فلا ينبغي أن يختلف في هذا الأمر، حيث إن هناك اعتبارات كثيرة، تجعل المقارنة بين الغنى والفقر غير واردة، ففي زماننا خاصة، يستحيل تعليم الناس من غير مؤسسات ترعاها الدولة، كما يستحيل إيجاد نوع من التجانس الثقافي من غير مؤسسات إعلامية، كما يستحيل المحافظة على الاستقلال الوطني من غير جيش وسلاح. . .

كما أن هناك شرائح اجتماعية عديدة، تعيش في ظروف وأوضاع خاصة، كما هو الحال والشأن بالنسبة للأرامل والأيتام والمعوقين واللاجئين والباطلين

عن العمل والمفلسين والغارمين، والذين تعرّضوا لكوارث طارئة[١] . . . فحين يكون الفقر هو السمة العامة للدولة وللمجتمع، فإن كل ما ذكرناه من مؤسسات وفئات، سيكون في حالة صعبة، وأحياناً مأساوية. وسيختلف الأمر حين تكون المالية الوطنية جيدة، على ما هو ملموس في بعض الدول[٢].

وقد أدرك كثير من علماء السلف أن الفقر كان وسيلة إذلال لكثير من الناس، كما كان ذريعة لشراء بعض الذمم، ولذا فإن عدداً غير قليل منهم حاولوا تحسين وضعهم المادي، وحثّوا الناس على مثل ذلك، يقول ابن الجوزي: «ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس، فإن العالم إذا استغنى ضمّ إلى العلم خير الكمال، وإن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لابد منه، وقلّ الصبر، فدخلوا مداخل شانتهم، وإن تأوّلوا فيها، إلا أن غيرها كان أحسن لهم».

وقال حماد بن زيد: قال لي أيوب: «الزم سوقك، فإنك لاتزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إليهم».

وقال سفيان الثوري: «**كان المال فيما مضى يُكره، فأما اليوم، فهو ترس المؤمن**».

---

(١) ورد في هذا المعنى عن سعيد بن المسيب قوله: «لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حله، يعطي منه حقه، ويكف وجهه عن الناس». وكان يقول: «اللهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلاً، ولا حرصاً، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بني مروان حتى ألقى الله، فيحكم بيني وبينهم، أَصِلُ منه رحمي، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار.

(٢) صرّح وزير التعليم الإندونوسي أن وزارته لا تستطيع أن تؤمّن إلا كتاباً واحداً لكل عشرة طلاب. وفي المقابل تفيد بعض الإحصاءات أن مجمل ما تبرّعت به المؤسسات والأفراد في الولايات المتحدة عام ١٩٩٦م قد بلغ نحواً من (١٥١) مليار دولار، ذهب نحو من (٤٥٪) منها لدعم المؤسسات الدينية، ونحو من (١٣٪) لدعم التعليم ونحو (٩٪) لدعم الصحة. فكم مجمل ما تبرع به الناس في العالم الإسلامي الذي يزيد عدد سكانه على عدد سكان أمريكا أكثر من خمس مرات؟!.

٥ ـ إن **ظاهرة الفقر** التي تلف معظم أقطار العالم الإسلامي، وكثيراً من أبنائه لم تُدرس على نحو كافٍ، وهي ظاهرة متجذرة في التاريخ الإسلامي، وأظن أنه مما لاينبغي أن يختلف فيه أن هذه الظاهرة المخيفة، تعود إلى الكسل وسوء التوزيع والظلم، والفساد الإداري من جهة، وإلى اختلاط بعض المفاهيم من جهة أخرى. وفي هذا السياق نجد على مدار التاريخ من المسلمين من يغلط في فهم بعض قضايا القضاء والقدر، ولاسيما مسألة الرزق، وأنه مقسوم ومكتوب، على ما هو معتقد أهل السنة والجماعة، حيث فهم كثير من المسلمين أنه مادام الرزق مكتوباً ومحدداً، فلِمَ العناء والكدّ، ولِمَ التفكير والتخطيط. . . ؟

والحقيقة أن أنواع القضاء ثلاثة:

أ ـ قضاء يستوجب الصبر والشكر، وهو كل ما يحدث للإنسان بدون تدخل إرادته، مثل كونه ابن فلان، ومثل ما قضى الله له به من الوسامة أو القبح والذكاء أو الغباء. . .

ب ـ قضاء يستوجب المعالجة، أي مقابلته بما ربطه الله ـ تعالى ـ به من أسباب؛ فما قضى الله به من الجوع، يعالَج بالأكل، وما قضى الله به من المرض، يُعالَج بالدواء، وهكذا. . .

ولذا لمّا أراد عمر رضي الله عنه عدم دخول الشام نظراً لوجود الطاعون فيه، وقيل له: «أفراراً من قضاء الله» قال: «نعم أفرّ من قدر الله إلى قدر الله».

جـ ـ ما قضى الله به من التكاليف الشرعية، فهذا يُمارس الإنسان تجاهه حريته، فإن فعل ما أمر به كان مثاباً، وإن عصى عوقب. ولو سلبه الله ـ تعالى ـ الاختيار لأسقط عنه المسؤولية على ما هو معروف.

إن كثيراً من المسلمين خلط بين **ما أراد الله ـ تعالى ـ بنا وبين ما أراده منا**، وبين ما منه بد، ويمكن دفعه ومعالجته، وبين ما ليس منه بد، فلا ينفع معه إلا الرضا والاستسلام والصبر والحمد.

حين نجد عالماً من علماء المسلمين، أو رجلاً فذّاً ممن يُقتدى به فقيراً،

فهذا لا يعني أن الفقر ممدوح، وأنه أصلح لحال الأمة وحال الأفراد، فربما يكون ذلك بسبب تفرغه للعلم، كما عزف بعض الأئمة عن الزواج خوفاً من شغله لهم عن التأليف والتعليم. وقد يكون فقره بسبب أنه وجد نفسه في ظروف صعبة، وحاول تحسين وضعه، فلم يستطع، وقد يكون ذلك لأنه خشي على نفسه فتنة الغنى، والدخول في مداخل الشراء وتبعاته، والعجز عن القيام بحق المال...

إن الانحراف في فهم حقيقة القضاء والقدر، يحوّل الإيمان به من سلاح يخوض به المسلم غمار الأخطار، ويقف به المواقف الصلبة (لأنه يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له) إلى إنسان جبري معطّل للأسباب، يتقوّت الأماني، ويغوص في أوحال الكسل والبطالة. وهذا ما يعاني منه كثير من المسلمين اليوم!.

٦ ـ **من المنطلقات الإسلامية التوسط في الإنفاق**، فلا يمسك المسلم المال عن مواضع البرّ والصلة والصدقة... ولا ينفقه في ذلك أو في أكل وشرب، ويظل بعد ذلك حيران، لا يدري ماذا يصنع بنفسه وعياله. وقد ذكر بعض المفسّرين أن سبب نزول قوله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، هو أن غلاماً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن أمي تسألك كذا وكذا. فقال: «ما عندنا اليوم شيء». قال: فتقول لك: اكسني قميصك. فخلع قميصه، فدفعه إليه، وجلس في البيت عرياناً.

حسن التدبير، وإدارة الموارد القليلة مما يساعد على جعل حياة المسلم أقرب إلى الاستقرار، ومما يساعد على تكوين المالية العامة في الأمة، ولاسيما إذا علمنا أن كثيراً من الأعمال اليوم، لا يقوم على الجهد البدني فحسب، وإنما يحتاج إلى أدوات إنتاج، والتي لا يمكن توفيرها إلا عن طريق ادّخار بعض المال، مما هو متاح للمصاريف اليومية.

ومن العجيب أن يذم بعض علماء المسلمين (**الادّخار**) تعلّقاً بأدبيات أو نماذج لا تمثّل توجّه الشريعة السمحة، بمقدار ما تمثل نزعات فردية، هي أقرب إلى المثالية، التي إن صلحت لفرد من الناس ـ نظراً لظروفه الخاصة ـ لم تصلح

أن تكون قاعدة عامة في حياة الأمة؛ ومن ذلك ما نقله الغزالي في الإحياء عن بعض علماء المسلمين من أن من حصل له مال بإرث أو كسب. . . فله في الادخار ثلاثة أحوال:

الأولى: أن يأخذ قدر حاجته في يومه، فيأكل إن كان جائعاً، ويلبس إن كان عارياً. . . ويفرق الباقي في الحال، ولا يدخره، فهذا هو الوفي بموجب التوكل تحقيقاً، وهذه الدرجة هي الدرجة العليا.

الثانية المقابلة لهذه المخرجةُ له عن حدود التوكل: أن يدّخر لسنة فما فوقها، فهذا ليس من المتوكلين أصلاً!.

الثالثة: أن يدخر لأربعين يوماً فما دونها، فهذا موضع خلاف: هل يخرجه ذلك عن مقام التوكل أو لا؟.

وهذا مع أنه ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ ادّخر مرةً لأهله قوت سنة، كما أن شعيرة الزكاة قائمة على امتلاك أنعام أو مال يحول عليه الحول، كما أن العديد من الصحابة الكرام، كانوا يمتلكون الأموال الطائلة، ولا يستطيع أحد أن يقول: إنهم بذلك خرجوا عن حدود التوكل. وما أكثر الأقوال والمذاهب التي شوّشت الرؤية على العامة، وكونت في حسهم التوجهات الفكرية والسلوكية الخاطئة!.

أساليب ووسائل في تدبير شؤون العيش:

إن المنطلقات النظرية في كل أمور الحياة، ليست هي التي تنقل الناس من حال إلى حال، والمناهج على مختلف أشكالها وألوانها، ليست هي التي تحمل الناس إلى الغايات التي يريدونها؛ فقد حفظ الله ـ تعالى ـ هذا الدين، وظلت قطعيات الشريعة دائماً واضحة للعيان، لكن الأمة مع ذلك تراجعت عما كان عليه سلفها؛ لأنها لم توفر الشروط والبيئات التي تساعد المنهج على أداء دوره في حياة الناس.

وهكذا فالمنطلقات النظرية ترسم الطريق، وتسهل العمل، وتزيل العوائق الثقافية من وجهة، وتجعل الإنجاز يبدو مشروعاً وممكناً، كما أنها

توفر معايير قياسه، **لكنها لا توجد العمل نفسه، وإنما توجده البرامج والأساليب والأدوات التي نوظفها في سبيل تحقيقه**؛ ولذا فقد يملك خريج من كلية التجارة كل الأفكار والنظريات التي تجعل منه رجل أعمال ناجحاً، لكن ذلك وحده، لاينتج أي شيء ما لم يكن لديه المشروع والمال والإطار التنفيذي. . .

وسأستعرض هنا بعض ما أعتقد أنه يساعد في تدبير شؤون العيش والرزق، وإدارة الإمكانات المتاحة من خلال الحروف الصغيرة التالية:

١ ـ الاستقامة والالتزام:

تأتي الاستقامة، وتقوى الله ـ تعالى ـ على رأس ما يمكن أن يفعله المرء في مواجهة الصعاب، وتحسين ظروف المعيشة، فقد تعهّد ـ سبحانه ـ بالرزق وتفريج الكروب لمن يتقيه، ويلتزم بأمره ونهيه، حيث قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

ومما يوسع في الرزق صلة الرحم وبر الأقارب، فقد ورد في الحديث الصحيح: «من أحب أن يبسط له في رزقه، ويُنسأ له في أجله، فليصل رحمه». وإن من المؤسف أن كثيراً من الناس، يواجه الأزمات بالتفلت من الضوابط الشرعية وبقطع الرحم، والإقلال من الصدقة، ظناً منهم أن ذلك يوسِّع خيارات الحركة لديهم، ويضغط نفقاتهم، ومادروا أنهم بذلك يحرمون بركة التوفيق والمعونة من الله ـ تعالى ـ وربما تضاعفت أزماتهم، وكان ما خسروه أكثر بكثير مما ربحوه.

٢ ـ التفوق:

لايكون المتدين الحق شخصاً عادياً؛ لأن طبيعة التدين الصحيح تقتضي التفوق والتقدم على الأقران؛ وكلما كان استيعاب المسلم للمرامي الأخلاقية والحضارية للإسلام أفضل كان نجاحه في شؤونه الحياتية المختلفة أعظم.

قد يكون من الصعب على الواحد منّا أن يتفوق في جميع أنشطة الحياة؛ إذن فليحاول أن يكون الأول أو الثاني في محيطه في بعضها، كالمحافظة على الوقت، أو الدقة في أداء العمل، أو حسن الإصغاء، أو الاستفادة من الفرص المتاحة، أو حُسن المعشر والعلاقة بين الناس. . . على ألا يتخلف عن الحدّ المقبول في باقي أموره. إن أي تفوق في أي من هذه الأمور وأشباهها سيجعل قدرتنا على مواجهة الصعاب أفضل، وسيزيد من كفاءة عيشنا في الزمان الصعب.

٣ ـ حاول تحسين دخلك:

يعيش كثير من الناس في هذا الزمان على حافة الفقر، وهناك شكوى عامة من تزايد صعوبة توفير الحاجات الأساسية، حيث تحوّل كثير مما كان يُعد في الكماليات إلى أشياء ضرورية تصعب استقامة الحياة بدونها؛ أضف إلى هذا وجود بطالة متصاعدة في قطاع الشباب ـ ولاسيما المتعلم منه ـ إلى جانب ارتفاع الأسعار على نحو مستمر، ومن الحلول لمواجهة هذه الوضعية أن يحاول الإنسان **تحسين دخله**، حيث إن بإمكان المرء أن يوجِد لنفسه عملاً فرعياً، يدر عليه دخلاً إضافياً؛ ومهما ساءت الأحوال، فإن هناك دائماً بعض الفرص للحصول على مصدر يزيد في دخل الإنسان، كما أن بإمكان ربات البيوت أن يعملن في بعض الصناعات اليدوية الخفيفة داخل بيوتهن، لتعزيز دخل أزواجهن.

وقطاع الخدمات يتنامى على نحوٍ سريع، وهو يوجِد اليوم فرصاً كثيرة للعمل، لا تحتاج إلى الكثير من المال بمقدار ما تحتاجه من التنسيق والتنظيم، أي المبادرة والعقل المنظّم وشيء من الجهد والصبر. ولا ننسى أن نقول: **إن هذا يجب أن يتم في إطار من التوازن ومراعاة الحقوق الأخرى المترتبة على الواحد منا.**

٤ ـ تعود تأجيل الرغبات:

لدى النفس البشرية ميول غريزية نحو الكسل والفوضى، والهروب من الواجبات، والابتعاد عن الأعمال الجادة. وكثيراً ما يرى الواحد منا نفسه وقد

قطع عملاً مهماً، يقوم به من أجل إجراء مكالمة هاتفية غير ملحّة، ولا ضرورية، أو لزيارة صديق كان معه بالأمس، أو لسماع نشرة أخبار، يعرف أنه ليس فيها أي جديد . . .

المطلوب من الواحد منا أن يسجّل على نفسه كم مرة في اليوم استطاع تأجيل رغبة ملحة من أجل إتمام عمل مهم؛ وكم مرة قطع عمله من أجل خاطر خطر على باله، وهو لاينطوي على أية أهمية أو قيمة.

إنّ تحرك الوقت على نحو متتابع يرتّب علينا مسؤوليات وأعباء جديدة، ولابد من مواجهتها عن طريق الاستمرار في العمل قدر المستطاع.

٥ ـ اكتساب المهارات:

كانت متطلبات العيش في الماضي غير البعيد محدودة جداً، ولذا فإن الواحد من الناس كان يقوم بمعظم حاجاته. ومع ارتقاء الإنسان في مدارج الحضارة أخذت أساليب الحياة تتعقد شيئاً فشيئاً، وزاد اعتماد الناس بعضهم على بعض، مما جعل تقسيم العمل يزداد شمولاً وعمقاً، وصارت صلاحية الإنسان في البناء الاجتماعي، تستمد اكتمالها من مدى ما يمكن أن يقدمه لمجتمعه من إسهامات هو بحاجة إليها.

إن مهمة العلم أن يرتاد آفاق المجهول، ويكشف السنن، ويحلل العوامل المتشابكة للظواهر المختلفة. . . **لكنّ هذا كله لا يحسّن نوعية الحياة على نحو ملموس ما لم يُترجم إلى تطبيقات عملية، ويتجسد في أساليب ووسائل، توفر الراحة للناس**؛ وهذا ما ينجبه اللقاء السعيد بين العلوم النظرية وبين الممارسات المهنية والتقنية.

إنَّ جزءاً كبيراً من صعوبة العيش في زماننا يعود إلى ضعف القاعدة الصناعية والمهنية في بلاد المسلمين؛ وواضح أن التقدم الصناعي الذي أحرزته الدول الغربية، وبعض الدول التي تسير على نهجها ـ هو الذي مكّنها من قيادة الحضارة، وإملاء شروط العيش الكريم على الأمم الأخرى، وقد أفرز ذلك بطالة ضخمة،

اجتاحت مئات الملايين من أبناء العالم الإسلامي، وصار إتقان الشاب لحرفة أو مهنة يكتسب من ورائها رزقه أمراً في غاية الأهمية.

ومن المؤسف جداً أن كثيراً من الشباب ـ العربي خاصة ـ يفضّل أن يجلس كسيراً حسيراً في بيته، أو يمضي سحابة يومه متجولاً في الشوارع على تعلّم حرفة أو مهنة أو تطوير مهارة يمتلكها، وذلك من بعض بقايا الجاهلية الأولى في النفوس والأعراف، حيث كان المهنيون ـ على نحوٍ عام ـ هم عماد الطبقة التي تتولى خدمة المجتمع، وهناك إلى جانبها طبقتان أخريان: طبقة (الشجعان) وطبقة (التجار) التي تمثّل النفوذ والثراء في المجتمع.

وقد حاول النبي ﷺ القضاء على مفاهيم كراهية المهن من خلال أقواله، ومن خلال سلوكه الشخصي، وقد انفعل الناس بذلك في البداية إلى حدٍّ كبير، لكن الأمر لم يدم طويلاً حيث جاءت حركة الفتوح بمئات الألوف من العبيد وغيرهم ممن وفد إلى الجزيرة العربية والحواضر الإسلامية الأخرى، وكان كثير من أولئك يتقن الكثير من المهن والحرف والمهارات، مما جعل العرب يشعرون بعدم الحاجة إلى امتهان الحرف مادام هناك من يقوم بشؤونهم المختلفة، فعاد ازدراء المهن من جديد إلى حياة الناس[1]!.

إن العيش في الزمان الصعب، يتطلب تحرراً ثقافياً، وتجاوزاً للأعراف والتقاليد البالية التي جعلت كثيراً من الشباب يسلك مسالك ذي العيال المتكبر؛ إنهم يريدون أن يشكّلوا طبقة متميزة بدون أي شيء يؤهلهم لذلك!.

التقدم الحضاري أوجد أزمات كثيرة، ومنح فرصاً أكثر، وقد صار هناك الكثير الكثير من المهن والحِرَف والمهارات التي يمكن اكتسابها وإتقانها في بضع شهور، حيث إنه بسبب التقدم التقني، وتوفر الآلات المساندة صار إتقان الصنائع أسهل من ذي قبل.

---

(١) يقول الفرزدق معيّراً جريراً بأبيه الحداد:

إنـي بنى لي في المكـارم أوّلـي ... ونفخت كيرك في الزمـان الأول

إلى جانب المهن والحِرَف القديمة صار هناك حِرَف كثيرة يمكن للإنسان أن يتقنها؛ فالوضع الجديد للدعاية والإعلان ـ مثلاً ـ منح ذوي المواهب في الرسم والخط فرصاً عظيمة للعمل. وبرامج الحاسوب وفّرت الملايين من فرص العمل. وليس سراً أن كثيراً من البرامج لا تصممه الشركات في مبانيها، وإنما تعهد به إلى هواة يقومون بتصميمها في منازلهم. صيانة المحركات والأجهزة الإلكترونية والكهربائية والساعات، وما شاكلها تتطلب المزيد من العاملين، وتنمو على نحو مطّرد.

الواجب على الواحد منّا أن يستخدم جزءاً من أوقات فراغه في تطوير بعض مهاراته، أو تعلّم بعض المهن الخفيفة التي يستفيد من ورائها في تحسين وضعه المعيشي، وإنّ كل ذلك من جملة الأعمال التي تساعد الأمة على النهوض؛ إذ لا نستطيع أن نوجد مجتمعاً أقوى من مجموع أفراده، فوجود الأفراد المهرة، يعني في النهاية مجتمعاً ماهراً.

٦ ـ اغتنام الفرص المتاحة:

الفرص تعني دائماً ظروفاً أكثر ملاءمة للقيام بعمل ما، وهذه الظروف لاتتوفر دائماً، بل إن الفرص الكبرى، قد لا تتوفر إلا مرة واحدة في العمر. الفرص لا تطرق باب أحد، وعلى الناس أن يبحثوا عنها. حين يكون المرء إيجابياً وفعّالاً، فإنه يقع على الكثير من الفرص أكثر من غيره، لأنه يدرك جوانب النفع الخفية، فيسبق إلى الاستفادة منها. الكسل والخوف من الإخفاق، من أكبر العوامل التي تُقعِد الإنسان عن الاستفادة من الفرص. إن مشاورة أهل الخبرة فيما يلوح من إمكانات للتحسن، تساعد كثيراً على التحرك والإقدام، فلنجعل ذلك خلقاً لنا.

٧ ـ السفر باب من أبواب الرزق:

السفر قطعة من العذاب، لكنه أيضاً باب من أبواب الرزق، حيث يستفيد المرء خبرات جديدة، وينقل إلى البلد الذي يسافر إليه خبرات بلده الذي نشأ فيه،

ويقع على فرص غالباً لا تتوفر في بلاده، وقد قال الله ـ جلّ وعلا ـ: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠]. قال ابن عباس وغيره: «السّعَة: سعة الرزق». وكان ابن عمر يقول: «ما خلق الله موتةً أموتُها بعد الموت في سبيل الله أحب إليّ من الموت بين شعبتي رحلي، أبتغي من فضل الله ضارباً في الأرض».

وعلى مدار التاريخ كان الناس يهاجرون ويسافرون تفادياً للمجاعات والأزمات الخانقة، وكان معظمهم يجد في ذلك منجاة مما هو فيه من كرب وضيق وقلّة. إن تعلّق المرء بمسقط رأسه، ومقام أهله شيء فطري، ورمز من رموز الوفاء، لكن المبالغة في ذلك، تحرم المرء من أمور كثيرة، هي في غاية الأهمية[1]. وعلى كل حال فالخيّرون يبنون حيث اتجهوا، وحيث أقاموا؛ وغربة سنوات قد تساعد على الاستقرار والسعة عمراً مديداً.

٨ ـ توفير شيء من الدخل:

كانت الحياة في الماضي أقرب إلى الرتابة، والمفاجآت فيها قليلة، والاحتياجات محدودة. أما اليوم فكل شيء قد تغيّر، وصار توقّع الحالة الطارئة من مرض وسفر ومصروفات تعليم.. أمراً ضرورياً. أضف إلى هذا أن تحسين الوضع المادي لأحدنا، سيظل مرتبطاً بتوفر شيء ـ ولو قليل ـ من المال، **مما يوجب على الواحد منّا ألاّ ينفق كل ما يأتيه من مورد، وأن يحاول أن يجتزئ شيئاً منه، يعدّه لما ذكرناه ولغيره.**

بعض الناس ينفق دخله الشهري في أيام معدودة، ثم يستدين إلى نهاية الشهر، ليظل يشعر بأنه عاجز ومغلوب! ومع أن بعض الناس يكون مضطراً فعلاً لمثل ذلك، إلا أن الصحيح أن كثيرين منا يسيئون استخدام مواردهم المالية،

---

(١) يروىٰ عن الشافعي ـ رحمه الله ـ قوله:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفريجُ همٍّ واكتساب معيشةٍ ... وعلم وآداب وصحبة ماجد

وينفقون كثيراً منها على أشياء تَرَفية، أو دعوات وولائم مظهرية، ثم يظل يطرق باب فلان وعلاّن مُريقاً ماء وجهه!

فكرة الصندوق الاحتياطي التي يعمل بها بعض الناس جيدة ومفيدة، حيث يقوم بعضهم باجتـزاء (١٠٪) من الدخل الشهري، ويضعه في ذلك الصندوق ليستخدم فيما بعد في نحو ما ذكرناه.

٩ ـ إدارة الإمكانات المحدودة:

كلما كانـت الإمكانـات محدودة، والمـوارد شحيحة، احتجنا إلى براعة أكثر في إدارتها؛ حيث إن علينا أن نؤمّن حاجاتنـا من وراء رأس مال محدود. وتظهر التجارب العالميـة يوماً بعد يـوم أن بإمكان الإدارة الممتـازة أن تعوض ضعف الإمكانات المتاحة؛ والتقدم التقني الهائل يتيح أكثر فأكثر لأعداد كبيرة من الناس أن ينتجوا كميات كبيرة من المحاصيل من جرّاء زراعـة مسـاحات صغيرة جداً، وفـي بعض الـدول صارت الزراعة المنتجة على أسطح المنازل، وعلى الأرفف المقامة على الجدران ـ مألوفة؛ كما أنه صار في إمكان صاحب الخبرة أن يقيم مصنعاً صغيراً في حجرة من داره، بل إن بعض المصانع الكبرى كانت نواتها في يوم من الأيام عبارة عن ورشة صغيرة جداً، كما هو الشأن في مصانع (فورد) للسيارات.

مما يسـاعد على خفض النفقات تأجيل شـراء بعض الأشياء إلى الأوقات التي تكون فيها رخيصة ـ وهذا ما يفعله كثير من الناس في أمريكا ـ وأكل بعض الفواكه والخضار في مواسمها، حيث تكون عادة منخضة، وإجراء المكالمات الهاتفية في أوقات التخفيض، والعزوف عن شراء الأشياء الترفية والكمالية... ولابد مع هذا وذاك من الإقلاع عن عادات البطر والتبذير في المأكل والملبس والمسكن، حيث تنفق النسـاء الأمـوال الطائلـة على الملابـس وأدوات الزينة، وحيث تطبخ كميات كبيرة من الطعام، لا تجد من يأكلها...

إنّ التفكيـر الجـادّ، ومحاولـة فهم أسـرار النجـاح فـي بعض القطاعـات

أو المؤسسات الناجحة مما يولّد الأفكار المبدعة التي يمكن أن تقوم عليها مشاريع ناجحة، وحين تُوجَد الفكرة، وتُدعَم بدراسة جدوى عقلانية وعلمية، فإن المال لا يغدو مشكلة، حيث يتهافت المستثمرون على صاحب الفكرة، وبذلك يكون صاحب الفكرة قد استثمر إمكاناته الذهنية، وربح أكثر من أصحاب الإمكانات المادية الجيدة، والتي لا يعرفون ماذا يصنعون بها.

١٠ ـ لا تجمّد أموالك:

المال أداة إنتاجية مهمة، والرؤية الإسلامية فيه تحثّ على جعله متحركاً نامياً، حيث إن في حركته توفير فرص عمل للمحتاجين إليه، كما أن فيها تنشيطاً للاقتصاد الوطني، وعائداً على الدولة وأصحاب رؤوس الأموال، إذا ما أُدير بشكل جيد. ولعلّ هذا ما يفسّر قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لو كان لي مثل أحد ذهباً لسرّني ألاّ تمرّ عليّ ثلاث ليالٍ وعندي منه شيء إلا شيئاً أرصده لدَيْن».

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ: «ألا من ولي يتيماً له مال، فليتّجر له في ماله، ولا يتركه فتأكله الصدَقة». وإن في ترتيب الإسلام الزكاة في الأموال غير المستثمرة حضّاً لأصحابها على استثمارها، لأن المال ما أُوجِدَ من أجل أن يُكتنَز ويُكدَّس في البيوت، وإنما من أجل الاستغلال، حتى ينتفع بحركته الناس.

١١ ـ العلاقات الحسنة مصدر رزق:

مصير البشرية متوقّف على عدد محدود من الأمور الجوهرية، أهمها علاقة الناس بخالقهم ـ جلّ وعلا ـ ثم علاقتهم بعضهم مع بعض. والتعاليم الإسلامية في هذا الشأن، تؤسس علاقات ممتازة بين الناس؛ لأنها قائمة على الحثّ والعطاء والتسامح والتعاون؛ ونجد هذا واضحاً في نحو الحثّ على ابتداء الغير بالسلام، وإكرام الضيف والجار، ومقابلة الخطأ بالعفو، والتبسّم في وجه الأخ المسلم، والصبر على ما تجرّه مخالطة الناس من الأذى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعيادة المريض، وزيارة الأصدقاء، وصلة الرحم، والنصح للشريك، وغشيان المساجد في الجمعة والجماعات والأعياد.

إنّ كل ذلك فوق أنه تعبّد لله ـ تعالى ـ يعود بالنفع العظيم على أصحابه؛ فهـو مثلاً يجعل الآخرين يشـعرون بالامتنان، ويبحثـون عن وسـيلة يردون بها المعروف، كما أنه يبني الثقة والأُلفة بين المسلمين، وهو أيضاً وسيلة للتعارف والتعاون. وحين يحتاج واحد من الناس إلى نوعٍ من الخدمة أو العمل، فإنه يلجأ أولاً لمن يعرفهم؛ وهذا هو الدافع الذي يكمنُ خلف الكثير من أعمال الإعلان التي تُنفَق فيها الملايين.

إننا بحاجة دائمـاً إلى الثقـة بأنه مهما سـاءت الأحوال، واشتدّت الكروب، فستظل هناك فرص وخيارات، لكن قصورنـا الذاتي، وضعف شـفافيتنا تجاه الفرص، هما اللذان يحولان دون الاستفادة منها، واستخدامها في تجاوز الحالات الصعبة.



الباب الخامس

العيش في الزمان الصعب

العلاقات الاجتماعية

الفصل الأول

أهمية العلاقات الاجتماعية

أعتقد أن تأثير الآخرين في حياتنا هو عادةً أكبر مما نعترف به، وهذا يؤدي إلى عدم إعطاء العلاقات الاجتماعية حقها من الحياطة والعناية.

إن الله ـ جلَّ وعلا ـ افتتح وجود الكائن البشري افتتاحاً اجتماعياً؛ فآدم لم يعش في الجنة وحيداً، وإنما مع حواء. وحين هبطا إلى الأرض، اتَّسعت دائرة حياتهما الاجتماعية بإنجاب الأولاد ووجود الأسباط والأحفاد. ومنذ ذلك اليوم، وإلى يوم الناس هذا ما فتئت الفضاءات التي تكتسبها العلاقات الاجتماعية في حالة من الاتساع الدائم؛ حيث إن من طبيعة التقدم الحضاري تعقيد كل شيء؛ والذي يقتضي من جهته المزيد من التداخل والتشابك، والمزيد من العلاقات الاعتمادية.

إنّ الأمداء الفسيحة الشاسعة للارتقاء البشري مدينة للنظم الاجتماعية التي يحيا البشر داخلها؛ بل يمكن القول: إن الحياة الاجتماعية تسهم على نحوٍ جوهري في تشكيل الطبيعة الأولى لنا؛ حيث إن كثيراً من مفردات الطبيعة الإنسانية، لايورث من الأسلاف، بل هو ميراث على كل إنسان أن يستعيده من خلال العلاقات المربية والخبرات المكتسبة.

أما الحيوان فإنه يستطيع أن ينشأ دون رعاية، وأن يُشبع كل غرائزه، ويقوم بكل وظائفه دون أية مساعدة؛ فالبرمجة الغريزية تكفيه مؤونة ذلك. لكن الآفاق التي يمكن أن يلامسها محدودة جداً، وليس الإنسان كذلك.

ويمكن أن نسلِّط الضوء على أهمية العلاقات الاجتماعية في حياتنا من خلال المفردات الآتية:

١ ـ الذات الإنسانية ذات مشتّتة بين الخصوصية المركّزة، وبين الاعتماد على الآخرين. ومما لا خلاف فيه أن أهم موارد خبراتنا وعواطفنا وسعادتنا واستقرارنا، يظل على صلة بالآخرين؛ فمنذ الولادة يبدأ الطفل بالاعتماد على أبويه، ليس من أجل تأمين نموّه فحسب، وإنما من أجل تكوين ذاته؛ وحين يكبر قليلاً، ويتخلّق شيء من الوعي لديه، يعتقد أن فقده لأحد والديه يعني تغييراً جذرياً في حياته، كما يعني حدثاً مزعجاً، لا ينبغي أن يخطر وقوعه في البال. ومع الأيام تتعدّد موارد الفيض الاجتماعي من خلال القرابة والزواج والصداقة والزمالة والجوار، والمنظمات الاجتماعية التي يجد المرء نفسه منتمياً إليها دون إرادة منه، وتلك التي ينتسب إليها باختياره.

وكلّما ازداد نضج الإنسان، وأراد أن يوسّع نشاطه وجد ـ على خلاف ما قد يتبادر ـ أن حاجته للآخرين صارت أعظم، وأكثر حيوية وإلحاحاً؛ فعلى حين يقول المراهق: أنا يقول البالغ الناضج: نحن.

إن العالم الذي يحيط بنا بكل منجزاته وأشيائه وأفكاره وانعكاساته، يربطنا على نحوٍ ما بأشخاص كثيرين لا نعرفهم، ويفتح قنوات ـ أحياناً غير مرئية ـ للتواصل معهم والتأثير بهم. وفي المقابل فإن قراراتنا واختياراتنا وأنشطتنا المختلفة ستسهم في تشكيل العالم الذي سيعيش في أجوائه مَن سيأتي بعدنا.

وأعتقد أن إدراك هذه الوضعية على نحوٍ جيد، سوف يجعلنا نتأمل أكثر فأكثر في أهمية العون الغيري لوجودنا، كما يجعلنا نفكر في رعاية التبادلية الاجتماعية وتعزيزها وترشيدها.

٢ ـ يظل المرء يشعر بالقصور الذاتي عن فهم العالَم الذي يعيش فيه، ومهما بلغ من النضج والاكتمال، فإنه لا يفتأ يشعر بالحاجة إلى مَن يساعده على تكوين رؤية إدراكية للوسط الذي يحيا فيه، ولمجريات الأحداث التي تقع في ذلك الوسط. وهذا في الحقيقة لايتم من خلال كثرة قراءة الكتب، ولاسماع نشرات الأخبار، وإنما من خلال ما توفّره العلاقات الزوجية والصداقات الحميمة من الحديث المتبادل حول مجمل الأوضاع والشؤون المختلفة.

إنّ الحوادث المستفيضة والمستمرة، توجد عالماً معرفياً مشتركاً بين الأزواج والأصدقاء والزملاء والجيران. . . وهذا العالم المشترك ينمّي البصيرة الاجتماعية والثقافية لدى جميع المشتركين فيه. ونجد قيمة ذلك إذا تأملنا النمط الفكري والمعرفي الذي يسود لدى الانطوائيين والانعزاليين والعزّاب الذين ليس لهم أصدقاء يثقون بهم، حيث يلمس المرء في كثير من الأحيان تقويماً مشوَّهاً، ورؤية غائمة لكثير من مفردات الواقع المعيش.

٣ ـ تُشبع العلاقات الاجتماعية العديدَ من الحاجات العاطفية والنفسية لدى الإنسان؛ وتلك الحاجات متعددة، ويتم إشباعها بطرق مختلفة. وعلى الرغم من أن العلاقات الاجتماعية، لاتخلو من التسبب في بعض المتاعب إلا أنَّ هناك أدلة عديدة على استقلال المشاعر الإيجابية عن المشاعر السلبية؛ إذ يمكن للمرء أن يُشبع ميوله إلى العديد من الحاجات الاجتماعية في نفس الوقت الذي يعاني فيه من مفرزات صِلاته بالآخرين، كما يحدث للأم التي تستمتع بوجود طفلها المريض إلى جانبها، مع ما يسببه لها مرضه من آلام ومخاوف ومشاق.

على الرغم من أن العلاقات الاجتماعية تصبُّ في النهاية في محصّلة واحدة إلا أنها كثيراً ما تختلف في نوع الوظيفة، التي تقوم بها في تدعيم كياننا المعنوي وإشباع حاجاته ورغباته؛ وعلى سبيل المثال فإن العلاقات الزوجية إلى جانب أنها تشكّل السياق الشرعي لتلبية نداء الفطرة الذي وضعه البارئ ـ سبحانه ـ في الزوجين توفّر أجواء الودّ والرحمة والطمأنينة والثقة وإسقاط الكلفة والتعاون والأنس. . . ؛ وما أجمل قول الله ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

علاقات الأخوّة والصداقة الحميمة، توفر تحسناً فورياً للحالة المعنوية، كما أنها توفر المرح في حالة الأطفال والشباب، كما توفر لكبار السن الشعور بالأُنس، وتملأ شيئاً من الفراغ. ويمكن القول على نحوٍ عام: إنّ الناس يحتاجون إلى أصدقاء حاجة ماسّة لثلاثة أسباب جوهرية:

أ ـ المساعدة العملية في بعض الشؤون، وتوفير بعض المعلومات حول بعض القضايا.

ب ـ إسداء النصح وتقديم التعاطف، والاستماع إلى الشكوى بإخلاص وتفهّم، والمشاركة في النظرة إلى العالم.

جـ ـ تماثل الاهتمامات والمشاركة في بعض الأنشطة، وممارسة بعض الألعاب. وجود الأبناء في الأسرة مهم للغاية، ومع أن الرضَّع والمراهقين ـ الذكور منهم خاصة ـ يسببون العديد من المشكلات لأسرهم، إلا أنهم يشبعون الميول إلى الأبوّة والأمومة، كما أنهم يشيعون في المنازل الحيوية والمرح، ويستمتع الأبوان برؤيتهم وهم ينضجون ويكبرون. أضف إلى هذا أنّ الأبوين يريان في أولادهما نوعاً من تحقيق الذات، كما يريان فيهم نوعاً من الاستمرار لوجودهما بعد وفاتهما؛ كما أن وجود الأولاد والأحفاد مصدر للشعور بالنضج والرشد والعمق في فهم الحياة.

علاقات القرابة علاقات قهرية، لا حيلة للمرء فيها، وهي ترتب بعض الحقوق والواجبات الشرعية والأدبية بين الأقرباء، مما يجعل المرء يشعر أن بإمكانه أن يتوقع علاقات وثيقة ومستمرة مع بعض الناس على مدى الحياة، كما أن بإمكانه أن يتوقع دعماً معنوياً ومادياً غير مشروط؛ وهذا مما يوفر الطمأنينة والثقة، ويحدّ من مشاعر الاغتراب والوحدة.

أما علاقات الجوار، فهي إلى جانب كونها تؤمِّن تبادل بعض الأشياء الضرورية، كما تسهّل سبل التعاون ـ تجعل المرء يشعر أن له سنداً، يعتمد عليه عند وجود المخاطر الطارئة؛ فالجار كثيراً ما يشبه (حزام الأمان) الذي لا تُعرف عَظَمة فائدته إلا عند وجود مشكلة، أو وقوع ما ليس في الحسبان. وهكذا فإن شبكة العلاقات الاجتماعية، تؤمِّن للإنسان من أشكال الرفاهية ما لا يمكن أن يؤمِّنه أي شيء آخر.

٤ ـ يواجه الإنسان العديد من المشاقّ والأزمات في حياته المهنية والخاصة، وذلك يسبّب له العناء، والإحساس بالضعف، ويعكّر مزاجه. والدعم الاجتماعي

الذي يتلقّاه الإنسان ممن حوله من أقرباء وأصدقاء. . . يجعل تأثير المشاق والأزمات، في حياته يتضاءل إلى حدّ التلاشي.

الدعم الاجتماعي ينعكس في صورة شعور الفرد بأن هناك مَن يهتم به اهتماماً عميقاً، ويقدّره؛ وفي صورة شعور الفرد باندماجه الشديد مع الآخرين. . ويتجلّى تارة في صورة توفر شخص، يمكن أن تحدثه عن نفسك ومشكلاتك باطمئنان، ودون حرج أو خوف. ويتجلّى في بعض الأحيان في درجة تقدير المرء لذاته، وثقته بنفسه، وإحساسه بالسيطرة على المواقف المختلفة، باعتبار ذلك مستمدّاً ـ جزئياً ـ من استجابات الآخرين ومشاعرهم الإيجابية تجاهه.

أما طرق عمل الدعم الاجتماعي في تخفيف العناء، والتغلّب على الصعاب، فهي عديدة؛ إذ ربما كان لها تأثير فوري على (نظام الذات) وربما كان لها تأثير مباشر على الانفعالات؛ إذ يولّد التفاعل الاجتماعي الداعم درجةً من المشاعر الإيجابية القادرة على كفّ الاكتئاب والقلق.

أضف إلى هذا أن المرء يواجه الأحداث الخارجية على أنها أقلّ مشقّة، وأخف وطأة عندما يشعر أنه يتلقى نوعاً من المساندة ممن تربطه بهم بعض العلاقات، وعلى سبيل المثال فإن الصلاة على الميت وتشييعه، وتعزية أهله، وصنع الطعام لهم يخفف الكثير من إحساسهم بالمصيبة، كما أن إحساس المشرف على الموت بأن هناك من أقربائه وأصدقائه مَن سيقوم على رعاية أسرته وأولاده من بعده، يخفف من مشاعره تجاه فراق أهله والابتعاد عنهم.

إن الدعم الاجتماعي يشكّل ما يشبه العوازل الزيتية التي يضعها الشخص على جلده لوقايته من أشعة الشمس الضارة؛ وقد ثبت من خلال بعض البحوث والدراسات أن النّساء المتزوجات واللواتي لهنّ أطفال أقلُّ عرضة للاكتئاب والهواجس المزعجة من النساء غير المتزوجات، ومن اللواتي ليس لهن أطفال. ويخفّ احتمال الإصابة بالاكتئاب إذا كان الزوج يمكن الاعتماد عليه في حلّ المشكلات، وفي تحمّل الزوجة في حال الإصابة بالمرض أو ما يشابهه.

إنّ كثيراً من صور الاضطراب العقلي ينشأ من اجتماع درجة عالية من المشاقّ مع درجة منخفضة من المساندة الاجتماعية.

توفّر علاقات الأخوّة والصداقة دعماً لا يُستهان به؛ إذ تساعد على تجنب الشعور بالوحدة الذي يسبب الشعور بالقلق والملل، وانخفاض تقدير الذات.

وعلى مقدار ما تكون شبكة العلاقات الاجتماعية كثيفة، يستطيع المرء التخلص من تلك المشاعر. وعلاقات الصداقة الأشد تأثيراً في تخفيف العناء، هي تلك العلاقات الحميمة التي تُسقِط الكثير من التكلُّف، وتوفر مظلّة أمنية واقية من أهوال الأحداث المفاجئة غير السارّة.

العمل يسبب المشاقّ بطرق متعددة، فساعات العمل الطويلة، وطبيعة (الميكنة) ذات الإيقاع المتكرر، وضغط الوقت والضوضاء والحرارة، والمسؤولية عن الآخرين، والصراع معهم... كل ذلك يسبب المشقة. والذي يخفف من آثار كل ذلك الصِلات الدافئة مع بعض الزملاء؛ كما أن تعاون المشرفين على العمل وتشجيعهم، وإشراكهم لمرؤوسيهم في اتخاذ بعض القرارات، كل ذلك يضفي على العمل شيئاً من المتعة، ويخفف من ضغوطه.

وحين تتوفر (الروح الجماعية) في أكثر الأعمال مشقة، فإنها تعزل الكثير من آثارها؛ وهذا ما يحاول كثير من العمال توفيره من خلال الأهازيج الحماسية التي يرددونها بصورة جماعية.

إن الرؤية الإسلامية في مجال العلاقات الإنسانية، تؤسس عدداً كبيراً من المفاهيم والأدبيات التي تدفع المرء إلى الالتحام بمجتمعه، وإلى إقامة شبكة واسعة من الصِلات على مختلف المستويات، وفي كافة الاتجاهات؛ وحسبك أن تستعرض النصوص الواردة في برّ الوالدين، وصلة الرحم، والحقوق الأسرية، وحقوق الجار والضيف والصديق والفقير وابن السبيل والأرامل والأيتام... لتجد أن الاستجابة لأمر الله ـ تعالى ـ في هذا الشأن، تجعل المرء يشعر بوجود روافد ضخمة من الدعم والحماية التي يمكن أن تأتيه من جهات عديدة، بعضها غير معروف لديه!.

إذا كانت العلاقات الاجتماعية على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة، فإن من واجبنا أن نسعى إلى رعايتها وتنميتها، وتحسين مستواها، وفهم الأساليب والأدوات التي تساعد في كل ذلك. وهذا ما أسأل الله ـ تعالى ـ أن يعينني على توضيحه في الصفحات القادمة.

سمات اللَّبِنَة الصالحة:

البناء الاجتماعي العام يقوم على دعامتين أساسيتين: دعامة تستمد تشخيصها من الصفات الفردية الخيّرة والفاضلة التي ينبغي أن يتحلّى بها كل واحد ممّن يشكلون الكيان الاجتماعي؛ ودعامة تستمد مقوماتها مما يجب العمل عليه من أفكار وأخلاقيات وتدابير في تسهيل التواصل الاجتماعي، وحلّ الإشكالات والتوترات الناجمة عنه. والذي يلقي نظرة فاحصة على النصوص والتوجيهات الشرعية الواردة في هذا الشأن، يجد أنها تتوزع على مساقين: مساق فردي، ومساق جماعي.

وعلى الرغم من استقلال هذين المساقين في الظاهر، إلا أن بينهما من معابر التأثر والتأثير والاعتماد المتبادل الكثير؛ على النحو الذي نجده بين (علم النفس) الذي يبحث في شؤون السلوك الفردي، و(علم الاجتماع) الذي يبحث في شؤون السلوك الجماعي.

إن مجمل الأدبيات المتعلقة بالتنظير لمدى صلاحية الأفراد في تكوين البناء الاجتماعي، يستهدف تنمية الوعي حول الدور الشخصي لأفراد ذلك البناء، وانعكاسه في النهاية على مدى صلابة البناء وضعفه، حيث بات من الواضح أنه لا يمكن أن نؤسس مجتمعاً أقوى من مجموع أفراده. وإذا وجدنا أمة حققت نصراً كبيراً عاماً، فذلك لأن كل واحد من الشريحة العظمى فيها استطاع أن يحقق نوعاً من النصر على صعيده الشخصي.

إنّ اللبنات الهشّة لن تشكل في النهاية أكثر من جدار هشّ، وإنّ الخطوة الأولى على طريق التقدم الاجتماعي الحقيقي تظل متعلقة بما يمكن أن يطرأ على

ذواتنا من تحسّن وتقدّم نشعّه في علاقاتنا وأعمالنا الجماعية وإنتاجاتنا المختلفة.

ولعلّي هنا أذكر أهم السمات التي تؤهّل الفرد المسلم لإقامة علاقات جيدة مع الآخرين، وتؤهّله بالتالي لأن يكون لَبِنَة صالحة في الصرح الاجتماعي؛ وذلك من خلال المفردات التالية:

١ ـ الالتزام:

لكل مجتمع فلسفته ورؤيته وقيمه، وهي في مجملها تحدد (الصبغة) التي ينبغي أن يصطبغ بها، ويضبط سلوكه وفق مقولاتها وملامحها. وتلك الصبغة هي الصفة التي ينبغي أن تستهدف كل المؤسسات التربوية والإعلامية تعميمها، وجعلها بمثابة الروح التي تسري في جميع مناشط الحياة، حيث تشكّل في النهاية اللغة المشتركة التي يتفاهم بها المرء مع ذاته وإخوانه.

ولو تساءلنا عن الصفة الغالبة بالنسبة للمجتمعات الإسلامية والتي ينبغي أن تجسدها في حياتها، لوجدنا أنها (الالتزام) والذي هو في جوهره عبارة عن فعل المسلم للواجبات وتركه للمحرّمات مع التأدب بآداب الشريعة الغرّاء في شأنه عامة.

حين تكون العلاقات بين الناس عبارة عن مجموعة من الصفقات والمقايضات، فإنها تستغني عن كثير مما سنذكره هنا، حيث يغلب عليها آنذاك أن تكون عابرة ومؤقتة وسطحية؛ لكن حين يُنظر إليها على أنها موارد للنموّ الذاتي والنضج الشخصي، وموارد لتشييد البناء الاجتماعي، فإنها حينئذٍ تحتاج إلى الارتكاز على أسس عقَدية ومنهجية وقواسم أخلاقية مشتركة؛ وبذلك وحده تكون العلاقات الاجتماعية (مرايا) تعكس البنى النفسية والأخلاقية العميقة للناس، مما يعزز الكيان الفردي والكيان الاجتماعي في آن واحد من خلال التفاعل والتواصل المشترك.

إنّ الشخص الفاسد أو المتحلل، لا يستطيع أن يندمج اندماجاً حقيقياً في (الجماعة المسلمة) ولا يستطيع أن يثريها، أو يرفد مقوماتها المعنوية على وجه

صحيح وفعّال، بل إنه يفعل العكس من ذلك، حيث يشوّش سلوكه المنحرف رؤية الناس لـ (النواة الأخلاقيـة) التي ينبغي أن تتشـكّل حـولها مفـاهيم التواصل والتعامل بينهم.

٢ ـ التواضع:

شـيء جميل ومطلوب أن يثق الإنسـان في قدراتـه، ويعرف قدر نفسـه الحقيقي، ولكن سوف يكون من الخطأ الفادح المبالغة في ذلك، إذ إنَّ من تظنّهم دونك يستطيعون أن يضعوك دون المرتبة التي وضعتهم فيها؛ فمقاييس التفاضل، ليست واحدة دائماً ولا واضحة؛ فمنظومة القيم والذوق والعُرف، وزاوية النظر، ونوعية الاهتمامات، كل ذلك ينعكس على تقويم الناس بعضهم لبعض، وذلك كله مختلف ومتنوع. وقد كان مما أرشـدنا الله إليه من الحكمـة قوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

إن التواضع فوق أنه تعبير دقيق عن العَظَمـة الحقيقيـة ـ قليل التكلفـة على المستوى الشعوري والعملي؛ فالمتواضع يبدو دائماً أقل من حقيقته، وبذا فإنه يظل يكبر في عيون الناس دون جهد يبذله، على حين أن المتكبّر يضع نفسه في امتحان دائم، فهو رجل عريض الدعاوى، وعليه باستمرار أن يثبت أنه ليس أقل مما يدّعيه، وهيهات هيهات أن يستقيم له ذلك.

إن الكِبـر يولّد التوتر المرضي لدى صاحبه، ولدى المجتمع الذي يعيش فيه، ويكفي من ذلك ما يحدثه المتكبّر في بيئته من معادلة الاحتقار المتبادل! وقد أحسن من شبّه المتكبّر بالصاعد في الجبل، يرى الناس صغاراً، ويرونه صغيراً.

إن المتواضع كالأرض المنخفضة تجتمع فيها خيرات السماء، على حين تغادر القمم والسفوح. ولو لم يكن في التواضع سـوى جعل صاحبـه قادراً على جذب من هم أكثر منه تفوّقاً لكان مكسباً كبيراً! وعلى كل حال فإن المتكبّر يظل هو الخاسـر؛ حيث يفقد دفء الألفة وحرارة الالتحام بالآخرين، وبذلـك فإن ما يزهو به يكون عامل إقصاء له عن الناس وحرمان مما تمسّ حاجته إليه.

٣ ـ الصبر :

الحياة الاجتماعية بطبيعتها تحدث احتكاكات ونزاعات، وذلك نظراً لاختلاف أمزجة الناس وميولهم وأفهامهم ومصالحهم. . . وهذا يتطلب من كل واحد منّا أن يحاول أن يتّسع لغيره، ويلتمس له نوعاً من العذر. وبما أن العلاقات الاجتماعيـة مستويات متعددة، فإن المشكلات الناشئة عنها أيضاً ذات مستويات عدّة، ومهما يكن الشأن، فإن قَدْراً من التحمّل والصبر يظل مطلوباً. وقد ورد في الحديث الصحيح: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الـذي لا يخالط النـاس ولا يصبر على أذاهم».

إن الله ـ جلَّ وعلا ـ جعل هذه الدنيا دار ابتلاء، وقد وفّر فيها كل شروط الابتلاء، ولذا فحيثما اتّجه الإنسان، وفي أي حال كان، فإنه سيكون ممتحَناً، وعليه أن يحاول النجاح، ولن يتأتّى له ذلك إلا إذا امتلك العزيمة في مواجهة الصعاب.

إن الجزاء على الصبـر يظل دائماً أكبر مما يتوقـع المرء، وقد قـال الله ـ سبحـانـه ـ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الـزمـر: ١٠]، وقـال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة: ٢٤].

إن النزق والعجلة وضعف التحمّل، قد جعلت كثيرين منّا يخسـرون الكثير من الفرص، والكثير من العلاقات. وبعضنا يتأفّف حين يرى غيره يتّخذ موقفاً مغايـراً لما يعتقده أو يلائمه، ظنـاً منه أنه على الحق القطعي الذي يجعلـه بمثابة الجماعـة التي تتوجب العودة إليها؛ لأنه لم يتعلم الفرق بين الحق القطعي والحق الاجتهادي؛ ولطالما انقطعت حبال الودّ والتعاون بين كثير من أهل الخير نتيجة الرؤية الغائمة لهذه القضية!.

٤ ـ الرحمة :

الرحمة خُلُق من أنبل الأخلاق الإنسانية التي ينبغي على المسلم أن يتخلّق بها؛ لأنه يتجاوز مسألة الحقـوق والواجبـات إلى مرتبـة المروءة والشـهامة

والتبرع والإحسان. وإنّ طمع المسلم في ثواب الله ـ تعالى ـ واعتقاده أنّ الخَلقَ عيالُ الله، والشفافية التي يوجدها الإيمان... إنّ كل ذلك يدفع المسلم دفعاً إلى أن يكـون نمـوذجاً في الحدب والرأفـة ومد يـد العون. وهذا الخلق الكريم هو الذي يملأ الفجوات التي تسببها طوارئ الحيـاة، ويسببها القصور في النظم الثقافية والاجتماعية، وهو الذي يضفي على الحياة معنىً لا يضفيه أي شيء آخر.

والنصوص التي تثني على هذا الخُلُق العظيم كثيرة، منها قوله ـ سبحانه ـ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وورد في الحديث الصحيح: «مَن لا يَرْحَم الناسَ لا يرحمـه الله». وقد كان سلوكه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كله رقة ورحمة حتى على مستوى التشريع وبعض مسائل العبادة؛ حيث ورد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «إن كان رسول الله ـ ﷺ ـ ليدع العمل، وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس، فيُفرَضَ عليهم». وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إني لأقوم إلى الصلاة، وأريد أن أطوِّل فيها، فأسـمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي (أي يخففها) كراهية أن أشقّ على أمتي».

إن أدبياتنا تعلّمنا أنّ خُلُق الرحمة، لا ينبغي أن يوجَّه سـلوكنا تجاه البشـر، فحسب، وإنما تجاه الحيوان أيضاً؛ فحبس امرأةٍ لهرَّة ـ كما ورد في الحديث ـ حتى ماتت جوعاً كان سـبباً في دخـولها النار. وسقي بغيّ من بغايا بني إسرائيل لكلب كاد يقتله العطش ـ كان سبباً في مغفرة الله لها.

في الرحمة يتم العفو عن الزلاّت، والإغضاء عن التقصير، وتقدير الظروف الخاصة، وذلك كله مما يؤهّل المرء لإقامة علاقة طيبة مع إخوانه وأبناء مجتمعة القريب منهم والبعيد.

٥ ـ المبادرة الفردية:

لا نبعد القول إذا قلنـا: إنّ تربيتنـا العامة، تقتل روح المبادرة والمبادأة؛ حيث إن هناك حرصاً شديداً على (الرتابة)، وعلى أن يتم كل شيء وفق نظام محدد، كما أن التعليم التلقيني، يكـرِّس خلق التبعيـة والتقليد، مما صار يثير المخاوف من أي شيء ليس له نموذج سابق. التخلّف العلمي والتقني والإداري،

هو الآخر، يفكّك الروح الجماعية، ويجعل كل واحد في الناس، ينتظر غيره؛ ليصنع شيئاً. ويستبطن عدد كبير منّا مقولة: «ليبدأ غيري»، و«علينا أن ننتظر النتائج»!.

حبّ الخير والعمل الصالح مركوز في المستوى الأعمق من شعور كل مسلم، والمستعدّون للمساهمة والمشاركة الإيجابية كثيرون، إلا أن المستفيدين لوضع أول لبنة، وسير أول خطوة ـ قلّة قليلة؛ حيث الضعف الشديد في روح المبادرة، والمسارعة إلى المقدمة. وهذا أدى إلى ضياع ما لا يُحصى من القضايا العامة التي يتوجّب على الجميع النهوض بها؛ وليس أدلّ على ذلك من ضمور مفاهيم (الفروض الكفائية)، إذا ما قورنت بـ (الفروض العينيّة).

المبادرة سمة أساسية من سمات البعد الاجتماعي لذواتنا، ومن خلالها يمكن أن نعمر الكثير من الأنشطة والعلاقات؛ ولذا لم يكن مستغرباً أن نجد الكثير من النصوص التي تحثّ المسلم على المسارعة إلى ما ينبغي القيام به دون النظر إلى موقف الآخرين من الكبار والصغار، ومن تلك النصوص قوله ـ ﷺ ـ: «مَن سنَّ سنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء». ومنها قوله: «إن أَوْلى الناس بالله من بدأهم بالسلام».

إنَّ أهمّ سمات العظماء في كل الأمم أنهم يدركون الوضعية الصحيحة لمجتمعاتهم، ويملكون الرغبة في المساهمة في بلوغها، حيث إن شعورهم بالمسؤولية يفتح لهم دائماً آفاقاً جديدة، ويمدّهم بطاقات استثنائية، فيتحركون حين يسكن الناس، ويعطون حين يشحّ العطاء؛ فأين المبادرون؟.

٦ ـ اللباقة:

البنية العميقة التي توجّه سلوك الناس، وتنظّم ردود أفعالهم، ليست بنية (عقلانية)، وإنما هي بنية (عاطفية)، وعلى مقدار ما يتم من الارتقاء في سلّم الحضارة، تزيد إمكانات التفاهم المتبادل بين الناس، وترتفع درجة حساسية الشخص تجاه تصرّفات الآخرين، حيث ينتظر الجميع مزيداً من الدقة والتهذيب

والملاطفة[1]، وملاحظة الاعتبارات المختلفة.

ومع التسليم بتفاوت طباع الناس وسجاياهم، إلا أنّ الصحيح أيضاً أنّ (اللباقة) شيء يُكتسَب من خلال التثقيف والمران والتدرّب، ومع الأيام تصبح الميسم الذي يطبع اتجاهات التفكير وأشكال السلوك لدى الإنسان، ويحصل من وراء ذلك خيرٌ كثير.

تحمل اللباقة معنى الظرف ومعنى الإتقان، فالشخص اللبق يجمع بين خفة الروح، وإتقان الاتصال بالناس، والأساس الأعمق لـ (اللباقة) يتمثل في (الشفافية) والتي تعني قدرة المرء على استكناه الاتجاه الذهني للآخرين، وتحسّس مواقفهم الشعورية تجاه الأحداث والأشياء والتصرفات المختلفة. وهذه القدرة تتولّد عن الثقافة والخبرة ودقة الملاحظة، وعن شدة اهتمام الإنسان بأولئك الذين يربطه بهم بعض العلاقات الاجتماعية.

مظاهر اللباقة:

الوضع الاجتماعي العام هو الذي يحدد الأسس والمعايير التي إذا توفرت في سلوك شخصٍ ما عُدَّ (لبِقاً) أو خارجاً عن حدود اللباقة. ومع أنّ هناك قواسم مشتركة بين أمم الأرض في هذا الشأن، إلا أنَّ هناك الكثير من الأعراف والاعتبارات المحلية التي تجعل سمات الشخص اللبق تختلف من بيئة إلى أخرى.

ولكون المجتمعات الإسلامية، تؤوب في كثير من شؤونها إلى الأدبيات الإسلامية، فإنَّ المعايير المشتركة بينها في هذا المجال ـ كما في المجالات الأخرى ـ كثيرة، منها:

ـ تقدير الآخرين واحترامهم، والاعتراف بميّزاتهم وفضائلهم، مظهر مهم من مظاهر اللباقة والكياسة، ولن يكون من المبالغة القول: إنّ تلهّف الفرد إلى التقدير والاحترام، يُعدّ محركاً جوهرياً لكثير من أعماله وأنشطته. من الأقوال

---

(١) روح الحضارة أنثى، وكلما ارتقى الناس في معارجها، أضفوا على جوانب حياتهم المختلفة ـ حتى اللغوية ـ مسحة أنثوية.

الرمزية في هذا الشأن: «كل شخص يولد وعلى جبينه علامة تقول: من فضلك اجعلني أشعر أنني مهم». وكلما حدث اتصال بين الناس تناقلوا بينهم رسالة صامتة، تقول: «فضلاً زكّني»، «لا تمرر بي غير آبه»، «أرجوك اعترف بكياني».

ـ الابتداء بالسلام، والسؤال عن الحال، والاستفسار عن مآل قضية، تشغل بال الأخ المسلم، أو عن مريض يهمه أمره، وملاطفة أولاده ومداعبتهم... كل ذلك من مظاهر الاهتمام التي تعبّر عن التقدير.

وقد أراد النبي ـ ﷺ ـ أن يغرس هذا المعنى في نفوس الأطفال، فكان إذا مرَّ على صبيان سلَّم عليهم.

ومن المهم في هذا الباب ألاّ يتجاوز الاهتمام بالآخرين الحدود المقبولة، فيفسَّر على أنه تطفُّل، أو اقتحام للشؤون الخاصة. والفضيلة دائماً بين رذيلتين، والشيء إذا تجاوز حدّه انقلب إلى ضدّه.

على الواحد أن يعتاد فتح فمه بالثناء، وبيان المحامد، من غير مبالغة ولا إسراف، فتشجيع الآخرين وشكرهم، واستحسان ما يقومون به، يجعلهم يشعرون بنوع من المكافأة على جهودهم؛ وهذا ضروري لاستمرارهم في أعمالهم.

وقد أثنى النبي ـ ﷺ ـ على الكثير الكثير من خصائص أصحابه وسماتهم، على نحوٍ ما هو معروف ومشهور. وقد مدح أموراً يستخفّ بها الناس عادة ليعلّمهم شكر النِّعَم، ويؤصّل في نفوسهم فضيلة الثناء، فقد ورد في حديث مسلم أن النبي ـ ﷺ ـ سأل أهله إداماً يأتدم به، فقالوا: ما عندنا إلاّ خلّ، فدعا به، فجعل يأكل، ويقول: «نِعْمَ الأدم الخلّ، نِعم الأُدم الخلّ».

ـ من اللباقة ألاّ نزعج الناس بمشكلاتنا وهمومنا الخاصة، فعندنا لناس ما يكفيهم من الهموم، ولنحاول أن نركز على استخدام الضمير (أنت) في كلامنا، ومناقشاتنا، فذاك أدعى لإشعار المخاطَب بأننا لا نتمركز حول ذواتنا، وأدلّ على رغبتنا بمشاركته.

ـ هنـاك مواقف مربكـة كثيـرة، نتعرض لها، وربما لا تسـاعدنا البديهـة في بعض الأحيـان على التصرف الملائم فيها، وسيكون من المستحسن آنذاك أن نتخيّل تلك المواقف، ونتأمل في العبارات ا لتي نقولها فيها، والتصرّفـات التي تناسبها؛ إنه نوع من الاستعداد للمفاجآت.

ـ تبشـير الأخ بشيء يسرّه، وتهنئته على خيرٍ أصابه، من الأمور المهمة في هذا الشأن. والتبشير أدبٌ قرآني رفيع؛ فقد بشَّر الله بعض عباده بما يسعدهم في مواضع عدّة، وأمر نبيّه ـ ﷺ ـ أن يبشِّر المؤمنين بما أعدَّه لهم من الثواب، كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨]. وبشَّر النبي ـ ﷺ ـ زوجته خديجة ببيت في الجنّة من قصب ـ اللؤلؤ المجوّف ـ لا صخب فيه ولا نصب.

ـ التجاهل وعدم التدقيق، مظهر جميل من مظاهر اللبـاقة؛ إذ لكل واحد من النـاس هنـات، وعورات لا يرغب في اطلاع الناس عليها؛ وإذا كان لابدّ من التعرّض لشيء من ذلك، فليكتفِ الإنسان بالتلميح عن التصريح، وبالإجمال عن التفصيل؛ وهذا ما نستفيده من السلوك الشخصي للنبي ـ ﷺ ـ فقد كان من دأبه عدم الخوض في التفاصيل عندما يرى ما هو موضع مؤاخذة واعتراض، كما كان يتجنّب ذكر أسماء الأشخاص والقبائل إلا بخير؛ وقد قال الله ـ سبحانه ـ فيه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣].

٧ ـ صناعة المشاعر:

يمكن للمرء أن يقيم علاقاته الاجتماعية على أساس عقلاني ووفق حقوق التبادل الاجتماعي؛ كما يمكن أن يقيمها على معطيات المشاعر. العواطف شديدة التقلّب، سريعة التغيّر؛ وردود أفعالنا الأولية على أحداث الحياة وتصرفات الناس، هي ردود عاطفية في المقام الأول. وإذا اعتمدنا تلك الردود أساساً للتصرف، فإن علاقاتنا الاجتماعية سيصيبها الكثير من المد والجزر والدفء والبرود، وسنظهر بمظهر الذي لا يعرف ماذا يريد، والذي لا يدري إلى أين يتّجه.

من وجهٍ آخر فإن في حياتنا الثقافية بعض الأنماط والمقولات السوقية المبتذلة، والتي تصوّر للمرء أنه نتاج مشاعره وعواطفه، وأنّ حيلته تجاهها ضعيفة؛ ولذا فمن الأفضل له ألاّ يقاومها؛ فإذا كان لا يرتاح إلى فلان من الناس، فالأفضل له حتى لا يكدر نفسه أن يبتعد عنه. وإذا لم يجد في علاقته مع زوجته التوافق والانسجام الذي يتخيّله، فالطلاق هو الحل... وهكذا يظهر الإنسان كليلاً، وأسيراً لعواطف، قد يكون وراء تكوينها مجموعة من الأوهام والخيالات، أو رؤية الأشياء من منظور أناني.

حتى يكون الواحد من لَبِنة صالحة في بنيان اجتماعي قوي، فإن عليه أمرين:

أ ـ أن يبني علاقاته على أساس عقلاني قوي، يتم من خلاله الأخذ بعين الاعتبار وجهات نظر الناس، وترتيبهم لسلّمهم القيمي، إلى جانب ظروفهم ومصالحهم الخاصة. ومن خلال كل ذلك يحدد المرء مستوى العلاقة الذي يمكن أن يربطه بمن يريد الاتصال به. ولا يعني هذا إهمال العواطف والأحاسيس وتحييدها، وإنما يعني تأطيرها ببعض الخبرات والقواعد الثقافية؛ مما يضفي عليها المنطقية والاستمرار.

ب ـ النظر إلى المشاعر والعواطف على أنها نتائج وثمرات لتصرفاتنا وسلوكاتنا، وليست أشياء حتمية علينا أن نخضع لها. وهذه النظرة، تشكّل فارقاً مهماً بين الكسالى والمتقاعسين والفوضويين، وبين الواثقين في أنفسهم الذين يشعرون بقدر جيد من السيطرة على مشاعرهم وعاداتهم النفسية. ويرشدنا القرآن الكريم إلى أن إحساننا إلى الآخرين، وصبرنا عليهم، يغيّر في مشاعرنا نحوهم، ومشاعرهم نحونا، على نحو ما نجده في قوله ـ سبحانه ـ:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤].

وفي حديث مسلم وغيره: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى

تحابّوا، ألا أدلّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم».

إذا استطعنا أن نُخضع مشاعرنا لتفكيرنا وواجباتنا، فإن فصلاً جديداً رائعاً يمكن أن يبدأ في حياة كل واحد منّا!.

٨ ـ الألفة:

لدى الإنسان نزوع فطري نحو التوافق مع غيره من الناس، فهو اجتماعي بطبعه، وهو في سبيل هذا مستعد للتنازل عن أشياء عديدة، لكن بما أن هذه الدنيا دار ابتلاء، فقد قضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يبلو الناس بعضهم ببعض، وكان من جملة ذلك أن طلب من كل واحد منهم أن يشذّب من نفسه وخلقه وسلوكه في سبيل التآلف والانسجام مع من يقيم علاقات معهم؛ فالبنيان الاجتماعي حتى يكون بنياناً قوياً وجميلاً، يتطلب دائماً التضحية المشتركة والمتبادلة، وعلى مقدار ما يحدث من ذلك تكون درجة (الألفة) والقبول الاجتماعي.

وهناك من النصوص ما يدل على أن طبيعة التديّن الحق، تجعل من المسلم الإنسان الأصلح للتواصل الاجتماعي أخذاً وعطاء، منها قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «المؤمن مألفة، ولا خير فيمن لا يألف، ولا يؤلف». وقوله في حديث طويل: «فإنما المؤمن كالجمل الأَنِف حيثما انقيد انقاد». فالفظاظة والغلظة والجفاء، لا تتناسب أبداً مع خيرية المسلم، ولا مع طبيعة الإيمان.

إن كل ما ذكرناه، وسنذكره من سمات (اللبنة الصالحة) يساعد في الحقيقة على تآلف القلوب، ويحد من وجود النزاعات بين الناس؛ ولكن سنذكر هنا بعض الأمور ذات الانعكاس المباشر على تآلف الناس وتصافيهم من خلال النقاط التالية:

أ ـ طيب الكلام وإلانته، من أكبر العوامل التي تؤلف بين قلوب الناس، وتسلّ السخيمة من نفوسهم؛ وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]. قال بعض المفسرين: «أمر الله المؤمنين بحسن الأدب وإلانة القول وخفض

الجناح واطراح نزغات الشيطان». وورد في الحديث الشريف: «ليس المؤمن بالطعّان ولااللعَّان ولاالفاحش ولا البذيّ». وفي حديث آخر: «إن الله يبغض الفاحش البذيّ». ويقول الشاعر:

قـد يمكث النـاس دهراً ليس بينهم ودٌّ فيـزرعـه التسليـم واللطـف

إن خلـق (الحيـاء) الذي يغلب على المسـلم، يحول بينـه وبين الكلام الفاحـش الذي يتلفظ به من حُرم التربية القويمة. يقـول أحد الصحابـة: «كان النبي ـ ﷺ ـ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفنا ذلك في وجهه».

إن مباسطة الناس ومخالطتهم ومداعبتهم تزيد في الألفة، وتساعد على التخلص من الكِبْر والترفُّع المذموم؛ ويقول أحد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ: «إن كان النبي ـ ﷺ ـ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: يا أبا عمير ما فعل النُّغَير». وتجاوز الأمر ذلك إلى أن يبش في وجوه أقوام لا يستحقون ذلك، ليسنَّ لأمته مذاهب في التعـامل، تُبقـي على التـواصل، واستمرار الحياة الجماعية؛ على نحو ما نجده عند البخاري من أن رجلاً استأذن على النبي ـ ﷺ ـ فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلّق في وجهه، وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل، قالت له عائشة: يارسول الله حين رأيت الرجل قلت كذا وكذا، ثم تطلّقتَ في وجهه، وانبسطتَ إليه؟! فقال الرسول ـ ﷺ: ياعائشة متى عهدتني فاحشاً؛ إنَّ شرَّ الناس منزلةً يوم القيامة مَن تركه الناس اتّقاء شرّه».

ما فعله النبي ـ ﷺ ـ هو ما نسمّيه بـ(المداراة) وهي مباحة، وقد تكون مستحبّة، وهي غير (المداهنة)، إذ إن المرء الذي يُدراي، يبذل الدنيا من أجل صلاح الدنيا أو صلاح الدِّين أو صلاحهما معاً. أما المداهن، فإنه يبذل دينه من أجل صلاح دنياه.

إننا بحاجة إلى أن نكثر من الدعاء لمخاطبينا في كلامنا حتى نضفي على علاقاتنا الشخصية المسحة الإيمانية المتمحورة حول الإخوّة في الله والعبودية له.

ب ـ الجدارة بالثقة :

علاقات الناس بعضهم مع بعض على درجات : ما بين حميمة وممتدة ، وما بين هامشية وعابرة . على مستوى العمل يحتاج المرء أن يكون موضع ثقة من رؤسائه وزملائه . وتلك الثقة كثيراً ما تكون متعلقة بمستوى كفاءته ونشاطه ، واستجابته لما يُطلب منه إنجازه من أعمال .

ويحتاج كل واحد من الناس ـ على المستوى الاجتماعي ـ إلى أن يكون موضع ثقة عامة من معارفه وأقربائه ، وموضع ثقة خاصة جداً من أفراد قليلين ، تركوا بينهم وبينه مسافة قصيرة ، وخلطوه بأنفسهم ، وأطلعوه على أسرارهم ، والخافي من شؤونهم . وفي كلتا الحالتين يظل المرء بحاجة ماسّة إلى أن يؤهل نفسه لنيل الثقة من خلال سلوكه وتعامله وأدائه واستجاباته .

وعلى نحوٍ عام كلّما كان المرء مستقيماً وحكيماً وأقرب إلى السواء الاجتماعي ، استحوذ على ثقة الناس ، وجعلهم يقصدونه في الأزمات والملمّات ، وفي مسائلهم الخاصة . ولعلّ مما يشخِّص ذلك الآتي :

ـ حفظ السر ؛ فالمرء يظل بحاجة إلى مَن يستشيره ، ويفضي إليه بذات نفسه ، ومن أخصّ سمات من يستشار أن يحافظ على سرّية ما استُشير فيه ، وحفظ السر في الحقيقة نوع من الوفاء بالعهد ؛ والله ـ جل وعلا ـ يقول : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

ويبدو أن النبي ـ ﷺ ـ كان يركّز في تربيته لأصحابه على هذه المسألة ؛ حتى إننا نجد ـ كما في بعض الأخبار ـ حرص الفتيان على كتمان السر ؛ ففي حديث مسلم وغيره عن ثابت عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : «أتى عليَّ ـ رسول الله ﷺ ـ وأنا ألعب مع الغلمان ، فسلَّم علينا ، فبعثني في حاجة ، فأبطأت على أمي . فلما جئت قالت : ما حبسك؟ فقلت : بعثني رسول الله لحاجة . قالت : ما حاجته ؛ قلت : إنها سرّ . قالت : «لا تخبرنَّ بسرِّ رسول الله ـ ﷺ ـ أحداً . قال أنس : والله لو حدَّثت به أحداً لحدَّثتك به يا ثابت» .

ـ إن الناس يثقون بالشخص على مقدار ما يثق هو بنفسه؛ فحين يحثّ مدير مصنع عدداً من عماله على القيام بمهمة خاصة أو خطرة، ويبدي واحد منهم الاستعداد للقيام بها، فإن المدير يجد نفسه مضطراً إلى تكليفه، والوثوق به، ما لم تسبق له معرفة خاصة به تدل على عدم قدرته على إنجازها.

وكثيراً ما يكون لما نتوقعه من ذواتنا أثر كبير فيما يحدث؛ وعلى سبيل المثال، فإذا توقّع من دخل مقابلة شخصية لإشغال وظيفةٍ ما أنه سينجح في تلك المقابلة، فإن ذلك التوقع سرعان ما يتحول إلى قناعة، ويغدو مصدراً لتزويد صاحبه بالهمة والنشاط والالتزام بالاستعدادات التي تؤهله للإجابة بكفاءة على الأسئلة أثناء الاختبار، مما يزيد من احتمال فوزه بالعمل الذي يسعى إليه. ويحدث العكس في كل ذلك حين يتوقع لنفسه الإخفاق في تلك المقابلة. ولنوعية التربية التي تلقّاها الفرد، وللخبرة التي اكتسبها في حياته أكبر الأثر في توجيه توقعاته، وفي درجة ثقته بنفسه.

ـ يصعب على الناس أن يثقوا بالشخص ذي الأقوال أو السلوكات المتناقضة، حيث إن الثقة تُبنىٰ على نحو تراكمي ومتدرج؛ وتقلب الشخص من اتجاه إلى اتجاه أو قيمة إلى قيمة أخرى، يحول دون ذلك التراكم. إن الناس حتى يثقوا بشخص، ويقيموا معه علاقات حميمة يشعرون أنهم بحاجة إلى القدرة على التنبّؤ بسلوكه، وما عساه أن يفعله؛ والشخص المتذبذب، بين أنماط مختلفة من السلوك والاتجاهات، يحرمهم من ذلك التنبّؤ؛ ولذلك فإنهم لا يضعون ثقتهم فيه، ولا يألفونه.

في بعض الأحيان لا يكون الشخص متقلباً، لكنه يعطي انطباعات خاطئة عنه، وذلك من خلال عادة (المبالغة) لديه؛ حيث يفهم الناس منه قطع وعود على نفسه، لا يفي بها فيما بعد، أو تعمقَ اتجاه أو سلوك لديه، هو ليس كذلك.

ومن الواضح أن كثيرين منا يستخدمون (اللغة) استخداماً سيئاً، إلى جانب أنها في الأصل ناقل قاصر للأفكار والمعاني؛ فكثيراً ما يفهم مخاطبي أنني سآتي في وقت محدد، حين سُئلت عن وقت رجوعي إلى المنزل، فقلت إنه في الساعة

الثانية ظهراً؛ فرتب أمر الاتصال بي بناءً على أن ذلك موعد مني له، مع أنني أردت أن أخبره بأحسن تقدير للوقت الذي أعود فيه دون إحساس مني بأني بذلك أقدّم أي التزام نحو أي شخص؛ وتكون النتيجة تكوُّن انطباع لديه أنني غير دقيق، ويصعب التنبّؤ بما يمكن أن أفعله.

إن علينا أن نوقن أن (الجدارة بالثقة) شيء يشعّه مجمل الشخصية أكثر مما تشرحه الأقوال، وهي انعكاس حقيقي للتكامل الذي يلمسه الناس في ذواتنا؛ وعندما نريد للآخرين أن يثقوا بنا، ويألفونا، فإن علينا أن نحسّن من ذواتنا، ونرفع من مستوانا، ونتنبه إلى استخدامنا للغة، ونبدي اهتماماً أكثر بالآخرين.

جـ- الوضوح:

يحب الناس الوضوح، والوقوف على كل ما يتعلق بمن يرغبون الاندماج معه؛ لكن هذه الرغبة، تصطدم برغبة أخرى، هي حرص الناس على أن يكون لهم خصوصياتهم التي لا يطلعون عليها أحداً، وتلك التي لا يطلعون عليها إلا فئة محدودة جداً من الناس؛ ولذا فلابد من التوازن في هذه المسألة. وقد تكون الخطوة الأولى في هذا الاتجاه أن يحدد الإنسان مايعده خصوصيات له، فيكتمه، ويلبّي رغبة إخوانه ومحبيه في الكشف عما عداه. وأعتقد أن هذا مهم للاندماج والائتلاف؛ حيث إن الناس إذا كونوا انطباعاً عن شخص بأنه (متكتّم)، أو لايحب أن يُسأل عن أي شيء، فإنهم يبتعدون عنه، ويقلّصون اهتمامهم به، ويعاملونه بالمثل؛ ويفقد الإنسان بذلك الكثير من الدفء والتواصل الاجتماعي.

وعلى كل حال، فإن نوعاً من التحديد للمعلومات التي يتيحها المرء لغيره، قد يكون مطلوباً؛ حيث إن العلاقات التي تربطنا بالزملاء في العمل، غير المعلومات التي تربطنا بالشركاء في عمل تجاري، غير العلاقات التي تربطنا بأهل الحي...

وربما كان من الحكمة أن نعطي كل واحد من هؤلاء المعلوماتِ التي تتوافق مع نوعية العلاقة التي تربطنا به؛ فعلى حين يُطلب من (الخاطب) أن يتيح الكثير من المعلومات لأهل (المخطوبة) حتى الصحية والنفسية والمزاجية منها،

فإن الزميل في العمل، لا يحتاج من المعلومات إلا ما يخدم المهمة أو الوظيفة المشتركة التي ننجزها بالتعاون معه.

إن الذين يتكتمون على ما لا ينبغي التكتّم عليه، يجعلون من أنفسهم محوراً للتقوّلات والشائعات، ويساهمون في تشكيل صورة معتّمة وقلقة عن شخصياتهم؛ مما يجعل التعامل معهم ـ من وجه آخر ـ عسيراً.

هناك أقوام من الناس، في قلوبهم مرض، يقولون ما لا يعتقدون، ويفعلون غير ما يقولون، دأبهم الغيبة والنميمة، وتسويق الشائعات، والمديح في الحضور والذم في الغَيْبة... وصفهم النبي ـ ﷺ ـ بقوله: «تجد شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه». هذا الصنف من الناس أحوج إلى التقويم والإصلاح، ولا تستقيم معه علاقة محترمة.

د ـ تقنيات في إيجاد الألفة:

إذا رأينا شخصين منسجمين انسجاماً تاماً، ومتفاهمَين تفاهماً كاملاً أو شبه تام، فإن هذا دليل على وجود الكثير من الأمور المشتركة بينهما؛ في طريقة التفكير وفي الاهتمام والذوق وسلَّم القِيَم وتعبيرات الجسم... ومن العسير على الواحد منا أن يحقق درجة عالية جداً من الألفة مع أعداد كبيرة من الناس، وعلى نحو مستمر، ولكن بالإمكان تحقيق ذلك مع عدد محدود من الناس، وفي بعض الجلسات، ومع هذا فإن الحالات العابرة والمحدودة من الألفة والانسجام، تترك انطباعات إيجابية، وتنمو تلك الانطباعات مع الأيام لتشكّل جسوراً لتواصل أعمق، وأبعد أثراً.

إننا حين نريد من صحبتنا للآخرين شيئاً أكثر من الدعم الاجتماعي، أو أكثر من المؤانسة، فإن علينا آنذاك أن نبحث في كيفية إيجاد الأجواء التي تمكّن من التأثر والتأثير، وعبور الأفكار والقناعات والمشاعر بغية إنجاز أشياء مشتركة، تعود علينا، أو على المصلحة العامة بالخير والنفع.

كل تقنيات إحداث الألفة والوئام تتمحور حول تعظيم القواسم المشتركة، وأوجه التشـابه بين مَن يسعون إلى التآلف، سواء أكانوا أفراداً أم مجموعات؛ وهذا ما نسمّيه أحياناً بـ(المجاملة) وما ينطبق على الأفراد كثيراً ما ينطبق على المجموعاتَ؛ والوسائل التي تؤدي إلى ذلك كثيرة، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر ما يلي:

ـ منَ تقنيـات الألفة، توافق الصوت وطريقـة الكلام بين الجلساء، من حيث النغمة والسرعة والبطء والدرجة والنبرة، والارتفاع والانخفاض؛ إذ من الصعب أن تتفاهم مع شخص إذا كان صوته مرتفعاً وصوتك منخفضاً أو العكس، أو كان يسرع في كلامه، وأنت تتكلم ببطء. ولطالما أخفقت محادثات ومفاوضات بسبب أن أحد المفاوضين، يحسن الاستماع، وينتظر محدّثه حتى ينتهي من حديثه، على حين أن المفاوض الآخر لا يفعل ذلك. وكم حدث من التباعد بسبب عدم التجانس في درجة الصوت بين المشتركين في حوار؛ حيث يُفسَّر ارتفاع صوت أحد الطرفين على أنه مخلٌّ باللباقة والشفافية، ويفسَّر انخفاض الصوت لدى الطرف الآخر بالبرود أو الضعف أو بطء الفهم.

ـ توافق الحركات أثناء الجلسة: حركات اليدين والرجلين والرأس، كيف تحرك رأسك عندما يكون جوابك (نعم) للإمام والخلف. وكيف تحرك رأسك عندما يكون جوابك (لا) من اليمين إلى الشمال، ومن الشمال إلى اليمين. كذلك حركة اليدين إلى الأعلى والأسفل واليمين والشمال، وهذا يحتاج إلى أن نقلد تقليداً تاماً من نودّ إيجاد التآلف معه.

ـ توافق تعبيـرات الجسـم: طريقـة الجلوس، وضع اليد على الخد، وضع اليدين على بعضهما، كما في الصلاة، وضع إحدى الأصابع على الشفة أو الصدغ. وبذا يكون محاول التآلف بمثابة (مرآة) تعكس ما عليه جليسه.

ـ التوافق في نوع الموضوعات التي تكون مادة للقاء، هل هي شرعية أو اجتماعية أو اقتصادية، أو مما يتعلق بهمٍّ مشترك. وأعرف كثيراً من الصِلات قد تقطع أو تقلَّص بين أناس يفترض أنهم متآلفون، بسبب عدم تمكنهم من إيجاد

موضوعات مشتركة، يتحدثون بها، أو عدم وجود مستوى موحد وملائم للحديث نظراً لتفاوت المستوى الثقافي، أو عدم توافق سلسلة المعقولات والمسلّمات الثقافية.

- مراعاة رغبات الجليس: درجة إضاءة المكان وحرارته، نوعية ما يرغب في تناوله من طعام وشراب، وهل يحبه بارداً أو ساخناً، كثير السكّر أو قليله، ومتى يرغب في تناوله: في أول اللقاء أو في آخره أو في وسطه... فذاك كله يُحسب في رصيدك لديه، ويترك أثراً في تقويمه لك.

- لمس القيم التي يؤمن بها مَن نحاول التآلف معه، ومراعاة مشاعره نحو مسائل وقضايا، يعدها حساسة؛ ولن يكون من دواعي الألفة أن تمتدح الانفتاح أمام شخص منغلق، أو تمتدح السخاء في الإنفاق أمام شخص ينظر نظرة تقدير إلى التدبير والتدقيق فيه.

وحتى يستطيع المرء النجاح في كل ذلك وغيره، فإن عليه أن يمتلك أمرين:

أ - قوة الملاحظة ورهافة الحسّ، من أجل رصد خصائص الجليس ومزاجه واهتماماته.

ب - الخبرة والمهارة للتكيف معه في كل ما ذكرناه.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل عمليات التوافق مشروعة وملائمة لما ينبغي أن نتحلّى به من إخلاص وصدق وصفاء في العلاقات؟

الحقيقة أن الأمور بمقاصدها، فمهارات الألفة والاتصال والتفاوض والحوار، يمكن أن تستخدم في إقناع شخص في دخول الإسلام أو تحسين علاقته بالله - تعالى - أو في إثارة حماسته لمناصرة قيمة نبيلة... كما يمكن أن تستخدم في إغواء بعض الناس وخداعهم وسلبهم بعض ممتلكاتهم... فالأهداف والمقاصد، هي التي توضح كل ذلك؛ فالسلاح يمكن أن يستخدم في نصرة دين وتحرير وطن، ويمكن أن يستخدم في قطع طريق، أو قتل بريء.

٩ ـ تقبّل النقد:

النقد أداة من أعظم الأدوات التي اخترعتها البشرية لبلوَرة وعيها، واكتشاف ذواتها وأصولها، وأوجه القصور في مشروعاتها وإنجازاتها؛ حيث تظل الأفكار غائمة ومعتمة، ما لم تتعرض لِلَوك الألسنة، وأشعة الروز و(التقييم).

وربما شعرت البشرية أن ما لديها من ضعف في الحوافز على العمل، وما لديها من قصور اجتماعي، وسوء استغلال للسلطة والوظيفة ـ لا يعالج إلا من خلال تأسيس سلطة اجتماعية، يمارسها أفراد المجتمع بعضهم على بعض. وقد تعلّمت البشرية من تاريخها الطويل أن البديل عن ممارسة النقد وقبوله، سيكون أشكالاً من الانحباس في الحركة الاجتماعية، وأشكالاً من الفساد والتأسّن الفكري... والتي لاتقود من جهتها إلا إلى الانهيار الداخلي والتحلل الذاتي.

مهما كان الوعي لدينا عظيماً، ومهما كانت جهودنا كبيرة ومتميزة، فإنه ستظل هناك مسافة بين مانتظِّر له، وبين مايتجسّد في واقعنا العملي، وذلك لأسباب موضوعية، يصعب في كثير من الأحيان تجاوزها.

الفجوة بين ما هو كائن، ومايجب أن يكون، هي التي تعطي المشروعية للنقد، وتُلزمنا أخلاقياً بالإصغاء لمن يمارسه. صحيح أن بعض الناس إذا رأى القسم المملوء من الكأس شكا من وجود القسم الفارغ.

وصحيح أن بعض الناس يتجاهل نصف عقولنا حين يحاول إبراز عيوب الآخرين وستر محاسنهم؛ إلا أنَّ الصحيح أيضاً أنَّ معظم إنجازاتنا ومواقفنا وتصرفاتنا، يظل مشوباً بشيء من النقص، ويظل بالتالي قابلاً للمراجعة والنقد والتصحيح. ويجب أن نعترف أن لدينا ميولاً فطرية إلى حُبّ المديح، ونفوراً غريزياً من النقد؛ ولدى كثيرين منا أقدار من الثقة بالنفس، وتزكية العمل، مبالغ فيها، ولا تستند إلى معطيات حقيقية.

انطلاقاً من هذا وذاك، فإننا نرى أن تقبُّل النقد، والامتنان لمن ينقد، ينبغي

أن يكون هو المبدأ الذي نحمل عليه أنفسنا، لكن هذا لا يحرم المرء من حقه في المجادلة عن نفسه، والدفاع عن موقفه، حيث إن هناك الكثير من النقد الذي يصدر عن اجتهاد خاطئ، وعن رؤية غير واضحة.

ولعلّنا نلقي الضوء على حيثيات الموقف الذي ينبغي اتّخاذه من النقد في المفردات التالية:

أ ـ على المسلم أن يعدّ كل ما يقدَّم إليه من نقد هدية، تستوجب الشكر والتقدير، وذلك هو الحصيلة المنطقية لاعتقادنا بأننا قوم غير كاملين. وقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يدعو لمن ينصحه، وينتقده، ويقول: «رحم الله امرأً أهدى إليّ عيوبي». ورفض النصح فرع عن تزكية النفس، واعتقاد الكمال فيها، وهذا ما نهانا الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: ٤٩]. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن ركين في الحياة الإسلامية، وخير تشجيع لممارسته هو تقدير موقف الناصحين، وإشعارهم بالامتنان لعملهم.

ب ـ حين يوجَّه إلى الواحد منّا نقدٌ ما، فإن عليه أن يسمعه بقلب وعقل مفتوحين، وآذان صاغية، ولا ينبغي إظهار التبرّم أو الاشمئزاز، أو مقاطعة الناقد قبل أن ينهي عرض ما لديه، فذاك أفضل مكافأة يمكن أن نقدّمها إليه.

جـ ـ ليس من النادر أن يكون الناقد متزيداً، أو غير عادل فيما يقول؛ إذ كثيراً ما تكون معلومات الناقد غير دقيقة، وقد ينطلق في نقده من معايير غير صحيحة.. والواجب في كل هذا أن نستوعب الناقد، وأن نشعره أننا أكثر مما يتوقع في سعة آفاقنا ورحابة صدورنا، وأن نتّخذ مما قاله مادة للتواصل والحوار.

د ـ كثيراً ما يكون المنتقد مندفعاً إلى النقد بسبب كلمة سمعها عنك، وكثيراً ما يكون ما ينتقده من أقوالك ومواقفك... غير مبلوَر في ذهنه، وهنا فإن من حقك أن تتأكد من استيعابه لمرامي ما يقوله، وذلك من خلال طلبك منه أن يشرح مضمون الرسالة التي يودّ إيصالها إليك، وأن يأتي بأمثلة على ما يقوله، فإذا كان

ينتقد فيك العجلة في اتّخاذ القرار، أو عدم التزام الصدق . . . فإن عليك ألاَّ تتردّد في مناقشة ذلك معه، وذكر المواقف التي يظن أن ذلك جرى فيها، وبذلك تؤمِّن له نوعاً من (التغذية المرتدة)، وتساعده على أن يُنضج مقولاته، ويكون دقيقاً في ملاحظاته.

إنك بذلك تشاركه في تصوّر الموقف حيث يجتمع لدى المنتقد أكثر من وجهة نظر واحدة، ويشعر بتعاطفك معه.

هـ ـ لا ينبغي في أي حال من الأحوال أن نُفهم من ينتقدنا أنه مخطئ في كل ما قاله، وأنه غير عادل، وأنّ كل ما يقوله ليس له أي أساس من الصحة؛ فذاك يقتل روح المبادرة إليه، ويجعله يحجم عن توجيه النصح في المستقبل؛ مع أنّ الأمة في أمسّ الحاجة إلى تنمية هذا النمط من السلوك، وإحياء روح المفاتشة والمصارحة. إن الناقد إنْ لم يُصِب فيما قاله، فقد أصاب في تحفّزه واندفاعه نحو تقويم الاعوجاج، ومحاصرة الخطأ، وله أجر ذلك وفضله، وينبغي أن نُشعره بذلك.

و ـ علينا بعد أن نسمع ونناقش مع منتقدنا ما يقوله أن نقوم بتلخيص النقاط التي تضمّنها نقده، وبَلْوَرتها معه، حتى لا نخطئ في فهم الرسالة الموجَّهة إلينا، وحتى نشعِر المنتقِد باهتمامنا بما قاله.

ز ـ من حق من وجِّه إليه النقد أن يعبّر عن مواقفه حيال ما يوجَّه إليه في إطار من الأدب الإسلامي، وشكر المنتقد؛ إذ إننا لا نريد لحركة النقد الاجتماعي أن توغر الصدور، وتباعد ما بين الناس؛ وأفضل طريقة لذلك أن ننفِّس عن مشاعرنا من خلال إبدائها للمنتقد.

ح ـ آخر وأهم وأشقّ وأجمل ما علينا أن نقوم به في هذا الشأن هو تنفيذ ما تم الاتفاق عليه مع المنتقد؛ ومع وجود نتائج فرعية حسنة لممارسة النقد، إلاَّ أن الثمرة الحقيقة، هي أن يفضي النقد إلى نوع من التغيير في سلوك المنتقَد، وهذه مسؤوليته ومهمته الخاصة التي لا يستطيع أحد أن يقوم بها عوضاً عنه.

وبهذا نختم ما أردنا تسجيله هنا من سمات المواطن الصالح أو اللبنة الصالحة، وسوف نتمكن بحول الله ـ تعالى ـ من إغناء هذه السمات من خلال ما تبقّى من صفحات هذا الكتاب.

* * *

الاتصال الإنساني

الاتصال والتبادل والتأثير والتأثّر سمات أساسية في وجود الكائن الحي، ويأتي الإنسان على رأس القائمة في هذه الأمور. لكل شيء وجودان: وجود ذاتي، ووجود غيري. والوجود الغيري يمثّل جسر العلاقات مع الموجودات الأخرى؛ فالكتاب له كيْنونته المستقلة، وكونه معدّاً لأن يقرأه الآخرون، فذاك وجوده الغيري. . .

كلما عَظُمت إمكانات النمو والارتقاء لدى الشخص، اتّسع وجوده الغيري والعلائقي، وشعر بالحاجة إلى الآخرين. وكلما كان الشخص أقرب إلى العجز والخمول والانحلال شعر بضعف اتصاله بالآخرين. ولو أننا تأمّلنا في علاقات (مدير عام) وعلاقـات (عاطل عن العمل) لوجدنا الفرق الجلي المعبّر عن هذه الحقيقة.

يمكن تعريف الاتصال بأنه: «مهارة تبادل المعلومات والتفاهم مع شخص آخر». وإذا تأمّلنا في مفردات حياتنا اليومية وجدنا أن معظم أوقات اليقظة، ينقضي في عمليات اتصال مع الآخرين، كما يتجلّى ذلك في أحوالنا حين نسمع، وحين نتكلّم، وحين نكتب، وحين نقرأ، ونبيع ونشتري. . . حتى الاختلاط المجرّد في الشارع دون اتصال مباشر، فإنه ينطوي على عمليات اتصال، حيث الكثير من الرسائل غير الملفوظة، وحيث الدلالات الكثيرة لما نسمعه ونراه؛ ولذا فليس غريباً أن يُشخصّ الإخفاق في الاتصال بأنه وباء الإدارة المعاصرة.

قد صار (علم الاتصال) يحتل بين العلوم الحديثة مكانة مرموقة اليوم، وبات يهتم به إلى جانب المتخصصين باحثون ودارسون من مجالات أخرى عديدة، مثل علم النفس وعلم الاجتماع، ومثل خبراء العلوم السياسية إلى جانب اللغويين وعلماء أصول الإنسان والفلاسفة... وهذا كله يدل على خطورة موضوع (الاتصال) والوظائف البارزة التي يؤديها في حياتنا الحضرية.

كيف نجعل اتصالنا جيداً؟:

في زمان شديد التعقيد كزماننا، صار من الضروري ألاّ نركن إلى أساليبنا العفوية والفطرية في العيش؛ فالوسط المعقّد لابد أن يواجَه بأسلوب عيش يكافئه، وإلا فإن النتائج ستكون وخيمة. ولعلّنا نذكر هنا بعض الأسس والمبادئ والتقنيات التي تساعدنا على تحقيق اتصال جيد ومثمر لنا، ولمن نتصل به، وذلك من خلال الكلمات التالية:

١ ـ تكوين الانطباع الأولي:

حين نلتقي بشخص أول مرة، فإنه يكون حريصاً على أن يكوّن عنّا انطباعاً أوّلياً، يتخذ منه رأس جسر لطريقة تعامله معنا فيما بعد. هذا الانطباع الأولي، يُستقى من أمور ظاهرة وشكلية في الغالب، لكنه مهم جداً.

ولا أريد هنا أن أدعو إلى التصنّع في علاقاتنا، ولكن أودّ أن ندرّب أنفسنا على تجنّب المظهر المكروه لدى الناس، ومفاجأة الجليس بأمور لا يرغب فيها، وهذا مما أدّبنا به الإسلام.

إن حرصنا على تكوين انطباع أوّلي جيد عنّا يدل على وجود شفافية، كما أنه يشير إلى الأفق الذي بإمكاننا الارتقاء إليه. وهناك كلام كثير حول ما يجعل أحدنا لائقاً في عين أخيه من الوهلة الأولى، نذكر هنا بعضه:

ـ لبس الثياب التي تناسب الموقف من غير مبالغة، فالثياب التي تُلبَس في الأعراس والمناسبات أو مقابلة شخصية مهمة غير تلك التي يلبسها الإنسان للعمل أو التسوّق أو النزهات.

ـ ابدأ لقاءك بالابتسام، واعمل على أن يتم الاتصال البصري بينك وبين مَن تقابله من خلال النظر إلى جهته، وليس إلى أسفل أو إلى جهة أخرى، ولكن لا تثبّت عينك فيه؛ فالمسلم حيي، وتثبيت النظر قد يسبب الحرج للآخر.

ـ ابدأ بالمصافحة، ولا تنزع يدك من يد مَن تصافحه حتى ينـزعها هو، أو بحسب ما يقضي به العرف. ولطالما كانت المصافحة مصدراً لبعض الدفء في القلوب.

ـ لنحاول التجديد في ألفاظ التحية، فبعد إلقاء السلام يمكن للمرء أن يقول عوضاً عن (مساء الخير): (أسعد الله مساءك) أو يقول: (سعدت بلقائك) عوضاً عن (كيف حالك)... إن هذه التجديدات، تترك أثراً إيجابياً في نفس السامع، وتجعله يتوقع من صاحبها شيئاً جديداً ومفيداً.

ـ حاول جمع بعض المعلومات عمن تريد مقابلته، وناده بأحب الأسماء إليه، وإذا كان له لقب علمي، فخاطبه به، وحاول في كل حال أن تنطق اسمه على نحو صحيح.

ـ إذا كان اللقاء في بيتك، فحاول أن تستقبله أمام البيت، وأن تشيّعه في الخروج، وحاول أن تقدم له من الضيافة والنُّزُل ما تعرف، أو يغلب على ظنك أنه ينال رضاه واستحسانه.

ـ استعدّ للّقاء على نحوٍ جيد، وحضّر للموضوع الذي تريد مناقشته، واستحضر في ذهنك ما يمكن أن تجيب به على أسئلة مَن تقابله.

ـ تقدير ما يطلبه الموقف من حُسن الاستماع، وعدم مقاطعة الجليس، والحرص على أن يكون أحدنا مستمعاً أكثر من كونه متكلماً ما لم نرَ الحرص ممن نقابله على أن نتكلّم على نحو معيّن؛ فلا بأس آنذاك أن نلبّي رغبته.

إذا لم يوفّق أحدنا إلى ترك انطباع جيد لدى مَن قابله في المرة الولى، فلا ينبغي أن ييئس، إذ غالبا ما تكون هناك فرصة ثانية لاستدراك ذلك.

٢ ـ اعرف نفسك:

إن من محاور الإصلاح والنهوض بحياتنا الاجتماعية المعاصرة، أن يسعى الخيّرون والغيورون فينا إلى محاولة التأثير في الآخرين، وجعلهم ينحازون إلى المبادئ والقيم والأفكار التي يرون أنها ضرورية للعيش في (الزمان الصعب)، وهذا يتطلّب أن نحسِّن مستوى خبرتنا بأنفسنا باعتبارنا كائنات اجتماعية، يمثّل الاتصال بالنسبة لها مصدراً مهماً للنضج والتحقق الذاتي والانتشار المعنوي. ومن الوسائل التي تساعد على بلوغ هذا الهدف ما يلي:

ـ إخوانك القريبون منك هم مرآتك الحقيقية، ولاشك أنهم يختزنون العديد من الملاحظات عن طريقة اتصالك وتخاطبك وحوارك مع الآخرين. وهم أقدر على تقويمك وإفادتك في هذا الشأن. حتى يقف المرء على ملاحظات إخوانه، فإن عليه أن يصوغ العديد من الأسئلة، ويوجّهها إليهم من نحو: هل أتصل بكم بالهاتف في أوقات غير مناسبة؟ هل طريقة كلامي غير مريحة، وهل دخولي في الموضوع الذي أريد التحدّث فيه ملائم، وهل تشعر أن لدي نوعاً من العناد والإصرار على الرأي بغير وجه حق؟ وما شابه ذلك. إذا لم تعجبنا أجوبة إخواننا، ولم نرها مقنعة، فينبغي أن نشكرهم، ولا نقف موقف المدافع.

ـ يمكن للمرء أن يتعرّف على حُسن اتصاله بالآخرين من خلال ردود أفعال الآخرين عليه، فهو يستطيع ـ إن كان قوي الملاحظة ـ أن يدرك إن كان يُساء فهمه بكثرة من قِبَل مستمعيه، كما يدرك إن كان يُغضب محاوره، كما يدرك إن كان لا يحسن الإصغاء، أو إن كان يقاطع محدّثه قبل أن ينتهي حديثه... وبمقدار ما تكون ملاحظتنا لسلوكنا عند الاتصال قوية ومنظّمة، يتحسّن مستوى اتصالنا، ونستغني عن سماع ملاحظات الإخوة والأصدقاء.

ـ تسجيل الصوت على شريط وسيلة مهمة لمعرفة أسلوبنا في الاتصال، حيث يتم التعرّف على طريقة نطق الكلمات، وسرعة الحديث ونغمة الصوت، ومدى تنوّعها أثناء الحديث... ويمكن للمرء أن يقوم بمحاولات تحسينية لكل ذلك. وعلى المرء أن يكون مستعدّاً للمفاجأة حين يتفحّص صوته أول مرة، فربما لن يكون مرتاحاً له.

٣ ـ الدقة في استخدام اللغة:

للغة مستويات عديدة، وكل واحد من الناس يستخدم مستوى منها؛ فهناك كلمات لها معنى حقيقي، وآخر مجازي، وكلمات لها معنى معجمي ومعنى عامي دارج؛ كما أنّ هناك كلمات ذات معانٍ غريبة، لا يعرفها إلاَّ المختصون والمهتمون.

أضف إلى هذا أنّ الكلمات، ليست وحدها هي التي تحمل المعاني التي نرسلها؛ فقد دلّت دراسة قام بها فريق من الباحثين البريطانيين أننا حين نتحدّث مع شخص وجهاً لوجه، فإن الكلمات هي العنصر الأضعف في إيصال المعلومات إليه؛ إذ لا تحمل سوى (٧٪)، على حين أنَّ النبرة الصوتية تحمل (٣٨٪)، وتحمل تعبيرات الجسم (٥٥٪). وفي كثير من الأحيان نلغي وظيفة الكلمات في الدلالة حين تتعارض مع تعبيرات الجسم، فقد يخبرنا صديق بخبرٍ ما فلا نصدقه، ونقول: عيناك تقولان غير ذلك. وإذا رأينا شخصاً ممتقع اللون، فإننا لن نصدّق كل عبارات الطمأنة التي نسمعها منه، ونصرّ على أن مكروهاً قد وقع، وهكذا...

من المهم أن يكون هناك انسجام بين معاني الكلمات ونبرة الصوت وتعبيرات الجسم فذاك يجعل رسائلنا في غاية الوضوح، وهناك أمور عدة تجب مراعاتها في هذا الشأن، نذكر منها الآتي:

ـ البلاغة أن نستخدم أسلوباً، يناسب السامع، وتتناغم كلماته مع معانيه؛ وكثيراً ما نخطئ في تصوّر الإمكانات اللغوية لمن نخاطبه، فتضل رسالتنا طريقها إليه، أو تفقد جزءاً من تأثيرها، وقد تكون سبباً في حدوث سوء تفاهم، نحن في غنى عنه.

ومن المعروف أن لكل أصحاب تخصص، وكل أصحاب مهنة بعض المفردات الخاصة بمجالهم؛ وحين نستخدم تلك المفردات في خطاب عام، فإنها سوف تستغلق على كثير من السامعين؛ ولذا فلابد من اصطناع لغة ملائمة

لمن نتحدث معه. بعض الناس يعلّم العربية، ولذا فإن يشيع في كلامه المجاز والتورية والاستعارة، وهذا يعكر صفو الفهم لدى غير المختص. وبعض الناس يفهم المراد، لكنّه يفسّر ذلك على أنه نوع من الحذلقة والتشدّق، فينبغي الانتباه لذلك.

ـ بعض الناس يستخدم بعض الكلمات الإنجليزية أو الفرنسية... أثناء حديثه، مع أن المرادف العربي حاضر على لسانه وقريب وواضح؛ وهذا في الحقيقة شيء سيِّئ، إذ إن ذلك حين يقع في الحديث مع عربي، وفي بيئة عربية، فإن المخاطَب سيحمل ذلك على محامل سيئة؛ حيث من الممكن أن يظن أن الدافع لذلك هو (التعالم) وإظهار سعة المعرفة والاطلاع. ومن الممكن أن يفسّر ذلك على أنه نوع من الاستخفاف باللغة الأم أو المخاطب، كما يمكن أن يُظن أن ذلك بسبب ضعف عربية من يفعل ذلك...

وبقطع النظر عن كل تلك التفسيرات، فإن الأليق دائماً بنا ألا نستخدم في خطابنا أكثر من لغة واحدة إلا عند الحاجة، حيث لا مصطلحات أو مفردات مقابلة. ونجد من لطف بعض المتحدّثين أنه يعتذر لمستمعه عند استخدام كلمة أجنبية؛ إذ من الممكن أن يكون المخاطب غير عارف بمعناها، فيسبب ذلك له الارتباك والإحراج. ويقال مثل ذلك للذين يستخدمون كلمات عامّية مغرقة في عامّيتها، أو ذات سمة لهجية خاصة؛ مما يضطر السامع إلى الاستفسار والاستفهام. بعض الناس يملك حسّاً مرهفاً، فيسأل مخاطبه عن مدلول كلمة لديه قبل أن ينطق بها، فيشيع بذلك جو المودة، ويعمّق التفاهم.

ـ كثير من الناس يسيطر عليهم حبّ الكلام والاستفاضة في الحديث غير آبهين بمواقع كلامهم من نفوس سامعيهم، فيسوق النكات والأمثال التي تجرح بعض الحاضرين؛ فقد يسوق أحدهم طرفة تتعلق بقبيلة أو أهل بلدة أو أهل حرفة، ويكون بعضهم موجوداً. وقد يسوق ـ مثلاً ـ قصة أو طرفة أو عِظَة تتعلق بأهل عاهة من العاهات كالعرج أو العور أو العمى، ويكون بعض المصابين بها حاضراً؛ مما يسبب حرجاً بالغاً لهم، وقد يكون ذلك مفتاحاً لخصومات وشرور

عريضة، وهو إن لم يكن إثماً في نفسه، فإنه يجرّ صاحبه إلى الإثم؛ ولذا فلابد من الحذر الشديد.

ـ لا يخفى أن التربية التي يتلقّاها الناس في البيوت متفاوتة في درجة رقيّها وتهذيبها، كما أن المهن والوظائف التي ينخرط فيها الناس أيضاً متفاوتة، وهذه وتلك تترك آثاراً كبيرة في مستوى الكلام لديهم. وكثير من الناس يندفع في الحديث على سجيته دون أي مراعاة أو تحفّظ، مما يجعلهم يخدشون آذان مستمعيهم بكلمات وتعبيرات سوقية مبتذلة، فيكوّنون انطباعات سيئة عنهم.

ويقطع النظر عن هذه السلبية، فإن من المهم للإنسان أن يرقّي أسلوب حديثه، وأن يتحرر من بعض العادات الكلامية التي نشأ عليها، فالتعبير الجميل أدب إسلامي رفيع؛ وفي حديث الشيخين: «لا يقولنّ أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقِسَت نفسي»[1].

إن الهدف من كل ما ذكرناه ليس النجاح في الاتصال فحسب، وإنما الارتقاء الذاتي، وعكس كل ذلك على البيئة التي نربي فيها أنفسنا وصغارنا.

٤ ـ الاتصال عبر الهاتف:

يوفر لدينا الاتصال بالهاتف الكثير من الجهد والوقت، ويمكن القول: إنه لا ينبغي لأي منا أن يخرج من بيته أو عمله لقضاء أي مصلحة، يمكن قضاؤها عن طريق الهاتف أو الناسوخ (الفاكس) أو ما شابه ذلك، فالوقت هو أغلى ما نملك، ويجب أن نتعامل معه بحكمة وحرص.

ولكن الهاتف باعتباره وسيلة اتصال، فإن من الممكن أن نستخدمه على نحوٍ يوفّر علينا الكثير، ويمكن أن نستخدمه على نحوٍ نقتل به أوقاتنا أو نجعل منه مصدر إزعاج للآخرين؛ ولذا فإن هناك مجموعة من الأفكار والآداب التي تساعدنا على اتّباع الأسلوب الأمثل لاستخدام هذه الوسيلة المهمة، نسوقها عبر النقاط التالية:

---

(١) معنى خبثت: غثت. وهو عين المفهوم من (لقست) ولكن النبي ـ ﷺ ـ كره لفظ الخبث.

ـ علينا أن نحدد التاريخ والوقت المناسب للاتصال بالآخرين، فقد يكون وقت اتصالنا وقت عمل كثيف بالنسبة لهم أو وقت نوم أو طعام. . . وعدم الانتباه لذلك، سيجعل اتصالنا مصدر إزعاج وإرباك بالنسبة لهم، كما أن فرص ردّهم علينا ستكون ضئيلة.

ـ سيكون من المهم أن نقوم قبل الاتصال بتحديد المسائل التي نرغب في الحديث عنها، والنتائج التي نرغب في الوصول إليها، أو الأمور التي نود إقناع من هاتفناه بها. وعلينا أن نحاول ألا تخرج المكالمة عما رأينا تحديده قدر الإمكان؛ لأن ذلك قد يشتت ذهن مَن اتّصلنا به، وينسيه الموضوع الأصلي للاتصال.

ـ اللطف مطلوب في السؤال عن الشخص الذي نريد محادثته، وذكر اسم المتصل مطلوب أيضاً؛ وبعض الناس لا يذكر اسمه، ولكن يطلب ممّن اتصل به أن يذكر اسمه؛ وهذا منافٍ للأدب؛ لأن الذي بدأ الاتصال بمثابة مَن طرق باب غيره، عليه أن يذكر اسمه، ويستأذن ويسلّم. وإذا ردّ على الهاتف شخص غير الذي نودّ محادثته، فمن الأليق أن نسلّم عليه أولاً، وإن كان طفلاً داعبناه، ثم نسأله عن إمكانية محادثة مَن نريد محادثته.

ـ عندما يردّ على الهاتف الشخص الذي نرغب في محادثته، فسيكون من اللطف أن نبادر إلى سؤاله: هل هذا وقت مناسب لمحادثته. وعلينا أن نبدي له استعدادنا للاتصال به في وقت آخر. وليس من الملائم أن نقول له: هل أنت مشغول، فقد يكون غير مشغول، ولكن لا يرغب في التحدّث إلى أحد، فنضطره آنذاك إلى الكذب. ولباقة المسلم تمنعه من إحراج الآخرين.

ـ لنحاول أثناء المحادثة الهاتفية أن نجعل كلماتنا مفعمة بالحيوية والدفء، إذ إنّ كون مَن نخاطبه لايرانا، يجعل من السهل عليه أن يكوّن عنا بعض الانطباعات الخاطئة، وينبغي أن نمتنع عن أي عمل أثناء المكالمة؛ لأن الطرف الآخر سيدرك أننا مشغولون عنه، وأننا لا نهتم كثيراً للتحدث معه؛ وسيكون الامتناع عن أي عمل أكثر أهمية.

ـ إذا كان ما سنقوله مهماً أو دقيقاً، فالأفضل عدم الاتصال بالهاتف وترتيب لقاء لذلك أو إرسال رسالة خطية. وسيكون من المفيد عند إنهاء المكالمة كتابة ما تمّ الاتفاق عليه إذا كان الحديث يتعلق بمشروع أو صفقة أو اتفاق ما؛ فالمرء قد ينسى ما يجب عليه أن يذكره بعد مدة.

قد يُبتلى المرء بأقوام يحبون الثرثرة على الهاتف، ولا يقيمون أي وزن لأوقات الناس ومشاغلهم، وفي هذه الحال يجب على الواحد منّا أن يكون حكيماً في الإفلات منها، كما كان ابن الجوزي حكيماً في إنجاز بعض الأعمال أثناء زيارة بعض الثقلاء له.

وهناك إجراءات عديدة، تساعد المرء على ذلك؛ منها: إشعار الطرف الآخر أنّ لدينا وقتاً قصيراً للحديث معه، كأن يقول أحدنا: عندي وقت قصير للحديث معك، فأرجو أن تسمح لي بدقيقتين من وقتك. ومنها ألاّ يسمح للحديث بالخروج عن الموضوع الذي تم الاتصال من أجله.

بعض الناس يتحدث واقفاً من أجل الاختصار. وبعضهم ينهي السؤال عن الصحة والأحوال الاجتماعية بأسرع وقت؛ حتى يُشعر الطرف الآخر باستعجاله. وكل هذا جيد ومفيد. وعلى كل حال فالحديث في الهاتف ذو جاذبية، وذو إغراء خاص، ولابد من أجل المحافظة على الوقت من مقاومة ذلك الإغراء.

٥ ـ الخطاب المؤثّر:

سنظل نستهدف التأثير في غيرنا، وإيصال رسائلنا إليهم على أعلى درجة من القوة والوضوح؛ فذاك جزء من تحقيق وجودنا المعنوي. وسيكون ذلك أكثر حيوية إذا كان الواحد منّا داعية أو محاضراً أو معلّماً أو سياسياً.

صحيح أنّ مضمون الكلام يستأثر بالتأثير الأساسي، لكن لاينبغي الاستهانة بالأسلوب والقالب الذي نوصل به ذلك المضمون؛ وكم من سلعة نفيسة أعرضَ عنها الناس لسوء تغليفها أو سوء عرضها. وكم من عالم متبحّر لا يلفت الأنظار إليه؛ لأنه لا يحسن شيئاً من فنّ الخطاب المؤثر. وكثيراً ما يكون الفارق بين

متحدّث ناجح وآخر مخفق هو الاهتمام والحرص على تجويد الخطاب وإتقانه. وإليك بعض الوصايا التي تجعل المخاطبين ينفعلون بما تقول، ويتأثرونه:

- لنختر لمحاضراتنا وأحاديثنا عناوين جذابة ومعاصرة، وذلك من خلال ملامستها لمشكلة يعايشها الناس، أو من خلال علاقتها بحدث، يشغل بالهم، أو من خلال كونها تدل الناس على طريق من طرق النجاح. وعلى الواحد منا أن يتجنّب السجع في العنوان؛ فقد باتت الذائقة الثقافية المعاصرة تمجه، وقد كان مستحبّاً في غابر الأزمان. ولكن يجب أن نكون على حذر من العناوين البرّاقة والجذّابة التي لا تترجم مضمون حديثنا على نحوٍ دقيق، ولا يتطابق معها. كما أن علينا أن نحذر من العناوين الكبيرة التي نعجز عن القيام بحقها.

- الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة مهم جداً لإعطاء المصداقية لما نقوله، وعامل مهم في دفع الوحشة عن كلامنا، ولكن لابد دائماً من نوع من التوازن بين الاستشهاد والتحليل، كما أنه لابد من الحذر من ليِّ أعناق النصوص وسوقها على نحوٍ متعسّف.

- سيكون من المستحسن دائماً أن نزوّد السامعين بملخص من ورقة أو ورقتين قبل بدء المحاضرة، نضمنه محاور المحاضرة والنقاط الأساسية فيها.

- للأرقام والإحصاءات والجداول سحرها الخاص اليوم، وعلى مقدار ما نضمن محاضرتنا منها يكون تأثيرها وإقناعها، وتكون إثارتها للسامعين؛ وكلما كانت الأرقام أكثر حداثة، كان وقعها في نفوس السامعين أشد.

- الربط بين الموضوع الذي نتحدّث عنه وبين الأحداث الجارية - إذا كان ممكناً - سيكون مفيداً جداً، ولاسيما إذا فعلنا ذلك في بداية المحاضرة؛ حيث يثير اهتمام المستمعين أكثر فأكثر.

- استخدام الأسئلة أثناء المحاضرة في محاولة لإشراك الجمهور، والتجديد في الخطاب، ولكن لا ينبغي انتظار أجوبة عليها، وإنما المراد إيجاد نقاط ارتكاز مشتركة أثناء الحديث؛ مثل قولنا: «كم يا ترى سنوفّر على البلاد من مال لو أننا جميعاً امتنعنا عن التدخين؟ ومثل: «كيف ستكون الحال لو أن كل واحد منّا التزم

ببرنامج قراءة ثلاث ساعات كل يوم؟ .

ـ لا بـأس بذكر بعض الجهود التي استغرقها إعداد العمل، كالقول: إن مسوَّدات هذه المحاضرة قد بلغت مئة وخمسين صفحة، أو القول: قد عملت في تحضير هذا الموضوع ثلاثة أشهر. وفي المقابل لابأس بالتحدّث عن خبرات بعض المستمعين والحاضرين بالموضوع، وحاجة المتحدّث إلى بعض ملاحظاتهم حوله.

ـ إذا استطعت أن يشتمل حديثك على بعض الفكاهة، فافعل؛ لأن ذلـك سوف يضفي على اللقاء كله مسحة جميلة ممتعة، ولكن علينا أن نخشى دائماً الإسراف في ذلك.

ـ لا تثبت نظرك في الأوراق التي أمامك، وتهمل النظر إلى وجـوه القرّاء، فذاك أكبر مصدر للسأم والملل؛ ولكن انظر إلى الجمهور تارة، وإلى أسفل تارة مطرقـاً كأنك تفكّر؛ فذاك يثيـر في سـامعيك التساؤل عمّا تريد قوله.

ـ تنظيم النقاط والفقر وتسلسـلها عاملٌ مهمٌ في مسـاعدة المستمعين على الفهم، فينبغي أن نحرص عليه قدر الإمكان. وقد يكون أحسن أسلوب لذلك، هو أن نقسم كل عنوان من العناوين الرئيسة إلى عدد من النقاط، كأن نقول: وإليك خمس ملاحظات حول سلبيات الأمر الفلاني؛ أو نقول: إن أهم المبادئ التي يمكن استخدامها في إدارة الذات أربعة وهكذا. . .

ولكن لنحاول ما استطعنا ألا نضخّم الأرقام، إذ لا يستحسن أن تزيد على خمسة أو ستة؛ فقدرات السامعين على استيعاب التقسيمات الكثيرة محدودة.

ـ قد يكون اللجوء إلى تكرار بعض الأفكار أو المقاطع مفيداً في لفت انتباه السامعين إلى ما تعده مهماً، وذلك كما لو أننا لو كرّرنا قول أحدهم: «إذا لم يكن لك روح عصر كانت لك كل شروره».

ـ ليكن وضعك الذهني والبدني في أحسن حالاته، فنم جيداً قبل المحاضرة، ولا تتناول وجبة دسمة، وحاول تهدئة أعصابك عبر ممارسة شيء من الاسترخاء

قبل الحضور إلى مكان المحاضرة.

ـ لابد من مراعاة السرعة المناسبة أثناء الكلام؛ والحدّ الأدنى للسرعة هو (١٢٠) كلمة في الدقيقة. وأكثر المتحدثين، يبلغ متوسط سرعتهم في الكلام في حدود (٢٠٠) كلمة. البطء الزائد في الكلام يجعل المستمعين يفقدون التركيز، ويشتت انتباههم. أما السرعة الزائدة، فتجعلهم غير قادرين على المتابعة، واستيعاب ما يسمعونه.

ـ احفظ مقدمة محاضرتك على نحوٍ جيد، واقرأها مرات عدة قبل إلقائها، واضبط الكلمات الصعبة بالشكل، وتأكد في كل الأحوال من أنك قادر على مراعاة القواعد النحوية أثناء الإلقاء.

ـ تفاعل مع موضوعك، وأظهر ذلك التفاعل من خلال تعبيرات الوجه وحركات الجسم، فحيوية المحاضر ضرورية لجعل اللقاء كله حياً ومثمراً.

ـ لاتدع التشاؤم يسيطر عليك؛ صوّر الواقع كما هو، لكن لنزرع الأمل بإمكانية التحسّن والخلاص بشكل دائم.

ـ اختتم محاضرتك بملخص مركّز يشتمل على أهم النقاط التي تتناولها. ويمكن أن يكون موضوع (الخاتمة) دعوة توجهها للمستمعين من أجل إنجاز شيء ما أو الابتعاد عن أمر من الأمور، أو الاهتمام بقضية من القضايا.

ـ الاستعداد المسبق لما يتوقع المرء من أسئلة يطرحها الجمهور، وعدم التردد في قول: (لا أدري) عندما يأتي سؤال لا يعرف جوابه.

إن في أمتنا الكثير الكثير من الخير، وإن لدى مجتمعاتنا توثّباً لعمل شيء ما، لكن الجميع ينتظرون أولئك الذين يدلّونهم على ما يفعلونه، وينظمون وعيهم تجاه مسؤولياتهم؛ وهذا كله من مهمات المثقفين المخلصين؛ من محاضرين ناجحين، وخطباء مؤثّرين. والله المستعان.

الإصغاء الجيِّد:

يولد الإنسان صارخاً، ثم يتعلم الكلام، ويميل الطفل إلى الإكثار من اللغو، ثم يتعلم الإنصات، وهكذا مع نمو ملكاتنا وخبراتنا نتعلم متى نتكلم، ومتى نسكت، وكيف نتكلم، وكيف نصغي. حين نجتمع مع شخص، أو نستمع إلى متحدث، فإننا نتلقى العديد من (الرسائل) ذات المحتويات المختلفة؛ والمعلومات التي نحصل عليها من وراء ذلك الاتصال، هي التي تحد من الشك الذي يصاحب تلك الرسائل، أو الذي تسببه الضوضاء الموجودة في المحيط الذي يتم فيه الاتصال. يقولون: إن الله ـ جلّ وعلا ـ خلق للإنسان لساناً واحداً وأذنين حتى يسمع ضِعف ما يتكلم؛ لكن يبدو أن ما لدنيا من فضول، وما نجده في كثرة الكلام من إثبات الذات. . . يجعلنا نتكلم أضعاف ما نسمع!.

الذين يتعلمون الكلام المقنع، والذين يتدربون على تنميق الكلام، لا يحصون عدداً؛ وقلما تجد من يقرأ كتاباً، أو ينتسب إلى برنامج من أجل تعلم حُسن الإصغاء؛ وربما كان ذلك فرعاً من عدم اهتمامنا بالفهم العميق، وربما كان بسبب أننا نهتم بالتأثير في الآخرين أكثر من اهتمامنا بالتفاعل معهم؛ ولذا فإننا لا نجد حاجة إلى إتقان فن السماع؛ مع أن من غير الشائع أن يحصل تأثير في الآخرين من غير تأثر بفرديتهم وظروفهم ومتطلباتهم.

ميزات الإصغاء:

ـ إذا قارنا بين المشكلات التي يجرها الإسراف في الكلام، وبين المشكلات التي يتعرض إليها الميَّالون إلى السماع والإصغاء؛ لوجدنا أنه لا وجه للمقارنة. وحين يكون هناك تعليمات أو اقتراحات أو تحذيرات، فإن المولعين بكثرة الكلام، لا ينتبهون لشيء من ذلك، على حين أن الميالين إلى الصمت، يدركون كل ذلك على وجه أدق. هذا غير ما يقع فيه الثرثارون من أخطاء ومزالق. ولو أننا تقيدنا بالأدب الإسلامي في هذا لقلّ كلامنا، وكثر إصغاؤنا؛ فقد ورد في الحديث الصحيح: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليصمت».

ـ حُسن الإصغاء يساعد صاحبه على الفهم العميق للظروف والأوضاع المحيطة؛ حيث يتمكن المرء من فهم الطرق التي يفكر بها الذين حوله، كما يتمكن من فهم بيئة العمل، وأفضل الطرق في إنجازه. أضف إلى هذا أن الإنصات يكسو صاحبه نوعاً من الهيبة، ويجعله يبدو في أعين الناس أكثر حكمة وفهماً، حيث تكون المحاكمة العقلية لدى المرء أفضل في حال الصمت.

ـ إن الإصغاء يلبي حاجة مهمة للإخوان والأصدقاء والزملاء، وهي تطلعهم إلى من يستمع إليهم، ولذا فإن المصغي يُدخل السرور عليهم، وينال منهم التقدير.

ـ من وظائف الإصغاء امتصاص غضب الآخرين؛ حيث إن أول استجابة للانفعال تكون عن طريق الآذن، وعندما نصغي لشخص غاضب، فإننا نتعرف على سبب غضبه، فنظهر تعاطفنا معه، ونجعله ينفِّس عن غضبه، ويعود إلى هدوئه؛ ولذلك فإن من غير الصواب أن نجادل شخصاً غاضباً دون أن نعرف سبب غضبه، وبعد ذلك نبدي التعاطف معه، ثم نحاول إطفاء غضبه.

تحسين الإصغاء:

كل شيء مهما كانت وضعيته، يظل قابلاً لنوع من الارتقاء والتحسن؛ والخبرات المتراكمة لدى البشرية علمتها كيف تتلافى الأخطاء، وتستفيد من الفرص.

مسألة استثمار السماع ليعطي أفضل مردود شغلت منذ أمد بعيد الكثير من التربويين والمهتمين بالاتصال الإنساني. وبإمكاننا أن نضع هنا بعض النقاط التي تجعل السماع لدينا أعظم فائدة؛ وذلك على النحو الآتي:

ـ أول خطوة على طريق تحسين الإصغاء، هي أن نحاول السماع بنية الفهم لما يقال. ومع أن بإمكان كل واحد أن يدعي ذلك، إلا أن الصحيح أن الذين يولون القدر الكافي من الاهتمام والتركيز لما يسمعونه يظلون قلة. وكثير من الذين يظهر لنا أنهم مصغون فعلاً، إما أن يكونوا غير شاعرين بأهمية ما يسمعونه لهم، وإما أن يكونوا في حالة تهيّؤ للرد على ما يسمعونه، أو يكونوا في

حالة شـرود، وفي جميع هذه الأحـوال فإنهم يحرمـون من الفهم العميـق لما يقال.

ـ ليسـت الأذن أداة سـمع، وإنما هي أدوات توصيل فحسب؛ حيث إن عمليات السمع تتم في الدماغ، وهناك يتم تحليل ما يُسمع، وتحديد رد الفعل الملائم عليه؛ ولذا فإن للمرء أن يسمع، ويفهم، وبإمكانه أن يسمع، ولا يفهم، حيـث تتدخل في عمليات الفهم العميق أمور كثيرة جداً. وقد نهى الله ـ جلَّ وعلا ـ المؤمنين عن بعض أحوال الكافرين والمنافقين في مسألة السماع في آيـات عدة، منها قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١]، إذ في معتقداتهم وعقولهم ما يمنعهم من السماع الحقيقي المثمر الذي يضيف إلى المعرفة، ويغير السلوك. حين نستمع إلى شخص يتحدث، فإننا نحاول الفهم، من منظور عاداتنا النفسية والفكرية، ومـن خلال إطارنـا المرجعي، وأحياناً من خلال مصالحنا.

ومع أن التخلص من ذلك على نحو كامل غير ممكن في معظم الأحيان، إلا أن علينا أن نجاهد أنفسنا لنفهم ما نصغي إليـه من خلال الدخـول إلى العالم الشخصي للمتكلم، فنرى إطار القضية التي يتحدث عنها من خلال نمطه الخاص في التفكير، ومن خلال رؤيته ومعلوماته ومشاعره...

هذا الدخـول إلى العالم الشـخصي للمتحدث، يحتـاج منا إلى وعي مضاعف؛ فالكلمات والتراكيب والجمل التي ينطق بها، ليست ذات مدلولات معجمية صارمة، كما أنها لا تستخدم وفق عُرف اجتماعي محدد؛ فهناك شبكة معقدة من العوامل التي تتحكم في إعطاء الكلام معانيه النهائية، من نحو الخلفية الثقافية والخبرة العامة، ومدى إلمام المتكلم بما يتحدث عنه والتـاريخ العائلي له، ونـوعية علاقتـه الشخصية بذلك، ومصلحته في الانطباعات التي يود أن يتركها...

وعلى سـبيل المثـال فإن المتحدث إذا كـان يتناول حكاية خلافه مع خصم له، أو قصة انشقاقه عن حزبه، أو أسباب اتهامه بارتكاب جريمة، فإن علينا أن

نتوقع سماع الكثير من الزيف والكثير من المبالغة، وأن نلمس إخفاء الكثير من الحقائق التي تعكر صفو النتائج التي يرغب في الوصول إليها.

هناك أشخاص تعودوا في أسلوب تحدثهم أن يستخدموا ألفاظاً من نحو (عظيم جداً) و(كثير جداً) و(قريب جداً). . . وعلينا آنذاك أن نعرف كيف نحذف (جداً) هذه من مدلولات خطاب الواحد منهم، ونفهم ما يصفه على أنه عظيم وكثير. . من وجهة نظره هو.

وهناك أشخاص يغلب عليهم التشاؤم أو النظرة المثالية، فيستخدمون الألفاظ التي تصور نزعتهم تلك، وعلينا أن نعرف أيضاً كيف نحيد محصلات تلك الألفاظ، ونعزلها عن سياق المدلول العام لكلامهم. إذا فعلنا ذلك ونحوه أمكننا أن نتجاوز المعنى المباشر لما يقول إلى معنى المعنى، وأمكننا بذلك أن نحصل على فهم أكثر عمقاً وأكثر توازناً.

ـ علينا أن نستمع إلى المتحدث بصدر رحب مهما كان الكلام الذي يقوله مزعجاً أو غير منطقي أو غير دقيق؛ فهو يمثل وجهة نظر شخص، رضينا بتجشم مشاقّ الحضور من أجل سماعه. وانفعالنا الحاد سوف يحرمنا من استيعاب ما يقول، وسيضعنا في بداية الطريق إلى رد فعل غير سويّ عليه، حيث نفهم آنذاك فهماً مشوشاً، ونحمّل كلامه ما لا يحتمل، ونتيجة كل ذلك موقف غير دقيق ولا متزن.

ـ حتى تنجح عملية الإصغاء فإننا بحاجة إلى أن نكون في وضع بدني مريح؛ المقعد ينبغي أن يكون ملائماً، والمسافة التي بيننا وبين المتحدث أيضاً ملائمة؛ ويستحسن الجلوس في المقدمة، كما ينبغي أن نكون في مكان يتيح لنا رؤية جيدة للمتحدث؛ إذ إن معظم مفردات الرسالة ـ كما ذكرنا ـ سترد إلينا من تعابير الوجه وحركات الجسم. وينبغي ألا يكون المرء أيضاً جائعاً أو عطشان أو حاقناً حتى يستطيع الاستمرار في الاستماع والمتابعة بتركيز جيد.

ـ الإصغاء الجيد يقتضي ألا نقاطع المتحدث قبل إتمام قوله؛ فإذا كان كلامه منفِّراً إلى حد لا يطاق، فإن بإمكان المرء أن ينسحب من المكان، أو يشغل

ذهنه بشيء يصرفه عن السماع. ومن حق المتحدث علينا كذلك ألا نصدر أي حكم على كلامه حتى ينهيه؛ ويؤسفني القول: إن مجالسنا مشحونة دائماً بالمقاطعات، ومشحونة بالأحكام المستعجلة! وسيكون من الحكمة أن نسأل عن بعض النقاط الملتبسة قبل أن نعلن الحرب على المتكلم!.

- المهم مما يقال دائماً هو جوهره، وهذا يملي علينا أمرين:

الأول: هو ألا يصرف انتباهنا عن مضمون الحديث الطريقة أو الأسلوب الذي يستخدمه المحاضر؛ فقد يكون استخدامه للغة سيئاً، كأن يكون غير متقن لقواعدها، وقد يكون لا يحسن النطق بالشواهد القرآنية أو الشعرية... وكثيراً ما يشغلنا هذا ونحوه عن الاهتمام بجوهر ما يقال.

الثاني: أنه من خلال المداخلات والتعليقات والأسئلة التي تتم بعد المحاضرات والندوات، كثيراً ما يتم الانحراف عن صُلب الحديث، والصيرورة إلى مناقشة قضايا هامشية وجانبية، مما ينسي الحاضرين الكثير مما اشتمل عليه الموضوع الذي اجتمعوا من أجله. وهذا يوجب علينا مرة أخرى محاولة العودة دائماً إلى القضية الأساسية التي اجتمعنا للسماع عنها.

- حين يكون الحديث مركّزاً وكثير التشعبيات والتقسيمات، أو يكون طويلاً؛ فإن استيعابنا له سيكون جزئياً ومحدوداً، ولذا فلا بد من أن يكون في يد الواحد منا قلم وورقة من أجل تدوين بعض الملاحظات وبعض الأفكار الأساسية الواردة؛ ولكن ينبغي الحذر من الاسترسال في الكتابة بحيث يبدو المتحدث وكأنه يخاطب نفسه؛ فالتوجيه الإسلامي في هذا المجال ينطوي على أن نرمق المتحدث بأبصارنا حيث يتم تنظيم التفاعل الداخلي بيننا، وحيث يشعر المتحدث بأننا نشاركه في عمله.

إن ما يمكن قوله في قضية الإصغاء والاستماع كثير، وستتمكن من أن نكون مستمعين جيدين إذا توفر لدينا ما يكفي من الاهتمام والوعي.

* * *

الف

سعا
والا
والأ
التي

الكث
بالم
في ر
سر
والح
مراء
ما يز

ومع
التدا
الخا

الفصل الثالث

مبادئ ومفاهيم في العلاقات الاجتماعية

ذكرنا فيما مضى أن العلاقات الاجتماعية والأسرية، تعد من أهم مصادر سعادة الإنسان، وأهم مصدر لتربيته وإنضاجه، ولذا فإنها تستحق منا كل العناية والاهتمام. المبادئ والأعراف والتقاليد والبنى الثقافية المختلفة والمصالح والأهواء والخلفيات التاريخية. . . كل ذلك يمد العلاقات الاجتماعية بالأطر التي تتفاعل فيها، والأسس والنظم التي تحكم تفاعلاتها وتغيراتها.

وبما أننا نعيش في عالم يتغيّر فيه كل شيء بسرعة كبيرة، فإننا نتوقع أن يتغير الكثير من المفاهيم التي تخلع المعاني على تصرفاتنا الاجتماعية، وهذا يلزمنا بالمزيد من العمق في فهم مسيرتنا الاجتماعية، والمزيد من الحذر والاهتمام في رعايتها، وجعلها تنشد باستمرار نحو المبادئ والأسس الإسلامية التي هي سر صلاح شؤوننا كلها، وكناقد ذكرنا في الحديث عن سمات اللبنة الصالحة، والحديث عن الاتصال الإنساني الكثير من المبادئ والأفكار التي نعتقد أن مراعاتها ستعود على علاقتنا بالديمومة والارتقاء؛ وسنذكر هنا ـ بحول الله ـ أيضاً ما يزيد هذه المسألة وضوحاً ونضجاً، وذلك من خلال المفردات التالية:

١ ـ التوازن بين التعقل والانفعال:

العقل والعاطفة عنصران جوهريان من عناصر الشخصية الفردية والجماعية؛ ومع أن كل واحد منهما يعمل على محور مغاير للمحور الآخر، إلا أن بينهما من التداخل والتقاطع الكثير؛ مما يجعلهما عنصري توازن واتزان واستقرار في حياتنا الخاصة والعامة.

مهما كانت علاقتنا بطرف ما (عقلانية) ومصلحية ومقنَّنة، فإننا لا نستطيع أن نعزلها عن تأثير العواطف والانفعالات. ومهما كانت علاقتنا بطرف ما عاطفية وشفافة ومجردة، فإن استمرارها، سيظل مرتبطاً بمعطيات عقلية وأحياناً مصلحية.

إنّ الارتباط الشديد بين النسيج العقلي والنسيج العاطفي، سيجعل أي محاولة للفصل بينهما تبوء بالإخفاق التام. ولعلنا نلمس هذه المسألة في الحروف الصغيرة التالية:

أ ـ حين أقيم علاقة أسرية أو علاقة زمالة اختيارية، ويطغى عليها الجانب العاطفي؛ فإن المتوقع لتلك العلاقة أن تتسم بسمة التذبذب والمد والجزر، ما دمنا قد أخضعناها لشيء سمته الجوهرية كذلك. العلاقة التي تقوم على الحب والإعجاب الشديد والحماسة الزائدة، قد تحمل الإنسان على أن يضحي بتضحيات كثيرة في سبيل من يحبه؛ وقد تحمله على المبالغة والكذب، ومخالفة النظم والقوانين من أجله، وقد تحمله على أن يهمل علاقاته الاجتماعية الأخرى... وربما يفاجأ في النهاية أن من فعل كل ذلك من أجله، لا يستحق كل ذلك، حيث إنه يتوقع المقابلة بالمثل، فإذا لم يحصل عليه، فإنه قد ينفض يده من تلك العلاقة، ويقلصها إلى الحد الأدنى، ثم يلغيها. وهذه الحالة شائعة جداً في مجتمعاتنا العربية ذات العاطفة الموارة.

ب ـ في المقابل فإن العلاقات التي تقوم على أساس التعاقد والحقوق والواجبات، والقيام بخطوة أمام كل خطوة، ولفتة إزاء لفتة، تظل علاقات سطحية وباردة، وفي أحيان كثيرة مؤقتة. إن ضعف العاطفة في العلاقات الأسرية والاجتماعية، لايسمح بالاندماج الذهني والشعوري بين أصحاب تلك العلاقات، كما لا يسمح بملامسة آفاق الخبرة الإنسانية ذات الأهمية لكل طرف من أطرافها؛ وهذا يجعل ما نتوقعه من وراء تلك العلاقات من أمن ودعم وإحساس بالتأنق، ضعيفاً جداً، وبذلك تفقد أهم معانيها.

ولا نستبعد بعد هذا أن تؤثر (العلاقات البادرة) في نوعية أحكامنا العقلية،

فنكون غير موضوعيين، أو نخضع للهوى، أو المصحلة على النحو الذي يحدث عندما تطغى العاطفة؛ وذلك لأن شبكة العلاقات الواسعة، تفرض أحكاماً ومواقف متضاربة، وفقْد الاتزان بين العقل والعاطفة، يجعلنا نرجِّح في استجاباتنا لها من غير مرجح، ومن غير وجه حق، ولذا فلابد من الاعتدال على نحو دائم، وقد ورد في الحديث الشريف: «أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

جـ ـ ليس من السهل إقامة التوازن بين العقل والعاطفة، ولكن يمكن في كل الأحوال إحراز شيء من التقدم في ذلك؛ ومما يساعد في هذا الشأن أن نعي درجة عاطفتنا في العلاقة التي نقيمها مع زيد من الناس؛ هل هي قوية أو ضعيفة، وهل تمثل لنا هاجساً مستمراً، وهل تحملنا في بعض الأحيان على تقديم تضحيات كبيرة، أو تدفعنا إلى تجاوز الحق والممالأة على الباطل.. إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أن الجرعة العاطفية في تلك العلاقة، قد تجاوزت الحد الطبيعي البنّاء، ويجب أن نعيدها إلى نصابها الصحيح. ومما يساعد على التوازن كذلك أن ننظر إلى درجة عاطفة الطرف الآخر في تلك العلاقة، وأن ننظر إلى ما هو سائد من علاقات في المجتمع، فالمقارنة تساعد في كثير من الأحيان على الموازنة.

مجاهدة النفس عنصر أساسي في إقامة التوازن، فإذا كان المنطق والواجب يفرضان زيارة فلان من الناس أو مواساته أو الحدب عليه، وكانت رغبتنا ضد ذلك، فإن علينا أن نجاهد أنفسنا، ونتجاوز عواطفنا، لنستجيب إلى صوت العقل. وفي المقابل فإن للمجاهدة دورها في إيقاف العواطف والانفعالات التي تسود علاقة ما عند حدود معينة.

الأعمال الروحية والعلاقات العاطفية، تميل بطبعها إلى التطرّف، وهذا التطرّف يجعلها في حالة دائمة من التقلب، وكبح تطرّفها يجعلها أكثر عقلانية، وذلك من خلال مراعاة ما تمر به الطبيعة البشرية من نشاط وفتور، وإقبال وإدبار. التوازن يكون بإقبالنا في حال إدبار الطرف الآخر وتريثنا في حال إقباله

الشديد، وعليه هو أيضاً أن يفعل مثل ذلك.

٢ ـ رعاية العلاقة الخاصة:

يبني الناس في مسيرة الحياة علاقـات كثيرة وموزعة على دوائر ومستويات عدة؛ فمن خلال المشي في الطريق ـ مثلاً ـ نبني علاقات عابرة وواسعة جداً؛ ولتلك العلاقات رعاية عابرة أيضاً، وهي تتجسد فيما يسمى (آداب الطريق)، وهناك علاقة أضيق نطاقاً وأعمق من هذه، وهي رابطة الإخوة الإيمانية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. ولهذه العلاقة التي تنشأ تلقائياً من الدخول في دين الله ـ تعالى ـ حقوق وآداب معروفة.

وفي إطار الأخوة الإيمانية تنشأ علاقات قهرية مثل علاقة القرابة والرحم، وينشئ الواحد منا علاقات اختيارية خاصة، وهي ما يسـمى بـ(الصداقـة)، وهي ما نريد التحدث عنه هنا عبر المفردات التالية:

أ ـ إن حاجة الواحد منا إلى أخ نقيم معه علاقة خاصـة ومتميزة، حاجـة ماسّـة، ففي ذواتنا ثغرات كبيرة، لا تسد إلا عن طريق هذا الأخ الصديق الذي نأنـس به، ونطمئن إليه، ونرى فيه الإنسـان الموافق في الرخاء، المـؤازر في الشدة، والذي نشعر بثمرات صحبته دون أن يثقلنا بتبعاتها. هذا الصنف من الإخوان لا يظفر المرء في العادة بعدد كبير منه، وإذا تهيأ لأحدنا أربعة أو خمسة منه فهو محظوظ.

وقد روي عن الإمام الشافعي قوله: «ضياع العالِم أن يكون بغير إخوان»، وقال القاسم بن محمد: «قد جعل الله في الصديق البارّ المقبل عوضاً عن ذي الرحم العاقّ المدبر».

الذيـن يفقدون معنى الصداقـة الحميمـة في حيـاتهم، يتعرضـون لأعظم الصعـاب في حيـاتهم، ومنهم أنفسـهم يواجـه الآخرون الكثيـر من المفاسـد والشرور!.

ب ـ أشـواق الإنسـان إلى أن يكون له أخ حميم أشـواق فطريـة أصيلة؛ وأعتقد أننا نملك القدرة على الحصول على ذلك، لكن لابد من بذل الجهد والتضحية؛ إذ لا بد من الدفع في مقابل الأخذ. إذا شـعر المرء أنه ليـس لديه صداقـات حميمة، أو أن علاقاته الأسرية، أو صِلاته بأرحامه، ليست بتلك التي تشبع تطلعاته، وتشعره بالأمان، فإن عليه أن يبحث في أسباب ذلك.

ومع أنه ليس من السهل الإحاطة بها، إلا أننا يمكن أن نكون متفقين على العديد منها؛ على سبيل المثال فإن حدة المزاج، وتعكره من أجل أشياء لا تعد مثيرة في العرف العام أو لدى ذوي المزاج المعتدل، مما يحول دون تآلف الناس، ومما يدعو الكثيرين إلى الابتعاد.

التفتيـش عن أخطاء الآخرين ومتـابعتها، والإسراف في نقدهم، وإظهار البَرَم من أوضاعهم، مما ينفر الناس، ويشتت الأصدقاء.

كثرة الثرثـرة والإفاضـة في الكلام، مما يجـر غالباً إلى إفشاء الأسرار، وإلى (النميمة)، فعندما يخلو وفاض الثرثـار من الأخبار، لا يجد ما يخوض فيه إلا سِيَر الناس ومشكلاتهم. وهذه الحالة سببها غالباً رقـة في الدين، وقصـور في الثقافـة والتعليم، وإحساس بالنقص، فيسعى النمّام إلى احتلال مركز الدائرة عن طريق النميمـة، حيث لا شيء آخر لديه. وقد قالوا: «من نمّ لك نمَّ عليك»، ومهما حاول النمام التستر، فإن أمره في النهاية إلى انفضاح، فيسقط من عيون الناس، ويخسر جلَّ أصدقائه.

الأنانية والتطرف في حب الذات، من الأسباب الأساسية للإخفاق في تكوين صداقات جيدة. الأناني ليس لديه ما يقوله سوى الإشارة بماله صلة به؛ وليس لديه ما يهتم به سوى ما يعود عليه بالنفع الخاص، وحين يجد فرصة ما، فإنه ينسى من يمكن أن يشاركه فيها من أصدقائه. جوهر الأنانية مضاد تماماً لجوهر الصداقة الحميمة التي تقوم على المشاركة والاعتماد المتبادل. والأنـانية حالة مستمرة من العمى عن كل شيء إلا النفس والمصالح الخاصة.

لا ننسى هنا بالإضافة إلى كل ما سبق أن بعض الناس يميل بطبعه إلى الانطواء والعزلة، ولهذا الصنف من الناس علامات عديدة منها: ميله إلى الهوايات الذهنية والتعبير عن النفس بالقلم لا باللسان، والحساسية المرهفة والمزاج المتقلب، وسرعة الارتباك والخجل والدقة والنظام والشغف بالتفاصيل، وتفضيله الأعمال التي لا تتصل بالناس، والتردد والإحجام. . .

إن كل ما ذكرناه ممكن العلاج، ولكن لا بد من العزم والصبر والتضحية.

جـ ـ نحن لا نؤكد على فكرة اكتساب المزيد من الأصدقاء من أجل إشباع بعض الرغبات، أو العثور على نصير في وقت الشدة فحسب؛ فهناك أهداف أخرى أكثر نبلاً وأعظم فائدة، من نحو التعاون على البر والتقوى، ومن نحو التكافل والتباذل، ونحو المناصحة والتقويم، والتقدّم على طرق الخير والصلاح . . . وانطلاقاً من هذا، فإن العثور على من يكون ملائماً لصداقة حميمة وخاصة، ليس بالأمر السهل دائماً. وقد ورد في الحديث الشريف: «الناس كإبل مئة لا تكاد تجد فيها راحلة». ولا بد من التدقيق فيمن يصلح للأخوة والصداقة حيث إنّ تأثير الصديق الحميم في سلوك صديقه كبير؛ وربما استطاع أن يعيد صياغة الكثير من أفكاره وأخلاقه ومشاعره؛ وقد ورد في الحديث: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

ولذا فلا بد من توفر بعض الصفات الأساسية فيمن نختاره لعلاقة خاصة. ويأتي على رأس تلك الصفات الاستقامة والالتزام؛ فهما الأرضية العريضة والصلبة التي تتشكل عليها كل السمات الأخرى المطلوبة. أضف إلى هذا توفر درجة مقبولة من التفتح والجديّة والحرص على الوقت والإيثار وبذل المعروف والشفافية والتعاون والصراحة، وعدم سيطرة النزعة المادية عليه. . . وكل هذه السمات ذات درجات متعددة في الناس. وربما كنا في بعض الأحيان مثاليين أكثر من الطبيعي، حيث نطلب من غيرنا ما ليس فينا. وهذا من أسرار الشكوى التاريخية من انعدام وجود (الخل الوفيّ)!.

د ـ إذا وجد المرء الأخ الذي يبحث عنه، فليحسن عشرته، وليقم بحقوق أخوته، وله أن يعلم أن العلاقات الحميمة، يمكن أن تتحول إلى علاقات شكلية أو رسمية، إذا لم يتوفر لها الرعاية الكافية والتحفيز المستمر. ولا ينبغي أن يتساهل في ذلك، فيخسر علاقات بناها خلال فترات طويلة، وقد يكون من الصعب بعد ذلك استعادتها أو تعوضيها.

تمسّك إن ظفرت بذيل حرّ   فإن الحرّ في الدنيا قليل

هذه العلاقة الخاصة تحتاج إلى رعاية شاملة ومشتركة ومتكافئة نوعاً ما. ومن أشكال تلك الرعاية ما يلي:

ـ المساعدة المالية، فإذا وجد الصديق صديقه في أزمة، فإن عليه أن يمد له يد العون قبل أن يشكو إليه حاله، ويسأله؛ وقد ضرب الصحابة الكرام المثل الأعلى في هذا الشأن، حيث تجاوز العديد منهم منزلة المساعدة إلى مرتبة الإيثار على نحو ما وصفهم الله ـ تعالى ـ به في قوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]. وكان بعض السلف يحذّر من صحبة من لا يتعرّف على صديقه إلا في أوقات الرخاء، ويسميه بصديق العافية.

ـ تقديم الخدمة والإعانة بالنفس والجاه، من مواجب الأخوة وحقوق الصداقة، وكان أحد الصالحين يقول: «إذا استقضيت أخاك حاجة، فلم يقضها، فذكّره ثانية، فلعله يكون قد نسي، فإن لم يقضها، فكبّر عليه، واقرأ هذه الآية: ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٣٦].

ـ يتوقع الصديق من صديقه أن يفرح لفرحه، ويحزن لحزنه، كما يتوقع منه الحرص على مصالحه وحفظ أسراره؛ وإن الوفاء بتلك التوقعات، مما يساعد على استمرار الأخوة والصداقة ونحوها. إذا سمعنا ثناءً على أحد أصدقائنا، فمن المستحب أن ننقله إليه. وإذا احتاج الأمر إلى مناصحة، وإبداء ملاحظة حول أمر يتعلق به، فعلينا ألا نبخل بذلك، بل إن هذا قد يكون مما يوجبه عقد الإيمان والالتزام. والتماس العذر له أيضاً مما ينتظره؛ وقد قال ابن المبارك: «المؤمن

يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات».

وحُسن الظن بالأخ مطلوب أيضاً، وعلينا أن نحمل أفعاله وتصرفاته ومواقفه على الوجه الحسن ماكان ذلك ممكناً. شكر الصديق على صنيعه، وإبداء السرور لمعاونته، مما يطلبه الإسلام من المسلم: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

ـ العفو عن الزلات والصفح عن الهفوات، خُلُق أساسي وركن ركين في رعاية الصداقة. وإذا طلب الواحد منا الكمال في إخوانه، فلن يجد يوماً ما حوله منهم أحداً.

ولست بمستبق أخاً لا تلمّه   على شَعَث أي الرجال المهذّب

فلا بد من المفاتحة في بعض الأحيان، وغض الطرف والتغافل في أحيان كثيرة. كما أننا نلاحظ على إخواننا بعض الأمور، فإنهم يلاحظون علينا مثلها أو أكثر.

ـ الوفاء والإخلاص والثبات على المودة، وإكرام من يلوذ بالصديق من أهل وأقرباء وأصدقاء.. أمور توطد الأخوة، وتبعث فيها روح التجديد والجاذبية، وقد ورد في الحديث أنه ـ ﷺ ـ أكرم عجوزاً دخلت عليه، فقيل له في ذلك، فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الإيمان». ومن جملة الوفاء مواصلته ولو تباعدت الدار، والتواضع له، وإن تباينت المنزلة الاجتماعية، فالترفع على الإخوان بسبب ما يتجدد من الأحوال دليل على رداءة الطبع.

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في الموطن الخشن

ـ لا تتم الأخوّة، ولاتكتمل الصداقة من غير ترك الكثير من التكلف والكثير من الرسميات التي تنشأ بين الناس؛ وكان أحد الخلفاء يقول: «ما من لذة من لذات الدنيا إلا ذقتها سوى لذة واحدة. قيل: وما هي؟ قال: أخ أطرح مما بيني

وبينه مؤونة التكلّف». وقال الفضيل: «إنما تقاطع الناس بالتكلّف، يزرو أحدهم أخاه، فيتكلف له، فيقطعه ذلك عنه». ومع هذا فإن الخلطة الزائدة، قد تفسَّر في بعض الأحيان على أنها اقتحام للخصوصيات، ولذا فلا بد من الحذر.

حين نعرف أن وجود الصديق الحميم في حياتنا، يعد مورداً مهماً لاستكمال سعادتنا واطمئناننا ونضجنا، فإننا سوف نبحث عنه، ونحرص عليه، ونرعى أخوته.

٣ـ العلاقات الشفيفة:

نحن في حاجة مستمرة إلى أن نضفي على علاقاتنا مسحة من التأنق والشفافية واللمسات الحانية؛ فذاك وجه من وجوه السمو الإنساني، ووجه من وجوه كبح (الوحش) الكامن في داخلنا. وهو أيضاً ضروري لتسهيل الحياة، وجعلها أكثر دفئاً ونمواً. وكل ما سنذكره مما يساعد على تحقيق ذلك ينبغي أن يظل مؤطراً بإطارين عظيمين: المشروعية والاعتدال.

إنّ فقد وسائل الشفافية في العلاقات لإطار المشروعية، يجعلها عامل تناقض وهدم في حياتنا بدل أن تكون عامل بناء وتقدم. وإن فقدها لإطار الاعتدال يجعلها تقع في حيز التطرّف الذي يفضي في النهاية إلى ضد ما أوجدت من أجله؛ فالفضيلة خُلُق وسلوك يقع بين رذيلتين. الذي يمنح علاقاتنا الشفافية أمور كثيرة ومتداخلة، وربما ذكرنا بعضها تحت عناوين أخرى، ولكن سنجملها هنا لما لها من أهمية خاصة في هذا، ومنها:

ـ التجهم في وجوه الناس، لا يحل أي مشكلة، ولا يعطي صاحبه وزناً إضافياً؛ ولذا فلنحاول دائماً أن (نبتسم). كل واحد منا قادر على أن يعبس في وجوه الآخرين، لكن القادرين على الابتسام في معظم الأحيان، هم الصفوة. وفي الحديث الشريف: «تبسمك في وجه أخيك صدقة».

ـ إذا تجادلنا وتناظرنا حول موضوع ما فسوف نُبلْور أفكاراً، وربما غيّرنا بعض القناعات، وربما أثبتنا أننا نتمتع بدرجة عالية من الفهم والاطلاع...

ولكن ربما خسرنا علاقتنا بأخ آذيناه في نقاشنا، ولذا فلا بد من موازنة دقيقة بين ثمرات ذلك والأضرار المترتبة عليه؛ وليكن الشعار في هذا: «نتناقش وننقد ولكن في ظل علاقة حميمة».

ـ إذا أخطأ الواحد منا، ففي الغالب أنه يتمكن من الدفاع عن خطئه، ومعظم الناس يفعلون ذلك، لكن إذا أردنا الارتقاء بعلاقاتنا وإثبات أننا أعلى من المستوى المألوف، فإن علينا أن نسرع إلى الاعتذار والاعتراف بالخطأ والتقصير. وعلينا أن نتذكر دائماً أن المهم هو صورتنا أمام أنفسنا؛ ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤ ـ ١٥].

لنسمح لإخواننا ومجالسينا أن يظهروا تميّزهم ومواهبهم، ولنعطهم الفرصة لذلك. يقول أحد الحكماء: «إذا أردت أن توجِد لك مزيداً من الأعداء، فتميّز على أصدقائك، أما إذا شئت أن تكسب الأصدقاء، فدعهم يتميّزوا عليك».

ـ إذا أردنا لأفكارنا أن تنتشر، فعلينا أن نترك الآخرين يشعرون بأنها أفكارهم، وذلك يتم من خلال تقديمنا مقترحات أو رؤوس أقلام، ونترك لغيرنا أن يفصّل فيها، أو يدلل عليها.

ـ مهما اختلفنا في رؤية الأشياء، فإن هناك هامشاً ثقافياً مشتركاً، فلنحاول دائماً توسعة ذلك الهامش وإثراءه، فذاك أفضل سبيل لبناء حياة عامة آمنة ومنتجة. مما يساعد على ذلك أن نحاول فهم الأمور من وجهات نظر جديدة، وعلى نحو أخص من وجهة نظر من ننازعه ونخاصمه.

ـ حين نحاول إصلاح بعض الأمور، فعلينا ألا نصدر الأوامر الصريحة، ولكن نقدم اقترحات، حيث لا أحد يرتاح لسماع الأوامر والزواجر.

ـ في كثير من الأحيان نسبب الإحراج لغيرنا دون أن نشعر، فيحس الآخرون كأنهم في سجن، ولذا فلابد من أن نحرص على تسهيل الانسحاب لمن نحادثه، ونتيح له فرصة لحفظ ماء الوجه. إنّ علينا أن ننبه على الخطأ، ولكن نذكر أيضاً أن إصلاحه سهل وميسور، وأنه خطأ غير مقصود.

ـ لنستخرج النبل الذي في نفوس الآخرين من خلال تقدير جهودهم، والثناء على أعمالهم ومواقفهم الجيدة، ولنذكر أن ذلك من سبل دعم الخير، وعامل من عوامل استمراره.

٤ ـ العلاقات الأسرية:

إن معظم ما ذكرناه، وما سنذكره في العلاقات الاجتماعية، يصح قوله في (الحياة الأسرية) والتي تمثل الطبقة الأعمق في علاقاتنا الخاصة، ولكن أحببنا أن نخصها ببعض الملاحظات لمالها من أهمية خاصة. وما سأذكره هنا موجَّه للعلاقة بين الزوجين على نحو خاص، حيث إنها تمثل محور الحياة الأسرية. ولعلنا نشير هنا إلى النقاط التالية:

أ ـ علينا أن ندرك أن مضي الحياة الزوجية على إيقاع واحد، يولّد السأم والملل، حيث صورة الحركة اليومية تتكرر باستمرار، لتفقد الحياة كثيراً من معانيها. مع مرور الزمن يحصل لدى الزوج والزوجة نوع من التشبع؛ فكل منهما قد عرف الآخر معرفة كاملة ـ كما يظهر ـ ووصل إلى قناعة بعدم جدوى النقاش أو النصيحة، فيصبح التصلب هو سيد الموقف، ولم يعد ثمّة من مخرج سوى التكيف والصبر...

الوصول إلى هذه الحالة شائع جداً في كثير من البيوت، وليس له من دواء سوى أن يثبت كل طرف إلى الطرف الآخر أن إمكانات التجديد والتغيير، ما زالت موجودة. ويتجسد هذا في مفاجئة كل طرف للآخر بتغيير رأيه ومواقفه حيال بعض المسائل أو الأشخاص أو العادات. وإذا جربنا هذا وأشعناه في حياتنا، فسوف نشعر وكأننا نولد من جديد، وستلوح في الأفق طيوف عيش مختلف. التنازل الذي نتفاجأ به من قبل شريكنا، هو ينبوع الأمل بإمكانات متفتحة، لا حدود لها، وعلينا أن نفجّر ذلك الينبوع كلما أمكننا ذلك.

ب ـ إنّ كثيراً من النساء يتضايقن من بعض تصرفات أبنائهن أو جاراتهن... وهذا الضيق ينعكس على علاقتهن بأزواجهن. كما أن كثيراً من

الرجال يتضايقـون من سـوء ظروف العمل، أو مـن العلاقـات خارج المنزل، ولا يجدون متنفَّساً مما يضايقهم سوى الزوجة والأولاد. . .

وهكذا فالمكان الذي يأمل فيه الإنسان أن يكون واحة للأمن والراحة، والاستعداد للعمل الشاق في يوم جديد، يصبح مكاناً لتصريف الهموم! وقد اصطلح الناس على تسمية ذلك بـ(النكد) حيث تُضخم الأشياء الصغيرة، وتُستغَل الهنات لإحداث تشويش كبير في الحياة الزوجية؛ وحيث الحكم على ما يقبل التـأجيل بـوجوب الإنجاز الفـوري، وطلب تـأجيل ما لا يقبل التـأجيل في الواقع. . .

هذه الوضعية تحتاج في أول ما تحتاجه إلى (القلب الكبير) والحسّ المرهف حتى لا تختلط علينا الأمور، ونحل مشكلات، نحن صنعناها على حساب طرف ليس له فيها أي يد. ولا بد مع هذا من التدّرب على ترك مشكلات العمل في العمل، ومشكلات البيت في البيت، والتدّرب على أن يكون للواحد منا عقلان وقلبان، يجعل أحدهما لحياة العمل والأسواق والعلاقات الخارجية، ويفرّغ الآخر لحياته الأسرية التي، هي المحور الأساسي في عيشه وهنائه.

جـ ـ لكل واحد من الزوجين اهتماماته وطباعه، كما أن له موروثات تربوية وجينية خاصة، وكل هذا من عوامل التباين. والذي كثيراً ما نغفل عنه هو أن جوهر العلاقـة بين الزوجين، لا يقـوم على (التشـابه)، وإنما على (التخالف) العضوي والنفسـي والعقلي، ولا بد من أخذ ذلك بعين الاعتبـار. لكن هذا التخالف هو سر الحياة المنجبة النامية، ولا بد من أن يحدث عنه بعض العقابيل الجانبية، والتي يمكن تحجيم آثارها من خلال إبداء كل من الزوجين لإعجابه بذوق الآخر واهتماماته، وبهمومه كذلك.

إن إطراء أكلة صنعتها الزوجة، أو الثناء على إعادة ترتيب أثاث البيت، لا يكلف شيئاً، لكن الزوجة تعده مكافـأة مجزية للجهد المضني الذي بذلتـه في ذلك؛ وعلى المرأة أن تفعل نحو ذلك حيال إنجازات زوجها وأعماله.

د ـ التفاصيل الصغيرة في الحياة الزوجية، ليست صغيرة، فإهمال الزوجة للنطق بـ(مع السلامة) أو (صباح الخير) أو السؤال عن سبب انزعاج زوجها. . وما شابه ذلك، يفسَّر لدى الزوج تفسيراً سيئاً، ويحمّل دلالات أكبر مما يتحملها. وعدم سؤال الزوج لزوجته عن سبب نومها المبكر، أو عن سبب قلقها حيال موضوع ما، أو عن سبب مقاطعة جارتها. . . كل هذا يُفسَّر من قبل المرأة على إنه إهمال من الزوج، وعدم اكتراث بالحياة الزوجية كلها. ولذا فلا بد من ملاحظة ذلك بعناية، إذا ما أريد للعلاقة بين الزوجين أن تمضي على خير وجه.

هـ ـ وجود النقاش بين الزوجين أمر يتكرر يومياً تقريباً، وهو إن دل على شيء، فإنما يدل على إيمان مشترك بضرورة توحيد المفاهيم والمواقف تجاه الأشياء المختلفة؛ لكن لأن سلسلة المعقولات لدى الرجل والمرأة، ليست متطابقة، ولأن هناك عوامل تباين عديدة أخرى، فإن النقاشات لا تنتهي في كثير من الأحيان إلى وفاق.

وانتشار هذه الظاهرة كبير في الأسر التي نالت أعلى درجات التعليم، وفي الأسر التي لم تنل أي قدر منه. لكن الذي يختلف هو أسلوب النقاش، ومستوى المسائل المطروحة له. أما النتائج فواحدة تقريباً.

وقد دلت دراسة أمريكية حديثة على أن من أكثر العوامل التي تجعل النقاش بين الزوجين، يفضي إلى الطلاق والفراق هو الانسحاب من المناقشة، وإسكات أحد الطرفين الآخر، وكأن لسان الحال يقول: لا فائدة من الاستمرار في الحوار، والطرق أمام الوفاق مسدودة. ولذا فإن من المهم جداً أن نمتلك طول النَّفَس على سماع وجهة نظر الشريك، وإذا أردنا إقفال الحوار، فليكن إقفالاً لطيفاً ومؤقتاً، كأن يقول: أعطينا هذه المسألة الآن من الكلام أكثر مما تستحق، وقد بدأنا نكرر ما قلناه من قبل، والأحسن أن نترك الموضوع لننظر فيه في وقت أوسع.

و ـ هناك حقيقة واضحة، تعد إحدى العلامات الفارقة بين الرجل والمرأة، وهي غلبة حب (الاستهلاك) على المرأة؛ ولذا فإن إنفاق الرجل على البيت،

وترفيهه لأسرته، هو المعيار الأهم لكفاءته ولياقته الأسرية. وإن كثيراً من العلاقات الزوجية ينهار بسبب شح الرجل، أو ضيق ذات يده، أو تقاعسه عن كسب رزقه؛ ونجد في أدبياتنا العديد من النصوص التي تحث المسلم على الإنفاق على عياله، حيث يُعدّ ذلك من أفضل الصدقات إذا احتسبه، ومنها قوله ـ ﷺ ـ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة[1]، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك».

وعلى المرأة في المقابل أن تصبر على الظروف القاسية التي قد تمر بها أسرتها، وأن تحسن إدارة الإمكانات المحددة التي بين يديها، حتى يجعل الله بعد عسر يسراً.

٥ ـ منح الثقة:

يستحيل قيام حياة اجتماعية من غير قدرٍ ما من الثقة تؤسس عليه العلاقات المختلفة. ومهما اخترع البشر من نظم وقوانين لتنظيم علاقتهم، فإنه سيظل هناك فراغات عديدة، لا يمكن تسيير الحياة فيها من غير الثقة. ويمكن الاستغناء عن الثقة إذا تحول الناس إلى آلات صماء، أو انعدمت العلاقات بينهم، وهذا ما لا يكون.

حين نبني علاقات تجارية، أو نقوم بإنجاز أعمال مشتركة في أجواء، الثقة فيها ضيئلة، فإننا سننشئ الكثير من النظم والقيود التي تسيّر العمل، وسوف تركّز المسؤوليات في أيدي أشخاص قليلين جداً. أضف إلى هذا أن تحسين الإنتاجية، سيتم من خلال الثواب والعقاب (الجزرة والعصا) وهذا سيؤدي إلى نتائج وخيمة جداً، حيث تسود أجواء الرقابة والتجسس و(البوليسية)، كما أن الأشخاص الذين بيدهم صنع القرار، سيجدون أنفسهم عاجزين عن متابعة ما يجري وتسييره؛ مما سيؤدي إلى تعويق العمل، وخنق روح المبادرة، وتبخر الإحساس بالمسؤولية... والنتيجة النهائية انخفاض في الإنتاجية، وتأسّن

---

(١) أي في عتق إنسان وتخليصه من الرق.

خلقي، يصبغ العلاقات القائمة.

هل البديل لهذا أن نمنح الثقة الكاملة لمن تربطنا بهم علاقات اجتماعية أو علاقات عمل، ونرتاح من النظم واللوائح والمتابعات؟.

يبدو أن الحل الصحيح لا يكمن هنا ولا هناك. ولعلنا نسلّط بعض الأضواء التي تنير لنا الطريق في هذه المسألة من خلال الإشارات التالية:

- إن منح الثقة للآخرين يحمل مسحة طرفين: المانح والممنوح؛ فقد يكون المانح من الذين لا يرغبون في الوثوق بالآخرين، وقد يكون مفْرِطاً في ذلك، فيضع الثقة في غير محلها. الذين نثق بهم، قد يستحقون ما نمنحهم إياه من ثقة عن جدارة، وقد يأخذون أكثر من حقهم، وقد يحرمون مما هم أهل له. وليس لدينا معايير صارمة تمكننا من القيام بذلك بدقة وموضوعية.

- إن أي منح للثقة يجب أن يتم في إطار من بعض النظم والترتيبات المعتدلة، وإن الاعتماد على النظم دون ثقة يشكل وضعاً يسوده الشك والترقب والاتهام، كما أن الاعتماد على الثقة دون نظم، يحد من فاعلية الثقة، ويجعلنا نشعر على نحو متزايد أننا وضعناها في غير محلها. إن تركك النقود حول مكتبك، يزيد من إغراء الآخرين بالتقاطها، وإنّ القادمين إلى بلد سيكونون أقل التزاماً بالتعليمات إذا علموا أنه ليس هناك تفتيش على حقائبهم وهكذا...

- معظم الناس، يعرفون خطورة الإفراط في منح الثقة، ويدركون آثاره، لكن القليل من الناس من يدرك الأضرار المترتبة على حجب الثقة عن الآخرين؛ فالوالد الذي يساعد الطفل على إنجاز كل شيء بإتقان، أو يحاول أن يحميه من أي خطر[1]، ينتقص من قدرة الطفل على إنضاج حسّ المسؤولية لديه، ويحد من احتمال أن يصبح جديراً بالثقة. لماذا يكلف الطفل نفسه مشقة النظر إلى اتجاهي الطريق قبل اجتياز الشارع إذا كان مستوثقاً أن شخصاً ما سيقوم عنه بهذه المهمة؟

الأساس الذي نمنح بناء عليه الثقة كثيراً ما يكون غامضاً، أو يكون تصورنا

---

(١) إنّ المرء يتعرض للمخاطر إذا لم يخاطر.

له غير دقيق، فقد يحكم أحدنا على جدارة صديق بالثقة بناءً على ابتسامته العريضة، أو طول مدة العلاقة.

وحين نمنح إنساناً قرضاً حسناً، فإننا نعتمد على صفاته الخُلُقية في الأمل باسترداد القرض، وكثيراً ما نعرض عن التفكير في قدرته على رد المبلغ الضخم الذي اقترضه، ولا سيما إذا كان وقت حلوله قريباً.

إنّ كثيراً من الأعمال الاقتصادية، أخفق، وانتهى إلى الإفلاس، مع أن القائمين عليه على درجة عالية من الخُلُق والأمانة، لكن لا يملكون ما يكفي من الكفاءة والحنكة وحسن الإدارة لقيادة أعمالهم في سبيل النجاح. وهذا يجعلنا نفكر ملياً في الأساس الذي نمنح على أساسه الثقة للآخرين.

- لعل من الأسس الجيدة في مسألة منح الثقة، الاعتماد على تحديد درجة المخاطر التي أقدم عليها حين أضع ثقتي في فلان من الناس، وليس على ما يتمتع به من أخلاق وسيرة حسنة؛ فالذي يريد أن يودع سراً خطيراً في حياته لدى شخص، أو الذي يريد أن يستثمر لديه(تحويشة العمر) عليه أن يفكر ملياً قبل أن يقدم على هذه الخطوة في الأضرار التي يمكن أن تلحق به نتيجة لذلك.

وحين نفكر في هذا الاتجاه، فإننا لا نتساءل عن مدى صلاحية ذلك الشخص لتحميل ما نريد تحميله إياه بمقدار ما نتساءل عما إذا كان القيام بذلك أصلاً صواباً، ما دامت المخاطر التي يمكن أن تقع بسبب ذلك فادحة.

نعم قد نضطر في بعض الأحيان إلى فعل ذلك، ونختار السيِّئ لنتخلص من الأسوأ؛ فلأن آوي إلى زورق نجاة مع شخص تحوم حوله شكوكي، خير لي من أن أغوص في الماء غريقاً مع السفينة. المخاطر المتوقعة إذاً هي الحَكَم، والموازنة بين مخاطر منح الثقة، ومخاطر حجب الثقة في أمر ما هي الفيصل في ذلك.

إن على كل واحد منا أن يؤهل نفسه لأن يكون موثوقاً، وأهلاً لتحمل الثقة والمسؤولية والأمانة، كما أن عليه أن يتأمل ملياً قبل أن يضع ثقته في زيد وعبيد،

وليكن الشعار: «لأكن جديراً بالثقة إلى أقصى حد، ولكن لا أمنح ثقتي إلا على أصول واضحة، وضمن حدود معينة».

٦ ـ علاقات لنفع الجميع:

إذا راجعنا الحقوق والأدبيات التي يرتبها الإسلام الحنيف على أشكال التواصل الاجتماعي، وأنماط العلاقات الإنسانية، وجدنا أنه يريد لها دائماً الاستمرار والتكافؤ، فاستمرار العلاقات الطيبة هو نبع لخير دائم؛ حيث لا يمكن بناء مجتمع جيد من أفراد، لا تسود بينهم درجة من الاندماج والتعاون؛ وحيث يتكلس المجتمع حين تضيق فيه معابر الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر.

لكن هذه الحالة مشروطة بوجود نوع من التكافؤ في العلاقات، بمعنى أن يشعر الجميع أنه يأخذ ويعطي وفق مستويات متساوية أو متقاربة، ولذا فجميع العقود في الإسلام، وكذلك حقوق القرابة والجوار... قائمة على هذا الأساس؛ لأن الله ـ جل وعلا ـ الذي برأ الخلق وفطرهم، يعلم ذلك منهم، ولذا شرع لهم ما يصلحهم. لا ريب أنه مهما حصل من تقنين ووزن للعلاقات الاجتماعية، فسيظل هناك من عليه أن يقدّم تضحيات أكثر في بعض الأحيان، لكن ذلك يكون مؤقتاً ومؤطراً بإطار التحمل والوسع، ويكون هناك في العادة نوع من الفسحة للانسحاب.

الزوجة التي توفي زوجها، وترك صبية صغاراً مطالبة ـ أدبياً ـ أن تضحي، وتمتنع عن الزواج حتى تربيهم ولكن لو أحبت الانسحاب، فإن لها ذلك، وترتب الشريعة الغراء بعد ذلك لمسألة الرعاية والحضانة من يقوم بها. وفي حال قبولها بالتفرغ لتربيتهم فإن ذلك لن يكون من غير مكافأة وثواب من الله ـ تعالى ـ ويمكن أن تقول هذا في مسألة الكفاءة في الزواج، وفي أبواب العقود التجارية؛ فالعقد يرتب حقوقاً ومنافع متساوية، ويضمن فرصاً متكافئة، ولمن يبدي سماحة أكثر في تطبيقه أجر، لكن لا يلزم أحد بشيء لا يرغب الالتزام به.

الناس في أوضاعهم وسلوكاتهم اليومية، وفي علاقاتهم العامة، يغلب عليهم طبع الاستئثار والفوز بأكبر قدر من المغانم في مقابل تحمل أدنى قدر من

المغارم، فيطبعون علاقاتهم بطابع الشح والاستبداد والاستغلال، وحبّ بناء القصور المشيّدة من أنقاض أكـواخ الفقراء والمسـاكين، وهذا من أكبـر مصادر الشـقاء الاجتماعي. بعضهم يتصرف أحيانـاً بـروح انتقامية ثأرية، فيطبق فلسفة «عليّ وعلى أعدائي» فيدمر بحمقه نفسه وشركاءه.

وهناك نمط آخر يفضل دائماً أن يُستغل، وأن يبقى في المؤخرة، وذلك ليس عن زهد واحتسـاب، وإنما عن ضعف وانهزام، وهـو بذلـك يحكم على علاقاته أن تنتهي إلى الضمور والإفلاس، كبئر يُنزح منها باسـتمرار دون أن تمدها منابعها بما يكفي من الماء.

إن حجر الزاوية في العلاقات المستمرة والمتكافئة والنافعة للجميع هو «الاستقامة» إذ هي التي تساعد المرء على أن يكون محل ثقة الآخرين، وهي عينها التي تساعده على الوفاء بالتزاماته تجاه أخيه، وهي عينها التي تفتح له باب التفاعل المُجدي مع الآخرين؛ وإذا لم يتوفر هذا المبدأ في حياتنا، فستكون كل الوسائل التي نصطنعها في علاقاتنا عبارة عن تقنيات سطحية، وإن الناس سيشعرون في حال فقد الاستقامة أننا نخدعهم، ونحاول ابتزازهم؛ وبالتالي فإن علاقتنا معهم، ستنتهي، أو تتقلص.

الاستقامة مفهوم شرعي، وأدبياتها شرعية إنسانية، وهذا هو الذي يمنحها مرجعية تعبدية؛ حيث تكون كل عوامل العلاقات النافعة للجميع من صدق وإيثار وتحمل للأذى، وعفو عن الزلّات وصراحة وتعاون. . . أخلاقيـات يُتقرَّب بها إلى الله ـ تعالى ـ ويُـرجى ثوابها. وهذا هـو الذي يمنح تـوازن هذا النـوع من العلاقـات بُعداً جديداً، لا يخضع للمعادلات الدنيوية؛ وهذا ليس بالأمر القليل.

ـ النضج والقدرة على الموازنة الدقيقة من أجلّ المبادئ التي يجب توفرها في هذه العلاقات، حيث إن المطلوب أن يدرك المرء خصوصياته وخصوصيات الآخرين، وأن يوازن بين استقامة العلاقة واسـتمرارها، وبين عطاءاتهـا على المدى القصير وعطاءاتها على المدى البعيد. . .

وعلى سـبيل المثال، فـإن المرء مطالَـب في علاقات كهذه أن يوازن بين

قوة فرديته وحقوق انتمائه وبين الثقة بالنفس واحترام الآخرين وبين النقد والاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الآخرين، وبين النصر الخاص والنصر العام، وبين اللطف والصلابة في الحق. . . وهكذا فعلى المرء أن يسير على حبل مشدود، ويستخدم حتى لا يسقط كل ما لديه من خيال ووعي وإرادة حرّة وحكمة.

عقلية الوفرة، أو الإيمان بوجود الفائض، مبدأ مهم هو الآخر فيما نحن بصدده. والمسلم يعتقد على نحو عام أن التفكير من خلال أنماط الشح والكوارث، ليس بالتفكير السديد، فالخير كثير، والفرص أيضاً كثيرة، وهناك دائماً ما يتسع للجميع. وما نشاهده من أزمات اقتصادية، وعسر، يعود إلى قصور إنساني وسوء توزيع في المقام الأول.

وإلى هذا المعنى يشير قول الله ـ جل وعلا ـ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. الناس الذين يعتقدون أنه ليس هناك ما يكفي الجميع، يشعرون بالمقت والحسد والغيرة، إذا ما حصل غيرهم على بعض الامتيازات أو الأرباح أو الفرص، وكأن ذلك نُزع منهم نزعاً، وكأن تقدُّم الآخرين، لا يتم إلا على حسابهم. وهم في المقابل يبتهجون في سرهم إذا عانى غيرهم، أو خسر على أمل أن يصبَّ ذلك في مصالحهم في نهاية الأمر!.

المؤمن يعتقد أن ما كان له لن يكون لغيره، وأن ما ليس مقدراً له لن يناله بقوته وبراعته، ولذا فهو يتوشح دائماً بالرضا والطمأنينة، ويعتقد أن نجاح أي مسلم، هو نجاح للأمة التي ينتسب إليها، وأنه سيصيبه شيء من ذلك النجاح على نحو ما.

إن هناك الكثير مما يمكن أن يقال في هذا الصدد؛ ولكن سيظل مدار كثير من النجاح متوقفاً على ما يمكن أن نملكه من قدرة على التضحية والبذل وإيثار الآجل على العاجل.

٧ ـ إيضاح التوقعات :

من غير الممكن إخضاع العلاقـات الاجتماعيـة للتقنين، كما أن من غير الممكن دائماً وضع الحدود الفاصلة بين ما ترتبه العلاقات المختلفة من حقوق وواجبات، وبين ما يتطوع به الفرد من باب الشهامة والنبل؛ فطبيعة ألفاظ التحية والمجاملـة عند المقابلة، وطبيعـة ما يدور في المجالـس من أحاديـث توحي بوحدة الحال، وتساوي المشاعر والمصالح، مما يدفع الناس إلى أن يتوقعوا من وراء علاقات القرابة والجوار والصداقة . . . أكثر بكثير مما تتحمَّله .

ونجد هذا أكثر وضوحاً بين الأقرباء والجيران حيث العقاب على التقصير، هو سيد الموقف، وهو اللازمة التي لا يمُلُّ من تكرارها! .

من المهم لاستقرار العلاقات الطيبة واستمرارها أن يفهم الطرف الآخر ما يمكن له أن يتوقعه، ولو بطريقة غير مباشرة ـ من وراء علاقته بي؛ فذاك خير من صدمات شعورية وعاطفية، لها بدايـة، وليـس لها نهاية .

بعض الناس يعتقد أن على أصدقائه أن يقرضوه ما يحتاج من مال؛ لكن الأصدقاء لهم تجارب مماطلة مريرة معه ومع غيره، وهذا سيدفعهم إلى الإحجام. وإذا تم القرض، وطلب المقرض من أحدهم «وثيقة إثبات» للدين، فإنه يتضايق، ويعد ذلك مما يخدش الصداقة، مع أن ذلك مطلب شرعي .

قد تكون أنسب طريقة لإيضاح ما لكل طرف أن يتوقعه من الطرف الآخر، هو إيجاد ثقافة اجتماعية ترسم معالم مثل هذا الأمر في إطار من ثوابت الشريعة وآدابها، وفي إطار من المفاهيم التي تشع بعض معاني الاستقلالية والخصوصية .

والذين يرتبون الأعباء الإضافية على العلاقات الاجتماعيـة، هم أولئك الذين يطلقـون الكلمـات المعسـولة، ويسـرفون في إعطاء الوعود، على نحو ما يفعل الخاطب مع خطيبته حين يسرد لها عن مناقبه وبطولاته، وحين يصور لها الحياة معه على أنها سمن وعسل وفلّ وياسمين . . .

لا بد مع هذا من أن نتعلم المسامحة والتماس الأعذار، فالصديق الذي

خالف العرف، ولم يصطحب معه هدية في مناسبة زواج أحد أولادك. . قد يكون ناسياً، وقد يكون لا يملك ثمنها، وقد يكون حضر على عجل، فلم يتمكن من شرائها. . . وإذا استمر هذا منه فإن علينا أن نشطب ذلك نهائياً من توقعاتنا منه، ونتعامل معه وفق النمط الذي يراه هو.

* * *

ال

م
وا
ون
نش
يم

من
مج
قإ
الت
وت
وت

يتو

الم

الفصل الرابع

التعامل مع الاختلافات

الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة، من أكبر حقائق هذا الوجـود، فنحن مختلفـون على مقدار ما نحن متفقـون. الاتفاق يمنحنـا إمكانـات هائلة للتعاون والبناء المشترك. والاختلاف مصدر للثراء والتجديد والصقل والإبداع والنمو. . ونحن بحاجة إلى كل ذلك. بيننا اختلافات نفسية وعاطفية وعقلية، ولكل منا نشأته وثقافته وتجربته ومصالحه وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية، وكل هذا يمنح المشروعية للاختلاف في كثير من الأمور.

إذا أردنا أن نعترف بالاختلاف ـ بل الصراع أحياناً ـ فإن مفتاح ذلك يتطلب منا الاعتراف بأن النـاس لايرون الحقائـق القائمة على ماهي عليـه، أو بعيون مجردة، وإنما يرونها عبر نظارات وأغشية من ثقافتهم وفهمهم واهتمامهم؛ ولذا فإن كثيراً من الخلاف يقع حيث نوقن أنه لاخلاف. ولذا فلا بد أن نعترف أننا حيال التفاصيل الدقيقة، لا بد مختلفون، وعلينا بعد ذلك أن نحاول تأطير الخلاف وتمحيصه؛ لنصل إلى حالة من التحديد المتدرج للنزاعات، وبَلْوَرة أسس فضّها وتجاوزها.

أسباب وجود الاختلافات.

هناك أسباب كبرى تشكل بيئة الخلاف والصراع، وهناك أسباب جزئية قد يتوفر بعضها لدى بعض الناس دون بعضهم الآخر. فمن الأسباب الكبرى:

١ ـ القيم والمفاهيم والأفكار التي نرى من خلالها الوجود، تشكِّل أهم المصادر التي تؤسس للخلاف والاختلاف والصراع؛ حيث إنها تصوغ وجودنا

الفكري على نحو متباين، وتمدنا بالمعايير التي تحدد موقفنا من مجمل السلوك البشري.

٢ ـ نحن نعيش في عالم يزداد تعقيداً وتنوعاً، فهناك اليوم من كل شيء أنواع كثيرة، وهذا التنوع، يعني توفر خيارات كثيرة، ووجود الخيارات باب واسع للاختيار المتعدد، أي للخلاف والاختلاف. وباختصار إن الناس على قدر اختلافهم يريدون أشياء مختلفة، ولهذا فإن الأشياء التي ترضي الجميع قليلة جداً، وهذا وإن كان يذكر في مجال السلع، إلا أنه يمتد ليشمل جوانب الحياة كافة.

٣ ـ اجتماع الناس مع بعضهم يولّد بطبيعته توترات، فبغض النظر عن المكان الذي يعمل فيه أحدنا، فإنه سيواجه شيئاً مشتركاً، وسيكابد مالا بد له من مكابدته، وهو الاصطدام ـ على مستويات مختلفة ـ مع الآخرين. إن سوء الفهم وعدم تطابق الذوات والمفاهيم والاحتياجات عوامل أساسية في جعل اجتماع الناس مصدراً للتوتر والاختلاف.

٤ ـ إننا نعيش، ونعمل في عالم موارده المنظورة محدودة، وعقلية الشح والخوف من المستقبل التي تطبَّع بها أكثر الناس، تزيد الأمر سوءاً، ويشعر معظم الناس أنهم لا يحصلون على ما يريدون. وهذا في حد ذاته مصدر لنزاعات كثيرة.

أما الأسباب الجزئية التي تولّد الصراع والخلاف فهي كثيرة جداً، نذكر أهمها في الآتي:

ـ حين يجد الطفل أباه يحابي أخاه، أو يجد الموظفُ مديرَه يغدق المكافآت على من لا يستحقونها في نظره، على حين يُحرم هو منها، فإن ما سيحدث هو الشعور بالمرارة والظلم والشعور بالتحامل على الأب والمدير، وعلى أولئك الذين نالوا أكثر من غيرهم.

ـ وبعض الناس، يحملون بين جوانبهم روحاً عدوانية، وكأن الواحد منهم، يبحث دائماً عمن يتشاجر معه.

ـ قسم غير قليل من الناس، عنده نقص في المرونة الفكرية والنفسية، فالإصرار والعناد إلى مالا نهاية سمة جوهرية في تعامله وعلاقاته.

ـ حين يعاني شخص من انخفاض معنوياته، أو من شعوره بعدم الأمان أو الاستقرار في حياته، فإنه يفسِّر أي نقد يوجَّه إليه على أنه هجوم شخصي عليه، مما يسبب له الأذى، ويجعله يتخذ مواقف حادة، ممن ينصحه أو ينقده.

ـ نختلف في وزن المعلومات والإشارات التي تصل إلينا من الواقع المعيش والمحيط الاجتماعي، كما نختلف في تحديد صدقها وتفسيرها طبقاً لاختلاف أفكارنا وثقافتنا والزاوية التي تنظر منها، مما ينعكس على مواقفنا وردود أفعالنا.

ـ الاختلاف في الوسائل والأساليب التي علينا أن نعتمدها في إنجاز أمر، أو تغيير واقع، سبب مهم من أسباب الاختلاف.

ـ التنافس من أجل السيطرة، وتسلّم زمام الأمور، أدى على مدار التاريخ إلى أسوأ أنواع الصراع، وأكثرها وحشيةً ودموية.

ـ التوقعات التي لم تتحقق تجعل كثيراً من البنى والعلاقات الاجتماعية في مهب الريح؛ فالرجل الذي يطلّق زوجته، يفعل ذلك لأنه لم يجد ما كان يتوقعه منها. ومدير المصنع الذي طرد أحد عماله، فعل ذلك، لأنه لم يحصل على ماكان يتوقعه منه. وهكذا فهناك الكثير الكثير من الأسباب التي تُصدّع العلاقات، وتُسبِّب الخلاف في وجهات النظر والمواقف.

كيف نقلل من الخلافات مع الآخرين؟

لابد أن نختلف، ولكننا نستطيع أن نؤطر الخلاف، ونجعله موضوعياً ومنتجاً ومحدوداً، وذلك من خلال عدد من الإجراءات، نذكر منها:

١ ـ على الواحد منا أن يثق في عون الله ـ تعالى ـ له وأن يخطط لاستغلال موارده ـ مهما كانت محدودة ـ على الوجه الأكمل؛ فبذلك يتمكن من أمر مهم في تجنب الصراع، ألا وهو التقليل من الآمال التي يعقدها على الآخرين إلى أدنى حد، حيث يقل عتبه على الآخرين، كما تقل خيبة أمله فيهم. ويستأنس لهذا

بما ورد في الصحيح من أن نفراً كانـوا عند رسـول الله ﷺ فقال: «ألا تبايعـون رسول الله ﷺ ؟ فقالوا عَلامَ نبايعك؟ قال: تبايعوني على أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً والصلوات الخمس، وتطيعوا» وأسر كلمة خفية: «ولا تسألوا الناس شيئاً». قال راوي الحديث: فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً أن يناوله إياه.

٢ ـ في مقابل هذا، ومن أجل تقليل الاحتكاك بالآخرين، فإن على المرء ألا يسرف في إعطاء الوعود للآخرين، فيجلعهم يتوقعون منه أشياء، لا يستطيع هو الوفـاء بها. ومن الواضح أن كثيـراً من الناس يطلقون الكثيـر من الوعود عبر إشارات وغمغمات غير واضحة، وكثيراً ما يتلقفها أولئك (الغرقى) والمأزومـون الذين يحاولـون التعليـق بأي شـيء، ويحمّلونها أكثر مما تحتمل، ويبدؤون في التوقعات، ثم تكون العاقبة الخيبة التامة، ثم الغضب ممن سبَّب لهم ذلك.

علينا في هذا الصدد أن نحرص على الوضوح التام، وأن نقلل إمكانات اللبس إلى أقل ما يمكن. ولنتذكر أن الوعد الذي نقطعه على أنفسنا، يرتب علينا مسؤولية شرعية، وأن من علامات المنافق أنه إذا وعد أخلف.

٣ ـ كثير من الخلافات ينشأ بسبب سوء الفهم، وقديماً قالوا: «أساء فهماً فأساء جابةً»[1]. ولذا فإن علينا أن نحسِّن مهارات (الاستماع) لدينا، كما نحسِّن مهارات الحديث؛ حتى لانسيء فهم الآخرين، ولا نتسبب في سوء فهمهم لنا.

٤ ـ لا تـدع نفسـك فريسـة للآخرين، فيثيـروا غضبك متى ما أرادوا، ويدخلونك بذلك في العديد من الأزمات. وعلينا أن ندرك أن التماسك والسيطرة على الانفعالات من أهم الأسباب التي تتيح الفرصة للتفاهم وحل المشكلات عن طريق التداول الهادئ. لا يعني هذا أن على المرء ألا يغضب أبداً، لكن يعني ألا يصبح معروفاً بسرعة الانفعال والتأثر لأتفه الأسباب.

٥ ـ لنبحث دائماً عن الحلول بدل أن يكون دأبنا إلقاء اللوم على الآخرين.

---

(١) أي ساء فهمه للكلام، فساء جوابه عليه.

إن البحث عن حلول، يعني تأجيل الصراع، كما يعني إيجاد نوع من الضمان لعدم تجدد أسبابه؛ على حين أن لوم الآخرين ـ ولا سيما إذا كثر ـ يدل على أن هناك أخطاء في العلاقات على مستوى المبدأ والنظام.

٦ ـ على الواحد منا أن يخفف من إصدار الأوامر والأحكام، وألا يعمد إلى التهديد أو يكثر من النصائح إلا في أضيق نطاق، وهذا المسلك يجب أن يكون عاماً في المنزل ومع الزملاء والمرؤوسين والطلاب... فما ذكرنا يثير دائماً توترات، ويفتح الأبواب للحزازات.

٧ ـ لنحاول أن نقضي بعض الوقت في محاولة فهم الأسباب الكامنة وراء سلوك الناس وتصرفاتهم؛ إذ إن نوع السلوك قد لا يمكن فهمه وتفسيره من غير معرفة الدوافع العميقة التي دفعت إليه. معرفة الدوافع قد تمكننا من معرفة المحاور التي تتمحور حولها أنشطة الأشخاص الذين نتعامل معهم، وإذا ما استطعنا وضع اليد عليها، نكون قد أمسكنا بالمفتاح الذي سنستخدمه في فتح مغاليق الكثير من تصرفاتهم الغامضة والمتناقضة.

إدارة الخلافات وحلها:

ليست هناك مشكلة ليس لها حلول، فقد رتَّب الباري ـ جل وعلا ـ هذا الكون على أساس احتفاظ أنظمته بنهايات مفتوحة؛ حتى إن البدن حين تسوء حالته إلى الحد الذي لا تتحمله الروح، فإنه يعطيها المسوّغ كي تتخلص منه. هناك دائماً حلول، لكن حين تكون المعطيات سيئة، فإن علينا ألا نتوقع حلولاً جيدة. والمهم أن نكتسب الخبرة التي تساعدنا على الوصول إلى أفضل الحلول الممكنة. وحين لا نجد حلاً فورياً لاعتبارات موضوعية، فإن علينا أن ندير تلك المشكلة، حتى نعثر على الحل الملائم. وإليك بعض النقاط التي تساعد على ذلك:

١ ـ ما يثيره الخلاف بين الناس ـ في أكثر الأمر ـ ليس الحق الصريح أو الباطل المحض، وإنما الباطل الملتبس بالحق، والحق المختلط بالباطل، ولذا

فإننا إذا تعاملنا مع خلافاتنا بعقلية «إما هذا وإما ذاك» فالغالب أننا لن نصل إلى حلول جيدة.

لكن حين نعتقد أن ما يبديه كل فريق من حجج يناصر بها موقفه، لا يعدو أن يكون رؤى واجتهادات ظنية، قابلة للكثير من النقاش والتفسير المغاير ـ فإننا نكون مستعدين آنذاك للبحث عن الطريق الثالث الذي نسير فيه معاً نحو الاتفاق والائتلاف.

٢ ـ عند مناقشة أي خلاف فإن البداية قد تكون بتحديد نقاط الخلاف التي أدت إلى حدوث سوء الفهم بين المتخاصمين. وإنما نقول هذا لأن التجربة علمتنا أنّ كثيراً من النزاعات التي تثور بين الأهل والأصدقاء والزملاء كثيراً ما تكون عبارة عن تحسسات نفسية لا ترتكز على معطيات فكرية محددة.

٣ ـ سيكون من المصلحة تهيئة الجو النفسي لحل الخلاف، وذلك من خلال التقليل من شأن الخلاف مهما كان ذلك ممكناً. وهذا الأمر يجب أن ينظر إليه على أنه خطوة مبدئية، هدفها إيجاد بعض المشاعر الإيجابية وليس شيئاً آخر.

٤ ـ لنحاول طرح العديد من الأسئلة التوضيحية البعيدة عن روح المواجهة. وعلينا الاستماع لإجاباتها. وإذا اقتضى الأمر توجيه المزيد من الأسئلة حول تلك الإجابة، فعلينا أن نفعل ذلك. وعلينا ألا نتّهم الطرف الآخر بأنه لا يجيب على الأسئلة، بل نوجّه المزيد من الأسئلة حتى تتضح الصورة.

٥ ـ على الواحد منا أن يحافظ على هدوئه، ويعطي الوقت الكافي لخصمه لسرد ما لديه، والتنفيس عما يجده من كرب وضيق في نفسه.

٦ ـ علينا أن نتجنب أثناء مناقشة المشكلة الحديث عن الدوافع والمشاعر، لأنه من السهل إنكارها، كما أن علينا أن نتجنب الحديث عن المسائل الشخصية، لأنها تسبب أذى بالغاً لمن نختلف معه، وتزيد في الخلاف بدل أن تساعد على حلّه.

٧ ـ من المستحسن أثناء البحث عن حلٍّ أن نتجاوز الماضي إلى الحاضر؛ فبدل أن تقول لخصمك: لم أثق بك في يوم من الأيام، أو تذكره بأخطائه السابقة، اعمد إلى القول: كلامك هذا يجعلني أشك فيك، أو يضعف ثقتي بك. وقد يكون من الأفضل أن نبحث عوضاً عن أسباب حدوث خطأ من الأخطاء في كيفية إيجاد الاحتياطات لعدم تكرره في المستقبل.

٨ ـ لابد لأحدنا أن يعترف بدوره في المشكلة، ولو كان صغيراً؛ لأن هذا سوف يدفع الطرف الآخر إلى سلوك المسلك نفسه. وحين تحدث اعترافات متبادلة بالخطأ وقبول اللوم، فإن المأمول أن ينتهي الخلاف من فوره.

٩ ـ حاول أن تلفت نظر الخصم إلى هدف سام مشترك، أنتما مطالبان ببلوغه، مما يفرض تجاوز الخلافات الصغيرة، والانطلاق إلى الانخراط في أعمال أكبر وأهم.

١٠ ـ إذا لم يمكن الوصول إلى حلٍّ مناسب، فإن من الممكن الاستنجاد بالوقت، وتأخير المواجهة لعل الزمن يكون جزءاً من الحل. ولكن علينا أن ننتبه إلى أن التأجيل المتكرر قد يؤدي إلى تأزيم المشكلة، ولذا فتأجيل البحث ليس لطمس المشكلة، وإنما للاستفادة من فرصة جديدة لحلها.



الـ

عا

ذك

بعـ

في

يجـ

جمـ

وكـ

وبا

منهـ

خاتمة

أحمد الله ـ تعالى ـ الذي سهّل إنجاز هذا الكتاب على النحو الماثل بين يدي القارئ الكريم، وكنت قد نوّهت في المقدمة إلى أنَّ أصل هذا الكتاب كان موزعاً على خمس رسائل، ثم وجدنا من المناسب جعلها في سِفر واحد للسبب الذي ذكرته قبلُ. وعند مراجعتي للتجربة الأخيرة للطباعة وقفت على وجود تكرار في بعض الأفكار أو الاستشهادات أو العناوين؛ لكن ذلك قليل ومحدود.

ولم أشأ أن أحذف ذلك المكرر ـ والذي حدث بسبب تأليف تلك الرسائل في أوقات مختلفة ـ حتى لا يختلف تسلسل الأفكار، وأيضاً فإن بعض القراء قد يجد فيه ما يذكِّره بشيءٍ مرَّ به، أو يساعده على الربط بين موضوعات مختلفة.

إن الموضوعات التي تناولتها في هذا الكتاب متباينة، لكن يجمع بينها جميعاً أمران:

الأول: أنها مجتمعةً تساعد على أن يكون القارئ معاصراً لأحداث زمانه، وكفئاً في التعامل معها.

الثاني: أنها جميعاً تتجه نحو تفعيل الإمكانات الشخصية للمسلم المعاصر، وبيان الطرق التي تساعده على استثمار أفضل ما لديه من طاقات.

ولذا رأيت جعل هذا الكتاب ضمن سلسلة (الرحلة إلى الذات) والتي صدر منها جزءان من قبل.

وأسأل الله التوفيق لصالح الأعمال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

قائمة المراجع

١ ـ آفـاق بلا حدود، تـأليف د. محمد التكريتي، دار المنطلق، ط. أولى، عام ١٤١٥هـ.

٢ ـ آفاق المستقبل، تـأليف جاك أتـالي ـ ترجمـة د. محمد زكريا إسماعيل. بيروت ـ دار العلم للملايين، ط١، عام ١٩٩٢.

٣ ـ أتح لنفسك فرصة، تأليف جوردون بايرون، تعريب عبد المنعم الزيادي، القاهرة، مكتبة الخانجي، بدون تاريخ.

٤ ـ الاتصال والسلوك الإنسـاني، تـأليف برنت روبن، ترجمة د. صالح الدباسي وزملائه، الرياض، معهد الإدارة العامة، عام ١٤١٢هـ.

٥ ـ أثـر تطبيق النظام الاقتصادي الإسـلامي في المجتمع ـ مجمـوعة بحوث قدمت إلى مـؤتمر الفقه الإسلامي الأول في الرياض ـ نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

٦ ـ الأخلاق النظرية، تأليف د. عبد الرحمن بدوي. الكويت ـ وكالة المطبوعات، ط٢، عام ١٩٧٦.

٧ ـ إدارة الأوليات، تأليف ستيفن كوفي وزميليه، ترجمة السيد المتولي حسن.

٨ ـ إدارة العقل، تأليف د. جيلان بتلر، ود. توني هوب، ترجمة مكتبة جرير ـ السعودية، مكتبة جرير، ط. أولى، عام ١٩٩٨م.

٩ ـ الإسلام كبديل، تأليف د. مراد هوفمان، نشر مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا، عام ١٩٩٣.

١٠ ـ إشكالية التحيز، تحرير د. عبد الوهاب المسيري. نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، عام ١٤١٥هـ.

١١ ـ إعادة إنتاج الهوية، تأليف أحمد حيدر. دمشق ـ دار الحصاد، ط١، عام ١٩٩٧.

١٢ ـ اغتيال العقل، تأليف د. برهان غليون. بيروت ـ دار التنوير، ط٢، عام ١٩٨٧.

١٣ ـ الإنسان والتفكير الإيجابي، تأليف د. عيسى الملا، ط. عام ١٤١٤هـ.

١٤ ـ إنسانية الإنسان، تأليف (رينيه دوبو)، ترجمة د. نبيل الطويل. بيروت ـ مؤسسة الرسالة، ط٢، عام ١٤٠٤هـ.

١٥ ـ بناء حضارة جديدة، تأليف ألفن توفلر، ترجمة سعد زهران، القاهرة، مركز المحروسة للبحوث والنشر، ط. أولى، عام ١٩٩٦.

١٦ ـ بنية الثورات العلمية، تأليف توماس كون، ترجمة د. شوقي جلال، الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة، عام ١٤١٣هـ.

١٧ ـ تحسين التفكير بطريقة القبعات الست، تأليف إدوارد دوبونو، ترجمة د. عبد اللطيف الخياط، مكة المكرمة، المكتبة المكية، ط. أولى، عام ١٤١٤.

١٨ ـ تطوير القوى الذاتية في عالم الأعمال، إعداد سمير بعلبكي، لبنان ـ دار الأصدقاء، ط. أولى، عام١٤١٨هـ.

١٩ ـ التنمية الثقافية، تأليف لفيف من خبراء اليونسكو، ترجمة سليم مكسور. بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، عام ١٩٨٣.

٢٠ ـ جريدة الرياض، العدد: ١٠٩٣٠ الصادر في ٣ صفر ١٤١٩، والعدد ١٠٩٥١ الصادر في ٢٤ صفر ١٤١٩هـ ـ مقالان للدكتور عبد السلام المسري.

٢١ ـ حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي، بقلم مجموعة من

الخبراء، ترجمة د. عبد السلام رضوان، الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٥٠، عام ١٤١٠هـ.

٢٢ ـ الخطوات الذكية، تأليف سام ديب وليل سوسمان، نقله إلى العربية سامي سلمان، الرياض ـ مؤسسة المؤتمن، عام ١٤١٨هـ.

٢٣ ـ دليل التدريب القيادي، تأليف د. هشام الطالب، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عام ١٤١٤هـ.

٢٤ ـ سيكلوجية السعادة، تأليف مايكل أرجايل، ترجمة فيصل يونس، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٧٥، عام ١٤١٤هـ.

٢٥ ـ الصحة النفسية والعلاج النفسي، تأليف د. حامد زهران، القاهرة، عالم الكتب، ط. ثانية، عام ١٩٨٢.

٢٦ ـ طريق الشخصية الجذابة، تأليف جيمس بندر، تعريب عبد المنعم الزيادي، القاهرة، مكتبة الخانجي عام ١٩٨١م.

٢٧ ـ الطريق إلى مكة، تأليف توم رودل، تلخيص الشركة العربية للإعلام العلمي، القاهرة، عام ١٩٩٧م.

٢٨ ـ العادات السبع للقادة الإداريين، تأليف ستيفن كوفي، ترجمة هشام عبد الله. بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، عام ١٩٩٥.

٢٩ ـ العبادة في الإسلام، تأليف د. يوسف القرضاوي، بيروت ـ مؤسسة الرسالة، ط. رابعة، عام ١٩٧٥م.

٣٠ ـ العقل واستخدام طاقته القصوى، تأليف توني بوزان، ترجمة إلهام الخوري، دمشق، دار الحصاد، ط. أولى، عام ١٩٩٦م.

٣١ ـ العلم والإيمان في الغرب الحديث، تأليف د. هاشم صالح. الرياض ـ سلسلة كتاب جريدة الرياض، ط١، عام ١٩٩٨.

٣٢ ـ عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، تأليف جان ماري بيلت، ترجمة

السيد محمد عثمان. الكويت ـ سلسلة عالم المعرفة، عام ١٤١٥هـ.

٣٣ ـ فتح الباري لابن حجر العسقلاني. القاهرة ـ المطبعة السلفية.

٣٤ ـ فصول في التفكير الموضوعي، تأليف د. عبد الكريم بكار، دمشق، دار القلم، ط. ثانية، عام ١٤١٩هـ.

٣٥ ـ فقر الشعوب بين الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي، تأليف د. حمدي عبد العظيم، ط. أولى، عام ١٤١٥هـ.

٣٦ ـ فن الدراسة والإيصال، إعداد د. ملا حويش، إسبانيا، مطابع ديداكو، ط. ثانية، عام ١٤١٨هـ.

٣٧ ـ كيف تصبح غنياً وسعيداً، تأليف مصطفى البطحيش، ط. أولى، عام ١٤١٣هـ.

٣٨ ـ كيف تكون عملياً أكثر، إعداد وترجمة سامي سلمان، الرياض ـ مؤسسة المؤتمن، ط. رابعة، عام ١٤١٨هـ.

٣٩ ـ الماهية والعلاقة، تأليف د. علي حرب. الدار البيضاء ـ المركز الثقافي العربي، ط١، عام ١٩٩٨.

٤٠ ـ مدخل إلى التنمية المتكاملة، تأليف د. عبد الكريم بكار. الرياض ـ دار المسلم، ط١، عام ١٤١٨هـ.

٤١ ـ مقدمة في علم الاستغراب، تأليف د. حسن حنفي. القاهرة ـ الدار الفنية، عام ١٤١١هـ.

٤٢ ـ مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي تأليف د. عبد الكريم بكار. الرياض ـ دار المسلم، ط١، عام ١٤١٧هـ.

٤٣ ـ المهذب من إحياء علوم الدين، إعداد صالح الشامي، دمشق، دار القلم، ط. أولى، عام ١٤١٣هـ.

٤٤ ـ نحو التآلف والاتفاق، تأليف روجر فيشر وسكوت براون، ترجمة د.

محمد محمود رضوان، القاهرة، الدار الدولية للنشر، ط. ثانية، عام ١٩٩٥م.

٤٥ ـ نصر بلا حرب، تأليف ريتشارد نيكسون، إعداد محمد عبد الحليم أبو غزالة. القاهرة ـ مركز الأهرام للترجمة، ط١، عام ١٤٠٩هـ.

٤٦ ـ نهاية التاريخ وخاتم البشر، تأليف فرانسيس فوكوياما، ترجمة حسين أحمد أمين. القاهرة ـ مركز الأهرام للترجمة، ط١، عام ١٤١٣هـ.

٤٧ ـ الوقاية خير من العلاج، تأليف د. عبد الرزاق الكيلاني، دمشق ـ دار القلم، ط. أولى، عام ١٤١٦هـ.



فهرس الأفكار والمقولات العامة

الباب الأول



الباب الثاني

الفكرة أو المقولة | الصفحة

* * *

الباب الثالث

الفكرة أو المقولة	الصفحة

* * *

الباب الرابع

الفكرة أو المقولة	الصفحة

* * *

الباب الخامس

الفكرة أو المقولة	الصفحة

* * *

فهرس الموضوعات

الباب الثاني

العيش في الزمان الصعب

الباب الثالث
العيش في الزمان الصعب
البعد العقلي والبعد النفسي

الباب الرابع
العيش في الزمان الصعب
البعد الخلق والبعد البدني وإدارة شؤون العيش

الباب الخامس
العيش في الزمان الصعب
العلاقات الاجتماعية

* * *

تُطلب جميع كتُبنا مِن :

دَار القَلم ـ دمَشق: ص ب : ٤٥٢٣ ـ ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّار الشاميَّة ـ بَيروت ـ ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص ب : ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عَن طريق
دَار البَشير ـ جدّة : ٢١٤٦١ ـ ص ب : ٢٨٩٥
ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

